معظّم بيغ

عدو محارب

رحلة مسلم بريطاني
إلى معتقل غوانتانامو ذهاباً وإياباً



نقله إلى العربية

أيهم الصباغ

العبيكان
Obeikan

عدو محارب

رحلة مسلم بريطاني إلى معتقل غوانتانامو ذهابا وإيابا

معظّم بيغ

نقله إلى العربية

أيهم الصباغ



Original Title

ENEMY COMBATANT

A British Muslim's Journey to Guantanamo and Back

Moazzam Begg with Victoria Brittain

ISBN 0-7432-8567-0

Published by: First published in Great Britain by The Free Press in 2006, an imprint of Simon & Schuster UK Ltd

Africa House, 64-78 Kingsway London WC2B 6AH

ISBN 6 - 423 - 54 - 9960 - 978

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية ا لسعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937581 / 2937574 فاكس: 2937588 ص . ب: 67622 الرياض: 11517

الطبعة العربية الأولى **1428هـ ـ 2008م**

ⓗ **مكتبة العبيكان،** 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية في أثناء النشر

بيغ، معظم

عدو محارب. / معظم بيغ، أيهم الصباغ. - الرياض، 1429هـ

448ص؛ 16.5× 24 سم

ردمك: 6 - 423 - 54 - 9960 - 978

١ ـ السجون - الولايات المتحدة 2ـ السجون والإرهاب أ. الصباغ، أيهم (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 365,973 1429 / 969

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكـة العربيـة السـعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شـارع العروبـة

هاتف: 4160018 / 4654424 فاكس: 4650129 ص . ب: 62807 الرياض: 11595


بسم الله الرحمن الرحيم



إلى

والدي، وزينب، وأطفالي

المحتوى

الموضوع | الصفحة

الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت مندفعا بما يكفي، ما إن عدت من غوانتانامو، ساذجا بما يكفي لأعتقد أن بمقدوري إنجاز هذه المهمة وحدي. أدركت، بعد وقت قصير، أنني أجهل كيفية البدء، ومع ذلك كنت محظوظا للغاية، وذلك للالتقاء بفيكتوريا بريتين خلال الأسبوعين الأولين لعودتي، مفاجأ، بما يفرح النفس، بمعرفة أنها كانت تعمل بقوة لمساعدة عائلات معتقلي غوانتانامو، كانت واحدة ممن يهتمون لأمرهم بالفعل.

كانت الأخبار حول إسهامها في المسرحية، «غوانتانامو: التزام شرف بالدفاع عن الحرية»، كانت قد وصلت إلى مسامعي حين كنت في المعتقل. سعدت، بالتالي، لعدم اضطراري إلى بذل كثير من الجهد بحثا عمن يساعدني في كتابة قصتي.

أود، علاوة على ما سبق، أن أعبر عن امتناني على وجه الخصوص لفيروز عباسي (الذي اقترح العنوان، حين كنا في غوانتانامو)، وأبو بكر، وآندرو غوردن، وكليف ستافورد سميث، وغاريث بيرس، وبات كافاناغ، وجون غيتينغز، ووالدي عظمات بيغ، لما بذلوه من جهد ثمين في تنقيح، وتصحيح هذا العمل، علاوة على ما قدموه من اقتراحات بشأنه. أود كذلك شكر سيما أحمد، وأدوينا بارستو، وهانا كوربيت، وتيم أوتي، وطارق صادق، ومايكل راتنر، وهيلين ومايك أولدفيلد، ورونان بينيت، وشيلا جوشوا، وماري، وغاي، ويفيت (فريق الطباعة، ويلز)، ومن أمريكا: جوشوا دراتيل، والرائد دان موري، ونيل كاتيال، وديفيد ريمس.

عملت في بعض الأحيان بكد على إنجاز هذا الكتاب، وما كان لي تحقيق ذلك دون دعم زوجي، زينب، وصبرها. ما انفك طفلاي، أمامة وعبد الرحمن يبديان الاهتمام بتقدمي، بالرغم من صغر سنهما، وكثيرا ما كانا يقرآن أجزاء من الكتاب. كان لتشجيع كل منهم، بالفعل، عظيم الأثر في إنجاز هذا العمل.

ملاحظة المؤلف

يستند مصدر الحوارات الواردة في هذا الكتاب بشكل رئيس إلى ما أمكنني تذكره منها، ولكن هناك عليها ملاحظات دقيقة موضوعة من قبل المحامين ومن قبلي ومع ذلك، فقد انخرطت في أحاديث تساعد على استذكارها، وتأكيد ما ورد فيها، ولم تكن هذه الحوارات قليلة الأهمية، فقد أعيدت صياغة معظمها في هذا الكتاب، وإن كان القليل منها ـ الأكثر حداثة على نحو خاص ـ قد كُتب بحرفيته تقريبا.

أدركت على الدوام أن الأسماء المقدمة إليّ من قبل عناصر الاستخبارات، والضباط لم تكن حقيقية، ومع ذلك احتفظت بها، ولكن تم تغيير أسماء أخرى وردت في الكتاب لأسباب قانونية، نظراً لما تتسم به مواضيعه من حساسية.

فضلت، بالنظر إلى استحالة وضع العديد من اللغات الشرقية في الكتاب، بكل ما تتسم به أحرفها، وطريقة نطقها من تميز، فضلت إيراد ما يقاربها من كلمات، من الناحية اللفظية، عند ترجمة أسماء الشخوص، أو الأماكن، أو الخطب، أو المصطلحات (كما بالنسبة «لمكة»، و«المدينة»، و«القاعدة»، على سبيل المثال). تعد هذه الطريقة شائعة الآن في الأعمال الإنجليزية المنقولة من العربية.



مقدمة

لم يبرح منظر الأسلاك ذاكرتي، بينما كنا نسير حول السياج على غير هدى. ما انفك الحراس ببزاتهم العسكرية ـ ناهيك عن الكاميرات، تعلوها المدافع الرشاشة ـ ما انفكوا يراقبون كل تحركاتنا. كان الوضع بائسا، والأمل منعدما، بلا أي نهاية تلوح في الأفق. لم يكن المرء بقادر على احتمال رتابة الحياة اليومية وكآبتها، علاوة على أجواء القلق والخوف، وما اعتراها من شكوك حول المستقبل.

همست إلى أحد رفاقي المعتقلين، قائلا: «كم يمكننا الاحتمال بعد؟، لقد أصبح ذلك مستحيلا. إن لم نتخذ موقفا الآن، فسنفقد احترامنا لأنفسنا، ناهيك عن حريتنا». أجابني بهدوء قائلا: «الصبر يا أخي، الصبر. لا بد أن نتحلى به».

وقع المحظور فيما بعد. انهمر الرصاص فوق رؤوسنا، لا يفرق بين أحد منا، لتسقط الجثث من حولي. استدرت إلى رفيقي، أحدثه بصوت مكتوم عن الهرب، لأجده، كما الآخرين، ميتا. كان الجميع قد أصيبوا، باستثنائي. وجدتني عاجزا عن القيام بأي شيء، قبل أن أرفع الأذان على مسمع العالم، بأعلى صوت ممكن.

كنت أعلم أن زوجي تنتظر مولودا، آملا أن أكون بجانبها حين تضعه. أدركت، ما إن سمعت أحدهم يصرخ عبر الأسلاك، قائلاً: إن الطفل كان على وشك القدوم إلى عالمنا ـ بينما كان والده معتقلا خلف الأسلاك الشائكة ـ أدركت أن الوقت سيطول قبل الالتقاء بعائلتي مجددا، وإن نجوت من المجزرة. أصبحت في تلك اللحظة غافلا عما يدور من حولي. رفعت يديّ عاليا، كما يفعل المسلمون كافة، قبل أن أجهش بالبكاء. همست أصوات في أذني تدعوني إلى طلب العون من الله، والتماس رحمته. ما انفكت يداي ترتفعان، تشقان عنان السماء، حتى اخترقتا الغيوم. كنت لا أزال أنتحب مع ذلك.

استيقظت في تلك اللحظة، بجانب زوجي التي كانت قد استيقظت على أصوات نحيبي، سائلة إياي، بصوتها الحاني الرقيق، عما كان يزعجني، لأخبرها عما رأيته في ذلك الكابوس، وقد كان ذلك في العام 1995، ولم أدرك ما يعنيه حقيقة إلا بعد مضي سبع سنوات أخر.

كانت إحدى المجندات الأمريكيات، بما يدعو للاستغراب، مَنْ اقترحت عليّ البدء في كتابة عمل يتمحور حول هذا الكابوس، بعد أن أخبرتها عنه في شتاء العام 2002، في مركز اعتقال قاعدة باغرام الجوية الأمريكية، في أفغانستان، حيث كنت معتقلا أكثر من عشرة أشهر. أخبرتها عن التشابه المذهل بين ما رأيته في ذلك الكابوس، وما مررت به في قندهار، وباغرام.

راودتني فكرة كتابة عمل عن حياتي ـ على ضوء نشوئي في بيرمنغهام، وزيارتي أفغانستان، والبوسنة ـ منذ العام 1999، حيث كنت قد مررت بالفعل، بحلول تلك الفترة، بعدد من التجارب الاستثنائية، التي أدت، في نهاية المطاف، إلى أصعب مراحل حياتي، وأكثرها عمقا، حتى اللحظة الراهنة.

لم أخرج بفكرة كتابة «عدو محارب» على نحو فعلي بعد أن دُوِّنت إلا في أثناء وجودي في معسكر الصدى، في خليج غوانتانامو، كوبا، بينما كنت حبيس الزنزانة الانفرادية، تذكرت بعض الملاحظات فيما يتعلق بسيرتي الذاتية، وقد تلقيت تشجيع مستجوبيّ ـ من محققي «السي آي أيه»، و«الإف بي آي»، و«الإم آي فايف» ـ ناهيك عن أعضاء القاعدة المزعومين، الذين كنت معتقلا برفقتهم الذين تلقيت تشجيعهم جميعا على كتابة هذا العمل، حين عدت إلى الوطن أخيرا.

تمثل أحد أكثر ما طمحت إليه من غايات، عبر إنجاز هذا الكتاب، في إيجاد بعض من أرضية مشتركة بين من يقفون على طرفي نقيض من هذه الحرب الجديدة، وإبراز صوت العقل، الذي كثيراً ما ضاع في خضم التعصب، والكراهية.

اتخذت عددا من القرارات المصيرية في حياتي، فرحا ببعضها، حزينا بالأخرى، ولكن جميعها يستحق أن يروى في نظري. إن نقلت تلك الخيارات - وما نتج عنها من عواقب - القراء إلى عالم مختلف للغاية عن ذاك الذي يعيشون فيه بمعظمهم، وأسهمت في إيجاد فهم أفضل بمرور الأيام، فأظن أنني حققت بعضا من غايات هذا الكتاب. أما إن لم يحدث ذلك... فسيظل يستحق ما بذل من جهد في سبيل إنجازه.

معظّم بيغ

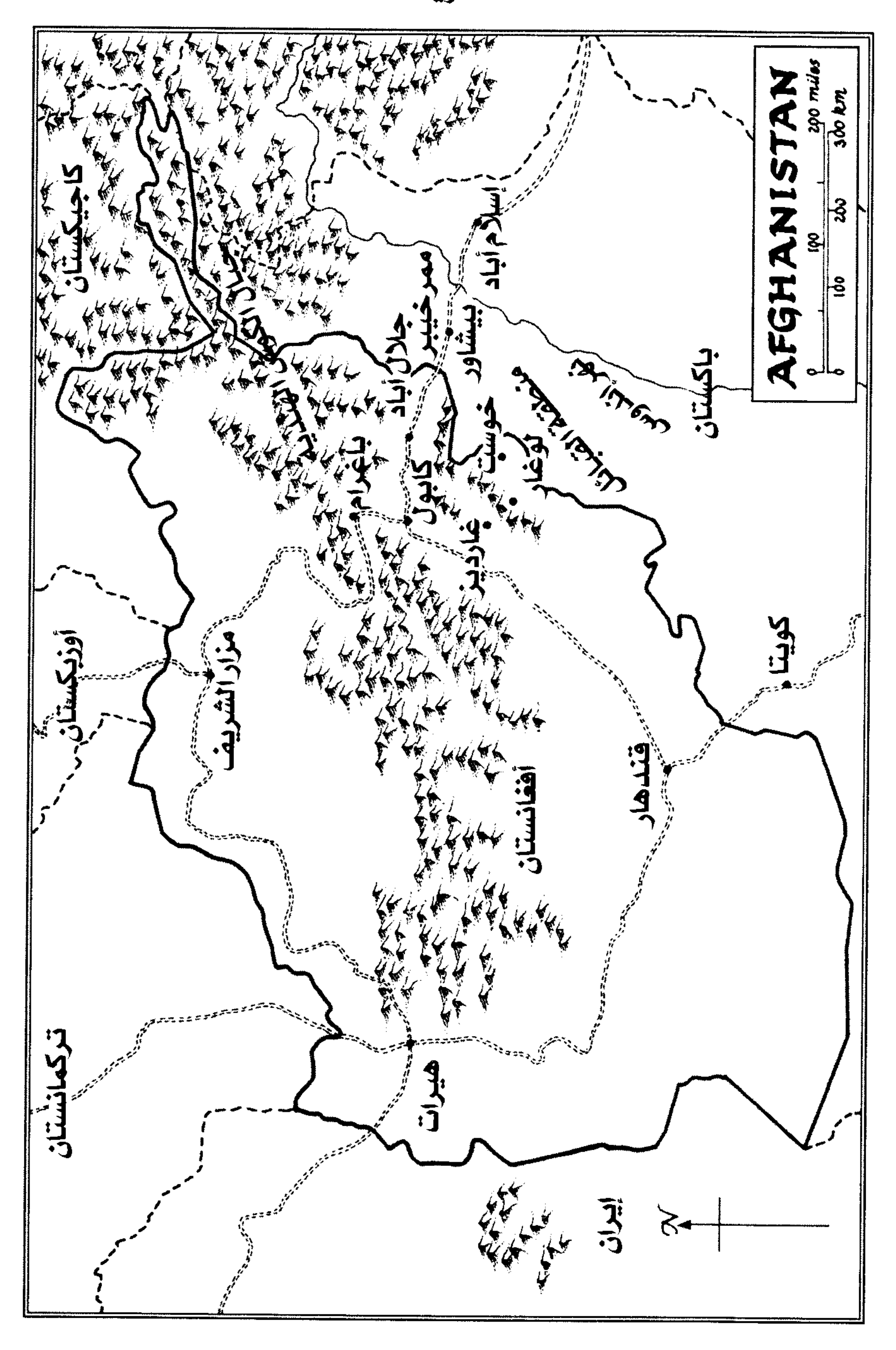


هجمات جوية في الحادي عشر من أيلول
أُوقدت نار الانتقام المغري مجددا:
لا تُنسى أو تُغتفر أبدا،
يتحمل الأبرياء المسؤولية بالضرورة

كسجناء الرأي، بمعايير جديدة
يسجن معظمهم بلا أحقية
داخل أقفاص، بلا أي حقوق
تعاد صياغة القوانين، ويغتفر التعذيب

من قصيدة «مقبض الخنجر»،
كانون الثاني/ يناير 2004، غوانتانامو

الخريطة


AFGHANISTAN
200 miles
300 km
كاجيكستان
أوزبكستان
تركمانستان
إيران
باكستان
أفغانستان
مزار الشريف
هيرات
قندهار
كويتا
كابول
باغرام
جلال أباد
ممر خيبر
بيشاور
إسلام أباد
غاردير
خوست
لوغار

-1-

اعتقال لا قانوني

إسلام أباد. منتصف الليل، 31 كانون الثاني/ يناير، 2002

خيم الصمت على المنزل، بعد أن غط الأطفال وزينب في النوم، عقب يوم طويل بالنسبة لهم: كانت إحدى الصديقات من كابول تحل ضيفة علينا مع طفليها، وقد أووا إلى الفراش أيضا بحلول ذلك الوقت. كنت ما أزال مستيقظا، أكتب رسالة بواسطة جهاز الكمبيوتر خاصتي؛ لألهو فيما بعد بإحدى ألعابه. تفحصت ساعتي عند سماع طنين جرس الباب. تمثل أول ما تبادر إلى ذهني في أن أحدهم قد أخطأ العنوان، أو تعرض أحد الجيران لحالة طارئة.

لم أشعر بالقلق، مع ما يبدو عليه قرع جرس الباب في هذا الوقت المتأخر من غرابة. فتحت الباب، مرتديا ملابس نومي، لأتسمر في مكاني مذهولا. فوجئت بمجموعة من الأشخاص تواجهني، وتمثل أول ما أدركته في مسدس مصوب إلى رأسي. قام أولئك بدفعي إلى الخلف عبر باحة المنزل، مروراً بأحد الأبواب، وصولا إلى غرفة المعيشة، حيث انتهت أمسيتي الهادئة للتو بصدمة وخوف شديدين. أرغمت فيما بعد على الركوع. كان مظهرهم محيرا بالفعل، ولم يكن لباس الشرطة ما يرتدونه، بل ثياب باكستانية محلية، وأخرى غربية.

لم ينبسوا ببنت شفة. لم يسألوني حتى عن هويتي، وكأنني غير موجود. لمحت بعضهم بطرف عيني، بينما كنت أجثو على ركبتيّ، اتجهوا نحو الغرف الخلفية، حيث توجد زوجي وبقية أفراد العائلة. خاطبتهم، كردة فعل فورية حماية لعائلتي، قائلا: «ينام أفراد أسرتي في تلك الغرف، فلا تدخلوها». لم أستطع رؤية أي شيء عقب ذلك بعد أن غطوا رأسي بكيس من القماش. قام أفراد المجموعة

بتكبيل يديّ بالأصفاد بعد إجباري على وضعهما خلف ظهري، علاوة على كاحليّ باستخدام شريط بلاستيكي، واقتادوني إلى سيارة أوقفوها أمام المنزل. لم يكن أي من الجيران ليرتاب في الأمر لو كان مستيقظا، فمنزلي منفصل عن منازلهم، ناهيك عن ارتفاع ما يفصله عنها من أسوار وبوابات.

أضجعني أفراد المجموعة في المقعد الخلفي للسيارة بعد اقتيادي إليها. نزع أحدهم الكيس عن رأسي بعيد لحظات، بينما كنا نهم بالتحرك، بما يمكنني من الرؤية أضاء وميض آلة التصوير في وجهي على الفور، ولمحت خلفها أمريكيا ذا تنكر رديء للغاية، كان يرتدي ملابسه، ويلف قطعة قماش حول رأسه؛ ليبدو كالباكستانيين، ولكنني أدركت بوضوح أنه لم يكن واحداً منهم. تمثلت ردة فعلي الأولى بالضحك، على الرغم من الوضع المخيف الذي كنت فيه، حيث بدا مظهره سخيفا بالنسبة لي، لم ينبس ببنت شفة، واكتفى بأخذ صورة لي، أخرج الشخص الموجود على الجانب المقابل، وهو أمريكي أيضاً، وإن تهندم بصورة أفضل، معتمراً قبعة أفغانية زوجا من الأصفاد آنذاك كنت مكبلا بالفعل، ولكنه لوح بها أمامي قائلا: «هل تعلم من أين أحضرت تلك الأصفاد»؟

أجبته قائلا: «لا فكرة لدي، كيف لي أن أعرف ذلك»؟.

أجابني قائلا: «لقد منحتني إياها زوج إحدى ضحايا هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر».

كنت هادئا بما يكفي لإخباره أنه سيبدو غبيا بالفعل في نظرها لاعتقاله الشخص الخطأ. بادر على الفور إلى وضع الأصفاد فوق التي كنت مكبلا بها. لم أصدق ما كان يحدث. هل كان حقيقة بالفعل؟.

حاولت التفاهم مع الباكستانيين، وناشدتهم مساعدتي، متحدثا إليهم الأوردية، باعتباري ابنا للبيئة ذاتها، وشخصا مألوفا بالنسبة لهم، وهو ما لم أكنه للأمريكيين بكل تأكيد، حدثتهم قائلا: «انظروا، إن كنت فعلت ما هو خاطئ،

فقوموا بإجراءاتكم على الوجه الصحيح، اسمحوا لي بالوصول إلى القنصل البريطاني، أو أمنوا لي محاميا، ودعوني أتصل بعائلتي لأتأكد إن كانت على ما يرام»، تابعت محاولتي تلك طيلة الطريق، ولم أصدق الطريقة التي تجاهلوني بها. وقد توقفنا بكل الأحوال بعد حوالي عشر دقائق.

لم يقل الباكستانيون شيئا، في بادئ الأمر، أمام الأمريكيين، ولم يستجيبوا لي على الإطلاق، متعمدين رسم ملامح الصرامة والقسوة على وجوههم، خاطبتهم بالأوردية، كما تفعل حين تخاطب من يكبرك سنا، من يمكنك تسميته «بالعم»، ولكنهم بقوا باردين دون أي استجابة تذكر، لا يمثل ذلك الطريقة التي يتعامل بها الباكستانيون عادة مع بعضهم بعضا، ولكن الأمر يختلف في هذا العالم السري الذي اختطفت عبره برضى الحكومة التام. تبين لي بوضوح أنهم كانوا يرزحون تحت وطأة ضغط شديد بالنظر إلى صمتهم المطبق، والأجواء الغريبة المتوترة التي كانت تسود الموقف.

تم إخراجي من السيارة، وافترضت أن الأمريكيين قد غادروا (بعد أن أخذوا أصفادهم). لم أرهم مطلقا بعد ذلك. وجدتني فيما تخيلت أنه مقر للاستخبارات، وتوقعت أن أوضع في الزنزانة، أدخلني الباكستانيون في الواقع إلى ما يمكن اعتباره غرفة لائقة تحوي أريكة، ومقعدا، وحصيرة على أرضيتها، ولحافا، ووسادة، بل وحتى نافذة، ولكنهم غطوها، بعد مضي وقت قصير، كيلا أتمكن من النظر إلى الخارج عبرها. جلس من كنت أناديه «بالعم» مدة خمس وأربعين دقيقة تقريبا بمحاذاتي، وكنا وحدنا في الغرفة، حيث وجه لي بعض الأسئلة الروتينية عن اسمي، وعنواني، وما زرته من أماكن، وما كنت أفعله في باكستان. لم تتجاوز الأسئلة العشرة، وسجل الرجل كل أجوبتي على ورقة بيضاء، بالرغم من أنها لم تكن تمثل أكثر من شكليات تخلو مما يمكن اعتباره أمورا استثنائية. استطعت مع ذلك رؤية التوتر باديا على ملامحه، والصراع الداخلي الذي كان واقعا فيه بسبب اعتقالي من منزلي، وإبعادي عن عائلتي بتلك الطريقة، لم يكن الرجل مرتاحا على الإطلاق.

تمثل أول ما قاله لي بالتالي: «انظر بني، لا أعلم ما فعلت أو السبب الذي يجعل الأمريكيين راغبين في اعتقالك بشدة، ولكنك ترى بوضوح أنني وضعتك في غرفة هنا لا زنزانة، فلم ترتكب إثما في باكستان على حد علمي، ويتملكني شعور سيئ حيال مجيئي إلى بيتك في منتصف الليل، فقد رأيت ما كان بيتك وعائلتك عليه، فلا تبدو ذلك الشخص الذي يمكن أن يسبب أي نوع من المتاعب، ولا نقوم بذلك إلا من أجل الأمريكيين فحسب».

سألته قائلا: «لِمَ تقوم بذلك من أجلهم إن كنت تظن أنني لم أرتكب أي إثم، وهو ما يمثل الحقيقة بالفعل؟، لِمَ تفعل هذا لي، لِمَ تبذل كل ما في وسعك لمجرد إرضاء الأمريكيين»؟.

أجابني قائلا: «إن لم نفعل، فسنضرب بكل قوة من قبلهم، من قبل جيش الرئيس بوش، ألم تسمع بعبارتهم الشهيرة «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا»؟، حسنا، كان علينا اختيار موقعنا»، افترضت في تلك اللحظة أن أولئك الرجال يتبعون للاستخبارات الباكستانية (آي إس آي)، فمن يملك القدرة غيرهم على اختطافي بتلك الطريقة، وبدعم أمريكي كامل»؟.

كان أحد الحراس قد قام بالفعل بنزع الأصفاد عن يديّ، وقص الشريط البلاستيكي المكبل لكاحليّ، ما استغرق بعض الوقت، لاستعانته بمقص رديء للغاية، كانت بعض الترميمات تجري في الغرفة، علاوة على وجود حفرة في أحد جدرانها حيث افتقدت بعض قطع الآجر، وذلك ما مكنني من اختلاس النظر إلى الخارج عبرها، وقد كبل الحارس يدي، عند انتهائنا من الحديث، إلى مقعد طيلة الليل، وكان سبب ذلك واضحا للغاية بالرغم من أنه لم يقل شيئا لتبريره، وكان القيد بكل الأحوال كبيرا بما يمكنني من التملص منه، وقد فعلت بمجرد مغادرة الحارس لبقية الليل، حيث كنت أدخل يدي فيه مجددا عند إحساسي بقدوم أحدهم إلى الغرفة. توقعت بالفعل أن تنتهي هذه المحنة في غضون ساعات، إن لم نقل أياما، باعتبارها ناتجة عن خطأ ما، وهو ما لم يدفعني للتفكير في الفرار، على الأقل في حينه.

تمددت في المقعد متحسسا جيبي، فشعرت بهاتفي النقال الذي كان موجودا داخله، كالعادة، حين كنت جالسا أمام جهاز الكمبيوتر خاصتي، حيث لم أخضع لأي تفتيش جسدي من قبلهم. كنت قد نسيت أمر الهاتف، ولكنني شعرت في تلك اللحظة أنه يشكل وسيلة تواصلي الوحيدة مع العالم الخارجي. تمثل أول ما فعلته في الاتصال بصديق يقطن قرب منزلي، إذ كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحا على وجه التقريب، وقد بدا النعاس جليا على صوته حين التقط سماعة الهاتف ليجيبني، همست عبر الهاتف، وفعل ذلك بدوره، بصورة لا تخلو من الغرابة، فأخبرته بما حدث، وسألته عما إذا كان بمقدوره الذهاب إلى منزلي أولا للتأكد من أن جميع قاطنيه على ما يرام، ثم الاتصال بأحد أعمامي أو بقية أفراد العائلة الموجودين في باكستان، وقمت بعد ذلك بالاتصال بوالدي في بيرمنغهام، ولم أصدق أن حظي الطيب خولني إجراء مكالمة دولية من غرفة السجن هذه. همست مجددا عبر الهاتف أثناء حديثي معه، وأخبرته بما حدث، وأن كل ما علمته يتمثل في وجود الأمريكيين عند اعتقالي، وأن ذلك تم بناء على أوامرهم، وسألته إخبار محاميتي، غاريث بيرس، والاتصال ببعض أفراد العائلة الموجودين هنا في باكستان، وتوفير ملاذ آمن لزينب والأطفال آنذاك تملكني شعور رهيب حول ما سيعيشه من قلق، لعلمي، على نحو خاص، أنه كان قد أجرى للتو عملية جراحية لشرايين قلبه. لم يكن لدي خيار آخر، مع ذلك، سوى الاتصال به.

لم أحتج الكثير لأدرك مدى الصدمة التي تعرض لها والدي، بالرغم من أنه كان هامسا أيضا في أثناء حديثه معي، وذلك ما جعل من الصعوبة بمكان تبيان حقيقة حاله استنادا إلى نبرة صوته، ولكن بدأت بطارية الهاتف بعد ذلك تنفد ورنّ جرسه مرة واحدة، وكنت واثقا من أنها مكالمة دولية بالرغم من عدم ظهور أي رقم على شاشته، ولكن بطاريته نفدت تماما حين هممت بالرد. كانت بعض المقابس الكهربائية موجودة في الغرفة. بادرت برفع الحصيرة لأجد عددا من

الأسلاك الكهربائية أسفلها. حاولت، بيأس تام، ومع توقي الشديد إلى التواصل مع معارفي في الخارج، حاولت وصل الأسلاك بأحد المقابس، ومن ثم بهاتفي النقال، ولكنني لم أفلح بالطبع لعدم وجود محول لتغيير تردد التيار (شاحن)، ناهيك عن تعطل الهاتف بالنتيجة، على الأرجح.

حاولت النوم فيما بعد، إذ استلقيت على الحصيرة بعد أن وضعت اللحاف فوقها، ولكنني عجزت عن ذلك، حيث كان بالي مشغولا، وكنت خائفا بالفعل مما يمكن أن يحدث، ولكنني تمسكت في الوقت ذاته بالمنطق، وأخبرت نفسي أن الحق لا ريب منتصر في النهاية: «تعلم أنك لم تقترف أي إثم، يجدر بك ألا تقلق من مقاضاتك، أو محاسبتك على ما لم ترتكبه».

استيقظت من غفوتي، مع ما تخللها من كل تلك الأفكار، حين دخل الغرفة رجل آخر. كان الصباح قد حل. قدم لي الشاي مع الباراثا (خبز مقلي)، بالإضافة إلى خف بالٍ لارتدائه. أخبرني أن بإمكاني قرع الباب كلما أردت شيئا؛ كي يستجيب الحارس، وقد أتى بعض الحراس فيما بعد، ولكنني أدركت بحلول وقت قصير أنهم لا يعلمون شيئا عن وضعي، ما انفككت، بالتالي، أطلب مجيء أي من الضباط.

تم إخراجي، في اليوم الثاني، من الغرفة، ولكنهم غطوا رأسي، وكبلوني أولا، وذلك ما أكد لي أنها لم تكن مجرد رحلة إلى دورة المياه، عندئذ لمحت حارسا مسلحا ببندقية كلاشينكوف ينتظر عند الباب، حين هموا بوضع الغطاء على رأسي، واكبني ذلك الحارس، وتمت مساعدتي على ركوب المقعد الخلفي لإحدى السيارات، وتحركنا ما يمكن اعتباره مسافة طويلة، ليتضح لي، من أصوات السيارات، وحقيقة عدم سيرنا في طريق سريعة، أننا ما زلنا في إسلام أباد. استطعت تمييز بعض الأشياء بصعوبة بالغة عبر نوافذ السيارة المظللة، بالنظر إلى أن الغطاء الموضوع على رأسي كان يتألف من القماش.

تمكنت من استراق السمع إلى أحد الضباط الباكستانيين، وهو يتحدث إلى أحدهم بالإنجليزية، وقد افترضت أنه كان يتحدث إلى أمريكي، أو بريطاني، بالنظر إلى أن الباكستانيين لا يتحدثون بتلك اللغة عادة فيما بينهم، سمعته يذكر كلمة «جي 10» ـ اسم منطقة في إسلام أباد، حيث يقطن أحد أصدقائي، وقد كان المنزل الذي اقتدت إليه كبيرا، مميزا لنمط المنازل الواقعة في تلك المنطقة.

خضعت للاستجواب أربع مرات في ذلك المنزل، وإن لم يكن في الغرفة ذاتها. كان من الواضح أنه يستخدم كبيت عادي، وأنه يعود لأحد المقتدرين نوعا ما ـ أرائك كبيرة، شاشات تلفزيونية كبيرة. رأيت الكثير من أرجائه، في الحقيقة، بينما وضعوني فيها انتظارا للاستجواب، بما في ذلك غرفة النوم لمرة واحدة، وغرفة المعيشة الرئيسة الضخمة، احتجت الذهاب إلى حماماته أحيانا، ما مكنني من رؤيتها على حد سواء، وتمثل ما يدعو للحزن في الطريقة المذلة التي يعامل بها الباكستانيون هناك، والتي غالبا ما تفسر سبب عقدة النقص التي يحملها الكثير من سكان شبه القارة الهندية تجاه الغربيين، وقد تفننوا في محاولة توفير الراحة بأكبر قدر ممكن لأصدقائهم، مقدمين ما لذ وطاب من الأطباق والمشروبات الغربية، والمناشف تتدلى من سواعدهم، كالنادلين في بعض المطاعم فكتورية الطابع.

كان هنالك أمريكيان في اللقاء الأول، يرتدي كلاهما ملابس عادية، كبيران في السن، ربما في أواخر الخمسينيات من عمرهما. لم يعرفا عن نفسيهما أو الجهة التي يتبعان لها، كنا جالسين في غرفة الطعام إلى مائدتها. كنت أجلس قبالتهما مكبل اليدين، عندئذ كان هنالك حارس باكستاني مسلح خارج الغرفة، شعرت بحيرة شديدة، ما كان القصد من وراء كل ذلك؟، لم أسمع من قبل عن حدوث مثل عمليات الاختطاف تلك في باكستان، وإن كنت قد سمعت، أثناء وجودي في إسلام أباد، عن العديد من عمليات الاعتقال الجماعي في أفغانستان منذ احتلال الأمريكيين لها. سمعت لاحقا من العديد من المعتقلين عن الكيفية التي اعتقلوا بها في غارات مماثلة في باكستان، أو بصورة أسوأ، من الشوارع.

مضى حتى الآن أكثر من أربع وعشرين ساعة على احتجازي، منذ تم اختطافي. أبرز أحد الأمريكيين حقيبة زوجي اليدوية مع رخصة قيادتها، وهاتفها النقال، فشعرت بخوف حقيقي عندما بدؤوا في إبراز أغراضها الشخصية. لِمَ يستولون على أغراضها؟، أين كانت موجودة؟، هل ألم بها أي

مكروه؟، لقد وضعوا يدهم بالفعل على نقطة ضعفي: قلق شديد ينتابني، كلما فكرت بزوجي والأطفال، ولا أستطيع لإخفائه سبيلا. كنت أتسلح بالمنطق في حينه، ولكنني أدركت لاحقا أن كل تلك الأسئلة كانت جزءا من «رحلة صيد كبيرة». اكتشفت أيضا أنهم أخذوا أشياء أخرى من المنزل، بما في ذلك جهاز الكمبيوتر خاصتي، وحوالي ثمانية آلاف من الجنيهات ـ حصيلة مدخراتنا، والمال الذي أرسلته عائلتي وأصدقائي من إنجلترا.

سألوني عما كنت أفعله في باكستان، وعما إذا كنت قد ذهبت إلى أفغانستان من قبل، لأرفض الإجابة عن أسئلتهم، مطالبا بالتحدث إلى محام، أو القنصل البريطاني، فعقبوا قائلين: «لا يمكننا مساعدتك بذلك على الإطلاق». أطلقوا، فيما بعد، بعض التهديدات المقنعة، قائلين: «قد يتم إرسالك إلى مكان أسوأ».

أحضروني في اليوم التالي مجددا، ولكن بوجود أشخاص آخرين في الغرفة هذه المرة، سألتني امرأة عن مكان وجود جوازات سفرنا البريطانية، وكنت قد تركتها في منزل شخص آخر، حيث مكثت بضعة أيام حتى حصولي على منزلي، كانت بعض ممتلكاتي الشخصية ما تزال هناك، وكانت تلك المرأة الأمريكية حريصة للغاية على معرفة مكان وجود الجوازات، فأخبرتها قائلا: «لا تشغلي بالك مطلقا، هي في حرز أمين».

كانوا قد أخذوا جواز سفري الباكستاني الذي كنت أحتفظ به في منزلي، وأبرزوه أثناء الاستجواب الأول، في اليوم السابق، قائلين: «لاحظنا أنك تحمل جنسيتين». حاولت أن أفهم مغزى إشارتهم لهذا الأمر، ولكنني لم أفلح في ذلك، ولم يكن مفعول الجواز الباكستاني ساريا أكثر من عام واحد، وكنت قد حصلت عليه في بيرمنغهام، لاعتقادي أنه سيسهل علي السفر من أفغانستان إلى باكستان، وبالعكس، بشكل يفوق نظيره البريطاني.

كان أحد الأمريكيين اللذين قابلاني في اليوم السابق موجودا في ذلك اليوم أيضا، بالإضافة إلى ضابطين من الاستخبارات البريطانية، واللذين عرفا عن نفسيهما بأنهما ينتميان إلى جهاز «الإم آي فايف». كان أحدهما امرأة شابة،

بينما أخبرني الآخر أن اسمه إيان، وكنت قد سمعت عنه قبلا، في الواقع، عندما تحدثت إلى صديقي في بيرمنغهام، شاكييل، قبل بضعة أيام من اختطافي، حيث أخبرني الأخير أن شخصا يدعى إيان من جهاز «الإم آي فايف» قد قدم لزيارة مكتبتنا الإسلامية هناك، وقال: إنه مهتم للغاية بالتحدث إلي، وإنه سيأتي إلى باكستان للقائي، أوصيت شاكييل في حينه بإعطائه رقم هاتفي، وإخباره بإمكانية الاتصال بي حين يصل إلى باكستان؛ كي نلتقي، كان شاكييل قد وصفه بأنه «رجل بدين يرتدي نظارات». أعتبر ذلك وصفا كاملا بنظري، وقد تعرفت على الرجل حتى قبل أن ينطق باسمه.

مثلت تلك المرة الثالثة التي يرغب فيها جهاز «الإم آي فايف» بالتحدث إلي، وهو ما لم يشعرني بالذعر على نحو خاص، ربما كنت ساذجا لاعتقادي أنه سيزورني لمجرد احتساء الشاي، كما فعل زميله في المرة السابقة، والتعبير عن بعض مخاوفه، على أمل أن أقوم بتبديدها، لم أقم بما هو غير قانوني، أو أختبئ من أي أحد، وتغير الأمر كثيراً حين رأيته على خلاف ما شعرت به من كراهية وتوتر تجاه الأمريكيين، بل يمكنني القول: إنني شعرت ببعض الارتياح في الحقيقة لرؤياه، لعلمي أنه بريطاني ينتمي إلى إنجلترا، بدأت حديثي معه بقول التالي: «انظر، هل يمكنني التحدث إليك على انفراد، بعيدا عن هؤلاء الأشخاص»؟.

أجابني قائلا: «لا، لا يمكنك ذلك». مثلت تلك أولى الإشارات إلى أن الأمريكيين والبريطانيين كانوا مشتركين بالكامل في تلك المسألة.

عقبت قائلا: «حسنا، هل يمكنك السماح لي بإيصال الأمر إلى القنصلية البريطانية، إن لم تقم أنت بالأساس بفعل ذلك، نظراً لكوني مواطنا بريطانيا... إن لم يمثل ذلك عملك هنا»؟.

أجابني قائلا: «لا أستطيع مساعدتك في ذلك. لست مشرفا اجتماعيا».

عقبت قائلا: «حسنا، من بريطاني إلى آخر، هل يمكنك إخباري، أو التأكيد لي أن عائلتي على ما يرام؟، أطلعني على ذلك فحسب».

أجابني مجددا قائلا: «آسف، لست في وضع يخولني القيام بذلك، لست هنا من أجل ذلك».

فوجئت كثيرا من تبلد مشاعره تجاهي، باعتباري مواطنا بريطانيا مثله، وبخاصة بعد إطلاعه على قصة جلائي المؤلمة عن كابول، والطريقة المحزنة التي التقيت بها عائلتي مجددا. سألته قائلا: «حسنا، ما الذي تريد مني فعله، لم أنت هنا»؟.

أجابني قائلا: «حسنا، يبدو أن لديك فرصة أخرى. كم مرة يمكن للمرء أن يحظى بفرصة ثانية؟، يتمثل كل ما ينبغي عليك فعله في التعاون مع الأمريكيين، وسيصب ذلك في مصلحتك».

سألني إيان بعض الأسئلة، حيث أراد بادئ ذي بدء أن أخبره عن سبب ذهابي إلى أفغانستان، وما كنت أفعله هناك، ومن التقيت في ذلك البلد، وسألني فيما بعد عن البوسنة وزياراتي إليها، ورحلتي إلى تركيا في عام 1999، فأخبرته بالتفصيل عن سبب ذهابي إلى أفغانستان، وما فعلته هناك، وما أجبرني على الذهاب إلى ذلك البلد، وأجبت فيما بعد عن جميع الأسئلة الأخرى التي طرحها علي، وكنت ما أزال أعتقد بعدم وجود ما أخفيه، وبالتالي ما أخاف منه.

لحظت أن الأمريكيين كانوا يسجلون بعض الملاحظات، وأن أحدهم نهض عن مقعده بعد ذلك، واتجه إلى زاوية الغرفة؛ ليجري مكالمة هاتفية. لم أسمع كل ما ورد فيها، بل جزءاً علق في ذهني منها: «لدينا آخر لأجل قندهار». نظرتُ إلى الضابطة، وانتابني شعور مفاجئ من اليأس المطبق، ونظرت إلي بدورها، قبل أن تشيح بوجهها، نهض إيان وضابطة جهاز «الإم آي فايف» الأخرى عن مقعديهما، وغادرا الغرفة بالفجائية التي دخلاها بها ذاتها، وقد مثل ذلك جزءاً من بريطانيا لم أعهده من قبل، ليس بهذه الطريقة على الأقل، فربما كانا قد فكرا بالشكل التالي: «إنه مجرد باكستاني». كان هذا ما فكرت به أيضاً: «لم يجدر بهما الاكتراث لأمري؟، لست بأكثر من باكستاني بالنسبة لهما». لم أر أيا منهما مجدداً.

شعرت بالكثير من الذنب، بعد عودتي إلى غرفتي، وحيدا مع أفكاري، نتيجة ما عرضت عائلتي له عبر سوء تقديري لجدية الموقف، وعدم إدراكي في السابق لما كانت ستعنيه هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر بالنسبة لأفغانستان، وتوقفت عن التفكير بما يمكن أن يحدث في المستقبل، وآلمت نفسي عبر العودة إلى الماضي، مغرقا نفسي في الشعور بالذنب أكثر فأكثر، ناهيك عن أنني لم أكن قد تجاوزت بعد التجارب المروعة التي مررت بها خلال الشهرين الماضيين، عندما أجبرنا القصف الأمريكي على ترك منزلنا وعملنا الجديدين الرائعين في كابول.

لم يجرِ الاستجواب التالي سوى مع الأمريكيين، فقد بدا أحدهم، بول، مستاء لتحدثي مع البريطانيين بدلا منه، خاطبني قائلا: «أظهرت بوضوح أنك لا تتحدث إلا لبني جلدتك، ولكن البريطانيين نفضوا أيديهم عنك، لن تراهم بعد اليوم، ولن تتمثل فرصتك الوحيدة إلا في التعاون معنا، لقد أخلينا سبيل بعضهم في السابق...». توقف بول عن الحديث مدة ليست بالقصيرة، ثم تابع قائلا: «قادرون على جعل حياتك أكثر سهولة، أو تعقيدها لأبعد الحدود، ولكن يمكنك الإجابة عن أسئلتنا هنا، أو فعل ذلك في قندهار، وغوانتانامو».

سألته مجددا أن يطمئنني على وضع عائلتي، فقد كان من الواضح أن البريطانيين لن يقوموا بذلك، لذا لم يكن أمامي من خيار إلا سؤاله. لم يكترث الأمريكيون أيضا، ولم يعقب الرجل على طلبي إلا بقول التالي: «آه ـ هه، لا يمكننا فعل شيء حيال ذلك». غادرنا فيما بعد المنزل الواقع في منطقة «جي 10».

ناشدت الحراس الباكستانيين مساعدتي، بعد أن تمت إعادتي إلى غرفة مقر الاستخبارات، بالرغم من أن «العم»، وهو من أقمت نوعا من العلاقة معه، لم يكن موجودا في ذلك اليوم، إذ توسلت إليهم قائلا: «أرجوكم، أرجوكم، اذهبوا على الأقل إلى منزلي، وتفقدوا حالهم، وما يفعلون، وسلوا زوجي عما إذا كان بمقدورها كتابة رسالة لي».

وافق أحد الحراس الباكستانيين على القيام بذلك، قائلا: «سأذهب إلى منزلك؛ لأتأكد من أن كل شيء على ما يرام، وسأحاول أن أحضر لك بعض الملابس والحاجيات الأخرى من هناك». أخبرني الرجل لاحقا بما يلي: «ذهبت إلى المنزل بالفعل، ووجدت قفلا على الباب، وقد أخبرني الجيران أن العائلة غادرته بعد يومين أو ثلاثة من اعتقالك».

وقعت في حيرة كبيرة لم أعهدها من قبل، ولم أستطع التوقف عن التفكير بما يمكن أن يكون قد حل بزينب والأطفال، والمكان الذي ذهبوا إليه.

مرت الأيام تباعا، في غضون ذلك، مع خلو بعضها مما يمكن ذكره من الأحداث، حيث كان الغداء والعشاء يتألفان دائما من «الشاباتي» (خبز هندي) والكاري، وقد التزمت الصوم الاختياري يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وهي سنة يتبعها الكثير من المسلمين، وكان ضباط الاستخبارات الباكستانية يشرون ما أفطر عليه من طعام، وقد كثفت من عبادتي في الواقع خلال تلك الفترة، والتمست الرحمة الإلهية أكثر من أي وقت مضى، ولم يقتصر الأمر على الصوم، وتلاوة القرآن فحسب، بل ترافق ذلك مع أداء الصلاة، والتضرع إلى الله عز وجل.

لم أكن أتحدث إلا إلى الحراس في العادة، ولم يكن أولئك على علم بأي شيء في الحقيقة، طالبت مرارا بالتحدث إلى أحد الضباط المسؤولين، وكنت ألح على الحارس كل عشر دقائق، أو خمس عشرة دقيقة، بصورة لا تخلو من المضايقة، قارعا الباب، قائلا التالي: «انظر، أحتاج معرفة ما يجري، أحتاج الاتصال بعائلتي»، عبَّر الحراس بوضوح عن أسفهم وتعاطفهم، وأكدوا لي باستمرار أنهم يجهلون سبب اعتقالي. لقد اعتادوا التعامل مع القتلة، والمغتصبين، والسارقين، بل وحتى مرتكبي الأعمال الإرهابية، ولكنهم جهلوا - بحق - سبب وجودي هناك. تحدثت أخيرا إلى ضابط برتبة أعلى، يتحدث الإنجليزية بطلاقة، ويبدو بوضوح أنه أرفع شأنا ممن حوله، فخاطبني، بمنطق «العم» نفسه في الليلة الأولى،

قائلا: «أنت هنا بسبب الأمريكيين». لم يخبرني أي ممن وفقت في التحدث إليهم من الضباط بأسمائهم، وكانوا يجيبونني حين أسألهم بقول التالي: «من الأفضل ألا تعرف». لم يخبروني حتى بما إذا كانوا يتبعون الاستخبارات الباكستانية.

كنت أقرع الباب كلما احتجت شيئا، ليستجيب أحدهم في النهاية. لم يكن ذلك يحدث على الفور، لأواصل القرع بقوة أكبر، حتى يأتي أحد الحراس ويسألني عن مبتغاي. إن كان الماء ما أطلبه، فقد كانوا يتركون لي زجاجة مليئة به، وإن كان الذهاب إلى المرحاض، فقد كانوا يغطون رأسي بمنشفة، ويقودونني عبر الممر إلى قسم آخر من المبنى حيث تقع الزنازين. كان الحمام مظلما وقذراً للغاية، لم تعوزه المياه الجارية مع ذلك، وإن افتقد إلى الصابون. كان المرحاض عبارة عن حفرة في الأرض على النمط الشرق أوسطي، وكانت هنالك فتحة صغيرة قرب السقف تسمح بإمرار القليل من ضوء النهار، تمكنت في إحدى المرات من رؤية ما يحويه المبنى من زنازين.

كنت أسمع أصواتا تتحدث بالعربية مع اقترابي من الحمام، فسألت الحارس قائلا: «أرجوك، هل تسمح لي بالتحدث إلى أولئك الأشخاص؟».

أجابني قائلا: «سأغلق الباب، وعليك التحدث إليهم بسرعة»، فقد منحني الرجل خمس دقائق للقيام بذلك، فذهبت إلى كل الزنازين، وتقطع قلبي عندما وقفت على حالتها، لم يكن ضوء الشمس يدخلها على الإطلاق، ناهيك عن الرطوبة التي تعم أرجاءها، إذ كان قد مضى على بعض السجناء ثلاثة أو أربعة أشهر فيها، وكان جميعهم عربا، ثلاثة منهم طلاب ليبيون يدرسون في جامعة إسلام أباد، ولأن جميع محاولاتهم للوصول إلى شخص من سفارتهم، كي يتحدث مع السلطات الباكستانية بشأنهم، كانت قد باءت بالفشل، أن ينجحوا، على أقل تقدير، في التحدث إلى بعضهم بعضا، والصلاة جماعة.

بدأت التفكير في الهرب بعد لقاءاتي مع الأمريكيين، والحديث عن نقلي إلى قندهار وغوانتانامو، وحرماني من توكيل أي محام، ومنعي من الوصول إلى عائلتي، ونفض البريطانيين أيديهم عني، وقد فكرت في الكثير من الأشياء، بدءاً

من محاولة مهاجمة أحد الحراس، وانتزاع سلاحه، والقتال بواسطته، حتى أنال حريتي، وصولا إلى التسلل خلسة، أو تسلق جدران المبنى. ولكن وصلت كل تلك الأفكار إلى طريق مسدود عندما فكرت بما يمكن أن يحدث لعائلتي، مصمما على تحميل أمريكا المسؤولية طيلة حياتي، إن حدث مكروه لها.

تُركتْ نافذة غرفتي، التي كانوا قد غطوها من قبل، مكشوفة لعدة إنشات عند قمتها، حيث كان يتعين علي، إن أردت النظر إلى الخارج عبرها، أن أقف على قمة الأريكة؛ لأتمكن من رؤية القليل فوق الجدار، والسيارات المارة في الطرف المقابل للشارع، وقد نظرت في إحدى المرات، إلى القضبان المعدنية المثبتة على النافذة، ولم يبد لي ما يثبتها من براغ بتلك الصلابة، إن لم نقل إنها كانت مهلهلة، فاستعنت بإبزيم نطاقي (القطعة المعدنية المثبتة له) لانتزاعها، كان الأخير يحتوي على قطعة ناتئة استخدمتها كمفك لتلك البراغي، وتمكنت من فكها جميعا، بمرور بضعة أيام، حتى أصبحت القضبان قابلة للتحريك، وكنت ألقي البراغي في المرحاض كلما ذهبت إلى الحمام، ولم تكن تلك القضبان بحاجة إلى الكثير لانتزاعها، وقد قمت بذلك على أكمل وجه.

تمثلت خطتي في التحرك ليلا، بعد حلول الحادية عشرة تقريبا، عندما يتوقف الحراس عن القدوم إلى الغرفة، وتطفأ الأنوار، وكان هنالك حارس في الخارج، عند كوخ الحراسة الواقع قرب المدخل، حيث تلج السيارات، وقد كنت قادراً على رؤية الكوخ، والحارس حين يغط في النوم، وتمثل الجزء الأكثر خطورة في الخروج من النافذة، وعبور الجدار، ولكنني اعتقدت بقدرتي على القيام بذلك إن قفزت بقوة، ولم تكن هنالك أسلاك شائكة أو ما شابه على قمة الجدار، وكان بمقدوري، كما أسلفت، رؤية الجانب المقابل للطريق الرئيس.

تمثلت مشكلتي الوحيدة في افتقاري إلى المال، وما يمكنني انتعاله، لأخذهم خفي في المساء، فقد تعين علي، بالنتيجة، الجري في الشارع، والصعود إلى سيارة للأجرة حافي القدمين، دون معرفة المكان الذي سأتوجه إليه فيما بعد.

كان المنزل المكان الوحيد الذي أعرفه جيداً (لم نكن قد أقمنا في باكستان إلا منذ شهر تشرين الثاني/ نوفمبر)، ولكن هل كان ذلك سيجلب المزيد من المتاعب إلى عائلتي؟. لم يعد لهم وجود في المنزل بكل الأحوال، كان من الممكن أن أتعرف على منزل صديقي الذي هاتفته في الليلة الأولى، ولكنني كنت عاجزا عن تحديد مكانه على الوجه الأمثل، وقد تنازعتني الكثير من الأفكار، كالصعود في سيارة للأجرة؛ كي تقلني إلى مكان قريب من منزله، والهرب حين أصل هناك، ويحين موعد الدفع، جريا على قدميّ الحافيتين.

تم تخليصي من عناء التفكير في اليوم التالي، حين دخل حارس الغرفة، وقام بتفقد نافذتها، والنظر حولها، ليتم أخذي بعد ذلك بوقت قصير إلى غرفة أخرى، ولم ينبس أحد ببنت شفة، فربما كانوا سيستخدمون الغرفة لأمر آخر بكل الأحوال، أو أن ذلك الحارس اكتشف ما حدث للنافذة، وتكتم على الأمر؛ كيلا يورطني في المزيد من المشكلات، مثّل ذلك التطور، بكل الأحوال، نهاية خطة هربي.

واصلت المطالبة بالتحدث إلى أي من الضباط. أحضروا بالفعل أحد الأشخاص إلى الغرفة في نهاية المطاف، ولكنه لم يكن ضابطا، بل لاجئا أفغانيا يتقن الأوردية إلى حد ما، كي نتواصل مع بعضنا بعضا، تجاذبنا أطراف الحديث، وأخبرني عن الأوقات التي كان يمضيها في القتال ضد السوفييت حيث كنت قد كونت انطباعا جيداً عنه، ولكنني اكتشفت لاحقا أنه كان محتجزاً لسبب مختلف عن ذلك المتعلق بي، إذ كان من المفترض أن يجمع الأموال من الراغبين في أداء فريضة الحج، ويستخرج لهم التأشيرات من السفارة السعودية في باكستان، بالنظر إلى أن سفارتها في كابول كانت قد أغلقت، أخبرني أنه عقد اتفاقا مع بعض المسؤولين في السفارة لإصدار التأشيرات للأفغان، ولكن أحدهم لاذ بالفرار، مغادرا البلاد مع تسعين ألفا من الدولارات المدفوعة سلفا، واتهم ذلك السجين بالمشاركة في الأمر، ولكنه أكد على الدوام بأنه لم يفعل، وأن المبلغ بكل الأحوال لم يكن يتجاوز الخمسة والأربعين ألف دولار.

يمثل ما سأرويه الآن المرة الأولى التي أعلم فيها، بصورة مباشرة، ما يمكن لضباط الأمن الباكستانيين فعله حقيقة، وقد خلصني ذلك، في الواقع، من بعض ما كنت أتصف به من سذاجة، وكنت أستمع في المساء إلى أصوات ضرب بعيدة. اعتقدت في البداية أنها أصوات عمال أو ما شابه، وقد جاء بعض الحراس، فيما بعد، إلى الزنزانة؛ ليأخذوا شريكي الأفغاني منها، وما لبثت أن سمعت الأصوات ذاتها ثانية فأدركت ما حدث حين أعادوه، ولم تكن الأصوات صادرة عن العمال، بل عن المعذبِين، كان ذلك يحدث كل ليلة، إذ كانوا يستخدمون أنابيب مطاطية طويلة غليظة لضربه، كما أخبرني، فقد كانت الكدمات والجروح تملأ ظهره، ناهيك عن حرمانه من النوم عبر دخول الحراس وخروجهم باستمرار لإبقائه مستيقظا. منعوه من الجلوس أيضاً، حيث كان يتعين عليه الوقوف طيلة الوقت، وقد كانوا يتأكدون من ذلك باستمرار، كان مجبرا على الوقوف طيلة الليل؛ كي يعترف لهم أن المبلغ المسروق يعادل تسعين ألفا من الدولارات، وهو ما لم يفعله، وأحضروا له في اليوم التالي طبيبا لمعالجة جروحه، وبلسمتها، ولكنه أخذ مجددا في الليلة التالية؛ ليعذب بالطريقة ذاتها على أيديهم، وقد أعادوه ثانية، فيما بعد، وأُجبر على البقاء مستيقظا كما في المرات السابقة.

امتلكت الشجاعة في إحدى المرات؛ لأشتكي إلى أحد الحراس، قائلا: «انظر، يمثل ما تقومون به أمرا خاطئا، لم تفعلون ذلك به؟».

رد الحارس قائلا: «إن لم تحفظ لسانك، فستحظى بالمعاملة ذاتها».

ندر أن يخاطبني الحراس بتلك اللهجة، نظرا لأن أن تحدثك الإنجليزية بطلاقة في باكستان يعني أنك تحظى بمستوى تعليمي جيد، وتنتمي إلى أسرة ثرية أو نافذة إلى حد ما، حيث كنت أتحدث الإنجليزية بطلاقة واضحة كلما أظهروا شيئا من الوقاحة معي، بالرغم من عجزهم التام عن فهم أي مما أقوله. تمثل بعض ما كان يعزيني، في الواقع، بثقتي في عدم امتلاكهم الجرأة على فعل أي شيء لي.

قدم أحد مستجوبي شريكي الأفغاني، وهو ضابط في الاستخبارات الباكستانية، إلى الزنزانة فيما بعد، فصافح الرجل يدي، قائلا: «كيف حالك؟، أعتقد أن الأمور ستتحسن بالنسبة لك، أعتقد أننا سنبت في أمرك قريبا».

شعرت بسعادة حقيقية لسماع ذلك، ولكن نبرة الرجل تغيرت تماما حين استدار ليواجه الأفغاني، الذي كان لا يزال ممنوعا من النوم، اقترب منه بحيث كاد أنفاهما يتلامسان، وخاطبه بالأوردية قائلا: «ألم تستعد لسانك بعد؟».

توسل إليه الأفغاني، قائلا: «أرجوك، يبدو أنك لا تفهمني، لقد أخبرتك الحقيقة، ولم أفعل سوى ذلك طيلة الوقت. لا أعلم ما يدفعكم إلى...».

قطع الضابط حديث الأفغاني بلكمة على وجهه، وأتبعها بثانية، فثالثة، فتسمرت في مكاني لهول ما رأيت. نظر الضابط إلي، بعد أن استدار، ولسان حاله يقول: «إياك أن تفكر حتى في الدفاع عنه».

أمسك الضابط الأفغاني من كتفه فيما بعد، وجذبه نحو الأسفل، مرغما إياه على الركوع، ثم خاطبه، فيما اعتبر آخر كلماته قبل أن يغادر، قائلا: «اسمع، إن لم تستعد لسانك مع عودتي، فسأعلمك التحدث بما لم تسمع به من اللغات».

يمكنني القول: إن معرفة الحقيقة كانت آخر هم الضابط، حيث لا ينبغي على السجين إلا الاعتراف بما يلقن له، فقد أعلمني ذلك الموقف، لأول مرة، بما يمكن للتعذيب الجسدي أن يرغم الإنسان على فعله، فلا يكترث السجين لأي شيء بعد التعرض لمقدار معين من التعذيب، عذب الأفغاني كثيرا قبل الاعتراف بأن المبلغ كان يعادل في الحقيقة تسعين ألفا من الدولارات، فعل ذلك أخيرا، وقد رأيته حين وقع على اعترافاته، وتعاقب سجناء آخرون في المجيء إلى الزنزانة، ولم ينج أي منهم من الضرب كذلك.

كان السجانون، بالرغم مما سبق، يعرضون عليهم جميعا فرصة الذهاب إلى منازلهم خلال عطلة العيد، وكأن شيئا لم يحدث، حيث كان العيد سيحل خلال بضعة الأيام التالية، وقد منحني ذلك شيئا من الأمل، وقد غادر السجناء الآخرون بالفعل لقضاء عطلة العيد في بيوتهم، بينما بقيت في زنزانتي، حيث سألت قائلا: «ألن أذهب إلى منزلي خلال عطلة العيد؟».

أجابني الضابط، ذو النبرة المتفائلة حيالي، قائلا: «لا، لن تذهب خلال العيد في أغلب الأحوال، بل ربما بعد ذلك بفترة بسيطة، فلا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام».

كان ذلك ديدن الباكستانيين في حديثهم معي على الدوام: «سيكون كل شيء على ما يرام، تجري الأمور في صالحك، لا مشكلة لديك، لا يتعدى الأمر استكمال بعض الإجراءات الروتينية، كل شيء على ما يرام».

لم يتوقف الباكستانيون، في الواقع، عن طمأنتي حتى تم تسليمي إلى الأمريكيين، إذ تعرضت مع ذلك إلى نوبة شديدة من القلق، وحيداً في زنزانتي، قبل يومين من التسليم، فقد كانت تلك المرة الأولى التي أتعرض فيها إلى شيء من هذا القبيل، بالنظر إلى تمتعي بشخصية هادئة للغاية، وقدرتي على التعامل مع المواقف الصعبة بمهارة عالية، ولكن شكل الخوف على عائلتي الباعث الأكبر لقلقي، حيث كان جهلي التام بمصيرهم، والتفكير بما يمكن أن يسببه اختفائي لهم، بعد كل ما عانوه نتيجة القصف الأمريكي لأفغانستان، كان يقض مضجعي بكل معنى الكلمة، فلم أستطع السيطرة على نفسي، وكدت أصاب بالجنون، وبدأت تمزيق اللحاف، ورمي الأشياء في كل مكان، إلى أن أتى الحارس في نهاية المطاف محاولا تهدئتي، صفعت الأخير على وجهه، ولكنه امتنع عن الرد، أو فعل أي شيء لدماثة خلقه، فقد خاطبت فيه روح الإنسانية قائلا: «أرجوك، كيف يمكنكم فعل هذا بي مع علمكم أنني أجهل مصير عائلتي، ناهيك عن احتجازي دون أية تهمة أو مسوغ قانوني».

حضر الطبيب بعد ذلك بساعتين لمعاينتي، وفحصني بصورة شاملة. فوجئت فيما بعد بقدوم من اعتدت مناداته «بالعم»، حيث خاطبني قائلا: «آه، يتوجب عليك الذهاب، يريدون رؤيتك».

تساءلت عما إذا كان ما فعلته وراء ذلك، ربما أدركوا أخيراً أن وضعي أصبح لا يطاق، فقد ذهبت تساؤلاتي أدراج الرياح حين أعادوني إلى المنزل الواقع في منطقة «جي 10». كان الضابط المسؤول هناك شخصا عرفته فيما بعد لالتقائي به في غوانتانامو: مايك، عميل «الإف بي آي» (مكتب التحقيقات الفيدرالي).

جلسنا ذلك اليوم إلى مائدة غرفة الطعام كالمعتاد، كنت أجلس في جهة، ويداي مكبلتان بالأصفاد، بينما كان مايك يجلس في الجهة المقابلة، إذ كان هنالك ضابط باكستاني للمرة الأولى، ولكنه لم يقل الكثير، حيث كان مايك يحمل رسالة قصيرة للغاية، وأعطاني الانطباع بأنه لم يكن راضيا عما كان يجري، وأنه كان يؤدي واجبه لا أكثر.

تحدث قائلا: «جئت لإعلامك أننا قررنا إرسالك إلى قندهار، ومن ثم إلى كوبا، وستوضع في سجن عسكري يفوق الذي كنت فيه قسوة، وإن استمررت في عدم التعاون معنا، فستمضي وقتا طويلا للغاية هناك، وإن لم تقل الحقيقة، بغض النظر عن تعاونك من عدمه، فسيحدث لك الأمر ذاته».

كنت قد شاهدت صورا لخليج غوانتانامو من قبل، واكتفيت بالنظر إلى مايك، والدموع تترقرق في عيني، قائلا: «هل ستطول المدة... سنوات؟».

أجابني قائلا: «آه، لا، بضعة أشهر فحسب».

كان وقع المفاجأة شديداً علي، ولكنه لم يمنعني من طلب كتابة رسالة إلى زوجي قبل مغادرتي، فقد وافق الرجل على طلبي، وأعطاني بعض الأوراق وقلما للكتابة، فكانت تلك أصعب رسالة يمكن أن أكتبها، محاولا قول التالي فيها: «لا أعلم إن كنا سنلتقي مجدداً، أو متى سيتم ذلك». أردتها أن تسامحني إن كنت قد

قمت بما يمكن أن يؤذي مشاعرها، وودت تقديم النصح لها، وللأطفال، وتحدث مايك قائلا: «لسنا مؤسسة خيرية، ولكنني سأوصل رسالتك إليهم». أجابني الرجل، حين سألته عما إذا كان بمقدوره العثور عليهم، قائلا: «حسنا، لقد عثرنا عليك، أليس كذلك؟». لم تصل الرسالة إلى زينب أبداً.

انتهى اللقاء بمناشدتي الضابط الباكستاني مساعدتي، متحدثا الأوردية، وسألته العودة إلى ضميره، وحسه الوطني، فلم يكن ذلك بتسليم قانوني، فكيف أمكنه السماح بحدوثه، ومال الضابط بجسده إلى الأمام، وسكب بعض الماء في كأس قدَّمه إلي، ثم خاطبني، قائلا: «يتمثل كل ما يمكنني تقديمه إليك في هذا الكأس». وددت التقاطها، ورمي الماء في وجهه.

خاطبني أحد الضباط الباكستانيين، في الطريق إلى ما اكتشفت أنه المطار، قائلا: «معظّم، يا صديقي، لقد بعت دنياي وآخرتي مقابل ما سأقوم به الآن»، ثم أورد الآية التالية من القرآن الكريم: ﴿... **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ...**﴾[1].

لم أنبس ببنت شفة.

عقب الضابط قائلا: «سأدفع ثمن ذلك يوما ما».

تحدث الرجل، بينما أوشكت السيارة أن تتوقف، قائلا: «سيكون كل شيء على ما يرام، فلا تقلقن. تنتهي رحلتي هنا، بينما توشك رحلتك أن تبدأ».

***

(١) سورة الأنعام، آية ٥٩ .

-2-

اللينكس

تتمحور معظم ذكريات طفولتي المبكرة حول والدي، عظمات، وشقيقي، عظّام، الذي يكبرني بسنة وسبعة أشهر، دون أن يعني ذلك غياب والدتي، شاكيلا، عنها، إذ توفيت حين كنت في السادسة من العمر، فلا أذكر الكثير عنها، باستثناء رحلتنا الأولى إلى الخارج لزيارة أقربائها في دلهي، مسقط رأسها. وجدنا نحن الصبيّان الهند عالما جديداً غريبا، شديد الاختلاف عن بيرمنغهام، حيث ولدنا، فقد شكل الازدحام، والغبار، والروائح، والفقر الواضح في دلهي، وبومباي، ومسقط رأس والدي في آغرا ـ حيث يقع تاج محل بكل ضخامته وروعته ـ أولى اللمحات المنطبعة في مخيلتي عن تراثنا الشرقي.

يتمثل ما أذكره عن أمي أيضا في المرة الأخيرة التي رأيتها بها، إذ كانت مستلقية على سرير المستشفى، وديعة للغاية في مظهرها، تعم السكينة ملامحها، مع كل الشحوب والاصفرار البادين على وجهها، وشعرها الذي فقدت معظمه، فقد أحاطت كلا منا بذراعيها، وقبلتني للمرة الأخيرة، حيث كان والدي قد هيأنا لتقبل هذه الفاجعة قبل حدوثها بفترة من الزمن، فكنا قد علمنا بما سيقع بالنظر إلى بقائها في المستشفى مدة طويلة.

أخذنا والدي إلى الحديقة يوم وفاتها، نتيجة سرطان الثدي، وخاطبنا قائلا: «لم تعد أمكما موجودة، لقد ذهبت إلى الله». بكينا جميعا، وقد فسر والدي الأمر بتشبيه الناس بالمسافرين المنتظرين للقطار الذي سيقلهم إلى الوجهة التالية، قائلا: إن أمي استقلت القطار قبل المعتاد، وإننا سنقوم، مع ذلك، بركوبه جميعا يوما ما، وأردف والدي قائلا: إننا كنا أغلى ما لديها، وإن أمنيتها الأخيرة تمثلت في أن يكبر ولداها؛ ليصبحا رجلين محترمين يعرفهما العالم بأسره.

بدأت ذكرياتي عن أمي، المتمثلة في ألبومات صورها، وما تملكه من كتب علم النفس التي يغطيها التراب، بدأت تلك الذكريات، مع مرور الوقت، تتلاشى شيئا فشيئا، وكنا نزور قبرها كثيراً للدعاء ووضع الزهور، ولكنها قليلا ما كانت تذكر في المنزل فقد مثلت والدتها الامتداد الوحيد لذكراها في حياتنا وهي كما نعرفها، امرأة متدينة حجت بيت الله الحرام أكثر من مرة، وكثيراً ما كانت تجلب الهدايا الثمينة لنا عند عودتها، وترينا صورا خلابة للديار المقدسة، وقد فارقت جدتي الحياة عقب عشر سنوات تقريبا من رحيل ابنتها، فدفناها بأنفسنا أيضا، ودخل والدي وأخي في جدال حول بضعة آلاف الجنيهات التي خلفتها، سألت والدي أن يهبها إلى ضحايا المجاعة في أثيوبيا، (تمثل الزكاة الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي مقدار محدد من المال يتوجب دفعه سنويا على جميع البالغين من المسلمين، أما بالنسبة إلى الصدقة، فقد بدأت في إعطائها بمجرد أن بدأت كسب المال، في منتصف سنوات مراهقتي، بالرغم من أن الزكاة لم تكن مفروضة علي بعد). مثَّل ما ذكرته للتو عن الزكاة والصدقة مظهراً مميزاً لحياتي عقب بلوغ سن الرشد.

بقينا بمفردنا مدة من الزمن في بيرمنغهام، والدي، وأخي، وأنا. كانت عماتي وأصدقاء العائلة الآخرون يعتنون بنا، بخاصة حين كان والدي يغادر إلى لندن، وزيورخ، أو اللوكسمبورغ لإدارة بعض المصارف، ولكننا لم نكن نلبث أن نصبح وحدنا مجددا عند عودته إلى بيرمنغهام. كان والدي يروي قصص ما قبل النوم لنا، مستمدة من القرآن الكريم ومهد الإسلام، في بعض الأحيان، أو من كتاب «ليال عربية»، أو مدة الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية. أعطتني تلك القصص لمحات عن العالم الآخر الممتد إلى الهند وما بعدها. أخبرنا والدي كذلك عن تراثنا الإسلامي الهندي، قائلا: إن الجوهرة النفيسة، كوه ـ آي ـ نور، الموجودة في برج لندن كانت ملكنا بالأساس قبل أن يسرقها البريطانيون من أجدادنا، وإن اسم «بيغ» يعني القائد أو الزعيم، ويستخدم من الصين إلى

يوغوسلافيا، وإننا ننتسب إلى سلالة المغول، أو التتار، الذين استخدموا ذلك الاسم أيضا، واستقروا في آسيا الوسطى، وحكموا أكبر إمبراطورية في التاريخ، الإمبراطورية المغولية العظمى في الهند. كان اسما تيمورلنك وجنكيز خان يذكران باحترام كبير في منزلنا، وكان والدي يدعوني في بعض الأحيان «تيموجين»، وهو اسم جنكيز خان الحقيقي. شاهدت والدي، بعد ذلك بسنوات عديدة، يملأ قسم الأصل العرقي في استمارة الإحصاء، وقد اضطر إلى شطب الخانات الموجودة كافة، بالنظر إلى أن أيا منها لم يكن ينطبق علينا، وكتابة كلمة «مغول» عوضا عنها.

أخبرني والدي كثيراً عن طفولته، وكيف كان يعتبر أحد أفضل الرياضيين في مدرسته، وأنه دخل في شجارات كثيرة، استخدم فيها قوته وسرعته على الدوام لحماية الأولاد الضعاف من متنمريهم. كان ما غرسه فيّ - بحق - من حب العدالة، والغيرية نبراسا هاديا لي في حياتي.

ألحق والدي كلا منا بمدرسة ابتدائية يهودية، حين كنا في سن مبكرة. كان خياره واقعيا بالرغم من كل ما اتسم به من غرابة، حيث مثّلت مدرسة الملك داود، بمعاييرها التربوية العالية، وتأكيدها على المبادئ الدينية والأخلاقية، بالإضافة إلى قوانين كوشر الغذائية، المشابهة لقوانيننا، خيارا مثاليا بالنسبة له، ناهيك عن إظهاره مدى ليبراليته، ورغبته في انتقاء أفضل ما تحويه الثقافات كافة، وقد أسهم خيار والدي كذلك في تنمية اهتمامي الكبير بالتدريس الديني مع تقدمي في السن، فأحببت ما كنا نسمعه من قصص التوراة في المدرسة، وما يقابلها من قصص القرآن الكريم في المنزل، وعلقت بعض القصص اليهودية التي سمعتها من المدرسين في ذاكرتي، كالثورة البطولية التي قادها يهوذا ماكابي، الذي «لم يكن ليحني رأسه لأي مخلوق»، علاوة على بعض ما يماثلها من قصص والدي المستمدة من التاريخ الإسلامي.

استمتعت بالمشاركة في المسرحيات التي تمجد التاريخ اليهودي خلال الاحتفالات بعيد الأنوار (حانوكا)، وعيد الفصح (بيساح)، وعيد المساخر (بوريم)، ويوم الغفران (كيبور). كنت أتلو الصلوات بالعبرية على المسرح في بعض الأوقات، كما يتلو أصدقائي، معتمرا «الكيبا» (اليامولكا) (قبعة رأس يهودية). كان أحدهم، ميشا موزيل، قد لقبني «بموزمبيق».

مثلت الجغرافيا مادتي المفضلة في تلك المدة، وقد تمكنت، بحلول العاشرة من عمري، من حفظ أسماء كل دول العالم وعواصمها، آملا زيارة بعضها يوما ما.

كان لباسي المدرسي ـ بما في ذلك سترتي وقبعتي ـ يحمل صورة «موغان دوفيد» (نجمة داود)، حيث كنت أرتديه يوميا، فرحا به مزهوا كأي طالب مدرسة، كنت أحيي العلم الإسرائيلي في أيام الأعياد، شأني في ذلك شأن الطلاب الآخرين، وأحضر فيما بعد الظهيرة، عقب المدرسة، دروس تلاوة القرآن.

لم يكن الدين بصورة عامة ما نتعلق نحن الصغار به، ولكنني تجادلت في إحدى المرات مع أعز أصدقائي، ميشا، حول أن الإسلام يمثل أسمى الرسالات السماوية لحضه على فعل الخير.

كان باب فصلنا يحوي ملصقا يصور قبضة بارزة، وبعض ما لم أفهمه من الكلمات، وكانت «الصهيونية» إحداها، فاستلزمني الأمر عشر سنوات تقريبا لأكتشف معناها.

امتلأ رف والدي بكتب التمويل وإدارة المصارف، علاوة على القانون، والتاريخ، والروايات الإنجليزية الكلاسيكية. لم يكن يمثل الرجل الإنجليزي على أكمل وجه، ولكنه أحب التاريخ والأدب الإنجليزيين، وكثيرا ما كان يأخذنا إلى مسقط رأس شكسبير في ستراتفورد ـ أبون ـ آفون، أو موطن وردزورث في منطقة البحيرات. كنا نزور قلعة ورويك، وقصر بلنهايم بشكل دوري. كان والده يعارض ذهابه إلى السينما بشدة، حين كان طفلا صغيراً، ولكنه اعتاد أخذنا إلى هناك، وقد تمثل

أكثر ما كان يفضل مشاهدته في «كليوباترا»، و«حيث تجرؤ النسور»، و«جسر بعيد جداً». كان يستمتع كذلك بسرد قصته المفضلة من رواية «السلاح والرجل» لبرنارد شو، حول «جندي الشيكولاتة الذي لم يكن يرغب في القتال»، وكيف ساعدته تلك القصة في عدم الالتحاق بالجيش كما تنص تقاليد عائلته.

تمسك والدي على الدوام، بالرغم من اندماجه في نمط الحياة البريطانية، واعتباره إلى حد ما من المحافظين المؤيدين لها، بإسلاميته، وإن لم يكن ذلك بقوة، عبر الالتزام بتناول الأطعمة الحلال، والامتناع عن شرب الخمر، وأداء صلاة الجمعة، والجنازة حال إقامتها. حرص والدي كذلك على تكريس القيم الفيكتورية القديمة، التي كانت تشابه قيمه الإسلامية كثيراً، إذ كان يغرس في عقولنا يوميا احترام الوالدين والمعلمين، «تتصرفان بالطريقة التي أخذ الإنجليز يتبعونها»، كان يقول ذلك لنا حين كنا نعصيه، أو نرد عليه. انبثقت عقوبتنا ـ بسيطة كانت أو قاسية ـ من طريقة تربية والده له، كنا نجبر على الوقوف مقابل الحائط، والاستماع إلى الأوامر التالية: «العينان مغلقتان، الفم مطبق، الرأس مرتفع، الظهر منتصب، الصدر بارز، اليدان على الجانبين، القدمان ملتصقتان، لا تتحرك...». كنا نضرب، إن تحركنا، بالنطاق في بعض الأحيان، أو بما هو أسوأ من ذلك. كان أخي يضرب أكثر مني، ولكنني كنت أضرب معه في الغالب، فربما كان والدي يفعل ذلك؛ كي لا أشعر أنني مهمل.

شغل والدي كذلك منصب رئيس «جمعية تطوير اللغة الأوردية»، وكان شاعراً متمكنا بتلك اللغة. وملتزما بحماية ذلك الجزء من تراثه، فقد اعتدنا في مناسبات عدة، لقاء أصدقائه الذين كانوا في الغالب من الأطباء، والأساتذة الجامعيين، ورجال الأعمال الذين كان معظمهم من المسلمين المنتسبين إلى أصول هندية ـ باكستانية مثلنا، ولكنه ارتبط بعلاقات وثيقة كذلك مع أصدقائه من الهندوس، والسيخ، وغيرهم من الإنجليز.

أصبح والدي، بعد وفاة أمي، وبصفته مديرا لأحد المصارف أرمل مرغوبا للكثير من النساء، وظننت أن إحداهن ستصبح زوجا له. وتدعى جوزيفين، أو جو، كما كنا ندعوها، وهي تنتسب إلى عائلة إنجليزية بامتياز، وكانت تحضرني وعظّام من المدرسة كل يوم جمعة، حيث كان اليوم الدراسي ينتهي باكرا بسبب عطلة السبت اليهودية، كي تأخذنا للخارج طيلة مدة ما بعد الظهيرة، ونمضي الليل في منزلها بعد عودتنا. مثل ذلك بالنسبة لنا عالما آخر، إنجليزيا للغاية، بكل ما يتضمنه من أنماط سلوك رسمية، وعادات شديدة الاختلاف عن مثيلاتها في عيد الفصح أو الأضحى، كجوارب عيد الميلاد المليئة بالهدايا، وحلوى البودنغ مع ستة البنسات الفضية، أو تقديم بقلة الماء مع السلطة. عرفتنا جو على ما لم نكن نألفه من أفكار، كجمع الأزهار خلال رحلاتنا إلى تلال كوتسولدز أو مالفرن، ووضعها في ألبومات، وكانت تروي لنا قصص ما قبل النوم أيضا، مستمدة من الأدب الإنجليزي الكلاسيكي، أو قصص الأخوين غريم، وهانز كريستيان أندرسون، وقد أحببتها تقريبا كما أحببت قصص والدي المستمدة من التراث، والتاريخ الهنديين، وكانت جو حانية للغاية في تعاملها معنا، وكنا نتطلع بصدق إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع معها.

كان عمي وعمتي مهمين للغاية لنا أيضا في تلك المدة، فقد قدم عمي، غضنفر، من باكستان حين كنا في الثامنة تقريبا، وبقي معنا حتى تزوج ورحل، ولكنه حرص كثيرا على تعليمنا، إذ كان يعطينا دروسا إضافية في الرياضيات والعلوم في وقت فراغنا، بينما كان في طريقه لنيل درجة الدكتوراه، وهو متمسك بالكثير من القيم الشرقية الأخرى التي تخلى عنها والدي، وقد رتب لنا دروسا لتلاوة القرآن، بعد أن راعه جهل كلٍّ منا باللغة العربية، ولكني كنت أحضر تلك الدروس على مضض، لأنني لم أكن أستسيغها، بالرغم من أن المعلمة لم تكن تستخدم العنف أو الكلمات القاسية في تعاملها معنا، كما يمكن أن يفعل الكثيرون غيرها، وأدركت، مع ذلك، أننا نتعلم العربية على الطريقة الباكستانية، وأن اللكنة الأوردية تهيمن على لفظنا لكلماتها، وهو ما مثل أمرا خاطئا للغاية؛ لذا قررت، بالنظر إلى ذلك، أن أتعلم العربية بشكل صحيح يوما ما، وأفهم معاني الآيات القرآنية التي كنت أتلوها.

لم تكن جوزيفين، بالرغم من كل ما سبق، من اقترن بها والدي في نهاية المطاف، بل كانت امرأة التقاها في المصرف، وهي ولدت غولبهار، أو خالتي غول، كما صرنا نناديها فيما بعد، في بريطانيا، وكانت تنتمي إلى عائلة آسيوية كبيرة. واعتقدت أنا، وأخي، أن قرار والدي بالزواج منها كان مستندا إلى رغبته في تنشئتنا على الطريقة الشرقية، وقد بدأنا للوهلة الأولى، مع تقدمنا في السن، وتقبلنا انضمام شخص جديد إلى أسرتنا، نسبب المتاعب لزوج أبي، فازداد سلوكنا سوءا، في الحقيقة، مع بلوغ سن المراهقة، ولكنها دائما ما كانت تعاملنا بمنتهى الصبر والكياسة، دون اللجوء إلى العنف مطلقا، وتميزت بقدر كبير من الشهامة، وتجاهلت كل ما أبديناه من فظاظة، ناهيك عن قيامها بكل ما تفعله الأمهات من غسل، وطهي، وتنظيف. حاولتُ، مع ذلك، الاستقلال عنها منذ البداية، وتدبير ما استطعت من أموري بنفسي، فكنت أكوي ملابسي، وأغسل كل ما أستخدمه، وأبقي غرفتي مرتبة، وتمكنت المرأة بمرور الزمن من خطب ودنا، عبر ما أبدته من صبر ومثابرة.

كنت أبلغ الحادية عشرة تقريبا حين ولدت شقيقتي، عظمى، وقد تعلقنا بها، نحن الفتيان، كثيرا. دخل والدي مرتعشا، صبيحة أحد الأيام، حين كانت لا تزال رضيعة، وخاطبنا قائلا: «لقد رحلت عظمى»، إذ أصيبت المسكينة بالتهاب الشعب ذلك الصباح، هكذا بكل بساطة، فقفزت عن سريري، وارتميت على الأرض باكيا. ذهبت فيما بعد إلى غرفة والدي، لأجدها جثة هامدة في سريرها الصغير وقد كان لذلك وقع مزلزل على زوج أبي ولكن لم يلبث طفلها الثاني، أسد، أن ولد بعد ذلك بسنتين.

التحقت مع شقيقي عظّام بمدرسة محلية، بعد مدرسة الملك داود وكان يوجد في سنتي الدراسية حوالي العشرين طفلا آسيويا، وعشرة من السود، وأكثر من مئة وخمسين من البيض، وكان معظم أصدقائي، من المسلمين، والهندوس، والسيخ، والمسيحيين، دون وجود ما يذكر من اليهود.

كانت مدرسة «موزلي» الثانوية قد بنيت في بدايات القرن التاسع عشر وفق النمط المعماري القوطي، وقد كانت مقاعدها مزودة بالمحابر، بدأت كمدرسة لتعليم القواعد، ثم ما لبثت أن شملت كل المواد، وتمجد جدران جناحها الغربي تضحيات الطلاب القدامى الذين قضوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، ولا يزال عدد من مدرسيها يرتدون أثوابا سوداء، ويفرضون انتعال حذاء رياضي على كل من يسيئ التصرف. كنا ننخرط صبيحة كل يوم في اجتماع يتضمن قراءات من الإنجيل، وإنشاد التراتيل، مثل ذلك بداية تعرفي إلى المسيحية، التي كانت تشكل بوضوح جزءاً لا يتجزأ من هوية المدرسة، ولم أجد صعوبة في قراءة أو تقبل بعض الأدعية، «كصلاة الرب»، أو ما كان يمجد الله من الأغاني، بينما امتنعت عن ترديد أي مما ينسب الألوهية إلى البشر. يشترك الإسلام واليهودية في توحيد الله -عز وجل-، الذي لم يكن من البشر، أو الحيوانات، أو الأوثان، أو التماثيل، بل واحد أحد، لا شريك له. كان المسيح بالنسبة لي نبيا مميزاً، قادراً على الإتيان بالمعجزات أينما حل، دون أن يكون ظل الله في الأرض، أو ولده، لم يقتل أو يصلب باعتقادي، بل رفعه الله إلى السماء؛ ليعيده إلى الأرض قبل اليوم الآخر.

أذكر أنني تحدثت مرة في الفصل، حين كنا ندرس موضوع الميلاد، فأصرت المدرسة على أن المسيح كان ابن الله بسبب حمل مريم العذراء المعجز، وولادتها، سألتها قائلا: «كان للمسيح أم على الأقل، فمن كان لآدم؟، لم يكن له أم أو أب، ألا تعتقدين بالتالي أن خلقه هو أكثر إعجازا بالتأكيد؟». استاءت المدرسة كثيراً من سؤالي، وغيرت مجرى الحديث بسرعة نحو موضوع آخر.

تمثل جزء من تقاليد مدرسة موزلي في تدريس مادتي الدراسات الكلاسيكية، واللاتينية، فاخترت في السنة الثانية ـ بعد تفوقي في سابقتها ـ دراسة اللاتينية، التي أصبحت، مع التاريخ والدراسات الكلاسيكية، أكثر المواد المفضلة لدي.

بدأت الأمور تتغير في أوج مدة المراهقة. كان أخي قد انضم فعليا إلى إحدى عصابات الشوارع المحلية، التي تتألف بمعظمها من شباب باكستانيين ينتمون إلى عائلات تقليدية متزمتة، لا من حيث التمسك بالدين بالضرورة، بل العادات والتقاليد الكشميرية الصارمة. ثار العديد منهم على ذلك الواقع بالتغيب عن المدرسة، ومصادقة الفتيات، وشرب الخمر، والتدخين، وتعاطي المخدرات، ناهيك عن التورط في المشاجرات، وأعمال السلب، وسرقة السيارات بغرض التسكع، ولكني كنت قد نجحت في الواقع في الابتعاد عن معظم ذلك، باستثناء المشاجرات العرضية التي تقع بين أفراد العصابات، وقد نزع أبناء جنوب آسيا الموجودون في بريطانيا في تلك المدة إلى التفوق في الدراسة، والجانب الأكاديمي، ولكنهم كانوا يصمتون، وإن تعرضوا لأشد الاعتداءات سوءاً.

تملك الحركة البريطانية، والجبهة الوطنية تأييداً قويا في بعض مناطق بيرمنغهام، ولم يسلم أي منا من سماع عبارة «عودوا إلى وطنكم أيها الباكستانيون» في مرحلة معينة من حياته، بينما كان آخرون يضربون دون أي سبب. كان شقيق زوج والدي قد تعرض للضرب من قبل مجموعة من حليقي الرؤوس عند عودته من المدرسة، فكسر فكه نتيجة ذلك، وعجز عن تناول الطعام أسابيع، ولقد هاجموا والدي حين كنت طفلاً صغيراً، ولكنه كان قادرا على الدفاع عن نفسه. تمثل الأسوأ في الهجمات التي كانت تتعرض لها النسوة الآسيويات، إذ كن على الدوام هدفا سهلا بسبب مظهرهن: الحجاب، الشالفار كاميز (رداء باكستاني)، الساري، وطبيعة لا عدائية بشكل عام.

لم يكن من غير المألوف في الثمانينات أن يشاهد المرء كتابات عنصرية على الجدران في بيرمنغهام، أو وشوما تعبر عن الكراهية على أذرع حليقي الرؤوس، ورقابهم، وجباههم. يتمثل ما أذكره منها في «اى بي ال» (رابطة معاداة الباكستانيين)، و«ان اف» (الجبهة الوطنية)، و«اخرجوا أيها الباكستانيون»، و«اخرجوا أيها الووغز» (كنت قد سررت لاكتشاف أن كلمة «ووغ» تمثل اختصارا لعبارة «السيد الشرقي النبيل»).

استهوتني، بالنظر إلى ما سبق، فكرة الانضمام إلى عصابة لا تتخذ موقفا مائعا من مسألة العنصرية، فانضممت إلى العصابة بعد مدة قصيرة، بالرغم من صغر سني البالغ خمس عشرة سنة تقريبا، وكانت تدعى «اللينكس». كان أفراد العصابة، أصدقاؤنا، من الإنجليز، والعرب، والإيرلنديين، والهنود، والكاريبيين من أصل أفريقي، ولكن غالبيتها تألفت من الكشميريين.

اشترت لي زوج والدي، بحلول ذلك الوقت، سلسلة كتب بعنوان «أبطال الإسلام»، التي أصبحت تمثل، مع «الإلياذة والأوديسة» لهوميروس، أكثر الكتب المفضلة لدي. كانت تلك المرة الأولى التي أقرأ فيها فعليا، وبشكل فردي، عن النبي محمد ﷺ وصحبه، إلا أن فيلم «الرسالة» لأنتوني كوين، الذي يدور حول الإسلام، كان ما أسر مخيلتي بحق، فغمرتني شخصيات تلك الملحمة عاطفيا، وتملكني الفخر لانتمائي إليها، وإلى تاريخها، إذ تحلت تلك الشخصيات بمكارم الأخلاق، والشجاعة، والانضباط، والمبادئ، وكان النصر حليفها على الدوام، فلقد كان أصحابها عربا مسلمين، لا فرسان إنجلترا المسيحيين، محتكري الشهامة والفروسية، كما لقنت في المدرسة، وعبر شاشات التلفاز.

قررت ذات يوم، بالرغم من عدم ذهابي إلى باكستان مطلقا، أن أطرز علمها على الذراع اليمنى لسترة الجيش الإيطالي التي كنت أملكها، وقد سبب ذلك لي بعض المشكلات في المدرسة، حيث طالبني المدير بإزالته، قائلا: إن المدرسة ليست مكانا لرفع الشعارات والرموز، ولكني كنت قد استهلكت الكثير من الوقت والجهد لوضعه بحيث قررت عدم إزالته، وبدا أن المدير نسي أمره بعد مضي وقت قصير. مثل ذلك بالنسبة لي تأكيدا على هويتي، بالرغم من أن والدي انتميا بالأصل إلى الهند. كان معظم أفراد "اللينكس" من كشمير الباكستانية، ويتحدثون لغة مختلفة كليا عن الأوردية، وعجزت عن إيجاد ما يربطني بالوطن الذي يتحدثون عنه كثيرا حين يعودون منه عقب زيارة ما، مثلت باكستان بالنسبة لي أمرا مختلفا، كانت باكستان الشعر، والثقافة، والعلم، والجيش، تماما كما صورها والدي.

كنت طالبا في أكثر فصول سنتي الدراسية تفوقا، وكان جميع من فيه، الفتيات على نحو خاص، مجدين في دراستهم للغاية، ومع ذلك بدأت درجاتي في الانحدار، وتراجع أدائي الدراسي عن المستوى المطلوب، وقد نتج ذلك عن تغيبي، وانضمامي إلى العصابة، إذ كنت أفوت الكثير من الحصص في التسكع، واللهو، والاستماع إلى أغنية مايكل جاكسون الشهيرة «بيت ات» في مقهى «شيليلا».

أحببت شعور الانتماء إلى العصابة، والارتباط بمن تجمعني بهم بعض القواسم المشتركة، ولكن سير الأمور، بكل الأحوال، لم يكن متناغما مع ذلك: كان أصدقائي الأول من اليهود، ويدرسون في مدارس القواعد حينها، وفي مدرستي موزلي، وكان آندرو، الفتى البولندي، أول من يمكن اعتباره أعز أصدقائي، وقد احتل أنجوم، الفتى الكيني الآسيوي ذلك المكان فيما بعد وهو الذي لا ينتمي إلى أي عصابة.

التحق معظم أفراد «اللينكس» بالمدارس في أكثر المناطق المعدمة في بيرمنغهام، ولم يكن لهم علاقة تذكر بمنطقتي، إذ كانت تجربتهم مع العنصرية أسوأ بكثير مما يمكن أن أمر به، وقد تعرض معظمهم للضرب من قبل العنصريين في مرحلة ما، بل وتم إسعافهم إلى المستشفى، فكانت الأمور تبدأ بمضايقتهم من قبل بعض الأولاد البيض الأكبر سنا، الذين ينظرون إلى جموع الطلاب السود والآسيويين بازدراء كبير، ليتواصل العنف حتى بعد مغادرة أولئك البيض المدرسة، كثيرا ما كانوا ينتظرون خارج بواباتها للمشاركة في حفلة «ضرب الباكستانيين»، وقد كان حليقو الرؤوس يأتون بالحافلات في بعض الأحيان للقيام بذلك، فطفح الكيل بالفتيان الآسيويين، فشكلوا عصابة «اللينكس».

تقاطع عالماي مرة واحدة لا أكثر، إذ كنت في الخامسة عشرة من العمر، والسنة الرابعة في المدرسة فحسب، ولكنني رأيت البداية التي ساءت بها الأمور، فنادرا ما كان الشجار يشب بين شخص وآخر، بل بين عصابة بأكملها وشخص واحد. إن كان أحدهم يقاتل بمفرده، فسينضم إليه رفاقه للمشاركة

في ضرب وركل الشخص الآخر حتى يصبح وجهه مشوها، لم يكن ذلك يحدث للكثير من الناس، ولكن أخي كان أحد ضحاياه، إذ تعرض للضرب المبرح خارج المدرسة، لينتهي به المطاف إلى المستشفى، ويتغيب عن المدرسة بضعة أسابيع. كان من فعل ذلك من البيض بمعظمهم، بينما كان بعضهم من أصول مختلطة، فربما كانوا قد علموا أن أخي ينتمي إلى عصابة باكستانية خارج المدرسة، فرسم المعتدون حدودهم على ضوء ذلك، ودخلوا معركتهم تحت شعار: «لنشارك في حفلة ضرب الباكستانيين».

دخل خمسة منهم إلى الحمام في إحدى المرات، حين كنت على وشك مغادرته، بعد أن تبعوني خلسة في أرجاء المدرسة، واقترب أحدهم مني، وأمسك يدي، قائلا: «تظن أنك قوي للغاية، بسترتك الباكستانية، وعصابة «اللينكس» الباكستانية التي تنتمي إليها، أليس كذلك؟، سنوسعك ضربا كما فعلنا بأخيك». دق قلبي بشدة في تلك اللحظة، وفكرت، بينما نظرت إلى الآخرين، قائلا لنفسي: «كيف يمكن لي الخروج من هذا المأزق؟». لم أكن أسعد قط برؤية المدرس الذي دخل للتو، وقد أحسنت صنيعا بالهرب على الفور. تمثلت المشكلة، مع ذلك، في عدم وجود من يدعمني في المدرسة، فكان يتعين علي النظر خلف كتفي طيلة الوقت ما لم أتحدهم، ولم يكن يوجد من هو مستعد لمساعدتي في المدرسة، باستثناء أنجوم، فقد كنت واثقا، مع ذلك، بقدرتي على الاستنجاد بأعضاء «اللينكس».

رأيت الخمسة ذاتهم، في اليوم التالي عند مغادرتي المدرسة، يتخذون مواقعهم استعدادا للقتال، إذ كانوا قد رؤوا أفرادا من «اللينكس» ينتظرون في الخارج: بونز، شيكو، بلوب، بودا، هاك، خان، سام، وسيغي. كان جميعهم يقفون في صف واحد يواجه مدخل طريق سبرينغفيلد، حيث كانت تقع المشاجرات كافة، ويرتدون سترات الجيش الإيطالي ذاتها، مطرزين النسر الأحمر على أذرعتها اليسرى، إذ كانت تمثل زينا الموحد، ورمز ما نظهره من تحد.

كان جميع أفراد «اللينكس» يحملون أسلحة خفية، بما فيها السلاسل، ومضارب البيسبول، وقضبان حديدية، وعصي «النينشاكو». كنت قد خرجت من المدرسة باكراً؛ لأصطف إلى جانبهم، ولم يكن عدد من حضر من أفراد «اللينكس» يتجاوز الثمانية، ولكن الخمسة المقابلين ذكروا أنهم سيجلبون المزيد من رفاقهم من خارج المدرسة، بالنظر إلى أن كرامتهم داخلها كانت على المحك، وقد وصل بعد ذلك بوقت قصير ما يقارب الخمسين شخصا، واحتشدوا بصورة غير منتظمة في مواجهتنا. أدركت عند ذلك أنني ارتكبت خطأ فادحا. بدأ الصراخ والجدل يتصاعدان، وأخذ صوتي يضيع في خضم ذلك.

انبرى أحد أعضاء العصابة، الفتى الباكستاني الألماني سيغي، الذي يتمتع بشخصية قيادية، وشجاعة للغاية، متصديا لخصومنا، فقد كان مستعدا لقتالهم جميعا، فحرص البقية على رسم ملامح عابسة متجهمة على وجوههم، والتلويح بأسلحتهم، بالرغم من قلقهم الواضح. فوجئت بأحد زملائي في المدرسة يتجه صوبي، ويخاطبني قائلا: «انظر، ستسوء الأمور كثيرا إن لم تحاول إيقاف ما يحصل. قل شيئا». كان الفتى محقا، ولكن سيغي صعّد من لهجة التحدي.

خاطبهم الأخير، بعد أن وقف في المقدمة، قائلا: «اسمعوا، إن أردتموها الآن، فنحن لها، ومستعدون لإشباعكم ضربا، ولكن ذلك سيودي بنا جميعا إلى ما لا تحمد عقباه، لم لا تلاقوننا أيها الجبناء ليلة السبت في حديقة سباركهيل، عوضا عن القتال هنا؟، أحضروا كل جماعتكم. لن يكون هنالك مدرسون، أو أطفال صغار، أو رجال شرطة نقلق بشأنهم».

وافق خصومنا على ذلك، حيث كان الجميع قلقين من نشوب الشجار أمام المدرسة، وأنظار العامة. لم ينقذ سيغي رقابنا فحسب، بل وسمعتنا أيضا، فتم قبول التحدي، ولكنني كنت أعرف أن خصومنا لا ينتمون إلى عصابة منظمة خارج المدرسة، وأنهم لن يحضروا في الموعد المحدد، وهو ما حدث بالفعل. مثل ذلك انتصاراً نفسيا بالنسبة لي، حيث بلغت مصداقيتي خارج المدرسة أوجها، وعلم طلابها بوجود من يدعمني، فلم أتعرض للمتاعب مجددا بعد ذلك الموقف.

كان ما حدث بالنسبة لي أول النزاعات الجدية التي خاضتها العصابة، أو كادت، مثل القتال في بعض الأحيان هدفا بحد ذاته، ولم يكن يخلو الأمر من المبالغة حين كان الناس يتناقلون ما يحدث خلاله، إذ كان الوقوف إلى جانب الأصدقاء هو الأهم في نظري، مع مشاركتي النادرة في القتال، بالنظر إلى أنني كنت الأصغر، والأكثر ضآلة في الحجم.

دارت إحدى أشد المعارك التي خاضتها العصابة آنذاك على غرار ما حدث في فيلم «كوادروفينيا». كانت إحدى العصابات المتنقلة بواسطة الدراجات النارية قد هاجمت متجر عائلة هاك، وحطمت كل ما فيه، فقبل أفراد تلك العصابة التحدي، حين عرض عليهم هاك المنازلة، قائلين: «حسنا أيها الباكستاني السافل، سنعود مجددا الليلة، وسننتظرك خارج حانة (ميرميد)». التقينا في منزل سيغي، حيث كنا نجتمع كثيراً، ليخبرنا هاك بما جرى، وأن خصومه عائدون لقتاله مجددا في تلك الأمسية.

احتشدنا في وقت متأخر، من بعد ظهيرة ذلك اليوم، في موقف السيارات الواقع خلف الحانة. كان خبر المنازلة قد انتشر، وقد انضمت إلينا بعد وقت قصير عصابات آسيوية أخرى، كمحاربي سباركهيل، والتتانين، للمشاركة في القتال. كانت المنطقة، مع ذلك، منطقتنا، والمعركة معركتنا، وتوجب علينا نحن أن نضع خطة القتال: يقوم ثلاثة منا، سيغي، سام، وأنا، باستدراجهم إلى الكمين الذي نصبناه بعيداً عن الحانة، اتخذ البقية مواقعهم، مختبئين خلف جدران الموقف، بما يحملونه من عصي وحجارة. لم يأت خصومنا بواسطة الدراجات النارية هذه المرة، بل أتوا بحافلات صغيرة، ليفاجؤوا بخلو موقف السيارات. بدأ ثلاثتنا في شتمهم، بمجرد أن رؤونا، والجري نحو الموقف. كان خصومنا قد أوقفوا حافلاتهم على طريق جانبي قرب الحانة، فاندفع بقية أصدقائنا، بمجرد خروج الخصوم من حافلاتهم لمطاردة ثلاثتنا، اندفعوا عبر زاوية الموقف، وقذفوهم بوابل من الحجارة، ليبدأ القتال في تلك اللحظة. ساد الهرج والمرج،

والتحم الجميع في معركة بعصي الهوكي، ومضارب البيسبول، والقضبان الحديدية، وكنت أحاول ضرب أحد الخصوم، لأضرب عن طريق الخطأ، وسط كل تلك الجلبة، أحد أعضاء عصابة التنانين، فأعقبت صرخات الألم أصوات الضربات على الفور، ولم يبق، بعد ذلك بدقائق، من بقي واقفا من خصومنا ـ الذين لم يهرب أي منهم ـ باستثناء شخص واحد.

وقف بووت، خبير الفنون القتالية، أمام ذلك الشخص، وأوسعه ضربا بإحدى عصي الهوكي المكسرة وعندما وصل رجال الشرطة بعد ذلك تفرقنا جميعا، هربا منهم، في الشوارع والأزقة التي كنا نعرفها جيداً، بينما تم اعتقال معظم خصومنا.

مثلت تلك المعركة نصرا ساحقا بالنسبة لنا، فعم الخبر جميع أنحاء بيرمنغهام، ووصل إلى مسامع كل عصاباتها، من السود، والبيض، والآسيويين، وساعدت تلك المعركة، بجانب غيرها، في تعزيز سمعة «اللينكس» كعصابة قوية تطبق عدالة الشارع على طريقتها.

فقدت «اللينكس»، مع ذلك، شيئا من سمعتها في إحدى المواجهات الكبيرة التي وقعت بعد مدة قصيرة في مركز المدينة، فقد كان من الواضح أن لا طاقة لنا بها منذ البداية، حيث كانت هنالك مسيرة كبيرة للجبهة الوطنية، أو ما يعني حليقي الرؤوس بالنسبة لنا، إذ اجتمعت عصابات متعددة من أرجاء المدينة كافة قرب أحد ملتقياتنا، المكتبة المركزية، لمواجهتهم، حيث كانت دوريات الشرطة تجوب المكان بالسيارات، وسيرا على الأقدام، ناهيك عن الحشود المعتادة التي تجتمع هناك ما بعد ظهيرة كل سبت. كنا، بغض النظر عن ترتيبنا، نتألف من بعض أفراد «اللينكس»، وعصابة الفهود، ومحاربي سباركهيل، والطرواديين (الذين كان معظمهم من السود). كانت بعض تلك العصابات قد قاتلت الأخرى في أوقات مختلفة، ولكننا توحدنا في حينه لمواجهة النازيين الجدد.

سمعنا أصوات قرع تشتد شيئا فشيئا، وتمكنا من رؤيتهم، بينما كانوا يصعدون التلة، وهم يحملون صناديق قمامة معدنية، ويقرعونها بمضارب البيسبول في نغمة متساوقة. لم أكن أقرب في تلك اللحظة من الشعور بما كان

يتملك المحاربين، لا محالة، قبل خوض المعارك في القرون الوسطى، فقد بدا وكأن المئات منهم يسيرون كالجنود في طوابير عسكرية، وتوقف جميعهم، ليرفعوا أيديهم اليمنى، تأدية للتحية النازية، بينما تعالت أصواتهم صارخة: «زيك هايل!» (هتاف تحية النصر في الحقبة النازية)، لتملأ السماء هديرا، قبل أن يبدؤوا هجومهم علينا.

رأيتهم يقتربون منا، بما يقل عن الخمسين مترا، فلم يتدخل رجال الشرطة لعجزهم، أو عدم رغبتهم في القيام بذلك، فاستدرت للخلف، ملقيا نظرة أخيرة على جماعتنا، للتأكد من ثباتهم، ولكن معظمهم كان قد ولى الأدبار، باستثناء شاب أسود مفتول العضلات، يقف بجانبي، ملوحا بسلسلته، وصديقي سام على الجانب الآخر. نظرت إليه، آملا في امتلاكه حلا سريعا لورطتنا، فصرخ قائلا: «اهرب يا معظّم، الآن». تمكنا من الهرب، سالمين، في حينه، ولكنني لم أمتلك القدر ذاته من الحظ في المرة الآتية.

كنت أسير في إحدى الأمسيات مع بعض الأصدقاء بجانب حانة «الميرميد»، حيث كان بعض حليقي الرؤوس ورفاقهم من مثيري المتاعب قد اجتمعوا للشرب، مقابل مقهى «شيليلا». لم نكن في مزاج يسمح لنا بالقتال على نحو خاص، ولم نكن مستعدين لذلك بالتأكيد. شاهدت فيما بعد أحد أصدقائي، وهو يجادل أحد حليقي الرؤوس خارج الحانة، ليضربه بصورة مفاجئة على رأسه بعصا تحوي مسمارا كبيراً ناتئا، دخل في رأس الشاب نتيجة لذلك. ركض الأخير إلى الحانة مستنجدا برفاقه، فخرج عشرة منهم أو أكثر في غضون ثوان، حاملين أقداح الجعة وزجاجات الشراب، وأطلق جميعنا العنان لساقيه، متجاوزا المسجد المجاور، نزولا نحو نهاية الطريق، بينما بقي بووت وحيدا في مكانه.

استدرت، بينما كنت أجري، لأنظر إليه يوجه الركلات تباعا إليهم، ولكنهم نجحوا في السيطرة عليه فيما بعد. كان ممددا على الأرض، وكانوا ينهالون عليه ركلا بأرجلهم.

اتخذت قرارا طائشا نتيجة لذلك، حيث توقفت عن الجري، واستدرت عائدا بسرعة كي أخلصه منهم، ونجحت في إبعادهم عن الفتى فبدؤوا يضربونني عوضا عنه، وشعرت بمقدمات الأحذية الحديدية، وزجاجات الشراب تنهال على رأسي، وظهري، وعانتي، وساقيّ، ووجهي، وبدا أن ذلك لن يتوقف أبداً، وقطع جزء من لساني حين ركلوني على ذقني، وأخذ الدم يتدفق إلى حنجرتي عندئذ شعرت بالفعل أنني على وشك الموت، ففكرت في تلك اللحظة العصيبة قائلا لنفسي: «ما آخر ما ينطق به المسلم قبل الموت؟، لا إله إلا الله، محمد رسول الله». صرخت مجاهراً بذلك، لا سيما أنني ألفظ أنفاسي أمام بيت من بيوت الله، كما ظننت في حينه، ولم يلبث كل شيء أن توقف بصورة مفاجئة فيما بعد: الركل، والألم المتواصل، ناهيك عن اختفاء المهاجمين، وظننت أن ذلك قد حدث بسبب ما قلته، ولكنني رأيت سيارة شرطة تقترب من الزاوية، لتتوقف أمامي.

لم يكن في السيارة سوى شرطي واحد، فنظر إلي، وطلب مني الصعود إليها، قائلا: «سآخذك إلى مركز الشرطة على ضوء ما أبلغنا به من حدوث تعكير للأمن في هذه المنطقة». تحدث الرجل في المذياع فيما بعد، فقفل حليقو الرؤوس عائدين بينما كان يهم بالانطلاق، إذ اقتربوا من السيارة ظنا منهم أن الشرطي سيطلقني، وذلك ما يمكنهم من ضربي مجدداً، فبدأت، عامداً، توجيه الشتائم لهم، ومن ثم قاموا بإحاطة السيارة، وأخذوا يقرعون عليها، فأخاف ذلك الشرطي بلا شك، ودفعه إلى الانطلاق بالسيارة حتى نهاية الطريق، طالبا مني مغادرتها آنذاك كنت مضرجا بدمائي، وكانت الرضوض والكدمات تملأ وجهي، ولكنني سعدت للغاية؛ لأنه لم يعتقلني.

عدت إلى البيت عند العاشرة تقريبا، ففتح والدي الباب، ولكنني أدرت ظهري له، متظاهرا بربط عقدة حذائي. انتظرني كي أدخل البيت، لأخاطبه قائلا: «ادخل يا أبي، سألحق بك خلال دقيقة». استدرت ظنا مني أنه ذهب بالفعل، ولكنه لم يفعل، ورأى الحال التي كنت عليها، وذلك ما صدمه للغاية.

سألني قائلا: «ما الذي حدث؟».

أجبته متمتما: «لا شيء يا أبي. أنا بخير، اذهب إلى الداخل».

عقب قائلا: «دعك من هذا اللغو. سنذهب إلى مستشفى الحوادث الآن».

كان المهاجمون ذاتهم موجودين في المستشفى بالفعل حين وصلنا إليه، بمن فيهم ذلك الذي دخل المسمار في رأسه، وآخر محطم الأنف، فبدؤوا يطلقون السباب بمجرد رؤيتي، واقتربوا نحونا بسرعة، قائلين: «هذا هو، الباكستاني السافل...». التقطت إحدى أدوات المختبر الموجودة بجانبي، استعدادا للدفاع عن نفسي، فوصل رجال الشرطة عند ذلك.

كان والدي المسكين مصدوما تماما. تم اقتيادي، مكبلا بالأصفاد، كبقية المهاجمين، واتهمت في مركز الشرطة بالاعتداء المتعمد، حيث كان رجال الشرطة يعتقدون أنني حاولت قتل ذلك الشاب عبر ضرب رأسه بالمسمار، فأخبرتهم بما حدث حقيقة، دون أن أشي باسم الشخص الذي فعل ذلك، وذلك ما دفع بقضيتي إلى المحكمة.

حضرت كل جلسات المحكمة، بعكس مهاجمي الذين لم يحضروا ما يذكر منها، ولم يرق للقاضي مظهرهم، بكل الأحوال، حين كانوا يفعلون، فردت المحكمة القضية في نهاية المطاف.

لم يكن والدي يعرف الكثير عن حياتي في تلك المدة، حيث تخرجت في المدرسة بصعوبة، بعد أن تدنت درجاتي عموما، وإن حظيت ببعض المقبول منها، ولا يمكن إلقاء اللوم على أحد سواي، وأدرك تماما أنني كنت المسؤول الأول والأخير عن ذلك.

كان والدي متساهلا معي بصورة عامة خلال سنوات مراهقتي، ولم يمارس على ولديه أي نوع من الضغوط مثلما كان يفعل العديد من أقرانه. أرادنا أن نصل إلى مستويات علمية عالية، ولكنه كان متحررا للغاية فيما سمح لنا القيام به، وقد استغللنا ذلك على أكمل وجه.

كثيراً ما كنا نجلس معا، بالرغم من العقاب الجسدي العرضي ـ الذي توقف بمرور الزمن ـ لنناقش الأمور بعمق، بما في ذلك ماضيه. كنا نجري المقارنة التقليدية ذاتها، في بعض الأحيان، بين سنوات مراهقتنا، ولكن مرحلة شبابه كانت مختلفة للغاية عن تلك الخاصة بي.

كان يخبرني، لأقدر ما أنا فيه من نعم، عن اضطراره للدراسة تحت عمود الإنارة في الشارع، حين كان طفلا في الهند، لعجز أسرته عن تأمين الكيروسين اللازم لإنارة المصباح، علاوة على قصة هجرته من منزله في جنوب الهند، ليعيش حياة مجهولة متقلبة في باكستان، البلد المسلم. كان يستحضر حوادث الموت المروعة: قطارات محملة بالمسافرين المسلمين العابرين للمناطق الهندوسية، لا تصل إلى وجهتها إلا بعد قتل كل من عليها، وانتقام من الهندوس في المناطق المسلمة نتيجة لذلك. أصبحت جاليته في باكستان تعرف بالمهاجرين، ولم أكن أدري في حينه أن الهجرة إلى أرض مسلمة ستصبح معلما مميزا لحياتي أيضاً.

درست المحاسبة في الجامعة عقب تخرجي من المدرسة الثانوية، ثم بدأت العمل في شركة المقاولات التي أسسها والدي بعد تركه العمل في المصرف عام 1984. اتجهت، بعد مضي بضع سنوات، لدراسة الحقوق. أخذت عصابة «اللينكس» تتفكك تدريجيا مع تقدم أعضائها في السن، وبدأت ـ بالنظر إلى اختفاء النازيين الجدد من شوارعنا ـ في مقاتلة عصابات أخرى، آسيوية في معظمها، وقد كانت المعارك تدور، بادئ الأمر، مع عصابات محلية، وامتدت رحاها فيما بعد لتشمل عصابات المناطق الأخرى، ولم أعد أشعر بعدالة القضية، كما كنت عند قتال النازيين الجدد، بعد أن فقدت «اللينكس» مبرر وجودها.

استقر عدد من أعضائها عبر الزواج، والانخراط في الحياة العملية، بينما أمضى آخرون الكثير من الوقت في الإصلاحيات، ومراكز الاعتقال، والسجون، ومصحات العلاج من إدمان المخدرات، ناهيك عمن قضى في المعارك، أو نتيجة الإفراط في الشرب وتعاطي المخدرات، أو لجأ إلى التدين.

أمضيت ما يقارب ثلاث سنوات من حياتي كعضو في «اللينكس»، ولم أكن أفتخر بذلك في الحقيقة لما أضعته من فرص مهمة للتقدم في حياتي العلمية، علاوة على عدم رضاي عما آلت إليه حال بعض أفرادها، ولم يكن والدي راضيا عن ارتباطي بالعصابة أيضا، وقد تجادلنا كثيراً حول ذلك، فلم يكن من السهل نيل احترام الكبار في الجالية الآسيوية، وبخاصة للشباب من أمثالنا، بالنظر إلى اتهامنا بالتصرف «كالغوري» (البيض) من حيث الشرب، والتسكع في الملاهي، ومواعدة الفتيات، ولكن نظرتهم لنا تغيرت حين أدركوا أننا نقوم على حماية أبنائهم، وبناتهم، وأزواجهم. أعتقد أننا لعبنا دورا ما في تطهير الشوارع من العنصريين، وهي سمعة تكتسبها «اللينكس» إلى يومنا هذا في منطقة سباركهيل.

لم يكن أفراد الطبقة العاملة الآسيوية، مع ذلك، من وجدت نفسي أهب لنجدتهم على الدوام، فقد سمعت في إحدى المرات أصوات صخب في الطريق، وطللت من نافذة غرفة نومي للتحقق مما يجري، فرأيت بعض الأشخاص يقتحمون منزلا في الطرف المقابل للشارع، حيث كانت تقطن أرملة إسكتلندية كبيرة السن. هرعت إلى منزلها على الفور، لأجدهم قد بلغوا أعلى الدرج، وتمكنت من سماع صوتها الخائف يناشدهم تركها وشأنها، وصرخت فيهم قائلا: «ما الذي تظنون بحق السماء أنكم فاعلوه؟!». تسمر اللصوص المفترضون في مكانهم لحظة، ثم اندفعوا راكضين بصورة مفاجئة، ليدفعوني في طريقهم هربا إلى الخارج. طاردتهم نزولا عبر الطريق، وتمكنت من اللحاق بأحدهم، فاستدار الأخير نحوي، شاهرا سكينه.

تعرفت إليه في تلك اللحظة، ومن الواضح أنه عرفني أيضاً: كان الشقيق الأصغر لأحد أعضاء «اللينكس» السابقين، خاطبته قائلا: «ضع السكين جانبا أيها الأحمق، ولا تقلقن، لن أقوم بما يؤذيك... ضعها جانبا الآن».

بدأ يتذرع، متمتما، بأنه لم يكن يعلم بوجود أحد في المنزل.

قفلت عائدا إلى منزلها؛ لأساعد في تصليح بابه المكسور، فدعتني فيما بعد إلى شرب كأس من الشاي، وأرتني بعض صور زوجها، حين كان جنديا خلال الحرب العالمية الثانية، متحدثة عن حياتهما معا، وأخذت أزورها بين الفينة والأخرى، حتى قررت بيع المنزل، والرحيل إلى إسكتلندا. لم أستطع التوقف عن التفكير بأن هذه المرأة الكبيرة العاجزة قد غادرت بسبب ما حدث، وأنها أصبحت مستاءة من الآسيويين في الغالب، فقد كان ذلك يناقض الحقيقة بكل الأحوال، حيث دعتني إلى زيارتها في إسكتلندا، وأهدتني، قبل مغادرتها، ما احتفظت به على الدوام: عملة إنجليزية قديمة تعادل الجنيه الحالي في قيمتها.

سألتني الشرطة، فيما بعد، تقديم إفادة ضد ذلك اللص المفترض، فأخبرتهم أنني أفضل عدم القيام بذلك، وكنت في الواقع قد قابلت شقيقه بالفعل، لأخبره عن القصة بأكملها، ويجيبني قائلا: إنه سيتصرف حيال ذلك. كان وجه الفتى مليئا بالرضوض والكدمات، حين رأيته فيما بعد، فربما كان ذلك يفسر ما أجابني به شقيقه.

كنت أعمل عن قرب مع والدي، حتى خلال مدة انضمامي إلى «اللينكس». كانت علاقتنا جيدة، وكان يأتمنني على كل شيء في العمل، بدءا من مراقبة الموظفين، وصولا إلى بيع وشراء البيوت، ورهن العقارات. بقيت أعمل في شركة والدي مدة أربع سنوات، إلى أن حلها في عام 1989، ليفتتح مطعمه الهندي، «السلطان». عملت هناك أيضا في الإدارة، وخدمة الزبائن، والتنظيف، والطهي حتى قرر والدي التقاعد في عام 1991، ففكرت جديا في تلك المدة بما يجب علي فعله، حيث كان والدي قد خطط للدخول في مغامرات تجارية أخرى، ولكنني كنت بحاجة إلى شيء مختلف.

وددت الالتحاق بالجيش على الدوام، وإلى حد كبير نظراً لأن جيلنا كان الوحيد الذي لم يفعل ذلك من بين كل الأجيال الأخرى للعائلة، فأخبرني والدي مراراً، بالإضافة إلى ما سبق، أن أجدادنا قاتلوا في حملات القرن السادس

عشـر التي انطلقت من كـابول بقـيـادة بابر، مـؤسس الإمـبـراطورية المغـوليـة العظمى، وتشير شجرة عائلتنا كذلك إلى أن «رحيم بيغ كان ضابطا في جيش أورانغزيب، آخر الأباطرة المغول، في القرن السابع عشر». عمل أجدادنا، منذ تلك المدة، ضباطا في الجيش الهندي البريطاني، وشهد جدي، ووالده، وجده التمرد الهندي ضد البريطانيين (لا أعلم مع أي طرف كانوا)، وشاركوا في حرب البوير (بريطانيا ضد جمهورية البوير في جنوب أفريقيا)، والحربين العالميتين الأولى والثانية، إذ كان أحد أعمام والدي أسير حرب في أوروبا، بينما قتل آخر في أثناء قتال قطاع الطرق قرب الحدود الأفغانية، حيث كانت لدينا تقاليد عسكرية صارمة في العائلة، فقد اعتدت مشاهدة أوسمة جدي العسكرية، التي نالها خلال الحرب العالمية الثانية، بكثير من المهابة، واعتقدت أنني سأواصل العمل بتلك التقاليد، على النقيض من الأطباء، والمدرسين، والمصرفيين المنتمين إلى جيل والدي.

صارحت والدي بما كنت أخطط له، فشرح لي السبب الذي دفعه إلى عدم الالتحاق بسلاح الجو الباكستاني، إذ كان ذلك حلما يداعب مخيلته منذ الصغر، ولكن والده أقنعه بالعدول عنه، قائلا: «لم تعد الحروب تخاض بشرف أو شجاعة. يمكن لأي جبان أن يلقي قنبلة على علو آلاف الأقدام ليقتل آلاف الناس، مدنيين كانوا أم عسكريين، فأين الشجاعة في ذلك؟». دُرب جدي على الفروسية والمبارزة منذ نعومة أظفاره، وقد دُرب والدي عليهما، ليدربني الأخير بدوره.

تملكني شيء من الخوف، في الحقيقة، من الالتحاق بالجيش. لم يكن ذلك بالجيش الهندي البريطاني المحتل لشبه القارة الهندية، بل البريطاني العامل في إنجلترا حيث علمت أنني قد أواجه معاملة عنصرية، أو ما هو أسوأ منها. أردت الانضمام إلى نخبة القوات البحرية الملكية، أو فوج المظليين، ولكنني علمت بوجود فوج الغوركا (مقاتلي الجبال الأشداء من أصول نيبالية). فكرت قائلا لنفسي: «لم يعد أفراد ذلك الفوج من البيض، وهم يشبهونني في المظهر نوعا ما، ولا

أستبعد على الإطلاق أن يقبلوني في صفوفهم». ذهبت إلى مكتب التطوع في الجيش، واجتزت اختبارا بسيطا للأهلية، ولكنني أخبرتهم، حين سألوني عما إذا كان لدي سجل إجرامي، أخبرتهم عن قضية حليقي الرؤوس التي كانت المحكمة تزمع النظر فيها، ليطلبوا مني العودة إليهم بعد حلها.

سلط الضوء، في تلك الأثناء، على حادثة انتحار مراهق سيخي نتيجة تعرضه لمعاملة عنصرية في الجيش، فأثناني الخوف من العنصرية عن الالتحاق بالجيش أخيرا، ولم أعد مطلقا إلى مكتب التطوع ذاك، وراودتني الفكرة ذاتها بعد مضي عدد من السنوات، ولكن الأمر لم يتجاوز نطاق التفكير، آنذاك كانت حرب الخليج الثانية قد بدأت، وعجزت عن تخيل نفسي مقاتلا في صفوف جيش يحارب بلداً إسلاميا.



-3-

المضطهدون

تمثل أول إحساس حقيقي لي بالعالم خارج حدود بيرمنغهام، بغض النظر عن رحلة التزلج المدرسية إلى إيطاليا في الرحلة التي رافقت فيها زوج والدي، ووالدها، إلى السعودية ـ بعد أن رتب أبي ذلك ـ لأداء مناسك العمرة، حين كنت في أواخر سنوات مراهقتي، وذهبت من هناك إلى باكستان بمفردي لتمضية شهرين مع عمتيّ، اللتين كانت إحداهما تقيم في كراتشي، والأخرى في البنجاب، وقد جاءت تلك الرحلة، إلى حد ما، مكافأة على الجهود التي بذلتها لمساعدة والدي في الشركة، إذ كنت أرغب بالسفر، حين كنت طفلا صغيرا، ولم أستطع مقاومة السحر الذي مثلته البلدان الأجنبية وثقافاتها بالنسبة لي.

لم يكن أي منا، حين وصلنا السعودية، قد أدى مناسك العمرة من قبل، أو يمتلك أي فكرة عنها، أو يتحدث اللغة العربية، أفادتني قراءاتي الكثيرة للتاريخ مع ذلك، وأصبحت دليلنا في تلك الرحلة، وذلك ما أدهش مرافقيّ الآخرين إلى حد كبير.

تأثرت كثيراً حين زرت المدينة المنورة، مقر الخلافة الأولى، وقبر النبي محمد ﷺ، فأخذت دموعي تتساقط حين فكرت بما حدث هنا قبل 1400 عام: الهجرة الأولى، التي أذنت لبداية التقويم الهجري، حطت رحالها في هذه البقعة، ناهيك عن وجود مسجد قباء فيها، وهو أول مسجد في الإسلام، واحتضانها غزوتي بدر وأحد ـ أكثر المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي ـ والمسجد النبوي الشريف، بقبته الخضراء المتألقة، ثاني أكثر الأماكن قدسية في الإسلام.

تميز المكان بجاذبية لا تقاوم، وشعرت بحنين روحي هائل عند زيارة مكة، حيث رأيت الكعبة المشرفة ـ التي بناها سيدنا إبراهيم، وولده إسماعيل ـ للمرة

الأولى، متأملا في ماضيها، وما تعنيه للمسلمين، فتملكني، للمرة الأولى في حياتي، إحساس واضح بهويتي الإسلامية المتجذرة بعمق في هذا المكان.

شعرت بصدمة ثقافية ثانية حين غادرت السعودية، ووصلت إلى كراتشي لملاقاة عمتي، وتملكتني الحيرة في المطار حول كيفية تمييزها بين هذا الحشد من الناس، ولكنها عرفتني بسرعة، كما فعلتُ، وتبادلنا عناقا حارا للغاية، وذلك لأنها كانت المرة الأخيرة التي رأتني فيها بعد وفاة والدتي مباشرة، وقد بقيت برفقتها بضعة أسابيع، قبل التوجه للإقامة عند عمتي الأخرى، الطبيبة، في البنجاب.

اتخذ نجيب، ابن عمتي، الترتيبات اللازمة لاصطحابي في رحلة إلى منطقة كاراكورم الجبلية، التي تمثل جزءا من طريق الحرير الممتد إلى الحدود الصينية، فكانت إحدى أكثر الرحلات المميزة في حياتي بأكملها، وكان الريف خلابا بكل ما للكلمة من معنى. كنا بعيدين للغاية عن مظاهر الحياة الاعتيادية أثناء وجودنا في الجبال. كانت الحافلات التي تقلنا تصغر حجما كلما أصبحت الطرقات أكثر ضيقا، وكثيرا ما كنا نقترب من الوادي، لنلمح مجرى النهر في أسفله كخيط أزرق رفيع، وما تبقى من حطام عربة كانت قد سقطت فيه.

سد الطريق في إحدى النقاط بكتلة ضخمة من الصخور والجليد، ولم يكن أمامنا من خيار إلا المخاطرة والمرور بجانبها، أو الاستدارة والعودة من حيث أتينا. قررنا القيام بالأمر الأول، واحداً تلو الآخر، على أن نصور بعضنا بعضا في تلك الأثناء. نجحنا في الوصول إلى حافلة صغيرة تنتظرنا في الطرف الآخر. توجهنا، بعد وصول منطقة غيلغيت، إلى قريتي هونزا وكريم أباد الجبليتين، قرب مقاطعة شينغيانغ الحدودية الصينية، فبدا الناس هناك وكأنهم من عالم آخر، حيث كانوا يتحدثون لغة تدعى «البروشوسكي» وهناك كانت جبال كوش الهندية التي تواجهنا آسرة للغاية، فأخذنا نلتقط الصور بكاميراتنا لثالث أطول جبال العالم، نانغا باربات (القمة العارية)، والنقوش البوذية الأثرية

المحفورة على أسطح المنحدرات الشديدة، والقرى المشادة في الجبال... كانت تلك إجازة لم أكتف منها أبداً.

سألت ابن عمتي حول زيارة أفغانستان عند انتهاء رحلتنا، إذ كنت متلهفا منذ فترة طويلة لرؤية ما كان يجري أثناء الجهاد ضد السوفييت، ولكنه أجابني قائلا إن ذلك ينطوي على قدر كبير من المخاطرة.. وقد تمثل أقرب ما بلغته، إلى أفغانستان، في منزل أقرباء عمي في بيشاور.

تحسنت لغتي، الأوردية، بمقدار عشرة أضعاف حين عدت إلى بيرمنغهام أخيرا، وكانت الذكريات لا تزال حية عن رحلتيّ إلى السعودية وباكستان، واعتادت عمتاي إغاظتي عبر القول باستحالة ارتدائي الزي الوطني الباكستاني، الشالفار كامييز، في شوارع إنجلترا عند عودتي، وكانت السيدتان محقتين في بادئ الأمر، ولكنني أثبت خطأهما بعد مضي عدة سنوات.

بدأت أشعر، بعد عودتي إلى بيرمنغهام ـ في خضم كل الإرباك الذي وقعت فيه نتيجة تحدثي كلا من الإنجليزية والأوردية، وتأكيد والدي على انتمائنا المغولي ـ بأن معتقدي الإسلامي كان الشيء الوحيد الثابت في حياتي، بمعزل عن أصولي.

كانت ساعات العمل طويلة ـ حين افتتح والدي مطعمه، وجعلني شريكا فاعلا له ـ وقد دفعتني إلى الانطواء، والابتعاد عن الناس، وإن خففت الفتاة التي كنت أقابلها، وأرغب الزواج بها، من تأثير ذلك فيّ، إذ كانت مسلمة شيعية، وذلك لم يؤثر كثيراً بالنسبة لي، أو لوالديّ، مع انتمائنا للسنة، ولكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لها، حيث لم تكن راغبة في جرح مشاعر والديها، وتحدي إرادتهما برفض زوج المستقبل الذي اختاراه لها. قطعت الفتاة علاقتنا، بالتالي، بعد استمرارها ما يقارب السنة. لم يكن وقع ذلك بالهين علي، فشعرت بالاكتئاب والحيرة مدة من الزمن.

تعرضت لصدمة عنيفة أخرى فيما بعد، إذ كان صديقي سيغي يعيش بسعادة مع صديقته في الطابق الثاني من البناء الذي يضم مطعمنا، ولكنه اكتشف لاحقا أنها تخونه، وذلك ما حطمه للغاية، فقرر الأخير الذهاب في رحلة قصيرة إلى مايوركا، برفقة أحد أصدقائه، لتنقية ذهنه، والتفكير في مستقبله، ولكنه لم يعد مطلقا. ثمل في إحدى الليالي كي ينسى أحزانه، فتقيأ واختنق جراء ذلك.

مثَّل ذلك خسارة هائلة بالنسبة إلى عائلته وأصدقائه، الذين كان معظمهم ينتمون إلى «اللينكس». رافقت عائلته إلى المطار لاستلام الجثة، وقد صدمت لرؤية وجهه، حيث كان مظهر سيغي حسنا بصورة عامة، ولكن وجهه كان منتفخا للغاية، مزرقا، ومليئا بالكدمات، فترك ذلك المنظر، والقصة بأكملها، أثراً عميقا في نفسي، ناهيك عن تحول تلك الميتة البشعة إلى حدث لا يمكن محوه من ذاكرة العديد منا. كان الجميع يحبون سيغي. لم أشعر أنني فقدت صديقا عزيزاً فحسب، بل فكرت فيه باستمرار، قائلا لنفسي: «أين هو الآن؟، أين تذهب الروح عقب الموت؟». تعلمت أن الحياة زائلة، وأن الموت حق، فالحياة لا بد أن يكون لها هدف أسمى من مجرد العيش الروتيني اليومي.

حصلت على وظيفة في مصلحة الضمان الاجتماعي بعد بيع أبي للمطعم بوقت قصير، وبدأت، في تلك الأثناء، دراسة الحقوق بدوام جزئي في الجامعة، عندئذ نشبت حرب الخليج الثانية فأخذ الوعي السياسي لدي ينمو بصورة أكبر، نتيجة ما كان يحدث للمسلمين في العراق، فابتعت كوفية فلسطينية، ولففتها حول عنقي، متفاخراً، لإظهار تضامني الكامل مع قضية المسلمين المركزية.

ربما كان فيلم «برايف هارت» هو أكثر الأفلام المفضلة لدي على الإطلاق، إذ نزعت على الدوام إلى نصرة المضطهدين، أو الذين يحظون بدعم أقل: شجعت منتخب الكريكيت الباكستاني حين لعب في إنجلترا، ولكنني رغبت في فوز الإنجليز حين لعبوا في باكستان، تعاطفت مع الهنود الحمر، في طفولتي، حين كانت الروايات الغربية تصورهم كالمتوحشين، قبل أن يأتي فيلم «الرقص مع

الذئاب» ليعكس تلك الصورة. وجدتني أؤيد هوشي منه حين قرأت عن حرب فيتنام بكثافة. تعاطفت مع فيدل كاسترو بصورة أكبر من تعاطفي مع أعدائه الأمريكان، وحظي مانديلا بدعمي المطلق ضد نظام الأبارتايد (التمييز العنصري) ودعمت كفاح الفلسطينيين للتحرر من الاحتلال الإسرائيلي بلا تحفظ، ولم أكن أعرف الكثير عن عراق صدام في عام 1991، ولكنني علمت أن احتمالات انتصاره في الحرب كانت ضئيلة، كما فعل والدي تماما.

لم يؤيد أي من أعضاء الجالية الآسيوية الذين كنت أعرفهم حرب عاصفة الصحراء، حيث كان بعض زملائي السيخ والهندوس في العمل يجاهرون بمعارضتها أكثر مني. كان الوضع في المنزل مماثلا: شعرت وأبي أن تلك الحرب تشكل مثالا ساطعا على النفاق الذي يميز بعض الدول الغربية، خدمة لمصالحها. خيرت في تلك الأثناء، وللمرة الأولى في حياتي، بين ضميري وبلدي، فكنت أختار الأول على الدوام.

لم يؤيد أي منا غزو العراق للكويت، التي كانت المضطهدة في حينه، ولكن القضية لم تكن تدور حول الكويت أبدا، فقد خرجت الكثير من قرارات الأمم المتحدة لتصف فلسطين، وكشمير، وجنوب لبنان بالمناطق المحتلة، ولم تتخذ الولايات المتحدة مع ذلك أي إجراء لتحريرها، إن لم نقل: إن الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين كان مدعوما بالكامل من قبلها، وتم تزويد العراق بالأسلحة من قبل الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، في محاولة لوقف المد الثوري الإيراني في العالم العربي. ما كان رد الفعل الغربي حين احتل العراق منطقة شط العرب في إيران؟، تزويد صدام بالأسلحة الكيماوية. كانت صور القتلى الإيرانيين لا تزال ماثلة في ذهني، فأذكر حتى الآن كيف أسقطت إحدى السفن الحربية الأمريكية طائرة إيرباص إيرانية محملة بما يقارب ثلاث مئة مدني في الخليج العربي عام 1988، فاعتبر الأمريكيون الحادثة خطأ غير مقصود، وشعرت بالغثيان عند سماع تبريراتهم، فما الذي كان سيحدث يا ترى لو ارتكبت إيران الخطأ ذاته مع الأمريكيين؟، حرب خليج جديدة؟!.

كثيراً ما كنت أطالب في العمل بتنظيم حفلات راقصة، نظرا لارتباطي بعلاقات صداقة مع عدد من الموسيقيين الذين يملكون أنظمة تكبير صوت متطورة، إذ لم أكن قد قصدت المسجد سنوات في حينه، ولم تكن آرائي السياسية مبنية على ما يقوله فقهاء الدين المتشددون، أو الجهاديون، فقد كنت أهوى الاستماع إلى فرقة «يو بي فورتي»، وغلوريا إستيفان، وسيمبلي ريد، ولم تتكون نظرتي إلى العالم إلا عبر ما تبثه وسائل الإعلام.

سألتني إحدى الفتيات في العمل عما إذا كان بمقدوري تزويدها بملابس عربية، فقدمت لها كوفيتي الفلسطينية، وغطاء رأس كنت قد أحضرته من السعودية، ولكن لم أكن أعرف في حينه أنها كانت تخطط للذهاب إلى الحانة، بملابس عربية، للاحتفال بهزيمة العراق في الحرب، فشعرت بالاشمئزاز من نفسي؛ لأنني لم أخبرها من قبل عن أي من آرائي السياسية، فقررت فيما بعد التصريح عنها في العمل، بالرغم من أن معظم الناس لم يكونوا حتى على علم بموقع الكويت أو العراق على الخارطة، أو ما فعلته القوات البريطانية هناك، حيث لم يكن ذلك مهما بالنسبة لهم، ما دام الاحتفال بالنصر يشكل ذريعة أخرى للهو والشرب، حتى الثمالة، مساء الجمعة.

بدأت، بعد مضي سنة، أسمع عن البوسنة في وسائل الإعلام، والمسجد المركزي، حيث كنت أصلي هناك من وقت لآخر، فلطالما شعرت بقليل من الاستياء من المساجد في إنجلترا، وإلى حد كبير بسبب من يؤمها من المسنين العابسين، ذوي اللحى الطويلة، الذين يتحدثون الإنجليزية بالكاد، ولكنني وضعت ذلك جانبا حين سمعت عن اللاجئين البوسنيين الذين كانوا قد وصلوا إلى إنجلترا للتو، ولجؤوا إلى مساجدها، عندئذ شعرت بكثير من الفضول تجاه أولئك المسلمين الأوروبيين، فاشتريت بعض البطانيات والصناديق المعبأة بأغراض البقالة، وذهبت إلى المسجد؛ لأسلمها لهم شخصيا، فبدا اللاجئون، حين وصلت هناك، أناسا بيضا فقراء، غير مسلمين بالنسبة لي، ولم تكن

نساؤهم يرتدين الحجاب، وكان رجالهم يشبهون العمال الإيرلنديين، إذ كان بعضهم، في الحقيقة، كرواتا كاثوليك، فحاولت التواصل معهم، وخرجت من ذلك اللقاء ببضع كلمات من اللغة الكرواتية ـ الصربية.

قابلت آخرين بعد ذلك بوقت قصير، بمن فيهم بعض من لا مأوى لهم، فسألت والدي، بالتالي، عما إذا كان بمقدوره منحهم إحدى غرف المنزل التي كان يؤجرها إلى الطلاب عادة، فوافق على ذلك بالطبع.

دعاني أحد اللاجئين البوسنيين لزيارته في إحدى المرات، وقد قابلت آخرين غيره هناك، فكان جميعهم صغارا في السن، ولم أستطع التوقف عن التفكير، قائلا لنفسي: «لم أنتم هنا؟، لم لا تقاتلون دفاعا عن شعبكم؟».

سألت خلال حديثي مع أحدهم، «أدين»، عما إذا كان سيعود إلى هناك للقتال. فأجابني بلغة إنجليزية ركيكة، بعد أن رفع قميصه، قائلا: «قاتلت في البوسنة، حيث قتل الكثيرون وجرحوا، ولا أقاتل في البوسنة الآن لهذا السبب». فلم أر سوى ندب صغير، تبين أنه موضع دخول رصاصة في جسده، وأردف أدين قائلا: «لا تزال قابعة في جسدي، ولا بد من إزالتها أولا».

شعرت بروعة شديدة، خلال حديثي معهم، لسماع مفهومهم عن الإسلام، الذي كان يختلف كثيرا عن مفهومي الخاص. بدأ سمير، شاب بوسني آخر يجلس إلى جانبي، في التململ، ثم قام بطي بنطاله، وأرانا إحدى ساقيه، كما فعل بالأخرى، ليشعر ببعض الارتياح، ويواصل الحديث فيما بعد، فصعقت لهول ما رأيت، جالسا في مكاني، فاغرا فمي، عاجزاً عن قول أي شيء حول ساقيه الصناعيتين.

تحدث قبل أن أنبس ببنت شفة، قائلا: «فقدتهما بسبب قذيفة دبابة... من الغريب أن يسمع المرء أزيز شظاياها فوق رأسه، حتى بعد أن يفقد ساقيه، ويظل معتقدا أنها لن تصيبه». كانت لغة سمير الإنجليزية جيدة للغاية، حيث كان قد تخرج في جامعة سراييفو.

أخبرني سمير شيئا عن تاريخ يوغوسلافيا، تحت حكم المارشال تيتو، خلال الحقبة الشيوعية، إذ كانت سلوفينيا وكرواتيا قد انفصلتا عن صربيا، على مر عقد بعد وفاته، لتحذو البوسنة حذوهما، فقد كانت هنالك ثلاث مجموعات رئيسة في البوسنة، سلافية بمجملها، مع اختلاف دياناتها: الصرب الأرثوذكس، والكروات الكاثوليك، والبوسنيون المسلمون، تمسك جميعهم بهويتهم الدينية والقومية، ودافعوا عنها، بعد تفكك يوغوسلافيا الشيوعية، وأضاف سمير كذلك أنهم، أي البوسنيون، كانوا قريبين للغاية في ذلك الوقت من الصرب والكروات، وعبر عن ذلك قائلا: «كان لي، على وجه الخصوص، جيران من الصرب. كنا نواعد فتياتهن، وكانوا يفعلون الشيء ذاته مع فتياتنا».

تغير كل شيء، مع ذلك، عند بداية الحرب.

توفر الدعم العسكري واللوجستي لكل من الصرب والكروات في البوسنة، على حد قوله، عبر دولتي صربيا وكرواتيا المجاورتين المستقلتين، فلم يكن للبوسنيين من يدعمهم من الجيران، ولم يأت ما لقوه من تعاطف إلا من عالم إسلامي صامت، وعاجز، وجاهل.

بدا لي أن الكثير من الناس كانوا يتحدثون عن البوسنة، دون القيام بشيء يذكر، فقد سمعت أخبار المعونات في التلفاز، ولكنها كانت تُنتقد لقلتها، ووصولها في الوقت المتأخر، تماما كما كنت أعتقد.

حتمت زياراتي المتكررة إلى المسجد أن يتزامن وجودي هناك مع حلول وقت إحدى الصلوات الخمس، التي لم يكن أداؤها جماعة شاقا علي، بعكس ما كنت أحس به حين أؤديها فرديا في المنزل، وذلك ما دفعني إلى تركها أثناء وجودي هناك، وقد تغير الوضع حين بدأت أشعر أن الإسلام يتعرض لهجوم شرس. نما ذلك الشعور مع بداية اطلاعي على حال العالم الإسلامي بصورة أكبر، والاضطراب الذي أخذ يعمه.

شعرت بحاجتي إلى راحة قصيرة، خلال عطل أعياد الميلاد في عام 1993، فقررت الذهاب، برفقة بعض الأصدقاء، لزيارة عوائلنا في باكستان.

التقينا في كراتشي عددا من أعضاء الجماعة الإسلامية (أكبر منظمات باكستان الإسلامية، وثالث أكبر أحزابها السياسية)، الذين دعونا لزيارة مركزها في لاهور، بدا الأمر شائقا للغاية، حيث كنا على قناعة بأنهم حريصون على التباهي بما يحويه مركزهم أمامنا نحن البريطانيين، إذ أخبرونا أنه يضم جامعة، ومستشفى، ومدارس، وأبنية سكنية، ومسرحا، ومكتبة، وصالة لتدريب الكاراتيه. أثارت الأخيرة إعجابي على نحو خاص، ولم تكن الفنون القتالية ذات شعبية في باكستان، على النقيض من الغرب، ما جعل ذلك يمثل خطوة رائدة بالنسبة لي، حيث كنت قد درست فنون الوينغ شون القتالية في بداية سنوات مراهقتي، وحصلت فيما بعد على الحزام الأزرق في التايكواندو، والأخضر في الجوجيتسو، وقد اتجه الكثير من أبناء الجيل الأول من البريطانيين الآسيويين إلى تعلم رياضات الدفاع عن النفس، تصديا لما كان يواجههم من تهديد عنصري في بريطانيا، وبلغ الأمر ببعض ممارسيها إلى تطوير أساليب خاصة بهم، وإضفاء صبغة دينية أو ثقافية عليها، نظراً لأن الكثير من صنوف الفنون القتالية كانت متشربة بالفلسفة البوذية، وشكلت مبادئ التايكواندو الخمسة: حسن الأخلاق، والاستقامة، والتحكم بالنفس، والمثابرة، والروح القتالية، بالإضافة إلى الجانب الجسدي منها، فضلاً عن أنها شكلت مصدرا هائلا من مصادر القوة بالنسبة لي في السنوات الآتية من حياتي.

مثل مركز الجماعة الإسلامية، «المنصورة»، مدينة داخل المدينة تقريبا، إذ كان مسورا كمدن القرون الوسطى، ومطوقا بالكثير من الحراس عند بواباته، ورأينا في مسجده أناسا ينتمون إلى الأعراق كافة، كشميرية هندية، آسيوية وسطى، وإن غلب عليهم الباكستانيون، وأقيم المستشفى بصورة أساسية للعناية بالجرحى في كشمير وأفغانستان، والبوسنة في بعض الأحيان.

رأيت، حينما دخلنا المستشفى، صورا لإصابات مروعة على جدرانها، وكنت خائفا للغاية مما يمكن أن تبدو عليه الحقيقية منها، وكان أول من رأيته هناك قد أصيب بطلق ناري في عينه، أسفر عن تحطم جزء من وجهه، وخاطبنا قائلا:

«كنت أقاتل الجيش الهندي في كشمير، وقد أطلقوا النار على عيني، ولم آتِ إلى هنا إلا لعلاجها، وسأعود إلى هناك مجدداً».

سر الرجل كثيراً حين علم أننا من بريطانيا، وكان مضيافا للغاية معنا، حيث نهض من سريره، وقدم لنا طعامه، فتأثرت كثيرا بذلك الرجل، وإن شعرت بعجزي أمام تضحياته.

التقينا، فيما بعد، بعض قدامى المحاربين ضد القوات السوفييتية، حيث أخبرنا أحدهم كيف رأى ولده يقتل أمامه، وتحدث آخرون عما حصل لهم من معجزات، كتفجر الماء من شقوق أحد الجبال الجرداء، وسط منطقة قاحلة نائية، بعد مسيرهم أياما، غير مسلحين بسوى بنادقهم الآلية من طراز «اى كى 47»، شبه متيقنين من أنهم سيقضون عطشا، وروى البعض قصصا أكثر غرابة حول رؤية ملائكة تنزل من السماء، بثيابها البيض الفضفاضة، وسيوفها الماضية، لتكر على العدو في قلب المعركة، وما انفك جميع المتحدثين يؤكدون على أن إيمانهم كان الدافع الوحيد لمضيهم قدما.

لم يكن قد تبقى سوى أقل من أسبوعين قبل استحقاق عودتي إلى بريطانيا، آنذاك كنت مخيرا بين زيارة عمي في البنجاب، كما خططت لذلك من قبل، أو قبول دعوة أصدقائنا الجدد لزيارة معسكرات تدريبهم في أفغانستان، وقد كانت الصور لا تزال حية في ذهني عن البرنامج الذي قدمه ساندي غال عن المجاهدين في محطة «آي تي إن»، وقد رأيتهم كما صورهم، أبطالا يتحدون الإمبراطورية السوفييتية بكل جبروتها، مع الفارق الهائل بينهما، ويهزمونها. رغبت على الدوام في الذهاب إلى هناك، وها هي ذي الفرصة قد سنحت أخيرا للقيام بذلك.

أخبرت أفراد عائلتي في باكستان عن نيتي الذهاب إلى أفغانستان، وذلك ما أثار قلقهم، بالرغم من ذهاب عشرات الألوف من الباكستانيين إلى هناك، باعتباره أمراً شائعا في تلك الأيام، فتوجهنا إلى بيشاور، ومنها إلى الحدود

الباكستانية. واعتقدت أنها ستكون نزهة مريحة، وأننا سنقود السيارة بكل بساطة إلى وجهتنا، كنا، نحن البريطانيين، نرتدي ثيابنا الإنجليزية، وأحذيتنا طويلة العنق، ناهيك عما نحمله من حقائب ظهر وسفر، فقد أثار مظهرنا ضحك السكان المحليين حين وصلنا أحد النزل الحدودية، فقدم الأخيرون لنا عددا من أثواب الشالفار كامييز البالية، وقبعات أفغانية، وأكياسا لحمل أمتعتنا، ثم توجهوا بالنصح إلينا قائلين: «ليست هذه بنزهة تتسلقون فيها الجبال، مختالين بما تحملونه من حقائب على ظهوركم، فإنه لا يمكنكم حمل أكثر من هذه الأكياس، أو المجاهرة بمظهركم الإنجليزي».

مشينا ساعات عبر الجبال والأراضي الترابية، فكانت المنطقة قاحلة، مع ما يمكن رؤيته بالكاد من حشائش، فقد تميز المكان، بكل وعورته، بجمال أثارني حين عبرنا الحدود أخيرا إلى أفغانستان، وكنا نعب الماء بشراهة كلما توقفنا إلى أحد الجداول، عندئذ أخبرنا دليلنا في الرحلة قصصا عن المعارك التي دارت هنا ضد السوفييت، وأرشدنا إلى ما بدا كومة من الصخور، ليتبين في النهاية أنها كانت مقبرة للشهداء الذين سقطوا في هذا المكان، إذ كان هنالك عدد من الدبابات المحترقة، والمدرعات المدمرة، وبقايا الكثير من الذخائر المستخدمة، وقذائف غير منفجرة.

لم أكن قد خبرت شيئا كهذا من قبل، حيث صادفت أحد الأفغان أثناء مسيرنا، حاملا بندقية كلاشينكوف تتدلى من كتفه، هابطا إحدى التلال، متسلقا أخرى، ففكرت قائلا لنفسي: «لا يعلم سوى الله من أين أتى، وإلى أين يذهب». كنت في منطقة نائية، مع إحساس تام بالعزلة عن العالم الذي كنت أعرف، نظراً لأنه كان بعض مرافقينا متوجهين بالفعل للتدرب في أحد المعسكرات، وقد شعرت بكثير من الفضول، والاحترام تجاههم.

بدأت أسمع أصوات انفجارات، وإطلاق نار كثيف عند اقترابنا مما بدا أنه يمثل وجهتنا، فاستدرت، ملتفتا إلى الآخرين، متسائلا عما إذا كنا جميعا نظن الأمر ذاته، فبدا لسان حالهم، بعد رؤية تعابيرهم، يقول: «لم آتِ هنا للقتال، بل

لمجرد الزيارة، لا أريد التورط في أتون حرب أهلية». كانت قدماي تدفعانني للمضي قدما، بينما دعاني عقلي للتوقف.

رأيت، عند اقترابنا من الأصوات السابقة، أسهما بيضاء صغيرة، محفورة على الصخور، لتبيان الاتجاهات ليلا، ومررنا بمخفر أمامي، حيث زرعت بعض النباتات بشكل أنيق عند مدخله، في قذائف مدفعية فارغة، فبلغنا المعسكر المعروف «بالفجر» في نهاية المطاف، لنرى ما فيه من بيوت مبنية من الطين والقش، وجدولا جبليا يخترقه، حيث عبرنا الماء بسرعة، متجهين فيما بعد للقاء أميره.

جلسنا، بعد أن تم تقديمنا على أننا «الأشخاص القادمون من بريطانيا ـ ضيوفنا الكرام». سار الأمر على هذا النحو طيلة وجودنا في المكان، وكنا ندرك تماما أننا نلقى معاملة خاصة بكل المقاييس، فأرادوا منا النهوض، والتحدث إلى الجميع، ولكن أيا منا لم يدرِ ما يقول، أو يسأل ـ وإن كان في بادئ الأمر ـ نظراً لأننا كنا قد أتينا لزيارة المكان بدافع الفضول لا أكثر.

جلسنا، حين بدأ الظلام يحل، نتناول الطعام مع الجميع على حصيرة من القش، فكانت الغالبية الساحقة منهم تتألف من الباكستانيين، والكشميريين من الهند، وقدم لنا وعاء من حساء العدس، تم اقتسامه بين أربعة أشخاص، وبعض القطع من الخبز. حصل كل منا على قطعة إضافية بالنظر إلى أننا كنا زوارا، وإن كان الخبز قديما وباردا، مرر المضيفون لنا فيما بعد إبريقا من الماء، المنعش لبرودته، حيث شرب الجميع من الإبريق مباشرة، على النقيض من الشاي الأخضر الذي قدم، أخيرا، في أقداح مفردة، لقد مثل الموقف بمجمله صدمة ثقافية حقيقية بالنسبة لنا، إذ كان أولئك الناس يعيشون على حفنة من الفستق، والعدس، والحمص، وكسرات من الخبز القديم، وقليل من الشاي، فتأثرت كثيرا لبساطة معيشتهم، مفترضا أن ذلك يشكل جزءا من تدريبهم على حرب الجبال، وتكيفهم معها، حيث يكون الطعام شحيحا، والمشاركة حتمية.

كان النهار قائظ الحر، بالرغم من أننا كنا في فصل الشتاء، بينما المساء شديد البرودة، وقد اعتدنا الاستيقاظ في تلك الفترة على صوت أذان الفجر، الذي كان صداه يتردد عبر الجبال، فكنت أمشي الهوينا، متعثرا في خطاي، نزولا عبر الجبل المظلم إلى نبع متجمد يجتمع الآخرون عنده للاغتسال، حيث يضطر المرء إلى كسر الجليد؛ كي يبلغ الماء، وعايشت نمط الحياة اليومية المتكرر في المعسكر مع بدء كل نهار: صلاة الفجر، تلاوة القرآن، عرض عسكري، جري وتدريبات. كانت الدروس نظرية، وعملية باستخدام السلاح، فرأيت بأم العين عقوبات تطبق على من يفشلون في اتباع قواعد المعسكر، بما في ذلك تأدية المئات من حركات الضغط، وتسلق قمم ثلاثة جبال، والقفز بالملابس في بركة متجمدة، أو الطرد الفوري من المعسكر.

كان أمير المعسكر منهمكا في العمل، دون أن يمنعه ذلك من تقديم واجب الضيافة لنا، ولم تكن ابتسامته تفارق وجهه، حتى عند التحدث عن أكثر القضايا جدية، وكان الرجل، علاوة على ذلك، صريحا للغاية، دقيقا في شرح مهمته:

«يمثل الجهاد بالنسبة لي مخدرا يُحلل تعاطيه، ولا أستطيع التوقف عن إدمانه، وأشعر أنني أحقق غايتي من الحياة حين أدافع عن المضطهدين، وقد أقسمت على القتال لتحرير أراضي المسلمين طالما وقعت تحت الاحتلال، يعد ذلك واجبي كمسلم، وباكستاني، وإنسان، ولا أخشى الموت في سبيل ذلك، بل أواجهه بصدر رحب، قال أحد أخوتنا، الذي استشهد قبل عام مضى أثناء جهاده الروس في هذه الجبال ما لن أنساه أبدا: (اختار الكثير من البشر الحياة سبيلا إلى الموت، ولكنني اخترت الموت سبيلا إلى الحياة)».

انتقل الأمير للحديث عن تاريخ معسكر «الفجر»، قائلا: «درب مئات المجاهدين، وقاتلوا في هذا المعسكر أثناء فترة الغزو السوفييتي، ولكن معظمهم لم يكن يمتلك ما يذكر من خبرة قتالية في بداياتها، وتمت الإغارة على المعسكر

في إحدى الليالي من قبل حفنة، لا أكثر، من «السبيتزناز» (قوات خاصة سوفييتية)، الذين قتلوا جميع من كانوا فيه تقريبا، ليسمموا الجداول والينابيع فيما بعد، وقد عاد المعسكر للعمل مجددا، بالرغم من ذلك، وتعلمنا التصدي لأساليبهم في نهاية المطاف، بدأنا نشر عناصر الاستطلاع في الجبال لإخبارنا بتحركات العدو، فأخذنا قوات «السبيتزناز» على حين غرة عندما أتوا لمهاجمة المعسكر ثانية. قمنا بإخلائه قبل وصولهم، لنطوقه بالكامل فيما بعد. تمكنا هذه المرة من الإجهاز على معظمهم، أو أسرهم، فاعتنق عدد منهم الإسلام، وانضموا لقتال أسيادهم السابقين ـ ربما كنتم قد رأيتموهم في مركز «المنصورة». لا يزال بعضهم محتجزين في تلك الجبال، تحت إمرة (حكمتيار)». (كان الأمير يشير في حديثه إلى أحد أبرز قادة المجاهدين السبعة، ومنظمته خلال الحرب)* .

سألته قائلا: «لا يزالون محتجزين بعد مضي كل هذه السنين على انتهاء الحرب؟».

أجابني قائلا: «لا يزال الروس، يا أخي، يتدخلون في شؤوننا».

كنا نتحدث عند المساء مع بعض الهنود خلال أوقات استراحتهم، حيث كان العديد منهم قد قدم من سريناغار، فكانت قصصهم مؤلمة للغاية، وإن لم تكن أشد إيلاما من قصص البوسنيين في نظري، وقد لحظت أن معظمهم كانوا من كبار السن، يغزو الشيب شعرهم، بعكس جميع الباكستانيين الذين كانوا شبابا، وأخبرني أحد الكشميريين عن الكيفية التي كان يتم إجبار الرجال بها على مشاهدة عمليات اغتصاب بناتهم من قبل القوات الهندية، بل ومضاجعتهن بأنفسهم كما حصل مع أحدهم، وأخبرني آخر عن كيفية قيام الجنود الهنود بتمزيق القرآن، والتبول عليه خلال حملات التفتيش من منزل لآخر، ولكن كانت المقاومة، كما أضاف، هي النتيجة الطبيعية لغضب السكان، وقد غصت المقابر بجثث

* لا يزال قلب الدين حكمتيار يخوض حرب عصابات ضد الحكومة الأفغانية الجديدة. (المؤلف).

الشباب الكشميري، والسجون الهندية بالأحياء منهم. فازدادت مسؤولية كبار السن، بالتالي، في الحفاظ على المقاومة، وقد كان المعسكر رمزا لها في نظرهم.

كان بإمكاننا رؤية معسكرات أخرى عن بعد، حيث قيل لي إن بعضها كان طاجيكيا، بينما كان العرب ـ أو مجموعات باكستانية متفرقة ـ يشغلون أخرى، فقد بدا أن المنطقة كانت مكتظة بالمعسكرات، فسألنا عن إمكانية زيارة أحدها، فأخبرنا الأمير أن عليه الذهاب إلى هناك أولا، والتحدث إلى أصحاب الشأن في ذلك: «لا نملك أي علاقات تنظيمية مع بعضنا بعضا، إذ ينزع الناس هنا، والعرب على وجه الخصوص، إلى الشك، ولا يملك كل منا برنامج عمل خاصا به فحسب، بل يصل الأمر في بعض الأحيان إلى كره جماعات لأخرى».

حصلنا في نهاية المطاف على الإذن بمرافقة الأمير إلى معسكر العرب، فبدا أن عدد شاغليه يقارب الاثني عشر، أو شيئا من هذا القبيل، بالمقارنة مع مئة وخمسين من الرجال في معسكرنا، ناهيك عن تجهيزه لإقامة أطول أمدا، واحتوائه على أبنية من الآجر الصلب، وعدد من العربات، ودبابة.

دعونا لتناول الطعام معهم، وقد حظينا بوجبة عربية شهية من الحساء، واللحم، والدجاج، لتعقبها الفواكه فيما بعد، كان الباكستانيون، بالمقارنة، يديرون معسكرا تدريبيا محضا، ويأكلون ما يقيم أودهم لا أكثر.

لم أفهم اللغة العربية في حينه، ولكنني التقطت بعض الإشارات إلى فلسطين، وكشمير، والبوسنة، فوجدتني أومئ برأسي موافقة على ما كان أميرهم يقوله، بالرغم من عدم فهمي، أو معرفتي به حقيقة، وقد قام العرب بوداعنا، حين هممنا بالمغادرة، بكل ما يتميزون به من حسن ضيافة، قائلين: «خذوا ما شئتم معكم، تفضلوا». غادرنا، نحن البريطانيين، المكان، وجيوبنا ملأى بالموز والتفاح.

لم أقم في معسكر الباكستانيين سوى بضعة أيام، ولكنني رأيت قسطا وافرا من تدريباتهم، التي بدت أساسية للغاية، مع خلوها من مظاهر الإثارة، إذ

اعتادوا الجري حول الجبال وهم يتبادلون إطلاق العيارات الفارغة معظم الوقت، حيث كان هنالك، بكل الأحوال، مدرب يعرف «بطاهر الانقلابي» (كناية عن ثوريته)، مسؤول عن المستودعات، ودروس الأسلحة، فرأيته في بعض الأحيان يدرب المقاتلين على استخدام بنادق «اى كى 47» الآلية، وبنادق القنص الآلية، وقاذفات «الآر بي جي 7»، والمدافع المضادة للطائرات. كانت معظم الأسلحة روسية الصنع، باستثناء بندقية أمريكية واحدة من طراز «ام 16»، وإن لم تكن ذخيرتها متوفرة، وبندقية قديمة من طراز «لي انفيلد 303»، تعود لأيام الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية، وقد تحدث طاهر، بينما كان يرينا تشكيلة من أسلحة مستودعاته، قائلا: «كم هي قديمة هذه الأسلحة التي يمكن بيعها في الغرب بآلاف الروبيات... بل أعني الجنيهات».

دخل طاهر المستودع مجددا، ليخرج بصندوق خشبي ضخم، فقام بفتح الصندوق، وأخرج منه دمية بلاستيكية قديمة، وأخرى لرجل مقاتل، وعلبة على شكل فراشة، وتحدث طاهر قائلا: «اعتاد الروس ترك هذه الهدايا لأطفالنا»، ثم أزال رأس الدمية البلاستيكية، ليردف قائلا: «بعد وضع الصواعق بداخلها، وحشوها بمتفجرات (السي 4)».

اتخذ المعسكر حالة التأهب في إحدى الليالي، نتيجة إنذار باحتمال تعرضه لهجوم، وقد تم تزويد ثلاثتنا بالسلاح، بالرغم من عدم معرفتنا كيفية استخدامه، وكان الهجوم متوقعا من قبل «الكوشيين»، وهم قبائل بدوية محلية، اعتادت الإغارة على أهدافها، والاختفاء فيما بعد، ولم تكن تلك القبائل جديرة بالثقة لاصطفاف العديد منها إلى جانب السوفييت إبان الحرب، ومع ذلك كان أحد البريطانيين هو المسبب لهذا الإنذار، بعد تعرض حقيبته للسرقة، وإرسال المعسكر فرقا للبحث عمن قام بتلك الفعلة، لتأتي في نهاية المطاف بأحد الأشخاص، حيث كان الرجل مقيدا، وقد بدا بائسا، وخائفا للغاية، فشعرت

بأسف حقيقي لحاله، وكنت قلقا من الذي سيحدث له، إذ المدرب الواقف بجانبه كان يحمل سيفا.

جاء الإنذار نتيجة التوقعات بانتقام القبائل البدوية ردا على أسره، وطلب منا جميعا النوم في الخارج مخافة إضرام النار في الأكواخ، ولم يحدث شيء في حينه، ولكن أعضاء أحد المجالس القبلية، «الجيرغا»، حضروا إلى المعسكر في اليوم التالي، وقد كان ذلك المجلس عقد، كما أخبرنا، لحل المشكلة بين الطرفين، وتم التوصل إلى قرار بعد ساعات من المباحثات، التي لم يسمح لنا بحضورها: يقوم أفراد المعسكر بالتعويض لقبيلة الرجل عن ضربه، مقابل إعادته الحقيبة، والتعهد بعدم العودة إلى المعسكر مجدداً، وكان ذلك يختلف كثيراً عن محاكم قضاة بيرمنغهام، ولم يكن يمثل الشريعة الإسلامية تماما، ولكنه بدا عادلا للغاية في نظري.

كان وقتي في المعسكر قد أزف على النهاية، ولكنني استيقظت، في آخر ليلة أمضيتها هناك، على أصوات انفجارات متعددة، وما رافقها من صراخ، إذ كنا نتعرض لهجوم، ولا بد أنهم كانوا البدو، فجاء أحدهم إلى غرفتنا، وصرخ قائلا: «استيقظوا، استيقظوا. نتعرض لهجوم من قبل «الكوشيين». احتشدوا في ساحة التجمع، وأحضروا أسلحتكم». كنت مندهشا للغاية، بحيث عجزت عن الشعور بالخوف، ولم أقم إلا بما طلب مني. فمشيت كالمترنح في الظلام بحثا عن حذائي، وخرجت جريا من الغرفة. فوجئت بسماع أزيز القذائف ــ التي تخلف وراءها آثارا حمراء وخضراء من الدخان ــ فوق رأسي مباشرة، وقذائف «الآر بي جي» المضيئة، وهي تدك الجبال بأصوات تصم الآذان. صرخ أحدهم، قائلا: «أبقوا رؤوسكم منخفضة، ازحفوا على بطونكم إن اضطررتم لذلك، ولكن لا تتوقفوا». هبطت على معدتي، تماما كما فعل الآخرون حولي، كان بعضهم يركض مذعوراً يصرخ بأصوات عالية، بينما جلس أحدهم على الأرض، وهو ينشج، قائلا: «آه أمي، أرجو أن تسامحيني، إذ كان يجدر بي الإصغاء إليك، وعدم

المجيء إلى هنا». انفجر آخر بالبكاء، بعد أن ضُمِّد وجهه، وصرخ قائلا: «يا إلهي... وجهي، وجهي» فبدأت أشعر بالخوف في تلك اللحظة.

بدأت أفكر، بينما كنت أزحف إلى الأمام، قائلا لنفسي: «لم تطلبون منا التجمع في مكان واحد إن كنا نتعرض لهجوم؟، إنه انتحار». يمكن بالطبع لقلة من الناس أن يجتمعوا في الساحة، ويوزعوا الأسلحة، ولكن الأمر لم يكن صائبا في نظري بكل الأحوال، حضرت سيارة إسعاف روسية قديمة من مكان ما، مطلقة صفارتها التي تشبه صوت مريض يحتضر، وكنت قد وصلت نقطة التجمع بحلول ذلك الوقت، فتوقف إطلاق النار والانفجارات، وسيارة الإسعاف، ليخرج منها بعض الأشخاص المغطون بالضمادات، بمن فيهم الأمير، وتوجه الجميع بأنظارهم إليه، حين كان يفك ضمادته، واستدار ليواجهنا فيما بعد، ونحن جلوس على الأرض، ثم خاطبنا، قائلا: «تصرف معظمكم بطريقة حسنة، ولكنني أشعر بالخجل من أداء بعضكم، وهم لا يستحقون البقاء هنا بعد الآن، كان هذا مجرد تدريب، لم يصب أحد بأذى خلاله، ولكنه سيعلمكم درسا لن تنسوه أبداً».

اعتبرت نفسي، بحلول عودتي إلى بريطانيا، مسلما ملتزما، فقد مثلت زيارة الأفغان، في نظري، تجربة غيرت حياتي، ولم تؤثر قلة من الأيام فيّ كما فعلت تلك، حيث قابلت خلالها ما يحتذى به من الرجال في إيمانهم، وتضحيتهم بذواتهم، وعشت في عالم ألهمني، وملأ قلبي بالمهابة.



-4-
مهمة إنسانية

توصلت بعد عودتي إلى بيرمنغهام إلى قناعة، مفادها أن الوقت قد حان بالنسبة لي للزواج، وكان والدي قد حثني بالفعل على التفكير في الأمر، ورتب لي لقاءات مع عدد من الفتيات وعوائلهن، فقابلت بعضهن، لأكتشف أن طريقته لم تكن ناجحة بالنسبة لي، وسألت أحد الأصدقاء عما إذا كان بمقدوره مساعدتي في إيجاد من اقترن بها، فعرفني صديقي إلى شقيق زوجي المستقبلي، وهو شاب فلسطيني بريطاني سهل المعشر، متخرج في جامعة كامبريدج حديثا. وقد دعاني إلى زيارة منزله للقاء شقيقته.

فكرت، حين وصلت منزله الضخم، قائلا لنفسي: «لا يمكن أن يكون هذا بيته، إذ بدا شخصاً متواضعاً للغاية». قرعت الباب مترددا، تتملكني فكرة العودة من حيث أتيت، فقد كان المنزل كبيرا للغاية من الداخل، وذلك ما أرهبني قليلا، ولكن سمير بدد ذلك الشعور. تناولنا الغداء معا، وتجاذبنا أطراف الحديث مدة من الزمن، لتدخل زينب فيما بعد، حيث رتب سمير الأمر وفق التقاليد الإسلامية، لا كما تجري الزيجات الآسيوية التقليدية، ولم تكن زينب، ترتدي الحجاب حين التقيتها، وقد شعرت بالانجذاب إليها من اللحظة الأولى، جلستُ، لنتحدث بعض الوقت، في حين ذهب سمير إلى زاوية الغرفة، إفساحا في المجال لنا، وتبين، بعد مضي وقت قصير، أننا نروق لبعضنا بعضا، ولكنني لم أزل أشعر بالرهبة من منزلها، ثم أردت التحدث إليها في مكان أعرفه.

رتبنا لقاء آخر في منزل صديقتها، إذ كنت أعرف زوجها، وذلك ما جعل المكان مألوفا لكلا الطرفين، وأفسح لنا المجال للتحدث بحرية خلال الغداء الذي استمر بعض الوقت، وتحادثنا على الهاتف طيلة بضعة أشهر آتية، والتقينا أكثر من مرة.

تمثل أحد الأشياء التي أوضحتها لها في شغفي بالذهاب إلى البوسنة، وتعين علي إفهامها أن شيئا ما يمكن أن يحدث لي هناك، ولا أعتقد أنها كانت تدرك مخاطر القيام بذلك على أكمل وجه، بل تريد الزواج فحسب، إذ كانت قد التقت بالفعل بعدد من الأزواج المحتملين، ولكنها اختارتني دون أي منهم، واتفقنا على الزواج، فتم عقد قراننا بطريقة بسيطة للغاية، وفق الشريعة الإسلامية، في حجرة المعيشة في منزلها، فقد اتصلت أنا وسمير، بوالدي، وشقيقي، وأحد أصدقائي، كشاهد على العقد، وإمام لعقد القران.

أقمنا في منزل والديّ خلال شهر زواجنا الأول، وقد كنت مسروراً للغاية لطريقة استقبالهما لها، إذ كانت زينب بمثابة الابنة التي لم يلداها، وقد أصبحت جزءا من العائلة منذ ذلك الحين، واشترى والداها فيما بعد منزلا كهدية لزواجها، فانتقلنا لنقيم فيه طيلة سنوات زواجنا الأولى. غيّر الزواج حياتي بصورة كلية، وشعرت بنشوة مشاركتها مع المرأة التي اخترت، ولم أستطع، مع ذلك، تجاهل ما كنت أراه من ظلم يومي على شاشات التلفزة، أو أسمعه من قصص ضحاياه.

كنت قد سألت صديقي البوسني أدين عن المطبخ البوسني في إحدى المرات، وقد دعاني لتناول إحدى أكلاته التقليدية في منزل صديقته التي كانت شابة بوسنية مسلمة لجأت إلى بيرمنغهام، وتولى أدين ترجمة بعض ما قالته إلى الإنجليزية، نظراً إلى عدم إلمامها بها، فقد بدا وجهها شاحبا، وعيناها غائرتين، في حينه أخبرني أدين قصتها بعد مغادرتنا، وقد كانت تفوق الوصف أو الخيال: أغار الجنود الصرب على منزلها، واغتصبوها على مرأى من زوجها، واستمر الاغتصاب الجماعي، بينما تعالت صرخات طفلهما ذي الثلاثة أشهر. طمأنها ذلك على الأقل إلى أنه ما زال على قيد الحياة، وأخذت تتوسل إلى الجنود، حين توقف بكاء الطفل، قائلة: «أين هو طفلي؟، ماذا فعلتم به؟». فدخل أحد الجنود حاملا رأس الطفل، ووضعه على طاولة بالقرب منها، قبل أن يقوم باغتصابها مجدداً، وقد كانت المرأة تخضع للعلاج النفسي في بريطانيا، وسعت جاليتها إلى إيجاد من يقترن بها مجدداً، بعد أن قتل زوجها بعيد اغتصابها.

لم أكن بحاجة إلى الكثير من الإقناع لمساعدة البوسنيين، ولكنني حصلت على حافز إضافي أخير للقيام بذلك، إذ كان أحد صناع الأفلام الهواة من البريطانيين قد ذهب إلى البوسنة، وصور فيلما بعنوان «مجازر في البوسنة وكرواتيا»، مثلت صور ذلك الفيلم الحية أكثر ما شاهدته رعبا في حياتي: بقايا جثث متفحمة في أنحاء المدن والقرى كافة، مناظر مروعة تعم أرجاء الريف البوسني الخلاب، مع كل ما يشكله ذلك من مفارقة، وروى المعلق في الفيلم كيف كان الرهان يتم بين جنود يحملون الحراب حول ما إذا كانت النساء حبلى بذكور أو إناث، ليعقب ذلك مشاهد لامرأة ميتة بجانب جنينها المنتزع من بطنها، وأظهر الفيلم أيضاً مشاهد لصبي، في السادسة من عمره ربما، بعد ذبحه بالسكين، لعدم رغبة الصرب في استنفاد طلقاتهم، وتحدثت امرأة بوسنية مسنة، أثناء مقابلتها في الفيلم، قائلة: "لم لا ترسلون لنا إلا الطعام فحسب؟، كي يذبحنا الصرب كالخراف المسمنة؟، أرسلوا لنا السلاح؛ كي نقاتل دفاعا عن أنفسنا". قررت في تلك اللحظة الذهاب إلى البوسنة.

ثارت ثائرتي لسماع الأخبار عن معسكرات يستخدمها الجنود الصرب بشكل ممنهج لاغتصاب آلاف النسوة المسلمات، ورأيت الإبادة الجماعية، والتطهير العرقي للبوسنيين يحدث أمام ناظري أوروبا، دون أن تحرك ساكنا، وقد كانت خياراتي، مع ذلك، محصورة في وهب المال إلى منظمات تعمل من كرواتيا، لا البوسنة، ومساعدة اللاجئين حال وصولهم إنجلترا، إذ كان ذلك يعد كثيرا بالنسبة للعديد من الناس، ولكنني كنت على قناعة بأن مجرد الإطعام والكساء لأناس يواجهون الإبادة ليس بالأمر الكافي.

بدأت أهب المال بشكل دوري إلى العديد من المنظمات الخيرية، مقتطعا نسبة أسبوعية من دخلي، ناهيك عن التبرع بخاتم ذهبي امتلكته مدة طويلة، ولم يمثل ذلك شيئا في نظري أمام تعرض الناس للذبح، فحضرت مؤتمرات عقدت في أنحاء البلاد كافة؛ بحثا عن حلول لتلك الكارثة، وقد استأت كثيرا من موافقة

الاتحاد الأوروبي، بما فيه بريطانيا، على فرض حظر على إرسال السلاح إلى أطراف النزاع كافتهم، حيث كان الصرب والكروات يزودون بالسلاح من قبل الدول المجاورة لهما، بينما لم يحظ البوسنيون بشيء يذكر، وقد تمثل أحد الأصوات القليلة المؤثرة التي دعت إلى تزويد البوسنيين بالسلاح بشكل علني، على حد علمي، وبما يدعو للاستغراب، في البارونة تاتشر، رئيسة الوزراء السابقة.

استحوذ التفكير في البوسنة على ذهني ـ منذ عدت من باكستان وأفغانستان ـ بالنظر إلى قربها، بالإضافة إلى ما رأيت من مقاومة في أفغانستان، وكنت قد قابلت هناك من خرجوا بالفعل سعيا لإحقاق الحق، عوضا عن الجلوس في بيوتهم، ووجدت، أخيراً، من لم يكتف بالكلام لنصرة البوسنيين، من غير المرتزقة، فقد قرأت تقارير، ورأيت مقابلات متلفزة مع جنود بريطانيين سابقين، ومرتزقة يقاتلون في البلقان، دون أن يكون ذلك دفاعا عن البوسنيين بالضرورة، فلم تكن تلك المساعدة المأجورة، المجردة من أي قناعة، ما كان البوسنيون بحاجة إليه.

كنت قد سمعت عن منظمة تدعى «قافلة الرحمة»، توصل المساعدات إلى البوسنة من بريطانيا، كان مؤسسها باكستانيا بريطانيا يدعى آصف، فذهبت لمقابلته، وقد أخبرني قائلا: «أوصل المساعدات إلى المحتاجين في البوسنة، ويتعين على كل من يرافقني أن يعمل بجد، ويطيع الأوامر، فلن تكون نزهة، لن تكون عطلة، وإن ذهبت برفقتي، فيجب أن تصغي إلي، وتعمل، وإن أردت المغادرة إلى هناك، والانضمام إلى الجيش البوسني، فلك ذلك... إنه خيارك، ولا أستطيع تشجيعك، أو منعك من القيام بذلك، فلا يقوم عملي على صحوة الضمير المفاجئة، بل يمثل التزاما متواصلا: أرسل قافلة إلى هناك كل أسبوعين، وإن أردت المشاركة، فيتعين عليك إظهار بعض الالتزام على حد سواء».

أخبرت مديري في مصلحة الضمان الاجتماعي برغبتي في طلب إجازة غير مدفوعة الأجر لبضعة أشهر، وسألته الاحتفاظ بوظيفتي؛ كي أعود إليها فيما

بعد، وأوضحت له أنني سأذهب بكل الأحوال، وإن رفض ذلك، وقد دعمني المسؤولون في العمل، ووعدوني، لكرم أخلاقهم، بالحفاظ على وظيفتي، ولم يكونوا على علم، بالطبع، برغبتي في الالتحاق بالجيش البوسني، وإن لم أكن قد اتخذت قرارا نهائيا بخصوص ذلك في حينه.

شعرت بحماسة عالية، لا يعوزها القلق مع ذلك، وكان والدي قلقا أيضا، ولم يكن يرغب في ذهابي حقيقة، بالرغم من دعمه فكرة مساعدة البوسنيين على أرضهم.

لحظت على الفور، حين وصولي إلى مكان اللقاء بآصف في شمال لندن، عند بداية الرحلة كم كان إنجليزيا في أسلوبه، كما كان والدي إلى حد ما، ناهيك عن رفعه علما بريطانيا فوق عربته، وتمثل أول ما قاله لي في الآتي: «حسنا، رافقني إلى المستودع، وابدأ التحميل». بقينا نحمل المساعدات خمس ساعات: بضائع من أرجاء البلاد كافتها، أكياس من الملابس والبطانيات، صناديق من الأغذية المعلبة، والأشربة المحفوظة، والأدوية، والمعدات الطبية، فقد ملأت تلك المساعدات شاحنتين بالكامل.

كانت الشاحنتان في حال سيئة، وتعين علينا قيادتهما مسافة 1500 ميل، وتعطلت كلتاهما في كل بلد مررنا به تقريبا: فرنسا، اللوكسمبورغ، ألمانيا، النمسا، وسلوفينيا، كرواتيا، والبوسنة، وقد كان هنالك شخصان في إحدى الشاحنتين، وأربعة، باقون في الأخرى، جميعهم من الرجال، مسلمين، وغير مسلمين، وقاد آصف الشاحنة التي كنت فيها.

أوقف آصف الشاحنة، بصورة مفاجئة، في وقت متأخر من الليل في مكان ما من وسط «الغابة السوداء» (منطقة في ألمانيا)، على طريق مغطى بالثلوج، ليطلب مني تولي القيادة، ويأخذ قسطا من النوم فيما بعد، ولم يكن ذلك ما توقعت، فقد كانت شاحنتنا في المقدمة، وكانت تلك المرة الأولى التي أقود فيها شاحنة، أو أفعل ذلك على الجانب اليميني من الطريق، ناهيك عن جهلي به في الأساس،

وتمثل كل ما كان لدي في قطعة من الورق، تفصل المدن والقرى التي ينبغي علينا المرور بها.

لم يكن آصف يحبذ فكرة الوقوف عند الفنادق، بالنظر إلى ما قاله من أننا نؤتمن على مال عام، يحاسب هو شخصيا عن كل قرش منه، فقد اعتاد مخاطبتنا قائلا: «إن أردتم الذهاب إلى الفنادق، فافعلوا ذلك على نفقتكم الخاصة، ولكنني لن أنتظر أيا منكم، أنام في الشاحنة، وآكل في الطريق، وسأشتري لكم البيتزا جميعا في ليوبليانا (عاصمة سلوفينيا)». كان آصف يهددنا، علاوة على ذلك، حين نتوقف للتزود بالوقود، أو أي شيء آخر، قائلا: «لن ننتظر أي أحد، وإن ذهبتم، ولم تعودوا إلى القافلة في الوقت المحدد، فسنتركم خلفنا، فقد فعلت ذلك مع أحدهم في كرواتيا أثناء رحلتنا الأخيرة، بعد أن تصرف، وكأنه سائح في إجازة». لم يسبق لي العمل، ولا أعتقد أنني سأعمل، مع أي شخص كآصف في حياتي.

اقتربنا، بعد بلوغ سلوفينيا، من مناطق القتال، فبدأت أشعر بالتوتر الذي يحيط الأجواء بمجرد دخولنا كرواتيا، وقد أرادت السلطات هناك رؤية المزيد من وثائقنا، وقامت بتفتيش الشاحنتين، فتصرف آصف بصورة مذهلة عند الحدود، إذ كان صلبا وعنيدا على الطريقة البريطانية، وغالبا ما هدد حرس الحدود بالمتاعب، واللجوء إلى عمل دبلوماسي، حيث تعرض الرجل في رحلات سابقة إلى إطلاق النار، والاعتقال، والضرب من قبل الكروات، ولكن شيئا لم يثنه عن مواصلة عمله، بالنظر إلى شخصيته المندفعة التي يصعب إيقافها، فقد كان يتقن اللغة بدرجة كافية للتحدث بطلاقة الواثق إلى الحراس، وتعلمت من هذه الرحلة ما أفادني في رحلاتي الخاصة اللاحقة.

وصلنا في نهاية المطاف إلى «سبليت» الواقعة على ساحل «الدلماسي»، المنطقة الخلابة بكل معنى الكلمة، وتوقفنا هناك للسباحة في البحر، وبدأنا، بعد مضي وقت قصير، في رؤية عربات الأمم المتحدة، وذلك ما عزز الشعور باقترابنا من مناطق القتال، وقد تابعنا تقدمنا نحو ساحل «ماكارسكا»، حيث مقر القوة

الباكستانية التابعة للأمم المتحدة، وقد كانت علاقة آصف بأفرادها حسنة إلى حد ما، كما رأيت، فقاموا بمساعدته في السابق على نقل بعض المواد الغذائية الزائدة بحوزته، عند تعطل إحدى الشاحنات، وأمضينا بعض الوقت برفقتهم، وقد كان من الغريب بالنسبة لي رؤية الباكستانيين في تلك البيئة المختلفة، فلم أكن راضيا عنهم، بكل الأحوال، بالنظر إلى وقوفهم متفرجين على المذابح الوحشية التي ترتكب بحق المسلمين، كقوات الأمم المتحدة الأخرى تماما.

خاطبنا آصف، ما إن عبرنا الحدود، قائلا: «أصبحتم الآن في البوسنة، ومن ثم يتعين علينا توخي الحذر، حيث تنتقل السيطرة من طرف لآخر على بعض المناطق هنا باستمرار، كما تتغير التحالفات، وينخرط المسلمون والكروات حاليا في اتحاد فيدرالي، بالرغم من كل ما خاضوه من حروب طاحنة في السابق»، وطالبنا آصف كذلك بالانبطاح، وإنزال الستائر عند مرورنا بالمناطق الكرواتية البوسنية، إذ أصبحت الطريق وعرة الآن، ومليئة بالحفر التي خلفتها القنابل.

كانت «موستار» أول مدينة نبلغها، لنفاجأ بمدى تدميرها، فلم أر منزلا أو بناء سلم من القصف، ناهيك عن جسر المدينة التاريخي الذي سقط في نهرها الجميل، وقد أشار آصف، في الطريق إلى «موستار»، إلى كاتدرائية ترفع صليبا ضخما على برجها، قائلا: «لقد صلبوا أحد المتطوعين العرب في أعلاها منذ بضعة أشهر، وذلك يعطيكم هذا فكرة عن ماهية المكان الذي أتيتم إليه».

رأيت، طيلة مسيرنا لأميال، منازل مقصوفة، مدمرة الأسطح، ولحظت كذلك أن ثقوب الرصاص تملأ كل بوصة فيها تقريبا، فلم تسلم إشارات الطرق حتى من حمى التدمير، وبدا معظم من رأيتهم من الناس هناك، على قلتهم، كالأشباح، شاحبي الوجوه، يكلفون أنفسهم بالكاد عناء النظر إلينا حين تمر شاحنتنا بقربهم، وتمثل ما لحظته أيضا في المقابر، إذ كان المكان يعج بها.

كان مصطفى، أحد مرافقينا في الرحلة، من البوسنيين قد لجأ هو وابنته إلى بريطانيا، منذ سنة تقريبا، وها هو الآن يعود للانضمام إلى الجيش، وقتال

الصرب، فشعر جميعنا بكثير من التقدير تجاه هذا الرجل المسن، إذ كنا قد تركناه في إحدى القرى المدمرة المهجورة، ولم أره مجددا إلا بعد مضي عام، حيث أخبرني عن كل ما دار في المعارك التي خاضها، وقد لفت نظري بلحيته الطويلة التي أطلقها.

وصلنا فيما بعد إلى «جابلانيكا»، حيث احتشد الناس مباشرة حول القافلة، ففرح بوسنيو المدينة كثيرا لرؤيتنا، وصرخوا قائلين: «ميرهبا، آصف، كاكو ستي في؟». أجابهم آصف قائلا: «ميرهبا براك، كاكو ستي في؟ (مرحبا أيها الأخوة، كيف حالكم؟)».

أجابوه قائلين: «دوبرو، آكا بودغا. مالو نوفي براك (جيدون بعون الله، ولدينا بعض الأخوة الجدد هنا)».

كان آصف صارما معنا، نحن العاملين لديه، ولكن البوسنيين رأوا جانبا آخر من شخصيته، وأحبوه، وكثيرا ما كانوا يدعونه إلى تناول الطعام، أو شرب القهوة في منازلهم، وقد كنا نرافقه، ونرى كيف كانوا يعيشون، فقد كانت حياتهم بائسة للغاية، شاقة إلى أبعد الحدود، ولم أفاجأ، في الحقيقة، من نزوح الكثير منهم إلى أوروبا الغربية.

اكتشفنا، بعد مضي وقت قصير، أن آصف كان مشاركا في أنواع المشاريع كافة: مزارع تربية الدواجن، ومراكز إعادة التأهيل، والمستشفيات، والمدارس، ووصلنا، وبمجرد مغادرة جابلانيكا، إلى قرية تدعى «أوستراراك»، حيث يقع مركز آصف الرئيس الذي كان يطل على بحيرة جميلة ـ حيث سبحت خلال زيارتي الثانية في الصيف ـ مع كل ما يحيطها من جبال جليدية، وكنا نلقى الترحيب الحار ذاته أينما حللنا، إذ كان الأطفال يرفعون سباباتهم اليمنى في الهواء، كلما مرت شاحنتنا بمحاذاتهم ـ كما يفعل المسلمون في صلاتهم أثناء التشهد ـ إظهارا لقوة إيمانهم، وتمسكهم بالإسلام.

تعين علينا القيام بكثير من العمل، لحظة وصولنا، بحيث لم تتوفر الفرصة لنيل قسط من الراحة، أو التعرف إلى المكان، وقد كلفني آصف، بعد إفراغ حمولة الشاحنتين، وقطع بعض الأخشاب للتدفئة، بحفر قناة في القبو؛ كي نمد أنبوبا لتصريف المياه عبرها.

أحسست بأنني أنجزت شيئا بعد حوالي الأسبوعين من العمل في المركز، وتوزيع الطعام على اللاجئين، وشعرت بكثير من الذنب، مع ذلك، لرؤية وجوههم المتربة، ومقارنة حياتي، التي تعد مترفة، بالبائسة التي كانوا يعيشونها، وعودتي إلى تلك الحياة، تاركا إياهم في ذلك الجحيم، فلم يكن إيصال علب الفاصولياء إليهم كافيا بأي من الأحوال في نظري.

تعلمت شيئا من لغتهم، وسمعت الكثير من قصصهم، فقد قمنا في أحد الأيام بزيارة إحدى وحدات الجيش البوسني التي كان يديرها «المعلم»، المتخصص في العلوم الإسلامية في مصر، إذ بدا الرجل منظما للغاية، وحظي بالاحترام لمقاتلته الصرب، وسمعت بعضا من قصص الجنود المروعة، كالقتال، على سبيل المثال، تحت الثلوج، في درجة حرارة تصل إلى 25 مئوية تحت الصفر، وفقدان بعض الجنود أوصالهم لشدة الصقيع.

توقفنا، أثناء توجهنا إلى «زينيكا»، في «ترافنيك»، الواقعة في أعالي الجبال إلى الغرب، مثبتين سلاسل حديدية على إطارات شاحنتنا، منعا لانزلاقها بسبب الثلوج، وأخذنا نقترب من منطقة القتال، متجاوزين عربات مقصوفة، ومنازل مدمرة، وعددا من اللاجئين البؤساء في طريقنا، وسمعنا قصصا عن قتال حفنة من المجاهدين البوسنيين والعرب لكتيبة كاملة من جيش العدو، ونجاحهم في الدفاع عن المدينة.

كانت ترافنيك مدينة جميلة للغاية، تظهر معالم العمارة العثمانية بوضوح على مساجدها، ومدارسها الوافرة، وكانت المآذن المشيدة على النمط التركي، والمطلة من أسطح الجبال تشبه إلى حد ما صواريخ «سكود»، التي ادعت صحيفة

«الصن» في إحدى المرات أنها كانتها بالفعل، وأن البوسنيين يموهونها كمآذن. التقينا ببعض العرب في المدينة، الذين فيهم طبيب يعيش ويعمل هناك منذ سنوات عديدة، قبل اندلاع الحرب وبآخرين ممن قدموا خصيصا للانضمام إلى وحدات الجيش البوسني المتعددة، وكنت ما أزال أفكر أن أحذو حذوهم، ولكن التزامي تجاه ذلك الأمر أخذ يضعف، مع اقترابنا من منطقة القتال، فلم أكن واثقا بالفعل مما يجب علي القيام به، ففكرت في زينب، وطفلنا الأول الذي كانت تنتظر قدومه، وأدركت أن انضمامي إلى الجيش البوسني، بكل خطورته، يمثل ظلما كبيراً لها.

سأل ثلاثة منا، نحن البريطانيين، آصف عما إذا كان بمقدورنا الذهاب إلى زينيكا، حيث يقع مقر الفيلق الأجنبي التابع للجيش البوسني، حيث كنا قد سمعنا عن الأجانب القادمين من أنحاء العالم الإسلامي كافة للتجمع في هذا المكان، وإعلان ولائهم للفيلق الثالث، «آرميغا بوسانسكا»، أو «كتيبة المجاهدين» (كما كان يعرف بالبوسنية والعربية) تحت قيادة علي عزت بيغوفيتش، رئيس البوسنة والهرسك، علاوة على خوضهم معارك بطولية ضد الصرب.

أجابنا آصف قائلا: «حسنا، سأوصلكم إلى زينيكا إن أردتم الذهاب إلى هناك، ولكنكم ملزمون بتدبير طريق العودة وحدكم، ويمكنكم الرجوع إلى المركز حين تنتهون، ولكنكم ملزمون أيضا بالعمل حتى عودة القافلة إلى إنجلترا».

ذهبت إلى زينيكا مع البريطانيين الآخرين، تملؤنا الحماسة جميعا لما سمعناه عنها، وإن شعرنا بتوتر شديد، ووصلنا إلى مقر قيادة الفيلق الثالث في الجيش البوسني، أو الكتيبة (كما كان العرب يدعونها).

تم إرسالنا للتحدث إلى المسؤول عن المتطوعين الجدد الذي كان مصريا، ولكنه لم يكن ودودا من اللحظة الأولى.

سألني قائلا: «لم أتيت هنا؟».

أجبته قائلا: «أتيت لمجرد رؤية...».

قاطعني قائلا: «هل أنت مراسل صحفي أو ما شابه؟».

أجبته، متخذا موقف المدافع، قائلا: «لا. أنا مجرد شخص يهتم للأمر، ويبحث عن السبل الكفيلة بالمساعدة».

عقب قائلا: «يأتي المتطوعون الأجانب، المجاهدون، إلى هذا المكان، ويبقون ستة أشهر تمتد إلى سنة أحيانا، وينذر الجميع أنفسهم للتدرب على القتال، والتوجه فيما بعد إلى الجبهات المتعددة، فيعود بعضهم سالمين، أو يصابون، بينما يستشهد بعضهم الآخر. هل أنت مستعد للقيام بذلك؟».

كنت قد طرحت الأسئلة ذاتها على نفسي عدة مرات: «هل أنا مستعد للقتل في سبيل تلك القضية؟ هل أنا مستعد للموت في سبيلها على حد سواء؟».

خاطبني، قبل أن أجيبه، قائلا: «انظر، نحن في منتصف الشتاء الآن، وذلك ما يخفف من وطأة القتال بكل الأحوال، وإنه يمكنك البقاء هنا بضعة أسابيع، إن شئت، والوقوف على مدى تفردنا، واختلافنا عن بقية وحدات الجيش، ويمكنك الذهاب إلى معسكرنا كزائر، والبقاء بصحبة الأخوة، ولكنني لا أستطيع السماح لك بالتوجه إلى خطوط القتال الأمامية ما لم تتلق التدريب المناسب».

رأى أحد البريطانيين الآخرين أنه لا يصلح لتلك المهمة، فقفل عائدا في غضون يومين، وتحدث إلي قائلا: «يفوق هذا الأمر صعوبة ما كنت أتخيله، فلست مهيئا للقيام بذلك، إن جسديا أو ذهنيا، وأفتقد زوجي كثيراً». استقل الشاب حافلة إلى كرواتيا ولم يعد أبدا، بينما التحق الآخر بالجيش، وبقي ستة أشهر.

انتهى بي المطاف إلى البقاء ثلاثة أسابيع هناك، معظمها في معسكر القاعدة في زينيكا، حيث اجتمع أناس من أنحاء العالم كافة هناك، وكان الانسجام تاما بينهم كما تراءى لي، وبلغ بي الأمر حد لقاء صربي اعتنق الإسلام، وقرر الانضمام إلى هذا الطرف، وإن لم يتم إرساله إلى الجبهة مطلقا.

لحظت، في مركز تدريب الجيش في «أوراكوس»، أنهم يتبعون طريقة أوروبية للغاية في التدريب، على النقيض مما رأيته في أفغانستان، إذ يبدو المدربون هنا أكثر حرفية، ويهتمون كثيرا بالانضباط، والفاعلية، والدقة، فقد كان الوضع في أفغانستان أقل تشددا، حيث يرمي المقاتلون طلقة من الرصاص مثلا، ثم يرتشفون بعضا من الشاي، ويستريحون قليلا، ليطلقوا النار مجدداً. زود الجنود هنا بكل ما يلزمهم من متطلبات القتال صيفا وشتاء: كانوا يجلسون إلى موائد، ويتناولون طعامهم بأوان فضية، ويحترمون تسلسل القيادة لديهم، ويخضعون لتدريبات جسدية قاسية، وكانت معظم أسلحتهم من أوروبا الشرقية، وإن أراني أحد الجنود بندقية هجومية بريطانية من طراز «اس اى 80»، قال: إنه اشتراها من تاجر سلاح كرواتي. كانت تلك المرة الوحيدة التي أرى وألمس خلالها تلك البندقية، وأخبرني الجندي أن البريطانيين كانوا قد منحوا الكروات مئات منها.

كان معظم المسؤولين هناك من العرب، ما مثل ذلك أمرا مثيرا بالنسبة لي، فلم يحل دون وجود أتراك، وغامبيين، وباكستانيين، وفرنسيين، وفليبينيين، وماليزيين، بالإضافة إلى البوسنيين، مع تأثير واضح للمملكة العربية السعودية، إذ كان للعديد من دول الخليج، في الواقع، وكالات إغاثة، ومراكز تعليمية منتشرة في أنحاء البلاد كافة، ومرتبطة «بالكتيبة»، بينما بدا أن أهل الحل والعقد هناك كانوا من المصريين في الغالب، الذين يحمل الكثير منهم الجنسية البوسنية، ويقترن ببوسنيات، فأخبرني أولئك عن العمليات التي شنوها ضد الصرب، ولم تبدُ لي كحرب عصابات كما في أفغانستان، بل بدت حرب جبهات تقليدية، حيث كانوا محصنين بالكثير من الخنادق، ناهيك عما يملكونه من مدفعية ثقيلة.

كان من الواضح أنهم يهوون الحديث عن انتصاراتهم، وإن تعرضوا لخسائر كبيرة في سبيلها، فقد قتل الكثير من الأجانب هناك، بمن فيهم خمسة بريطانيين على الأقل، كانوا قد خاضوا معركة حديثة، فقدوا فيها ما يفوق العشرين من الرجال، ولكنهم حققوا غايتهم منها في نهاية المطاف. قمت بعيادة

بعض الجرحى في المستشفى، لأفاجأ بوجود بريطاني، إصابته بالغة، إذ فقد عينه، وجزءا من كتفه أثناء القتال، فسألته عما دفعه لتلك التضحية، وعن إصابته، فأجابني قائلا: «إن نذرت نفسك للقيام بذلك، فستؤمن أنه يستحق ما يبذل في سبيله من تضحيات».

قفلت عائدا إلى ترافنيك، بعد انتهاء ثلاثة الأسابيع، ومكثت هناك يومين مع صديق التقيته في زينيكا، فلم أعد إلى مركز آصف، بل استقللت حافلة إلى ميونيخ، عائدا منها إلى إنجلترا.

ذهبت إلى آصف لأتحدث إليه، بعد وقت قصير من عودتي إلى بريطانيا، فقد كنت مدينا له بأخذي إلى البوسنة ـ الحلم الذي كان يراودني منذ فترة طويلة ـ ويمكنني القول: إنه أكبر فيّ شيئا ما، ربما كان متمثلا في مساعدتي البوسنيين بأكثر مما يفعل متطوعوه عادة، أو لانتمائي إلى القلة الذين كانوا يطيعون أوامره بلا نقاش.

عدت إلى عملي في مصلحة الضمان الاجتماعي عقب عودتي من البوسنة، وتساءلت قائلا لنفسي: «كيف يمكن لي الجلوس بكل هدوء، في مكتب طيلة اليوم، بعد كل ما رأيت؟». فتوقفت عن الذهاب إلى الحانة، بعد انتهاء عملي، منذ أصبحت مسلما ملتزما، ناهيك عن النوادي الليلية، توقفت عن القيام بذلك إلى حد كبير، وإن كان بصورة تدريجية. شعرت أنني بدأت أعيش في عالم مغاير تماما، كنت قد صنعته بطرق مختلفة، ولكنه كان قائما بالفعل، وينتظر قدومي إليه بطريقة ما، وأصبحت دائم الانخراط في الأنشطة الاجتماعية مع زملائي.

ذهبت إلى البوسنة، خلال السنتين والنصف التاليتين، ثمان أو تسع مرات مع «قافلة الرحمة»، وقمت بزيارة ثكنة «الكتيبة» مجددا، مع استبعادي تماما فكرة الانضمام إلى الجيش البوسني، إذ كان العديد ممن التقيتهم هناك قد لقوا حتفهم.

تطوعت في بريطانيا للعمل مع «قافلة الرحمة» في أغلب الأحيان، مشاركا في مشاريع جمع التبرعات والمساعدات المختلفة، وواصلنا الذهاب إلى هناك حتى بعد انتهاء الحرب بصورة رسمية، مع عقد اتفاقية «دايتون» للسلام، التي اشترطت خروج جميع المقاتلين الأجانب، فقد كان معظم أفراد قيادة «الكتيبة» قد اغتيلوا ـ بحلول موعد زيارتي الأخيرة عام 1997 ـ أو قتلوا في كمائن، بعد مضي فترة ليست بالقصيرة على عقد الاتفاقية.

انتقلت أنا وزينب، أوائل العام 1995، إلى منزلنا الجديد المجاور لملعب بيرمنغهام البلدي، فرزقنا في الخامس من أيار/ مايو من العام ذاته بطفلتنا الأولى التي قررنا أن نسميها «أمامة»، ولكن والدي رغب في تسميتها «مريم»، ليصبح اسمها في نهاية المطاف «مريم أمامة»، ففرحنا كثيراً بقدومها، إذ كانت كالدمية في براءتها، ناهيك عن كونها الفتاة الأولى في عائلة بيغ منذ وفاة شقيقتي عظمى، وأتاح لي القدر أن أكون إلى جانب زوجي أثناء حملها بكل أطفالنا القادمين، باستثناء أحدهم، وأن أكون بجانبهم خلال سنوات طفولتهم المبكرة، فيما عدا واحداً منهم.

تعرضت، في الصيف الآتي، إلى الاختبار الأول لأبوتي، ونقطة ضعفي الوحيدة، بما ترتب على ذلك من مسؤوليات جديدة، فقد أتيت المنزل، فيما بعد ظهيرة أحد الأيام، لأجد زينب مذعورة للغاية، مستاءة إلى أبعد الحدود.

أخبرتني أنها كانت تسير عائدة إلى المنزل بعد قيامها بالتسوق، ترافقها أمامة في عربتها المتحركة، فاقتربت منها سيارة مليئة بشباب بيض أنزلوا النوافذ، وبدؤوا يشتمونها ويوجهون الإساءات العنصرية إليها، والسخرية من حجابها، قبل الانطلاق بسيارتهم، فتجاهلت زينب وجودهم، وتابعت المسير إلى المنزل، فباغتتها السيارة من الخلف مجددا، عند اقترابها من المنعطف المؤدي إلى الطريق العام، ونصف عجلاتها تسير على الرصيف، فبدأت زينب الجري بالعربة، وما إن أدركت أن السيارة تبعد بضعة أمتار عنها حتى استدارت حين وصلت الطريق العام، لترى السيارة قد توقفت، قبل أن يقفز أحد الشباب خارجها، ويتجه نحو

زينب التي واصلت الجري حتى بلغت المنزل، جن جنوني حين سمعت القصة، مندهشا من قدرتهم على التصرف بهذه العدائية تجاه امرأة تسير مع طفلتها، لا أكثر، فاندفعت خارج المنزل، وقدت سيارتي في الطريق ذاتها نزولا وصعودا، بحثا عن أولئك المنحطين، مع إدراكي التام بضآلة فرصي في العثور عليهم. ولكن لنفرض أنني وجدتهم بالفعل، ما الذي كنت قادرا على فعله بمفردي؟. فكرت في تلك اللحظة «باللينكس»، متخيلا ما كانت ردة فعلهم ستكون عليه: لم يكونوا ليرضوا أبدا بما حدث، أو يتركوه يمر بلا عقاب.

ذهبت إلى الحج برفقة زينب وأمامة في عام 1997، فلم تكن الرحلة آسرة بالنسبة لي كسابقتها حين كنت مراهقا، ناهيك عن أنها كانت السنة التي اشتعل فيها الحريق الهائل في جبل عرفات، حيث قضى أكثر من ألف وخمس مئة شخص نحبهم، فتعين علينا إخلاء المكان وسط الحشود المتدافعة؛ هربا من ألسنة اللهب الحارقة، التي لم تزدها حرارة الصيف القائظة إلا اشتعالا.

أقمنا بضعة أيام، في طريق عودتنا، برفقة عم زينب في دمشق، مسقط رأسها، ورأينا، خلال تجوال ثلاثتنا ـ زينب، وأمامة، وأنا ـ في الساحات البيزنطية القديمة، والمسجد الأموي، وما قيل: إنه قبر يوحنا المعمدان، لنصل فيما بعد إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، أحد أكثر الرجال مكانة في الإسلام، وواحد من الشخصيات التي افتتنت بها في طفولتي.

ولد طفلنا الثاني، عبد الرحمن، في السابع والعشرين من حزيران/ يونيو عام 1997، بعد عودتنا إلى إنجلترا بوقت قصير، ففضل والدي تسميته «عمر»، نسبة إلى ثاني الخلفاء الراشدين، ليصبح اسمه «عمر عبد الرحمن»، ولدي الأول.

كنت أفكر مع زينب منذ مدة في الانتقال للعيش في بلد مسلم إذ أردنا أن يكبر أطفالنا في محيط إسلامي ـ لم نحظ به كثيرا في طفولتنا ـ بين أناس يماثلوننا، وذلك يوفر لهم أرضية صلبة للتفاعل مع جذورهم، وثقافتهم، وعقيدتهم، ناهيك عن تشكيله جزءا لا يتجزأ من رحلة بحثي عن الذات.

فكرت في العديد من الأماكن في الشرق الأوسط، فقد مثلت باكستان أكثر الأماكن المألوفة بالنسبة لي، إذ كنت أتعلم اللغة العربية الفصحى، ولكن ذلك لم يخف هويتي الأجنبية أمام أي ممن تحدثت إليهم في الدول العربية التي زرتها، حيث قابلت في بيرمنغهام من هاجروا إلى باكستان، واستقروا فيها، ورأيت أن بإمكاننا الذهاب إليها، والإقامة عند أحدهم. كنت أعرف شخصا فلسطينيا يدعى خالد، يعيش في بيشاور، ويهم بالزواج بإحدى الفتيات هناك، وقد كانت بيشاور تضم جالية فلسطينية صغيرة، ومن السهل، في نظري، أن تتكيف زينب مع حياتنا الجديدة بين أفرادها. تركنا منزلنا، في أوائل العام 1998، وغادرنا إنجلترا.

قمنا باستئجار منزل مع خالد، وأحببنا جميعا الإقامة في بيشاور، وانتهى بنا المطاف إلى البقاء ما يقارب خمسة أشهر هناك، مثلت تجربتي الأولى في الإقامة الفعلية خارج بيرمنغهام، وتأقلمت زينب بسهولة بالغة مع الجالية العربية، بشكل يفوق تأقلمي مع المجتمع الباكستاني، ولم يكن العرب والباكستانيون، في الحقيقة، يختلطون كثيراً، الأمر الذي كان مفاجئا بالنسبة لي، وقد اعتاد أصدقاء خالد القدوم إلى بيتنا كثيراً، وكان جميعهم يتحدثون العربية، وذلك ما جعلني غريبا بينهم، إن من الناحية الثقافية، أو اللغوية، ولكن كانت زينب، بكل الأحوال، ترتاح تلقائيا للتعامل مع العرب.

ارتبط خالد بكثير من الصداقات مع العرب والبشتون، ممن قاتلوا السوفييت في أفغانستان، ناهيك عن بعض الأكراد الذين جاؤوا لزيارتنا في إحدى المرات. وتحدثوا عن الكيفية التي عادوا بها إلى العراق، ليبدؤوا انتفاضتهم ضد صدام حسين، بعد انتهاء القتال ضد السوفييت، وقد حدثني أحدهم «محمد» عن الفظائع التي تعرضوا لها من اعتقالات جماعية، وتعذيب، وقتل، وكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها من أصحاب العلاقة مباشرة ما كان صدام حسين عليه، فكنت أظن حتى حينه أنه كان الطرف المضطهد، الذي يتعرض للهجوم من قبل الغرب، وذلك ما جعله يحظى بتأييدي تلقائيا، ولكن يأتي محمد ويخبرني أنه

قتل عددا من أفراد عائلته بالأسلحة الكيميائية في حلبجة عام 1988، وصف لي محمد الكيفية التي وجد بها جميع سكان المدينة مرتمين على الأرض، يتلوون، بوجوههم الشاحبة، من شدة الألم، فانتقل في حينه إلى الجبال، ليبدأ القتال ضد قوات صدام، وتوجه مع عائلته فيما بعد إلى أفغانستان، والتحق هناك ببعض الأكراد في معسكرهم الواقع قرب جلال أباد، إبان الاحتلال السوفييتي.

توطدت علاقتي به، وبآخر يدعى عبد الله الكردي، الذي سألني عما إذا كنت أود زيارة أفغانستان برفقته (شاء القدر أن أدين لهذا الرجل وعائلته بكثير من العرفان، عقب ثلاث سنوات، لمساعدته في حماية عائلتي بعد القصف الأمريكي لأفغانستان) وقد كان معسكر الأكراد يقع عند الحدود تقريبا، بمحاذاة «ممر خيبر»، على بعد ما يقارب الساعتين من بيشاور، وأخبرني عبد الله أن هذا المعسكر يقع على ضفاف بحيرة ضخمة، محاطة بالجبال، فبدا جميلا للغاية وفق وصفه، ويرمز إلى تاريخ طويل من كفاح المجاهدين ضد السوفييت، آنذاك قررت قبول عرضه في نهاية المطاف. وكانت تلك المرة الأولى التي أعبر فيها «ممر خيبر» فلا يفارق نضال قبائل البشتون مخيلتي، وهم يدافعون عن أنفسهم طيلة تلك السنين ضد البريطانيين، ولم يكن اعتياديا على الإطلاق أن أرى نفسي في هذه المنطقة الخارجة على القانون، حيث يمكن أن يتعرض أي إنسان للخطف، أو السلب، أو القتل، ويحمل الجميع السلاح.

قدم لي عبد الله وجبة متواضعة في كوخه الصغير، قبل مضينا لرؤية المعسكر، وقد احتوت المنطقة، مجددا، على عدد من المعسكرات الأخرى التي لم يسمح لنا بزيارتها، وأقام الأكراد ثلاثة أبنية صغيرة استخدموها للتدريب على السلاح، مماثلة لأبنية الكشميريين التي رأيتها في زيارتي السابقة، وإن كانت بأحجام أقل كثيراً.

مثلت السباحة في البحيرة تسلية يومية للكثيرين، حتى إقامة السد ـ المستخدم لتوليد الطاقة الكهرمائية ـ وما نتج عن ذلك من تيارات كهربائية خطرة، وبدأ مقاتلو الطالبان، حين كنت أسبح في إحدى المرات، بإطلاق القذائف من نقطة تفتيشهم المطلة على البحيرة، فظننت في حينه أنهم كانوا يستهدفونني فعليا، بالنظر إلى سقوط قذائف الهاون في البحيرة، ودنو انفجاراتها مني شيئا فشيئا، عندئذ بدأ الأكراد بالصراخ فيهم قائلين: «ما الذي تفعلونه؟، يوجد أناس في البحيرة». رد مقاتلو الطالبان بصيحات الاعتذار، مبررين عملهم بدافع الملل.

كان بإمكان أولئك الأكراد، كما جال بخاطري، أن يحذوا حذو العديد من مواطنيهم، ويختاروا اللجوء بكل بساطة إلى الغرب الآمن، قانعين بذلك، ملتمسين غاياتهم الدنيوية، ولكنهم أبوا إلا تحدي صدام، والعيش في منفى لا يؤول مصيرهم فيه، على الأرجح، إلا للسجن أو الموت، وقد سألت محمدا في إحدى المرات قائلا: «لم لا تطلبون العون من الأمريكيين؟، لقد أصبح عدوكم مشتركا».

أجابني قائلا: «يتمثل أحد الدروس التي تعلمناها من تاريخنا في عدم الوثوق بالغرباء، وإن هبوا لنجدتنا من عدو داخلي، فصلاح الدين كان كرديا مثلنا، وقد أنقذ العالم الإسلامي بهزيمة أعدائه الداخليين، والصليبيين على حد سواء، في حين خسر آخرون قبله أرضهم وشرفهم بقبول الدعم الخارجي ضد أبناء جلدتهم، وإن كانوا من الطغاة، ساعدنا الأمريكيون بالفعل بغزوهم العراق، ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأجلنا، حيث لا نفط في مناطقنا، ناهيك، وهو الأهم، عن وقوفهم متفرجين، كما وقف غيرهم، عندما قصف صدام شعبنا بالأسلحة الكيميائية، فمن الذي زوده، برأيك، بتلك الأسلحة وغيرها في المقام الأول؟، فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة، يمثل صدام قوة شريرة يجب أن نقضي عليها بأنفسنا، مع معرفتنا على الأقل بمن غذاها، فما الذي سيحدث لو حلت محله قوة شريرة أكبر، لا نفهم كنهها؟».

جاءت تلك الزيارة بحلول نهاية إقامتنا في باكستان، وقد كنا حزينين للمغادرة، بينما كانت زينب قد ألفت العيش هناك، فرحة بالصحب والبيئة، إذ اعتدنا الخروج كثيرا في المساء لزيارة الأصدقاء، أو الذهاب إلى الحديقة، حيث كانوا يعدون كبابا شهيا، وكنا نزور عمتي أحيانا في كراتشي، أو ابن عمتي في لاهور، وقد أحب جميعهم زينب كثيراً، كان أطفالي صغارا للغاية، في حينه، بما لا يخولهم دخول المدرسة، ولكنني كنت مهتما إلى حد كبير بمدرسة عربية متخصصة تقع إلى جانب منزلنا، كنت قد زرتها في السابق، ووعدت بدعمها ماليا، والعودة بأطفالي إليها حين يكبرون.

تمثل الشيء الوحيد الذي لم آلفه في الفقر، فكثيراً ما كان الناس يبادرون إلى صداقتنا، حين يكتشفون أننا من إنجلترا، لغاية في نفس يعقوب.

عدنا بعد حوالي خمسة الأشهر إلى بريطانيا، فكنت أخطط في ذهني لافتتاح مكتبة، آملا أن تعود بريع مادي يكفل لنا تمضية فترات أطول في الخارج، وصولا إلى شراء منزل، والاستقرار في باكستان.

توقفت عن العمل مع «قافلة الرحمة» بعد عودتي إلى بيرمنغهام، وذلك ما جعلني عاطلا فترة من الزمن، استغللتها في اكتساب بعض مؤهلات تقانة المعلومات، إذ استلزم افتتاح المكتبة، بمشاركة صديقي شاكييل، العديد من الأشهر، وتجسد طموحنا في ربح ما يكفي لتوفير العيش الكريم لعوائلنا، والإسهام في الأعمال الخيرية، وتعريف الناس بالإسلام.

قمنا في بادئ الأمر باستئجار أحد المحلات، وترميمه، وتنسيقه، بحيث تبدو المكتبة عصرية للغاية، مع المحافظة على الطابع الإسلامي في مظهرها، وقد عمدنا، بعد مضي بضعة أشهر، إلى الاتصال بالموزعين لتوريد الكتب، وانحصر عمل المكتبة في بيع الكتب الإسلامية والتعليمية، بالإضافة إلى تشكيلة واسعة من الملابس الإسلامية التقليدية لكلا الجنسين، والعطور والأبخرة، والأشغال

اليدوية، والمحاضرات السمعية والبصرية، والأفلام، حيث كانت تأتينا جميعا من أنحاء العالم الإسلامي المتعددة، واستعنت بمعارفي في باكستان لتزويدي بالكتب، والملابس، والعسل، الذي سبب لي بعض المشكلات في السنة الآتية.

بدأنا، مع تحسن الأحوال، في تقديم بعض من إصداراتنا الخاصة، المنقولة عادة عن العربية، وهو ما كنت أستمتع بفعله كثيرا. قمت، علاوة على ذلك، بتصميم ملصق كبير لتعليم أحرف العربية لغير الناطقين بها من الأطفال، حيث نال استحسان الكثيرين، توزعت كتبنا ضمن أقسام متعددة تشمل القرآن وعلومه، والكتب الدينية، والقانونية، والتاريخية، والسياسية، والسير الذاتية، وكتب الجهاد، والأديان السماوية، وحوار الأديان، والمرأة، واللغات، والأطفال، واحتوت المكتبة أيضا على قسمين منفصلين للكتب باللغتين العربية والأوردية، وقد انتمى أكثر الكتب شعبية، بكل الأحوال، إلى قسم اليوم الآخر، مجتذبا القراء من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء، إذ كان الكتاب عبارة عن ترجمة لبحث أجري في القرن الثالث عشر بعنوان «علامات ما قبل الساعة».

استمتعت بالعمل في المكتبة، الذي شغل، في أيامه الأولى، قسطا وافرا من الوقت المخصص لعائلتي، وكنت بحلول ذلك الوقت قد اجتزت العديد من صفوف اللغة العربية، وأصبحت أتحدثها بطلاقة، إذ بدأت، مع ازدياد معرفتي بالإسلام، تقديم حلقات دراسية أسبوعية في المكتبة، ولم أكن ذلك الشخص الروحاني من قبل، ولكن دراسة الإسلام دفعتني للبحث في ماهية ذاتي على الدوام.

شعرت أن التعليم الديني السليم ـ المستند إلى الأدلة القرآنية الثابتة، لا الثقافية منها، أو الخرافية ـ من شأنه إثارة الفضول، وحب التعلم لدى المحيطين بي، فلم يمثل ذلك فرصة لنشر ما كنت أمتلكه من معرفة فحسب، بل وأوجد منبراً للنقاش المفتوح حول العديد من القضايا المهمة.

أحسست بالمتعة لمجادلة عدد من المسلمين الذين كانت آراؤهم تغاير رأيي بوضوح، وبدأت أفهم ما تتسم به معتقداتهم من تعقيد أو بساطة، وقد كانت أكثر النقاشات التي أجريتها غنى، تلك التي تدور مع المنتمين إلى أديان مختلفة، وبخاصة شهود يهوه، والمسيحيون الإنجيليون، وأفادتني معرفتي الكافية بالإسلام، والمقبولة إلى حد كبير بالإنجيل، والمذاهب المسيحية المختلفة على الدوام في تفنيد حججهم.

اكتشفت، بالإضافة إلى ما سبق، وجود العديد من الناس الذين يكافحون لملء الفراغ الروحي الموجود لديهم، وينؤون بأنفسهم، مع ذلك، عن كل ما سمعوه عن الدين الحنيف، وقد كان الإسلام، مع كل ذلك الرفض، يجتذب آلاف البريطانيين الأصيلين، الذين أسلم بعضهم أمامي في المكتبة، ناهيك عن ذوي الأصول الإسلامية الذين عادوا إلى دينهم بأعداد كبيرة، حيث كان الحجاب يمثل أحد أكثر السلع مبيعا، أضف إلى ذلك أن أعضاء سابقين من «اللينكس» ـ وعصابات أخرى ـ قد أتوا إلى المكتبة أيضا، بعد ما يقارب عشر السنوات على تفككها، ليتعرفوا على الإسلام.

أصبح الكثير من الشباب مهتمين بالإسلام، بأكثر مما فعلوا في بداية التسعينيات، وأخذوا يعبرون عن إحباطهم مما آلت إليه حال المسلمين، وما يتعرضون له من «أبلسة»، وإذلال متزايدين في أنحاء العالم كافة. فجاءت نسبة لا بأس بها من الباكستانيين في بريطانيا من «آزاد» (كشمير المحررة) في باكستان، وكانت بضع مدن حدودية تحوي معسكرات تدريبية للمقاتلين الكشميريين، وقد كانت تعمل بمباركة من الحكومة الباكستانية، وجيشها، وأجهزة استخباراتها، فتوجه بعض أولئك الشباب إلى هناك للتدرب على القتال، بينما شارك آخرون في المعارك الجهادية حول العالم، فمنهم من قضى نحبه ودفن في قبور بلا شواهد، ومنهم من ينتظر.

⁂

-5-
الأشباح

مررت بتجربتي الأولى مع الاستخبارات البريطانية في شتاء العام 1998، إذ سمعت الباب يطرق في صبيحة أحد الأيام، عند حوالي الخامسة، ففتحته لأجد ثلاثة أشخاص: رجلين، وامرأة، شعرت بدهشة كبيرة، حين قال أحدهم إنه ينتمي لدائرة الهجرة، والآخر للاستخبارات البريطانية، فقدر للأخير، الذي عرف نفسه «بآندرو»، أن يلاحقني للسنوات الخمس التالية، ولم تنبس المرأة ببنت شفة، فربما ظنوا أنهم أيقظونني، ولكنني كنت مستيقظا بالفعل، بعد أن انتهيت للتو من تأدية صلاة الفجر، سألتهم الدخول إلى حجرة الجلوس، وخلع أحذيتهم قبل القيام بذلك، فلم يكن لدي أي أرائك، بل وسائد موضوعة على الأرض، على النمط العربي القديم، طلبت منهم الجلوس، وانتظاري دقيقة حتى أحضر نظارتي.

خاطبني أحدهم، قائلا: «لا، نفضل الوقوف». ربما شعر بالإحراج ـ مما يدعو إلى السخرية ـ لجهله كيفية الجلوس متربعا، وإخفاء ثقوب جواربه في الوقت ذاته، وكانوا قد جلسوا بالفعل، حين عدت إلى الحجرة، ومظاهر عدم الارتياح بادية عليهم، باستثناء رجل الاستخبارات، الذي كان مسترخيا.

أبرز الثلاثة بعض الصور، وطرحوا علي الأسئلة حول شخص اعتقل في دبي بتهم تتعلق بالإرهاب، كما قالوا لي، وكنت قد التقيت ذلك الشخص، آدم، التونسي الجنسية، في بريطانيا قبل حوالي ستة أشهر من حينه.

أخبروني بما كنت أعرفه بالفعل: أنه توجه من بريطانيا إلى السعودية لأداء العمرة، ومنها إلى باكستان، حيث اعتقل لحيازته جواز سفر مزور، ورحل فيما بعد إلى دبي، لسبب أجهله، وتمكن من الهرب من حيث كان يحتجز في المطار،

ليهيم في الشوارع، قبل أن يتم اعتقاله، وينجح في الفرار مجددا، واتصل بي في بريطانيا خلال فترة هربه، وأخبرني أنه سيرسل إلي بعض الوثائق، التي تتضمن مذكرة اعتقاله، ورسالة مكتوبة بخط اليد، خاطبني في تلك الرسالة قائلا: «أكتب إليك بصفتك ملاذي الأخير... تم اعتقالي في باكستان، وتسليمي إلى السلطات في دبي؛ كي يعذبوني بغية انتزاع الاعترافات بانتمائي إلى «الجماعة الإسلامية المسلحة»، وجماعة ابن لادن... عاملني محتجزيّ بطريقة سيئة، واستخدموا «الفلقة» بحقي... أشعر بأذى وتعب شديدين، أرجو أن توكل لي محاميا... أرجوك، أرجوك ساعدني...».

كنت قد أخذت الأوراق إلى غاريث بيرس، بعد أن تحدثت إلى أحد أصدقائي من محامي بيرمنغهام بذلك الخصوص، وكان الأخير يعرف غاريث، وقد أوصاني باللجوء إليها، باعتبارها أكثر محامي بريطانيا تمسكا بالمبادئ، ناهيك عن توليها قضايا العديد من المسلمين، فقد كانت تلك المرة الأولى التي ألتقي غاريث فيها، وقد أصبحت ذات شأن كبير في حياتي لاحقا، وأخبرتني بعدم قدرتها على فعل الكثير حيال قضية دبي، وأنها سترى، مع ذلك، ما إذا كان بإمكانها الاتصال بأي من المحامين هناك، ولم أتلق أي رسالة إضافية من آدم، حتى أخبرني آندرو عن اعتقاله مجدداً في دبي.

أراد زائرو الفجر معرفة الكيفية التي التقيت بها آدم، وسبب اتصاله بي، وما إذا كنت قد أرسلت أي أموال له، فأخبرتهم بمكان التقائي به، وأنني أرسلت له بعض المال بالفعل، عبر شركة «ويسترن يونيون»، حين أخبرني أنه ينام في الشارع، علاوة على الرسالة التي أرسلها إلي، الأمر الذي لم يكترثوا له كثيرا كما تراءى لي، ربما كانوا قد قرؤوها بالفعل، فقال زائرو الفجر: إنهم يعتقدون انتماءه إلى «الجماعة الإسلامية المسلحة» الجزائرية ـ لأخبرهم أنه كان تونسيا ـ ناهيك عن اعتباره رجلا خطيرا للغاية، وذلك ما جعلهم سعداء بعدم عودته إلى بريطانيا ثانية.

ما انفككت أسألهم عما فعله، بالرغم من عدم إجابتهم عن ذلك، فنهضوا جميعا، بعد حوالي نصف الساعة، بقصد المغادرة، إذ كنت قد عرضت عليهم شرب الشاي، ولكنهم رفضوا، فخاطبني آندرو، قبل مغادرته، قائلا: «إن سمعت أي شيء، فأرجو أن تخبرنا به، فسيظل هذا وطنك في نهاية المطاف».

انتابني شعور غريب عقب تلك الزيارة، فلم يكن أولئك من رجال الشرطة، ولم يهددوني بأي شيء، بل اكتفوا بطرح بعض الأسئلة، هل كان آدم حقا بكل تلك الخطورة في نظرهم، كي يستجوبوني بشأنه، في الخامسة صباحاً؟، وما الذي فعله يا ترى؟.

أخبرت عائلتي وأصدقائي عن تلك الزيارة يوم حدوثها، إذ كنت في الواقع قد شعرت ببعض الإثارة: أحد أفراد جهاز الاستخبارات الداخلية البريطانية، ذائع الصيت في العالم، «الإم آي فايف»، قدم لرؤيتي في منزلي، وقام عناصر الجهاز كذلك بزيارة زياد، أحد أقرب أصدقاء آدم في بريطانيا، فقد كان زياد تونسي الجنسية أيضا، ولا يزال يحاول الحصول على إذن السلطات للبقاء في بريطانيا، وذلك ما أثار قلقه من تلك الزيارة، على النقيض مني.

كانت طفلتي الثانية، نسيبة، قد ولدت في السابع عشر من تموز/ يوليو عام 1999 فأطلقنا عليها ذلك الاسم تيمنا بإحدى الصحابيات الجليلات، مع إضافة اسم زينب إليه، بالنظر إلى أن ولدي الآخرين كانا يحملان اسمين مركبين، علاوة على عدم اعتراض والدي على ذلك.

تمثل أحد أكثر الموضوعات سخونة، مما كان يتم الجدال حوله في المكتبة، في مفهوم الجهاد في الإسلام: (هل كان فرض عين كالصلاة والصيام؟)، (كيف، وأين، ومتى يطبق؟)، (ما كان ثوابه؟)، (ما كانت أحكامه؟)، (ما كانت الآراء المختلفة حوله؟). أصبحت، بمرور بضع السنوات الماضية، مطلعا على مئات الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأحكام الشرعية المتعلقة بذلك الموضوع.

يقصد بالجهاد «الكفاح» لغويا، وهي الكلمة التي سعى بعض الباحثين إلى قصره عليها، وحصره في جهاد النفس فقط، واكتشفت، في الوقت الذي لا يخلو فيه ذلك من الصحة، أن غالبية المسلمين، ومن جاهدوهم من غير المسلمين، كانوا قد فهموها، طيلة التاريخ الإسلامي ـ منذ زمن النبي محمد ﷺ، والخلفاء الراشدين، حتى وقتنا الحاضر ـ على أنها تعني قتال الأعداء.

تمثل أكثر ما بيع حول هذا الموضوع في كتاب الشيخ عبد الله عزام «الدفاع عن أراضي المسلمين»، الذي أنجزه إبان الغزو السوفييتي لأفغانستان، جادل الكتاب على أن الجهاد فرض عين، كالصلاة والصيام، إن سقطت بلاد المسلمين بالقوة، واستند الشيخ عزام في ذلك الحكم إلى فتوى الشيخ ابن تيمية في القرن الثالث عشر، حين كان المغول يعيثون خرابا في بلاد المسلمين: «أما العدو الغاصب، الذي يدمر الدين والدنيا، فلا واجب، بعد الإيمان، كقتاله»*.

تجسد أحد أقوى البراهين التي اطلعت عليها في قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات»، حيث يُباح للمسلم أكل لحم الخنزير إن لم يتوافر له غيره، وهناك فتوى تجيز للإنسان الدفاع عن أهل بيته. ولذا يعد الدفاع عن النفس حقا مكفولا للجميع.

كانت المشكلات تبرز نتيجة أعمال القتل اللامسؤولة التي يرتكبها المجاهدون اليائسون ـ أو ترتكب باسمهم ـ وذلك ما أساء لقضاياهم التي كانوا يقاتلون لأجلها، فقد غطى قطع رؤوس السائحين، ورميهم بالرصاص في كشمير، ومصر، أو اغتصاب المدنيين وذبحهم في الجزائر، على الظلم والاضطهاد اللذين دفعا بالأساس إلى ارتكاب مثل هذه الأفعال المجنونة.

فرضت قضية ابن لادن نفسها على الساحة بقوة أيضا، إذ كنت قد تحدثت بشأنه مع الشيخ عبد المجيد، الصديق والعلامة الفلسطيني الذي كنت أرجع إليه فيما يخص القضايا الدينية، وشؤون المسلمين، وقد درس عبد المجيد وأقام في

* تم نقل هذا المقطع عن الإنجليزية. (المترجم).

باكستان في ثمانينيات، القرن المنصرم وأوائل تسعينياته، علاوة على قتاله السوفييت في أفغانستان، فقد كان يكثر الحديث عن الهجرة من الغرب إلى ديار الإسلام، أتى لندن بغرض الدراسة بضع سنوات، عاقدا العزم على العودة إلى باكستان وأفغانستان مع عائلته.

قال عبد المجيد إن ابن لادن كان يفتعل مشكلات غير ضرورية مع الولايات المتحدة، على حساب البلدان الإسلامية المحتلة، بالإضافة إلى الشعوب التي كانت تقاتل الظلم في بلدانها، وكان عبد المجيد يرى المشكلة الحقيقية، بمعزل عن كرهه أمريكا، في «أنظمة بلداننا المسلمة» التي خانت الإسلام وشعوبها.

كان عبد المجيد متوازنا في نهجه، واقعيا في رؤيته، سئل في إحدى المرات عن حكم التحاق المسلمين بالجيش البريطاني، فأجاب بعدم جواز ذلك، إن اقتضى قتال المسلمين بني جلدتهم على نحو خاص، ولكنه أردف قائلا: إن القتال إلى جانب القوات البريطانية ضد أي محتل أجنبي، عند تعرض بريطانيا لهجوم ما، هو جائز، بل وواجب شرعا، وقد فاتني في الحقيقة سؤاله عن ماهية الحكم إن كان ذلك المحتل مسلما.

تحدث جميعنا عن الجهاد ضد السوفييت بمنتهى الفخار، وكنت أستمع إلى الخطب الحماسية للعلامة الفلسطيني المغدور الشيخ عبد الله عزام، الذي أعاد إحياء الجهاد في أفغانستان في ثمانينيات القرن المنصرم، وقد شاهدت في البوسنة، متسمرا أمام الشاشة، فيلما عن روائع المجاهدين على جبهات القتال، وزرت العديد من مواقع الإنترنت التي توثق محنة الشعب الشيشاني، ومقاومته الباسلة ضد الاحتلال، وشاهدت أفلاما عن «القتل الجماعي الروسي للمدنيين الآمنين» في الشيشان، معروضة في سلاسل وثائقية «كحرب بابيتسكي*»، ورأيت صورا حية للمجاهدين في الشيشان بزعامة القائد الأسطوري «خطاب»، الذي

* أندريه بابيتسكي: مراسل «راديو الحرية الروسي»، الذي اعتقل من قبل السلطات الروسية بتهمة دعم الثوار الشيشان. (المؤلف).

كان ينظر إليه بعين المهابة، في أرجاء العالم الإسلامي كافة، لما كان يشنه من هجمات شجاعة ضد القوات الروسية، وسمعت، علاوة على ذلك، عن ذهاب بريطانيين إلى هناك لمشاركة الشيشانيين كفاحهم.

خططت للذهاب إلى الشيشان في شتاء العام 1999، إذ كان طريق الرحلة يمر عبر تركيا، وجورجيا، وصولا إلى الشيشان، واتخذ صديقي، عامر، الترتيبات اللازمة لها بمساعدة بعض معارفه في تركيا، ولم أكن واثقا تماما مما أود القيام به هناك، كما في البوسنة، وقد تمثل كل ما كنت أعرفه في أن الناس كانوا يستصرخون طلبا للنجدة، وذلك ما دفعني للذهاب إليهم إذ كنت مستعدا لتقديم العون بأي مما أقدر عليه، وصولا إلى القتال لو اضطررت، بالرغم من افتقاري إلى التدريب اللازم، ووضعت احتمال عدم عودتي حيا نصب عيني، كما فعلت قبل ذهابي إلى البوسنة تماما، فتبين لي مما اطلعت عليه من أخبار على شبكة الإنترنت، وأفلام وثائقية أن القتال في الشيشان كان أشد منه في البوسنة، مع بقاء الأمم المتحدة بموقف المتفرج في كلتا الحالتين، تخوفت زينب كثيراً من فكرة فقداني، بينما تكبدت عناء الاختيار بين البقاء إلى جانبها مع أطفالنا، أو تلبية نداء الغضب الذي سببته لي مأساة الشيشانيين، فأكدت لها أنني سأعود إلى الوطن بالرغم من كل المخاطر المحتملة.

قررنا، في نهاية المطاف، تنسيق جهودنا مع قافلة إغاثة يرعاها بعض الأشخاص في بيرمنغهام، عبر الالتقاء بهم في الشيشان، ومساعدتهم في توزيع المعونات.

تعاطف أبناء الجالية المسلمة إلى حد كبير مع الشيشانيين، وأعطوا بلا حساب، حين علموا بنيتي الذهاب إلى هناك، وشمل ذلك غير المسلمين، مع تسليط الضوء على كفاح الشيشانيين في مواقع الإنترنت المختلفة، وترجمة ذلك إلى عشرات اللغات.

تولدت لدي القناعة بأن من الأفضل إيصال المساعدات والأموال بصورة شخصية، عوضا عن القيام بذلك عبر الوسطاء ـ الأمر الذي تعلمته من آصف ـ ناهيك عن رغبتي في اقتناء بعض المشغولات اليدوية التركية، ذات الطابع الإسلامي، لمكتبتنا، في حال عودتي.

أوقفني أحد مسؤولي دائرة الهجرة، عند إتمامي الإجراءات في مطار بيرمنغهام، ليخاطبني قائلا: «يرغب أحدهم التحدث إليك يا سيد بيغ، اتبعني لو تكرمت». تملكني الكثير من الغضب، معتقدا أنهم أوقفوني لمجرد كوني الآسيوي الوحيد في الجوار.

أخذوني إلى غرفة منعزلة كليا، وغادروا بعد توجيه بضعة أسئلة روتينية حول وجهة سفري، وماهية الأشخاص الذين كنت ذاهبا لرؤيتهم، وما كنت أحمله من أمتعة، ودلف آندرو، ضابط الاستخبارات البريطانية إلى الغرفة، فسررت لرؤيته كثيرا، مع كل ما يمثله ذلك من مفارقة غريبة، منطلقا من فكرة «الشيطان المعلوم خير من ذاك المجهول»، وقد كان آندرو الأسهل معشراً، في نظري، من بين زوار الفجر الثلاثة الذين قدموا إلى منزلي.

بدأ الحديث قائلا: «كما ترى يا سيد بيغ، لقد أطلقت لحيتي منذ التقيتك».

بادرته الإجابة، بصورة لا تخلو من الجدية، قائلا: «يتعين عليك القيام بما هو أكثر من ذلك لاختراق الجالية المسلمة»، بدا هذه المرة وكأنه يرغب في مجرد القيام بمحادثة اعتيادية، مستطلعا آرائي حول فيدل كاسترو، وجيري آدامز، علاوة على حال العالم الإسلامي، أو ربما كان يحاول تأخيري عن سابق قصد، وما انفككت أراقب ساعتي، حيث ينتابني قلق متزايد حول إقلاع الطائرة من دوني، خاطبته قائلا: «إن كنت فعلت شيئا ما، فأخبرني به، وخذني إلى مركز الشرطة، وإن لم أفعل، فاتركني أذهب، إذ يتعين علي اللحاق بالطائرة».

عقب قائلا: «يتمثل كل ما أود معرفته في سبب ذهابك إلى تركيا، وما تخطط لفعله هناك، إذ تعرف أن لتركيا سجلا سيئا للغاية في مجال حقوق الإنسان، ولا بد أنك شاهدت فيلم (ميدنايت إكسبرس)، و...».

قاطعته قائلا: «قد فعلت، ولكنني لا أهرب المخدرات أو الأسلحة، ولا ريب أنك فتشت أمتعتي بالفعل، وسأذهب إلى تركيا وجورجيا لتمضية عطلة ليس إلا، ولا أدري لم تميل إلى استنتاج أنني ذاهب هناك للقيام بأمر خاطئ؟».

كان آندرو مطلعا للغاية على القضايا التي تهمني، وقد تحدثنا ساعة تقريبا، وخاطبني قائلا: «أستمتع على الدوام بأحاديثي معك يا سيد بيغ، ولكنني مضطر إلى إخبارك بعجز الحكومة البريطانية عن القيام بأي شيء لمساعدتك، إن ارتكبت خطأ ما في تركيا».

عقبت قائلا: «شكراً لاهتمامك، وللتنبيه يا آندرو، فسأتذكر ذلك في المرة القادمة التي أذهب فيها إلى تركيا بكيس مخدرات مربوط إلى صدري».

كنت قد فوَّت الرحلة بالطبع، ولكنهم رتبوا لي السفر على متن الرحلة الآتية، بعد إعادة تفتيش جميع أمتعتي.

فوجئت بشدة، عند وصولي إسطنبول، حين طلب عامر مني ركوب السيارة بسرعة، لتنطلق مسرعة فيما بعد، إذ كنت قد أحسست طيلة الرحلة أنني مراقب، ولكنني عزوت ذلك إلى لقائي بآندرو، وما يمكن أن يخلفه من ارتياب، فأخبرني عامر في السيارة أننا كنا متجهين إلى منزل صديق تركي، ليردف، بينما مضينا في الطريق، قائلا: «تتبعنا سيارة في الخلف» وكان الرجل محقا في ذلك، حيث تبعتنا تلك السيارة في كل مكان بالفعل، وحاول سائقنا التملص بين العربات، زائدا السرعة، مخففا لها على الطرقات، يتجه يمنة وشمالا، بينما ظلت السيارة تطاردنا.

تمكنا في النهاية من التخلص منها، لنمضي الليل في منزل صديق عامر، وقررنا المغادرة، في اليوم التالي، إلى فندق يقع في منطقة السلطان أحمد، مقابل الجامع الأزرق الرائع، ومتحف الآيا صوفيا، وقد أمضيت بضعة أيام في التنزه، زائرا الحوض الروماني تحت الأرض، وقصر ومتحف توبكابي المطلين على البوسفور، بينما بقي عامر في الفندق يلهو بألعاب الفيديو، حيث كان قد زار كل تلك الأماكن من قبل.

أصر عامر باستمرار، أينما مضينا معا، على وجود من كان يتتبعنا، فظننت بالفعل أنه كان مرتابا، حتى أشار إلى رجل بدين أشيب الشعر، طالبا مني مراقبته، مؤكدا أنني سأراه ثانية، فاستقللنا سيارة الأجرة إلى «الفاتح»، لنتناول الطعام في أحد المطاعم الكردية الشعبية، وأشار عامر بعد مضي فترة من الوقت، بينما كنا نغادر المطعم إلى شخص يحمل جريدة مقابل الشارع، قائلا: «انظر، كنت محقا حين أخبرتك، ها هو ذا». كان الرجل البدين الأشيب ذاته بالفعل، فلحظت وجوده، فيما بعد، في الأرجاء كافة، وبدا أنه لا يكلف نفسه عناء التخفي كثيراً.

قررنا تغيير الفنادق التي كنا ننزل بها، والانتقال إلى منطقة تدعى «أكساري»، إذ بدا الفندق الذي نزلنا به مليئا بالأجانب، العرب في معظمهم، وكان العديد منهم قد حاول دخول جورجيا، ليمنعوا من ذلك عند الحدود، بالرغم من تأشيراتهم النافذة، وكان أحدهم، وهو طبيب من المدينة المنورة، عضواً في جمعية خيرية تبني المستشفيات في جورجيا لاستقبال اللاجئين الشيشان، وقد ذهب إلى إسطنبول بغرض شراء معدات طبية، لينقلها فيما بعد إلى تبليسي جوا. كان وزير الخارجية الشيشاني موفلادي أودوغوف* من بين نزلاء الفندق كذلك ـ وقد أتى تركيا بقصد إجلاء عائلته ـ علاوة على أحد أصدقائه الذي كان يدير موقعا إلكترونيا للمقاومة الشيشانية.

قررنا، بعد مضي بضعة أيام، استقلال حافلة من إسطنبول إلى الحدود الجورجية، حيث كانت تقل الكثير من الجورجيين، وبعض الأتراك، بالإضافة إلينا، وقد نظر عامر من النافذة، بينما صعدنا الحافلة، قائلا: «انتظروا، يتعين علي القيام بشيء ما». كان قد رأى السيارة التي لاحقتنا في السابق، لينزل من الحافلة، ويبتاع بعض الوجبات الخفيفة، قبل التوجه إليها، رأيته يقرع النافذة، لينزلها راكبو السيارة، قبل أن يخاطبهم، ويقدم لهم الوجبات، ولوح عامر لهم، فيما بعد، فردوا بالمثل، فسألته، حين رجع، قائلا: «ما الذي حدث؟، ما الذي قلته لهم؟».

* موفلادي أودوغوف: يعد أحد كبار منظري الاستقلال الشيشاني. (المؤلف).

أجابني قائلا: «سألتهم قائلا: (لم تتجسسون علينا؟، إن كنا فعلنا شيئا خاطئا، فأخبرونا به، وإن لم نفعل، فلا أفهم الحاجة إلى أن ترهقوا أنفسكم بملاحقتنا، فإنه يتمثل كل ما أستطيع فعله في التعاطف معكم، وتقديم واجب الضيافة إليكم، وأعلم أنكم عملتم بجد طيلة اليوم، دون استراحة تذكر، وأفترض أنكم لم تتناولوا ما يكفي من الطعام، بالنظر إلى أننا كنا نراكم طيلة الوقت حولنا). وددت لو رأيتَ تعابير وجوههم حين قدمت لهم الأطعمة».

عقبت، عاجزا عن كبت ضحكاتي، قائلا: «يا لك من مجنون. لا أصدق أنك فعلت ذلك للتو».

استمرت الرحلة إلى الحدود الجورجية أكثر من ست عشرة ساعة، فقد سمح حرس الحدود الأتراك بعبور جميع ركاب الحافلة، فيما عدانا، قائلين: «كنا ننتظر قدومكما، لم يكونوا واثقين من سبب مجيئكما إلى هنا، ولكن الأمر اتضح الآن، حظا طيبا، أمضيا في سبيلكما، سنسمح لكما بذلك، ولكنكما سترجعان خلال عشر الدقائق التالية، كما علمتنا التجربة...». تبادلت النظرات وعامر بمنتهى الدهشة، حيث كان الأتراك معروفين بتأييدهم الكبير لكفاح الشيشانيين.

تقدمنا نحو الحدود الجورجية، محاولين إقناع حرس الحدود الجورجيين بإدخالنا بكل السبل، إذ كان عامر قد ارتبط بصداقة قوية مع أحد مرافقينا من الجورجيين خلال الرحلة، وذلك ما حدا بالأخير إلى دعوتنا إلى منزله. حظينا، بعنوان إقامة فعلي نقدمه إلى السلطات الجورجية، ولكن الحرس كانوا يتبعون أوامر مشددة تقضي بعدم السماح للأجانب بالدخول، قدمت لأحد الحراس بضع مئات من الدولارات، فرفضها بازدراء، فقفلنا عائدين، ليبادرنا حرس الحدود الأتراك قائلين: «ها قد عدتما كما أخبرناكما».

استقللنا حافلة أخرى إلى إسطنبول، خائبي الظن تماما لفشلنا في بلوغ غايتنا، عدنا إلى الفندق في أكساري، حيث أعطيت الوزير الشيشاني كل ما جمعته من أموال لأجل شعبه، وذهبت فيما بعد إلى السوق القديم المغطى في بايازيد للتزود بالكتب، والحلي البسيطة، والمشغولات اليدوية من أجل المكتبة في بيرمنغهام.

حسبت، قبل مغادرة تركيا، أنني توصلت أخيرا إلى فهم ما كان يثير قلق الاستخبارات البريطانية والتركية، حيث كان هنالك لقاء قمة منعقد في إسطنبول بين رؤساء جمهوريات آسيا الوسطى، علاوة على بوريس يلتسين، وبيل كلينتون.

كنت قد تلقيت، في وقت ما من أواخر عام 1999، زيارة من الشرطة، بالتزامن مع مداهمات شملت المكتبة، ومنزل أحد الأصدقاء، إذ قرع رجال الشرطة بابي بكل أدب ـ مما يدعو للاستغراب ـ قائلين: «لدينا مذكرة بتفتيش المنزل؛ لذا يمكننا، في حال رغبتك، أخذ عائلتك إلى فندق أو أي مكان آخر يرغبونه، وسننتظر في الخارج بضع دقائق، حسبك أن تخبرنا حين تصبح جاهزاً».

أخذت إحدى الشرطيات زينب والأطفال إلى منزل والديّ، بينما سمح الآخرون لي بالبقاء، ومراقبة عملية التفتيش.

كان هنالك العديد من ضباط الشرطة في المنزل ذلك اليوم، ولم أكن أملك أية فكرة، مع ذلك، حول ما كانوا يبحثون عنه، وأعتقد أنهم كانوا يجهلونه أيضا، فقد وجد رجال الشرطة، في نهاية المطاف، بعد ساعات من التفتيش، رشاشا قديما لرذاذ الفلفل كنت قد اشتريته منذ وقت طويل، ونسيت أمره، وكان من المفترض أن تحتفظ به زينب في حقيبة يدها بقصد الحماية، ولكنها لم تفعل أبدا، فقام رجال الشرطة باعتقالي، ومصادرة بعض الأوراق وجهاز الكمبيوتر الخاص بي، وتم اقتيادي إلى مركز الشرطة، واتهامي بحيازة ذلك الرشاش باعتباره سلاحا، مع إخلاء سبيلي في مساء اليوم ذاته، ولم أربط ذلك في حينه بمسألة الاستخبارات البريطانية، ما لم يدفعني إلى ما يجب أن أكون عليه من قلق.

سافر شاكييل إلى باكستان بعد فترة قصيرة من المداهمات، ولم أحبذ تلك الفكرة في حينه، ولكنه أراد شراء بعض الحاجيات من أجل المكتبة، وزيارة عائلته، والعودة بزوجه وأطفاله إلى بيرمنغهام.

أوقفته الاستخبارات البريطانية واستجوبته في المطار، قبل صعوده الطائرة، لتخلي سبيله فيما بعد، فقد قام أربعة من ضباط الأمن باقتياده إلى إحدى

الغرف، أثناء فترة التوقف بين المنامة وكراتشي، وتوجيه الأسئلة إليه، قبل مصادرة أمواله، والهدايا التي ابتاعها لأطفاله، وتعريته، ثم ضربه بالهراوات، فوضعوه في نهاية المطاف على متن طائرة أخرى، بعد أن مزقوا ثيابه، راسلني الرجل عبر البريد الإلكتروني من إسلام أباد، قائلا: إنه لا يصدق مدى الإذلال الذي تعرض له، وإن جروحه لا تزال تنزف، وإن الباكستانيين هددوه، وعرضوا عليه ملفا تلقوه من البريطانيين، يحوي صورا لنا، كانت إحداها تظهرني خارج المكتبة، وأنا أسلمه صندوقا (من الكتب) وأخبره الباكستانيون أن لا علاقة لهم بالأمر، قائلين: «إن حكومتك من تفعل ذلك»، وأضاف شاكييل أيضا: إن الاستخبارات الباكستانية تعقبته طيلة الطريق إلى قريته الصغيرة، وأينما حل، وانتقل الرجل بعائلته، في نهاية المطاف، من القرية، وأقاموا في أحد فنادق إسلام أباد، حتى تمكن من ترتيب رحلة العودة، وأخبر شاكييل السلطات الباكستانية بمغادرته البلاد، وقد أكدوا على سفره على متن رحلة مباشرة إلى بريطانيا، وهو ما قام به بالفعل.

ذهبت إلى لندن للتحدث إلى المحامية غاريث حول كل ذلك، وقد حاولتُ الحصول على تفسير رسمي دون جدوى، فنصحتني غاريث بعدم السفر، حين أخبرتها لاحقا بنيتي القيام بذلك، قائلة: إن الوقت غير مناسب، كانت ترى، بحكم خبرتها، أن أجهزة الاستخبارات يمكن أن تسيء تفسير كل ما يقوم به المرء تقريبا، فخاطبتني قائلة: «أشعر بالأسف، الإيرلنديون في السابق، والمسلمون لاحقا. يبدو أن الأمور آخذة في التدهور عوضا عن أن تتحسن».

طلبت مني الشرطة العودة إلى مركزها، بعد مضي شهرين تقريبا، برفقة صديقي الذي كانت قد داهمت منزله في الوقت ذاته، إذ كان الرجل قد أجرى لتوه عملية لاستئصال السرطان، ودهشنا تماما حين أخبرونا في مركز الشرطة أننا قيد الاعتقال بموجب قانون مكافحة الإرهاب، وقد تضمن بعض ما ورد في اتهامهم جملتي «دعم، وارتكاب، والتحريض على أعمال إرهابية»، و«جماعات إسلامية متطرفة».

كنت أظن حتى حينه أن الأمر لا يعدو كونه خطأ سخيفا، أو استقصاء روتينيا للمعلومات، ولكنني علمت في تلك اللحظة أن الأمر يتجاوز ذلك بكثير، فما انفككت أخاطبهم قائلا: «أخبروني عما تفترضون أنني قمت به، وسأجيب عن كل أسئلتكم».

سألوني عوضا عن ذلك عن زياراتي إلى البوسنة وباكستان، وعن الأشخاص المختلفين الذين التقيتهم في بيرمنغهام وغيرها، علاوة على المكتبة: من زارها، هل كان أكثرهم من الأجانب، من مولنا، هل كان لنا لقاءات هناك، سألوني كذلك عن معتقداتي، وآرائي حول الجهاد، بل و«علاقة العسل» بالقضية، وما إذا كان يمثل شفرة سرية يقصد بها المتفجرات.

كان أحد الأصدقاء من باكستان قد ذكر كلمة «مسعود»، في إحدى الرسائل التي صادروها من منزلي، مشيرا إلى قائد «تحالف الشمال» في أفغانستان، وقتاله الطالبان، ولكن ضابط التحقيق قرأها «موساد»، ظانا بالفعل أنها تشير إلى الاستخبارات الإسرائيلية. وددت الضحك بأعلى صوتي، ولكنني كنت قد تعهدت بالصمت، حتى توضيح طبيعة التهم الموجهة إلي، وقد أبرز الضابط فيما بعد، وكأنه يقرأ أفكاري، وثيقة من المحكمة تطالبني بالإجابة عن أسئلته، تحت التهديد بالسجن، تحديت أنا وصديقي قانونية هذه الوثيقة، فتم إخلاء سبيلنا في اليوم ذاته.

كانت الشرطة قد حصلت على مفاتيح المكتبة من شاكييل، وقامت بتفتيشها، فلم يصادروا الكثير منها، باستثناء 300 جنيه كنا نحتفظ بها دوما تحت الدرج لدفع الإيجار الأسبوعي، وقد قدمنا شكوى رسمية إلى الشرطة بخصوص ذلك، فردوا بأنهم يحققون في الأمر، وربما لا يزالون حتى الآن، بالنظر إلى أننا لم نسترجع النقود أبدا.

قدمت غاريث إلى بيرمنغهام بعد بضعة أسابيع، لننجح في تحدي وثيقة الضابط، ونربح القضية، فقد منحتني سلسلة الحوادث تلك، بعض الأفكار عما كان يتغير في بريطانيا التسعينيات، وبدأت أشعر بالفعل بشيء من عدم

الارتياح، والقلق مما يمكن أن يفعلوه فيما بعد، كان أصدقائي المقربون يزارون باستمرار من قبل الاستخبارات البريطانية، ويطالبون بالإبلاغ عني، ولكنني كنت منفتحا مع الجميع حول خططي، ولم يكن لدي ما أخفيه، واعتدت سماع الكثير عن أفغانستان، أثناء وجودي في المكتبة، من الذين يترددون إليها بانتظام، وقد أخبرني أحدهم عن مشروع مدرسة بدأ العمل به في كابول، إذ كان الرجل فلسطينيا، يدعى رامي، ويقيم في بريطانيا، وسألني عما إذا كنت مستعدا لتقديم العون.

أعجبت للغاية بالصور التي أراني، والتفاصيل التي أخبرني، وسألته ترك الصور والمعلومات حتى أستشير الأهل والأصدقاء بشأنها، ذكر رامي أنه يخطط لبناء مدرسة للبنات، بالرغم من الفكرة الشائعة حول منع الطالبان تعليمهن، فرأيت أن ذلك يشكل، على الأرجح، مثالا على التهويل الإعلامي بحق الطالبان.

تحدثت إلى زينب بذلك الشأن، وقد كانت مهتمة، على نحو خاص، بفكرة دعم مدرسة للبنات، حيث كان مشروع رامي متعلقا بكلا الجنسين، وتمكنا من جمع بضعة آلاف من الجنيهات فيما بيننا، وكان رامي يزودنا بالمعلومات أولا بأول، وهاتفني مدير المدارس من كابول ليشكرني، وقد كانت رغبتي في المشاركة بمثل هذا المشروع حقيقية بالفعل.

أخبرني رامي كذلك أن نقص المياه في المناطق المبتلاة بالجفاف من البلاد كان رهيبا، إذ كان قد بدأ، علاوة على تركيب مضخات المياه الأكبر والأغلى ثمنا، في مشروع لحفر الآبار، وتزويدها بمضخات يدوية في أكثر المناطق تضررا، واتفق رامي مع مقاول باكستاني ـ يعمل بالفعل مع عدة وكالات إغاثة في أفغانستان ـ على تنفيذ المشروع لامتلاكه آلات حفر مناسبة، وكان كل بئر ومضخة يدوية يكلفان مئتين من الدولارات، وزودني رامي بصور للآبار التي حفرت بالفعل، وسألني جلب ممولين آخرين للمشروع، قائلا: إنهم سيضعون لوحة صغيرة أمام كل بئر باسم الشخص الممول لها.

كنت قد جمعت في وقت قصير ما يكفي لحفر عشر آبار، مرسلا المال إلى رامي الذي أرسل لي بالمقابل، بعد بضعة أسابيع، صورا لتلك الآبار، ثلاث منها بأسماء أمامة، وعبد الرحمن، وزينب.

لم يبذل العالم عموما، كما بدا لي، ما يكفي من الجهود لفهم الارتياح والطمأنينة النسبيين اللذين رافقا وصول الطالبان إلى الحكم في منتصف التسعينيات، فقد سمعت أن الملا عمر تولى قيادة مجموعة، مما يقارب الثلاثين من دارسي القرآن، وجهت إنذارا إلى أحد أمراء الحرب المحليين، بعد اختطافه مجموعة من الأطفال لغايات جنسية، ولم يكن من المستغرب أن تحظى الطالبان بإعجاب السكان المحليين بعد أن قامت ميليشيا الطلاب بتحرير الأطفال.

شكلت كلفة المعيشة هناك عامل جذب إضافي بالنسبة لي، إذ أخبرنا العديد أن بإمكاننا العيش في أفضل أحياء كابول بأقل من مئة جنيه شهرياً، وأصبحت فكرة الانتقال بالعائلة إلى هناك تسيطر علي تدريجيا، وبدت ممكنة للغاية عند دراستها.

اتخذت أنا وزينب، بعد أن كانت المكتبة تعمل بشكل جيد إلى حد ما، علاوة على رغبة صديقي شاكر في اللحاق بنا هناك مع عائلته، ومشاركتنا المنزل ذاته، القرار الكبير بالمغادرة في منتصف العام 2001 فقمنا بتأجير منزلنا في بيرمنغهام، لتصبح عائداته أحد مصادر دخلنا في أفغانستان.

غادرنا بريطانيا في أواخر شهر حزيران/ يونيو، ولكنني لم أرغب المرور بباكستان بعدما حدث لشاكييل، ولم تكن هنالك رحلات مباشرة إلى أفغانستان، فقررنا الذهاب عبر إيران، شعرت بإثارة حقيقية حين صعدنا الطائرة في مطار هيثرو، وفكرت قائلا لنفسي: «ها هو ذا الأمر يتحقق. نغادر إلى هناك بالفعل». كنت قلقا في الوقت ذاته من ظهور عناصر الاستخبارات البريطانية في أي لحظة، وهو ما لم يحدث في الحقيقة.

اتسمت الإجراءات في مطار طهران بالكثير من الروتينية، وإن كان الناس ودودين للغاية، ودعانا أحد الذين التقيتهم على متن الطائرة إلى منزله في طهران.

تجولنا في العاصمة الإيرانية بضعة أيام، مستمتعين بذلك كثيراً، لنسافر فيما بعد بالطائرة إلى مدينة مشهد، المقدسة للشيعة، قرب الحدود الأفغانية.

لم يكن لدي أية فكرة محددة حول كيفية الدخول إلى أفغانستان، فقد كنت أعلم أن الأمور ستسير بشكل جيد بمجرد وصولي إلى كابول، بالنظر إلى وجود معارف أملت أن ينتظروني هناك، وأخبرني رامي أن بإمكاني استقلال سيارة أجرة من مشهد إلى الحدود، ومنها إلى هيرات، لأستقل الطائرة منها إلى كابول، وهذه كانت الخطة التي سرت عليها في الحقيقة.

لم يكن هناك الكثيرون ممن يقومون بإيصال الناس إلى الحدود، بوجود عائلتي على نحو خاص، إذ وجدت سائق سيارة أجرة، وتحدثت إليه بمزيج من لغتي الأوردية والعربية، وذلك ما رآه قريبا من الفارسية، ومكنه من فهمي، وانطلقنا برفقته في البكور.

كان المركز الحدودي الإيراني موحشا للغاية، وسط منطقة نائية، ولم يكن فيه أحد تقريبا، وبدأت الشكوك تتسلل إلى ذهني، وسألت نفسي قائلا: «ما الذي تفعله بحق السماء في هذا المكان مع عائلتك؟، لا يوجد أحد غيرك هنا، ولا بد أن الإيرانيين أنفسهم يظنونك أحمق».

رأيت بعض الحافلات المهترئة، وسائقيها المترهلين، ناعسي المظهر، واقتربت منهم طالبا المساعدة في نقل حمولتنا الكبيرة من الأمتعة عبر الحدود، وبلغنا نقطة الحدود الأفغانية أخيراً، ليظهر أفغاني مسن بعربته القديمة، التي تصم الآذان بصريرها، وينقلنا عبر الحدود، بعد تحميل أمتعتنا.

وصلنا أفغانستان في نهاية المطاف، وقد كانت تختلف عن إيران تماما، فشعرنا بصدمة حقيقية في حينه، إذ لم أكن قد رأيت سوى المعسكرات، وقسما من جلال أباد في السابق، ولكن المشهد الحالي كان مختلفا للغاية، مغايرا لما كنت أتخيله، فقد كانوا يستخدمون مقدمات العربات المدرعة المعطوبة كمكاتب، وتمثلت دائرة الهجرة والجمارك «الطالبانية» بتلك الخردوات المرمية على الأرض.

كانت مفاجأتهم بي أكبر: رجل يرتدي ملابس غربية، وإن كانت هويته الآسيوية واضحة، برفقة زوجه وأطفاله، فحدق جميعهم بنا برهة، وسألوني فيما بعد عن سبب مجيئنا، ووجهتنا، وما إذا كنا نعرف من سنقابلهم هناك.

جلست زينب بمفردها، حيث كانوا يتجاهلونها تماما.

حضر أحد الأشخاص، في نهاية المطاف، ممن يتحدثون الإنجليزية بطلاقة، وكان متعاونا للغاية، وأخبرنا أنه سيؤمن لنا سيارة تقلنا إلى هيرات، فلم تكن السيارات ما لم أره هناك فحسب، بل والطرقات أيضا، وسألني فيما بعد عما إذا كنت أود ختم جواز سفري، فرددت بالإيجاب، مستغربا طرح مثل ذلك السؤال.

تحدث الرجل قائلا: «حسنا، لا يود بعض من يأتون هنا ختم جوازات سفرهم».

انطلقنا إلى هيرات في سيارة يابانية مهترئة، كان زجاجها الأمامي متصدعا، وتمثل أول ما خطر ببالي في الماء، إذ لم أكن قد أحضرت شيئا منه، فقد كان الجو فظيعا، حاراً للغاية، ومشبعا بالأتربة، ومررنا في تلك الأثناء بقرية مبنية من الطين والقش، وكان أحد المشاريع التي قمت بها، أثناء وجودي في بيرمنغهام، متمثلا بحفر الآبار في هذه المنطقة المنكوبة بالجفاف.

توقف السائق أخيرا بمحاذاة نهر قذر في الوقت الذي كنت فيه عطشا لدرجة أنني فكرت، قائلا لنفسي: «لا بد أن أشرب بعض الماء»، لأستطرد فيما بعد قائلا: «لا يمكن للأطفال، مع ذلك، الشرب من هذا النهر» وكان السائق قد توقف، في الحقيقة، بقصد الاستراحة، لا إفساحا في المجال لنا لشرب الماء، فما انفككت أخاطبه قائلا: «نحتاج شرب الماء» وتوقف في نهاية المطاف عند إحدى الآبار المزودة بمضخات، لنستهلك حاجتنا من الماء بكثير من الارتياح.

كانت الطرقات سيئة للغاية، إن صح لنا دعوتها بذلك، ناهيك عن الغبار الشديد الذي لا يطاق، في حين كان الأولاد يتقيئون من آن لآخر، فشعرت بما لم أخبره من ندم، طيلة تلك الرحلة، لقرار التوجه إلى أفغانستان في المقام الأول.

وصلنا هيرات بحلول ما بعد الظهيرة، حيث كان الطقس حاراً بما لا يوصف، ولم أكن أحمل أي مقدار من العملة المحلية، فتوقف السائق عند أحد مبدلي العملات الجالسين على ناصية الطريق، وعرفت أنه غشني إلى أبعد الحدود ـ غير مفاجأ لقيامه بذلك ـ وإن لم يكن لدي أدنى فكرة عن سعر العملة المحلية في حينه، وبلغنا الفندق في نهاية المطاف، لتصبح الأمور أكثر سهولة منذ ذلك الحين، فحجزت تذاكر السفر إلى كابول في اليوم الآتي، وقد خلت رحلتنا من المشكلات، اللهم إلا أنهم لم يمنحونا سوى مقعدين في الطائرة، مع أنني دفعت ثمن ثلاثة مقاعد أخرى، وذلك ما اضطرنا إلى إجلاس الأطفال في أحضاننا.

أحسست، عندما حطت الطائرة في كابول، بوصولي إلى مدينة أكثر حداثة بالمقارنة مع ما سبقها، وإن كانت تنتمي إلى العالم الثالث في نهاية المطاف.

استقللنا سيارة الأجرة إلى حيث يوجد أحد من كنت أعرفهم من العاملين في جامعة كابول، في حين كان الشيخ عبد المجيد، العلامة الذي أشرت إليه سابقا، ينتظر قدومنا، وهو قد تميز بحسن ضيافة لا يوصف، إذ قال هو وزوجه إن بإمكاننا البقاء عندهم ما شئنا، حتى نجد منزلا نقطنه، فبقينا هناك ثلاثة أسابيع، إلى أن وجدت منزلا، واطلعت، وساومت على أسعار ما أثثته به.

سمعنا في إحدى الليالي صوت انفجار هائل، بدا وكأن أحدهم قد صفق بابه، وحطمه، وقرع عبد المجيد بابي، طالبا مني الخروج، فمضينا من غرفة لأخرى، نفتش المنزل بأكمله، لنجد أن كل شيء كان على ما يرام، فقد رأينا مكتب «خطوط أريانا الجوية» مدمرا، في اليوم الآتي، حين كنا متجهين إلى مركز المدينة، وكان ذلك عملا إرهابيا قام به «تحالف الشمال» على الأرجح، فأصابني ذلك بالاضطراب، وفكرت قائلا لنفسي: «ما الذي يحدث؟».

كنت أتصل ببريطانيا، في بادئ الأمر، ما يقارب المرة أسبوعيا، بالرغم من صعوبة القيام بذلك أحيانا، لاكتظاظ مكاتب الاتصال العمومية بالناس، إذ اضطررت في بعض الأحيان إلى الانتظار ساعة حتى إجراء المكالمة.

اكتشفت بعد ذلك بوقت قصير، وعلى غير المتوقع، وجود بعض عمال الإغاثة الغربيين مع عائلاتهم في كابول: أمريكيين مقابل الشارع، وألمان يجاورون عبد المجيد، فشعرت بالارتياح لعدم كوني المثالي المجنون الوحيد الذي ذهب إلى هناك.

تمثل أحد أول الأشياء التي فعلتها في إلحاق أمامة بالمدرسة، وشعرت برضى عارم لزيارتها، ورؤية الحقيقة التي كنت أفكر بها في بيرمنغهام، ناهيك عن الاستقبال الحافل الذي تلقيته فيها، وأخذت أتردد إليها بشكل منتظم، وأشارك في بعض الأنشطة، كأخذ الأولاد لمشاهدة اللعبة الأفغانية المذهلة، «البوزكاشي»، التي تشبه لعبة «البولو»، ويتسابق فيها الرجال على أظهر الخيل، متصارعين للاستحواذ على عنزة ميتة.

وصل شاكر إلى أفغانستان بعد حوالي ستة أو سبعة أسابيع، ليقيم مع عائلته في منزلنا الضخم، ويشغل الطابق العلوي، فكان ذلك رائعا، وقد أحبه أطفالنا جميعا، شاعرين بالحرية في مساحة واسعة.

تحررت خلال فترة قصيرة مما كنت أحمله من أوهام حول الطالبان، بعد أن مررت بعدد من التجارب الشخصية معهم، فقد تعرضت في إحدى المرات لحادث مروري مع أحد قادتهم، إذ يرفض تحمل المسؤولية في بادئ الأمر، ويكذب، ثم يحاول رشوتي ببعض الوقود المجاني في نهاية المطاف، وتعرض بعض الأجانب الذين كانوا هناك إلى قصص مماثلة، تصل إلى الإعدام في بعض الأحيان، وذلك ما نأى بي عن الطالبان، منكبا على تنفيذ مشاريعي الخاصة.

كنا بالفعل قد حفرنا بعض الآبار في كابول، كان من المثير والمفرح أن يرى المرء ما عاد بالنفع عليه، فقد اختلف الأمر كثيراً بالنسبة لي عن الجلوس، وجمع الأموال في بيرمنغهام.

كنت أقود السيارة في مركز المدينة مرة، برفقة أحد الأصدقاء، فلحظنا إغلاق المداخل الأربعة للميدان الرئيس المؤدي إلى المطار، وفوجئت بحشود الناس مجتمعة، فقررنا النزول لاستبيان الأمر، ورأيت، بينما كنا نتقدم، أربع رافعات

صغيرة، يتدلى شيء ما من نهاية حبل مربوط بكل منها، ولم أستطع تمييز ما كانته تلك الأشياء، حتى اقتربت أكثر، إذ كانت جثثا، جثثا بشرية علق كل منها عند أحد مداخل الميدان، كنت قد رأيت جثثا من قبل، ولكنها لم تكن تماثل ذلك على الإطلاق، فشعرت بما يشبه الانبهار المرضي، واستغربت في الوقت ذاته رؤية النساء، والأطفال، والعائلات، يسيرون في المكان، متفرجين بكل بساطة، وكأن شيئا لم يكن، وتمثل أكثر ما يلفت الانتباه في أن أفواه الجثث كانت فاغرة، وألسنتها سوداء، ناهيك عن قيام الناس بوضع المال بين أصابع أيدي أصحابها، علاوة على ما تدلى منه من جيوب سراويلهم، فقد كان ذلك تقليدا أفغانيا، كما أخبرني أحدهم لاحقا، إذ يشير إلى أنهم باعوا أنفسهم إلى المعارضة بثمن بخس. مثل ذلك، بكل الأحوال، أمراً فظيعا بالنسبة لي.

أقام الطالبان، بعد ذلك بأسبوع، عرضا عسكريا قرب مركز المدينة، وكان ذلك مؤثرا أكثر مما كنت أتوقع، لمشاركة الدبابات، والعربات المدرعة، ومنصات الصواريخ المتحركة، والجنود ببزاتهم النظامية ـ وإن لم يسيروا بشكل متناسق ـ وبعض الطائرات المقاتلة*.

تمثل أحد الأشياء التي أحببتها في كابول بالتعرف المتواصل إلى أشخاص ينتمون إلى أنحاء العالم المختلفة: صينيين، وعرب، وأوزبكيين، وماليزيين، وغيرهم، إذ كان بعضهم قد قاتل ضد السوفييت، بينما حضر آخرون للمشاركة في مشاريع إغاثية، بمن فيهم أعداد كبيرة من الباكستانيين على نحو خاص.

تم إغلاق المخابز كافة التي دعمتها الأمم المتحدة بصورة مفاجئة، نتيجة انهيار المحادثات بينها وبين الطالبان، إذ يعد الخبز الغذاء الرئيس للأفغان، وقد تولت منظمة باكستانية المسؤولية عن كل المخابز في أفغانستان، ممولة إياها، وكنت قد ارتبطت بعلاقة وثيقة مع بعض عاملي الإغاثة الباكستانية هناك.

---

* حرم الجيش الأمريكي القلة التي أسرها في ساحة المعركة فعليا من وضعية أسرى الحرب، بذريعة أنهم لم يكونوا جنودا نظاميين، بما يميزهم من زي ورتب، أصر الأمريكيون على ذلك الموقف بالرغم من أن «تحالف الشمال» كان ذا بنية عسكرية أكثر فوضوية من الطالبان، وأن أفراد القوات الخاصة الأمريكية أنفسهم كثيرا ما كانوا يرتدون الزي المحلي تجنبا للوقوع في الأسر. (المؤلف).

قيل لي في إحدى المرات، حين زرت الجبهة الأمامية للقتال بين الطالبان و«تحالف الشمال» برفقة الباكستانيين: إنها كانت خامدة في حينه منذ ما يقارب السنتين، الأمر الذي سمح بتحسن الأوضاع، وعودة الناس، وقدوم الاستثمارات، فقد كانت الجبهة تقع قرب منطقة تدعى «باغرام»، تبعد ما يقارب الساعة بالسيارة عن كابول.

كان هنالك بقايا قذائف مدفعية، وأخرى غير منفجرة، والعديد من القرى المهجورة طيلة الطريق، وملأت كروم العنب المكان، ونمت في كل الأرجاء، ولكم أن تعرفوا أن العنب الأفغاني الأبيض كان من بين أشهى ما تذوقت في حياتي.

وصلنا خط القتال الخلفي، حيث كان الناس يأتون ويذهبون، ويتفقدون عتادهم، أو يأكلون، ويستريحون ليس إلا، واتسم الوضع هناك بمنتهى البساطة، إذ انضوى الباكستانيون والعرب الذين قدموا للقتال بجانب الطالبان تحت ألوية فرق مختلفة، وكان أصدقائي الباكستانيون يعرفون بعض المقاتلين من بني جلدتهم، وقد كانوا من زرناهم، إذ كان الطالبان متفرقين، وأخبرني الباكستانيون عن بعض ما حدث هناك، وأرشدوني إلى موقع الجبهة الأمامية السابق، واللاحق، فلم يمثل المكان بالنسبة لي سوى صحراء جبلية واسعة، قال الباكستانيون: إنه ينبغي علي العودة قبل حلول الظلام، إن رغبت الذهاب حقا إلى الجبهة الأمامية، واستقللنا السيارة إلى هناك لإلقاء نظرة.

مثلت زيارة جبهة أمامية أمرا غريبا ومفزعا بالنسبة لي، فما انفككت أتوقع حدوث شيء ما في أي لحظة، ولكن الأمور بقيت هادئة تماما، حتى حلول وقت الغداء، فقد أحضروا بعض الطعام، طبقا متواضعا للغاية من الأرز مع بعض الزبيب، وسقطت قذيفة بينما جلسنا نتناول الطعام، وتوالت أصوات الانفجارات القوية فوق رؤوسنا واحدة تلو الأخرى، فشعرت برعب شديد في داخلي، وأردت الذهاب إلى المنزل على الفور، ولكنني لم أبح بذلك بالطبع، لما يمكن أن يسمني به من جبن.

واصل البقية تناول طعامهم، لا أكثر، مع كل الغبار المثار حولهم، ونظرت إليهم، وفكرت قائلا لنفسي: «ألا تفكرون فيما أفكر به؟». كان المقاتلون معتادين على ذلك، بينما بدا القلق إلى حد ما على من رافقوني من عمال الإغاثة.

خاطبتهم، حين توقف كل شيء، قائلا: «ظننت أن المكان هادئ».

عقب أحدهم قائلا: «هو كذلك حقيقة، فلم يقع أي هجوم أو قتال فعليين، ويحدث ذلك على الدوام، ونرد لهم الصاع صاعين في كل مرة».

سعدت بالعودة إلى كابول، فقد كانت مدينة أحببتها بالفعل، دائمة الحركة، مزدحمة بالسكان، فلم أر هناك، في الحقيقة، ما كنت قد سمعته من عدم السماح للنساء بالذهاب إلى أي مكان دون مرافقة أي من ذكور عوائلهن.

ناقشت المستقبل مع زينب باستمرار، وكم من الوقت يجدر بنا البقاء في أفغانستان، فكثيراً ما كنت أسألها عما إذا كانت سعيدة، وتتأقلم مع حياتنا الجديدة هناك، فقد قدمت زينب من عائلة ثرية للغاية، وعاشت حياة مريحة بكل المقاييس، لتضحي بكل ذلك تلبية لرغبتي في المجيء إلى هنا، أردتها أن تكون سعيدة بشدة، وحرصت على تزويدها بكل ما تحتاجه من أجل المنزل، مع رغبتي في عدم إثارة الامتعاض من حولنا، عبر العيش بمستوى يختلف بوضوح عن معظم الأفغان، وإن كان ذلك يشمل جميع الأجانب.

لم تتلاش الهالة التي أحاطت أفغانستان، باعتبارها مكانا جديداً، ولو بعد مضي بضعة أسابيع على انتقالي للعيش فيها، فقد كان ما يزال هناك الكثير بعد مما رغبت اكتشافه عنها، وأردت الذهاب لزيارة جميع مناطق الشمال، الأكثر خضرة كما قيل لي، علاوة على العديد من المواقع الأثرية.

أخذت العائلة مرة إلى حديقة الحيوان، لنرى ثقوب الرصاص تملأ المكان، وأسداً واحداً لا أكثر، ولم يسلم الأسد كذلك من الانتقام على الطريقة الأفغانية، إذ كان يدعى ذا العين الواحدة، حيث قفز رجل في إحدى المرات داخل المكان المخصص له، فهاجمه حتى الموت، وأتى شقيق الرجل في اليوم الآتي، ورماه بقنبلة يدوية، وذلك ما أفقده إحدى عينيه.

كانت كابول تعج بمثل قصص الأفغان الغريبة تلك، فقد كانت الحياة هناك ممتعة بكل معنى الكلمة ـ بسبب الناس، والجيران في المقام الأول ـ حيث كانوا يرحبون بنا جميعا، ويعاملوننا بدفء، ويدعوننا إلى العشاء كل يوم تقريبا.

اعتدت العمل، بالإضافة إلى ما سبق، فيما أمكنني من الوقت، على أحد المشروعات التي كنت قد فكرت فيها من قبل، فاشتريت بعض النصوص الإسلامية القديمة؛ بغية نقلها إلى الإنجليزية، إذ حسبت أن ذلك يمكن أن يشكل إضافة مفيدة إلى مكتبتنا في بيرمنغهام.

استيقظت ليلة التاسع من أيلول/ سبتمبر، لعام 2001، على صوت مروحيات تحلق فوق منزلنا، أعقبته أصوات انفجارات صواريخ، وإطلاق نار، توقفت خلال ساعة من حينه، فقد سمعت في اليوم الآتي أن ما حدث كان هجوما انتقاميا من قبل قوات «تحالف الشمال»، رداً على اغتيال قائدهم أحمد شاه مسعود، الملقب «بأسد بانجشير».

جاءت ردود الفعل على ذلك متباينة في كابول: كان البشتون راضين عموما، بينما امتعض الفرس، ولم يبال الشيعة الهزارة، وبدا الشعور العام، متمثلا في أن تلك الحادثة وضعت حداً للقتال، إذ كان الطالبان يسيطرون بالفعل على خمس وتسعين بالمئة من البلاد، وقد جاء موت مسعود، المدبر من قبل القاعدة كما أشيع، ليعزز من سيطرتهم، وفوجئت عقب يومين بصديقي شاكر، يقرع البوابة المعدنية الخارجية بقوة.

بادرني، كالمسعور، قائلا: «ألم تسمع الأخبار؟، انقلب العالم كله رأسا على عقب، وتعرضت أمريكا لهجوم، وقتل الآلاف من الناس».

لم يكن لدي تلفاز لأشاهد الصور المروعة لضحايا الهجمات، وفشلت ببساطة في إدراك مدى فداحة الحدث، حتى بدأت الأمور تتغير بالنسبة إلي شخصيا.

لم يكن أحد على يقين مما يمكن أن يحدث مستقبلا، واعتقد معظم الناس الذين تحدثت إليهم أن الولايات المتحدة ستكتفي بمهاجمة معسكرات ابن لادن في قندهار، فقررنا البقاء هناك، بالنظر إلى أن معظم السكان لم يكونوا قد بدؤوا المغادرة بعد.

لم يحدث شيء لعدة أسابيع، حتى شعرت، في ليلة السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، أن الأرض تهتز تحت قدميّ، إذ كان صوت الانفجار أعنف من أي مما كنت قد سمعته من قبل، وضجت الشوارع بصوت تحطم الزجاج، فهرعت عائدا إلى المنزل من متجر البقالة، حيث كنت أشتري الطماطم، مذعورا للغاية، فقد كان صاروخ «كروز» أمريكي سقط في منطقة بعيدة، ولكن زجاج نوافذنا تحطم لشدة صوت انفجاره، وكان كل من شاكر وعبد المجيد قد تركا عائلتيهما بعهدتي ليوم واحد، وذلك ما جعل بيتي مكتظا بحوالي العشرين شخصا، معظمهم من الأطفال، فقمت بإنزالهم جميعا إلى القبو، وتغطية النوافذ بالفرش.

أضاءت قذائف الطالبان المضادة للطائرات السماء، بما تخلفه من آثار حمراء، فأدركت في تلك اللحظة أن الوقت قد حان للرحيل.

اتفقت أنا وعبد الله (الكردي الذي التقيت به في عام 1998) على المغادرة معا بعوائلنا، بالإضافة إلى عائلة بريطانية أخرى، فقدنا سياراتنا الثلاث مدة ساعة تقريبا إلى «لوغار»، المدينة الصحراوية الواقعة قرب الحدود الباكستانية، حيث قررنا البقاء جميعا حتى تهدأ الأمور، واعتبر الأطفال ذلك بمثابة رحلة تخييم ممتعة، وأحبوا الحرية التي يوفرها الريف، بالرغم من أنه لم يكن سوى صحراء قاحلة، فأقامت العائلات الثلاث معا في مجمع من خمس أو ست خيم.

اعتدت الذهاب إلى كابول، بين الفينة والأخرى، لتفقد منزلنا، وشراء الطعام، والصحف، فقد كانت قاذفات «بي 52» الأمريكية تقصف الطالبان في وضح النهار، وكانوا يفتقدون بالفعل إلى أي دفاعات جوية حقيقية، إذ كانت الأرض تهتز مع كل قصف جوي بالقنابل، ناهيك عما كان يخلفه من سحب دخان هائلة،

وسمعت أزيز شظايا القنابل يئن فوق رأسي، خلال إحدى موجات القصف، قرب مركز العاصمة، وكنت أشعر بخوف شديد كلما كان ذلك يحدث، بينما أجد غالبية الأفغان واقفين في الشوارع، ينظرون إلى أعلى، فيما يبدو فضولا أكثر منه خوفا، وقد سمعت خلال إحدى تلك الرحلات، حين استقللت سيارة صديقي لملاقاة أصدقائي الباكستانيين شمال كابول، بخبر سقوط المدينة، وكنت قد أخبرت زينب أنني عائد في مساء اليوم ذاته، أو اليوم الآتي.

لم تسقط كابول في الواقع آنذاك، بل خرج منها الطالبان، ولم تعد هناك حكومة، أو أمن، أو نظام، وأصبحت المدينة خطرة للغاية في حينه، للأجانب على نحو خاص، بالنظر إلى احتمال تعرضهم للسلب، أو الخطف، أو القتل، ولم يجرؤ أحد على الجلاء عبر كابول، وذلك ما دفع أصدقائي إلى إخباري أنهم سيأخذونني عبر طريق آخر يؤدي إلى لوغار، لنضل طريقنا تماما عبر المسالك الجبلية المعتمة، وقد بلغنا الطريق الرئيس بعد حوالي اثنتي عشرة ساعة، لنفاجأ بحشود اللاجئين اليائسة، المتدافعة للخروج من المدينة في كل الاتجاهات، ولم أستطع أخذ أي شيء من المنزل، ناهيك عن سيارتي التي تركتها في كابول، ولم أكن أدري وجهتي، وكان الجميع مذعورين لجهلهم التام بما يحدث، أو الاتجاه الذي كانوا يسيرون به، وتمثل كل ما أردنا فعله، في حينه، بالهرب من القصف فحسب.

سألت أصدقائي، في أثناء وجودنا على طريق كابول، أن يأخذوني إلى لوغار، فاعتذروا، متعللين بتوجههم إلى باكستان عبر جلال أباد في الجنوب، ولم يأخذوني إلى كابول أيضا، بالنظر إلى خطورتها الشديدة بالنسبة للأجانب، فقد كان الجميع يغادرون، ولم يقفل أحد عائداً، فشعرت بتخبط شديد في حينه، وسألت نفسي، قائلا: «كيف سأصل إلى عائلتي؟، وكيف يمكن لنا المغادرة بلا سيارة؟»، هدأ أحد الباكستانيين من روعي، قائلا: إنه سيساعدني في الوصول إلى لوغار إن ذهبت برفقته.

رأينا عند وصولنا إلى سوروبي، على الطريق إلى لوغار، مجموعة من المقاتلين، ينزلون الطريق الجبلي، ويصوبون قاذفات صواريخهم، وبنادقهم الآلية نحونا، فقد كانوا من قطاع الطرق بالأحرى، وظهرت على نحو مفاجئ في تلك اللحظة أربع سيارات جيب محملة بمقاتلي الطالبان المنسحبين، في حين أنزل قطاع الطرق أسلحتهم وغادروا، ومر الطالبان بجانبنا، دون أن يلحظوا وجودهم.

سمعت أن الطريق إلى لوغار كانت مغلقة، فتقطعت بي السبل إلى زينب والأولاد، لقد فقدت عائلتي.

لم أبك أبدا في حياتي، أو أكره نفسي، كما فعلت في حينه، لما عرضت عائلتي إليه من أخطار بسبب سذاجتي، وتمثل خياري الوحيد في تلك اللحظة بمغادرة أفغانستان، والعودة إليها مجددا من نقطة دخول مختلفة في باكستان، حيث كان الطريق مفتوحا، وأكثر قربا.

واصلنا طريقنا جنوبا، ووصلنا في نهاية المطاف إلى حيث تنتهي الطرق، لتحل الجبال محلها، فقد كانت ضخمة للغاية، ومغطاة بالثلوج في قممها، ذات جمال أخاذ، وإن كانت مقفرة، وتمكنت مجموعتنا، المكونة من حوالي عشرة الأشخاص، من الاستعانة بخدمات أحد الأدلاء المحليين، بعد أن وافق على أخذنا عبر الجبال إلى باكستان.

كان هذان اليومان اللذان أمضيتهما سيرا على الأقدام، صائما في رمضان، الأشد وقعا في حياتي، فلم أكد أشعر برأسي من شدة الارتفاع، وتأثير الصوم، وشعرت بالسمو، حين توقفنا لأداء الصلاة، في إحدى القمم العالية، وذلك ما منحني السكينة أكثر مما أشعر به حين أصلي، ومشينا الجبال صعودا عبر مسالك ضيقة وعرة، تكاد قممها تلامس رؤوسنا، ولم أرتد سوى صندل بسيط، متلمسا خطاي عبر الثلوج، ببردها الشديد، في بعض الأحيان، وقد كنا ننام مجتمعين، علنا نشعر بشيء من الدفء المنبعث من حرارة أجسادنا، علاوة على اقتسام كسرات الخبز، وعدد من زجاجات المياه، بعد أن أسهمنا جميعا في شرائها، واستئجار الدليل.

بلغنا نهراً صغيراً متجمداً في أعالي الجبال، لنعبره فرادى بحذر، وكنت رابع العابرين، وسقط من كان خلفي مباشرة، بعد تكسر الجليد من تحت أقدامه، فتضافرت جهودنا جميعا لسحبه من الماء، وقد تجمدت ملابسه فيما بعد، بينما واصلنا المسير، تعلمت من ذلك الرجل، كما البقية، ما لن أنساه من دروس الصبر، فلم يتبرم أي منهم، أو يتذمر طيلة الرحلة على الإطلاق، ولا ريب أنني كنت الوحيد الذي ما انفك يفكر، قائلا لنفسه: «ما الذي يمنعنا من التوقف؟، ما الذي يمنعنا من الاستراحة؟، كم بقي لنا من مسافة؟». لم أبح بذلك مطلقا، وكنت محرجا من مجرد التفكير به.

كان الدليل رجلا استثنائيا ويتقن عمله على أكمل وجه، ويملك كثيراً من المعارف، وممن بدوا لي وكأنهم يظهرون فجأة، من حيث لا تدري، للإخبار ببعض الأمور، أو التحذير من قطاع الطرق المسلحين، كما حدث في إحدى المرات، وفكرت على الفور، حين رأينا قطاع الطرق يسيرون بمحاذاة مخبئنا، الكائن خلف الصخور والأشجار، في احتمال أخذهم لي رهينة، أو قتلي ربما، وخبأ جميعنا ما كنا نحمله من أموال في جواربنا.

سمعت فيما بعد إطلاقا للنار من بنادق آلية، وكان الصوت يتردد عبر الجبال، وذلك ما جعل من المستحيل تحديد مصدره، فلم يبرح أحد مكانه، ودق قلبي بعنف، في تلك اللحظة، بحيث كاد يقفز من وسط أضلعي، وتجدد إطلاق النار فيما بعد، من أطلق النار هذه المرة بأم العين: رجلاً طويلاً، يجلس على الجرف، يطلق النار على طائرة تحلق على علو آلاف الأقدام، وإن كان صوت أزيزها مسموعا، فقد كان من الواضح أنه فعل ذلك بداعي الملل.

عبرنا الحدود إلى باكستان أخيرا في وقت متأخر من الليل، بعد مسيرة يومين بلياليهما، وكنا جائعين، ومرهقين للغاية، ناهيك عن مظهرنا الذي يبدو كالمشردين، وشعرت، بالرغم من ذلك، أن رحلتي قد بدأت للتو، وقد أخبرني أصدقائي، طيلة رحلتنا، أن عائلتي غادرت إلى خوست على الأرجح، حيث يمكنني الوصول إليهم عبر دخول أفغانستان من طريق آخر، كنت قد سلكته في عام 1993، ولم أكن أدري، مع ذلك، مكان وجودهم بالتحديد.

تحدثت إلى عائلتي وأصدقائي من إسلام أباد، سائلا إن كانوا قد سمعوا أي أخبار عن زينب والأطفال، وهو ما لم يحدث، واتصلت بوالدي في إنجلترا لطمأنته، عاجزا عن إخباره بفقداني لهم.

قمت بادئ الأمر ـ بمساعدة أصدقائي الذين تمكنوا من النزوح ـ بالاتصال بالعديد من المنظمات التي كانت تساعد في إجلاء الناس عن أفغانستان، وذهبت للقاء بعض معارفي القدامى من الجماعة الإسلامية، الذين زرت معسكرهم في عام 1993، كان الطالبان قد أغلقوا معسكر الفجر في عام 1995، بعد وقت قصير من توليهم الحكم، بالنظر إلى دعم الجماعة للتحالف المناهض لهم في حينه، أما الآن، وعلى غرار عدد من الجماعات الإسلامية الأخرى المعارضة لهم، فقد حظي الطالبان بتعاطف الجماعة نتيجة غزو الأمريكيين لأفغانستان، تماما كما فعل السوفييت من قبلهم. كان لتلك الجماعات مقاتلون وأدلاء متمرسون يعملون لصالح الجماعة الإسلامية، الأمر الذي دفعني لطلب العون منها.

صادفت العديد ممن كانوا قد جلوا عن خوست، بينما كنت أنتظر في إحدى مضافات بلدة بانو في منطقة القبائل الحدودية، دون أن أسمع أي خبر عن عائلتي، وكانت دموع من أسألهم العون تنهمر عند سماع قصتي، فاقترح أحدهم علي نسيان زينب والأطفال، مفترضا وفاتهم بالنظر إلى انقطاع أخبارهم حتى تلك اللحظة، قائلا: إن ذلك يمثل «مشيئة الله»، ولكن لم أقف مكتوف الأيدي، بالرغم من جهلي التام بمصير عائلتي.

اتصلت بالعائلة والأصدقاء في إنجلترا؛ كي يرسلوا لي المال من أجل الأدلاء الذين أرسلتهم للبحث عن عائلتي، وحاولت الذهاب برفقتهم، ولكنهم رفضوا، قائلين: إن ذلك يمثل مخاطرة كبيرة بالنسبة للأجانب، فقد كنت أقرأ، في كل يوم، قصصا جديدة مروعة عما يتعرض له الأجانب في أفغانستان من قتل، وخطف، واغتصاب، ناهيك عن القصف الأمريكي، فأوردت إحدى الصحف المحلية أن امرأتين عربيتين أقدمتا على الانتحار بعد أن هتك أمراء حرب

محليون عرضهما، علاوة على أخريات أخذن كرهائن طمعا في المال، وأكدت العديد من التقارير الواردة من محطات كبرى «كالسي إن إن»، و«البي بي سي» أن عدد القتلى من المدنيين بلغ الآلاف، وقصفت حافلة محملة بالنازحين في كابول، وتعرضت قرية بأكملها إلى مذبحة قرب قندهار، ودمرت قافلة للاجئين قرب خوست، حيث قيل: إن عائلتي ذهبت.

أصبحت الفظائع، التي كثيراً ما دفعتني إلى ترك حياتي المريحة في بريطانيا حقيقة واقعة، فربما كانت عائلتي تتعرض لها، فقطعت على نفسي عهدا بألا أتوقف عن البحث عنهم حتى أجدهم، أو أموت في سبيل ذلك.

سكنت بالقلق والخوف، تمر الساعات علي وكأنها دهور، منتظرا سماع أخبار جديدة عنهم، بلا جدوى، وغمرتني التساؤلات قائلا لنفسي: «لم لم أغادر إلى باكستان في وقت أبكر؟، لم غادرتهم في ذلك اليوم إلى كابول؟، لم لم أخاطر بالعودة إليهم عبر كابول؟، لم أتيت إلى أفغانستان بالأساس؟».

مضى علي، حتى تلك اللحظة، ثلاثة أسابيع منذ رأيت عائلتي آخر مرة.

أخبرت أصدقائي في إسلام أباد، في نهاية المطاف، وبدافع من يأسي، أن يتصلوا بوالدي، وبالسفارة البريطانية، إن لم أتصل بهم خلال أسبوع، واعتزمت الذهاب إلى أفغانستان، وحدي.

صرخ فيّ طارق عبر الهاتف قائلا: «لا تذهب إلى أي مكان !، أحمل لك أخبارا رائعة، عائلتك بخير، وهي موجودة هنا في إسلام أباد عند أحد الأصدقاء، على بعد شارع من حيث كنت تقيم».

كان التئام شملنا محزنا، وقد امتزجت فيه الكثير من العواطف، فقد كنت قلقا للغاية على سلامتهم، وبكيت ملء جفوني، فها قد وجدتهم أخيراً، بعد طول غياب، وابتسمت زينب، بعد ذرف دموع الألم والفرح، ليشرق وجهها، بينما بكت أمامة حين كنت أعانقها، واكتفى عبد الرحمن بالابتسام، في حين تساءلت

شقيقته نسيبة، التي لم تكن قد أتمت أعوامها الثلاثة بعد، قائلة: «أين قطعة الشوكولاتة يا بابا؟»، إذ كنت قد وعدتها، في آخر مرة رأيتها، أن أحضر لها بعض الشوكولاتة عند عودتي من كابول، ولكنني تأخرت ثلاثة أسابيع لشديد الأسف.

أخبرتني زينب بما حدث في تلك الليلة المشؤومة حين لم أعد، إذ كانت عائلة صديقي الكردي عبد الله قد علمت بسقوط كابول، فقررت النزوح إلى باكستان، مصرة على أخذ زينب والأطفال معها، بالرغم من عدم عودتي بعد، قائلة: إنها لن تغادر من دونهم.

شعرت زينب بالتخبط والغضب لعدم عودتي، مرغمة على اتخاذ القرار السليم بالمغادرة، وانطلقت برفقة العائلتين الكردية والبريطانية في قافلة اتجهت صوب الحدود مساء، ولم تستطع، من شدة ارتباكها، أن تحمل أكثر من حقيبة ملابس صغيرة لها ولأطفالها، ناهيك عن ضيق مساحة العربة التي انحشروا فيها كالسردين.

توجهت القافلة من قرية إلى أخرى، متجنبة القصف الجوي عبر إطفاء الأنوار على الدوام، دون إيجاد أي مكان آمن للتوقف تقريبا، فلم يكن هناك سوى القنابل، وقطاع الطرق، والرِّشا طيلة الرحلة إلى الحدود، ولم تكن زينب تعلم على الإطلاق، بعد مضي أكثر من أسبوعين على وصولها سالمة إلى إسلام أباد، أنني كنت أسير عبر جبال جلال أباد، بحثا عنها كالمجنون، واقتنع جميعهم في حينه بأنهم لن يروني مجدداً. فتوجهت زينب، بعد وصولها إلى إسلام أباد أخيرا، إلى منزل علي، صديقنا المشترك، بصحبة العائلة البريطانية.

شعرنا بسعادة لا تصدق لالتئام شملنا مجدداً، علاوة على وجودنا في إسلام أباد التي ألفناها، قريبا من عماتي وأعمامي، وأبنائهم، وعلمنا آنذاك أننا سنرزق بطفل جديد ـ بينما كان أشقاؤه الآخرون ملتحقين بالمدرسة ـ نتهندم جميعا بملابس جديدة، ناهيك عن المنزل الجديد الذي قطناه ـ الثالث في غضون ثلاثة أشهر ـ مزودا إياه بكل ما يمكن أن ترغب به زينب، كي تتجاوز بسرعة كل الرعب

والخوف اللذين مرت بهما. أرسل لنا الأهل والأصدقاء من بيرمنغهام بضعة آلاف من الجنيهات لمساعدتنا على تخطي هذه الفترة العصيبة، بعد أن فقدنا كل ممتلكاتنا في كابول، ولم أفقد، بالرغم من ذلك، قناعتي بأن العمل الذي كنت أقوم به هناك يستحق كل تلك التضحيات.

خططت للبدء في نقل نصوص عربية قديمة إلى الإنجليزية ـ بينما كنا ننتظر عودة الأمن إلى أفغانستان مجدداً، كي أتمكن من العودة إلى هناك للإشراف على المدارس* ـ وهو ما كان يمثل جزءا من مشروعي الأفغاني الأصيل، المرتبط بمكتبتنا في بيرمنغهام، والذي كنت قادرا على المباشرة به في إسلام أباد.

حثني والدي كثيراً، حين كنت أتكلم معه عبر الهاتف، على العودة إلى بيرمنغهام، لأقاوم رغبته تلك عبر دعوته إلى المجيء لزيارتنا، بالنظر إلى اتساع منزلنا الجديد، وكنا ننوي البقاء في باكستان مدة من الزمن، والعمل على مساعدة العائلات النازحة الأخرى، بما فيها تلك التي ساعدتنا.

كانت تلك الفترة التي رأيت فيها أخيرا صور هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وأدركت مدى الدمار الذي أزهق آلاف الأرواح البريئة.

لم أكن أتوقع أن حياتي في باكستان ستنتهي باختطافي بهذه الصورة المفاجئة في منتصف الليل، بعد مضي شهرين لا أكثر، وأن الاستجوابات التي أجرتها معي وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «السي آي أيه»، ومكتب التحقيقات الفيدرالي «الإف بي آي»، والاستخبارات الداخلية البريطانية «الإم آي فايف»، علاوة على قرارهم بإرسالي إلى أفغانستان مجددا، أن كل ذلك سيغير من حياتي إلى الأبد.

انفصلت عن عائلتي للمرة الأولى خلال محنة ثلاثة الأسابيع، دون أن أدري أن المرة الثانية ستدوم ثلاث سنوات.

* علمت حديثا أن إحدى المدارس دمرت جراء القصف الأمريكي في أواخر العام 2002، دون وقوع أي ضحايا. (المؤلف).

-6-
«الإنجليزي، 558»

حملتنا الطائرة من باكستان إلى قندهار في البكور، ولم تكن جلستي على أرضيتها مريحة على الإطلاق، مع كل اهتزازاتها التي تضرب ظهري، وضجيج محركها الذي يصدع رأسي، فقد كنت أشعر بالوميض المنبعث من آلات تصوير الجنود ـ الذين كانوا يأخذون صورا تذكارية، كما هو واضح ـ على الرغم من الغطاء الموضوع على رأسي.

تحدث صوت بجانبي بالعربية، قائلا: «هل نصلي يا أخي؟».

اقترب الحارس، وصرخ في أذني قائلا: «اخرس أيها السافل، سأقتلك إن تحدثت ثانية».

أخبرني حارس آخر لاحقا أنه جلس برفقة زملائه حولنا في تلك الرحلة، مبرزين سكاكينهم خارج أغمادها، وكان الصوت الذي حدثني بالصلاة يعود للرجل المكبل، الذي كان يتقدمني في إسلام أباد، قبل صعودنا الطائرة، وقد تمكن من إخباري أنه ليبي الجنسية، وأنه اعتقل في باكستان، وكان من الطبعي بالنسبة للمسلم، مهما كانت ظروفه، أن يحدث بالصلاة في مواقيتها.

شعرت بعدم القدرة على التنفس بشكل سليم تحت غطاء الرأس، حيث كان يلتصق بفمي وأنفي مع كل نفس، وأصابني عجزي عن الرؤية بهواجس لا تطاق، متخيلا أنني سأضرب في أي لحظة على وجهي، أو ما هو أسوأ، وقد كان البرد قارصا، حين هبطت الطائرة وشعرت بالهواء، ناهيك عن قدميّ ويديّ اللتين كانتا خدرة بالأساس، فلم أكن أرتدي أي حذاء، بل مجرد جوارب، بعد أن أخذ الأمريكيون الخف المطاطي البالي الذي كان الباكستانيون قد أعطوني إياه. تمثل

كل ما كنت أرتديه في قميص وبنطال، بعد أن ضنوا علي بأي سترة، وأنزلت من الطائرة محني الرأس، يدفعني الجنود الأمريكيون من كلتا الجهتين، بما بدا استخداما غير مبرر للقوة، فقد كنت أعلم وجود ستة منا، ممن كبلهم الباكستانيون، وغطوا رؤوسهم، وكان أحد العناصر الباكستانيين قد كشف الغطاء عن رأسي مدة وجيزة، حين كنا في إسلام أباد، بعد أن سألته ذلك؛ لأتمكن من التنفس، وقد لمحت في حينه بقية من كانوا برفقتي، حيث كانت رؤوسهم جميعا مغطاة، مثلي، ويلبسون الشالفار كاميز، ولم تكن لدي فكرة عن هوياتهم.

شعرت على الفور، في أثناء تسليمي إلى الجيش الأمريكي في مطار إسلام أباد، بتناقض كبير بين موقفي الباكستانيين والأمريكيين، وطريقتي معاملتهما، ولم يصرخ الباكستانيون في أبدا، أو يجبروني، أو يكبلوا قدميّ خلال نقلي، بينما كان الأمريكيون يأمرونني بعدم التحدث صارخين، ويكبلون قدميّ بقسوة، بحيث تكادان تلتصقان، ناهيك عن جري لصعود الطائرة، موثقين الغطاء على عنقي بلا ضرورة، وقد حدثت نفسي بأن ذلك سيكون أسوأ من أي مما يمكنني تخيله، وأنني سأكون بحاجة إلى الهدوء والتماسك، وأجبرت على الانبطاح بعد مغادرتنا مهبط الطائرات، فشعرت بكثير من الخوف في تلك اللحظة، إذ كان قلبي يخفق بشدة، ورأسي يتعرق تحت الغطاء بالرغم من البرد القارس، وكان جهلي بما يمكن أن يحدث لي ـ هل سيقتلونني، أو يعذبونني، أو يذلونني؟، هل سأكون قادراً على صون كرامتي؟ كان جهلي بذلك يفوق كل احتمال، ويزيد الطين بلة تفكيري بعائلتي، ومعاناة والدي، ذي القلب المتعب، إن علم بما كان يحدث لي، ولم أكن أريد التفكير بعائلتي مطلقا، أو الأذى الذي يمكن أن يصيبهم إن علموا بما أتعرض له، وقد صليت لئلا يضطروا إلى رؤيتي بهذه الحال أبدا، وتحركت شفتاي مرارا، ترددان الدعاء المألوف، الذي يغمر النفس بالسكينة: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم».

عملت على تهيئة نفسي لتقبل الوحشية، الوحشية التي كنت أعامل بها بصورة لا تصدق، وتذكرت كم روعتني الصور الأولى لمعسكري «رينو» في قندهار، و«إكس ـ راي» في غوانتانامو، التي رأيتها على شاشات التلفزة، وصفحات الجرائد التي قرأتها، حين كنت حرا في إسلام أباد، وتذكرت آخر مقابلة لي مع عميل «الإف بي آي»، مايك، في غرفة طعام ذلك المنزل الفخم الواقع في ضواحي إسلام أباد، حين خاطبني قائلا: «سيكون معسكرا قندهار وغوانتانامو مختلفين للغاية عن هنا، إذ يخضع كلاهما لقوانين عسكرية، ولا يستبعد بالتالي أن تتعرض لمعاملة قاسية هناك». لم أسمح لنفسي بالتأمل في كلامه آنذاك، أو تخيل ما كان يعنيه بكلمة «قاسية» أهي أغطية الرأس، أم الضرب، أم الصدمات الكهربائية كما في الأفلام، أم الاتهامات الكاذبة، أم التهديدات بالموت؟

لم أهيئ نفسي للاعتداء «العاري» الصارخ الذي رأيته من تحت غطاء رأسي، حيث "بساطير" أمريكية عسكرية تطأ ظهور سجناء آخرين.

سألت أحد الجنود، ممن افترضت أنه كان ضابطا بالنظر إلى طريقته في الكلام، وما أظهرته بوضوح من أنه في موقع مسؤولية، سألته قائلا: «لم تلبس القفازات؟، لن تقوم بفحصٍ جسدي كامل، أليس كذلك؟».

أجابني قائلا: «لا، لن يحدث شيء من هذا القبيل على الإطلاق». لم يكن كذب الرجل بخافٍ.

جُرِّرت مسافة قصيرة، قبل أن يتوقف أزيز محرك الطائرة، عبر الأرض الموحلة، لأرمى عليها فيما بعد، وشعرت بألم شديد جراء تعاملهم الجسدي الخشن، وإن كان الرعب في داخلي أشد وطأة، وامتزج صراخ السجناء والحراس، بحيث لم أكد أتبين أيا من فحواه. استطعت، مع ذلك، تمييز أصوات بعض الجنود، وهم يأمرون السجناء، صارخين فيهم بالإنجليزية، ثم العربية، فالأوردية، بلكنة أمريكية غريبة، وإن كانت مميزة: «(شت أب، اسكت، شب كارو)، (ستاي داون، قف في مكانك، نيشاي راهو)، (دونت مووف، لا تتحرك، هيلنا موت)».

انحنى أحد الحراس، بحيث كاد يستلقي عند رأسي، صارخا في أذني بالسباب الفاحش، وقد كانت يداي ما تزالان مكبلتين من الخلف، والغطاء موثق حول عنقي، بحيث كنت أتنفس بالكاد، وأخبرت الحارس لاهثا: إنني مصاب بالربو، وعاجز عن التنفس، فرفع الغطاء في النهاية فوق فمي، لا أكثر.

شكرته لاهثا.

عقب، بعد أن أوثق الغطاء ثانية، قائلا: «لا تشكرني أيها السافل !، ولا تستغلن طيبتي كنقطة ضعف».

رفعني حارسان إلى الأعلى، وجراني مجدداً، بينما كانت الأغلال تحتك بكاحليّ، مسببة من الألم الشديد ما دفعني إلى التساؤل عما إذا كانتا تنزفان، فكنت أمشي الهوينا، عاجزاً عن مجاراة الحارسين في المسير، أو إكمال خطواتي، لقصر طول الأغلال.

لم يمثل ذلك سوى بداية عملية «المعالجة» فحسب، وقد شعرت بما يفوق الصدمة، غير مصدق حدوث كل ذلك لي، وقد كان الضجيج يصم الآذان: كلاب تنبح، إساءات لفظية قاسية، محركات طائرات، مولدات كهربائية، صرخات ألم من قبل سجناء آخرين، وربما صرخت مثلهم أيضا، وأجبرت على الانبطاح ثانية، شاعراً هذه المرة بركب تضغط بشدة على ساقيّ وأضلعي، تكاد تسحق جمجمتي في آن واحد، فالتصقت بالأرض لثقل وزن من قبعوا فوقي، عاجزا عن تحديد عددهم فربما كانوا ثلاثة، ولم أستطع التحرك قيد أنملة، إذ شعرت بالأغلال تفك عن كاحليّ، وبشيء معدني، بارد، حاد يلامس ساقيّ: كانوا يستخدمون سكينا لتمزيق ملابسي، وذلك ما زاد شعوري بالبرد، وإن كان الإذلال أشد وطأة، وتم تكبيل قدميّ العاريتين مجددا بعد تمزيق سروالي، ومُزق قميصي كذلك، وكُبلت يداي بعد أن كُتف ذراعايّ خلف ظهري، ورفعت لأقف في وضعية منتصبة، وأزيل الغطاء عن رأسي، فاعتقدت أنهم سيرشونني بخرطوم المياه فيما بعد لإرغامي على الجلوس ثانية، ووجهت عوضا عن ذلك بمجموعة من الجنود الذين

كانوا يطوقونني، صارخين في بالسباب، ملتقطين الصور مجددا، ولم أكد أستطيع فتح عينيّ بسبب وميض آلات التصوير من حولي، وقد حان موعد الفحص الجسدي فيما بعد، بالرغم من نفيهم القيام بذلك سابقا، وجمح بي خيالي، بينما بدأ الفحص، نحو صور أشد فظاعة وإيلاما، إذ سمعت مزيدا من صراخ من كانوا خلفي، نتيجة تعرضهم للعنف ذاته، فقد صرخ أحدهم بالعربية قائلا: «اصبروا أخوتي»، مرددا الآية القرآنية: «إن الله مع الصابرين».

نقلت فيما بعد إلى غرفة خشبية، وأجلست حتى يتمكنوا من أخذ صور يضيفونها إلى ألبوم المحتجزين: واحدة حين كان شعري طويلا، وأخرى بعد قصه، فقد استمتع الحلاق بعمله بصورة سادية، وعقب، عند حلق لحيتي بواسطة آلته الكهربائية، قائلا: «يمثل هذا أكثر الأجزاء المفضلة لدي» وتساءلت عما يمكن أن يدفعه لقول ذلك، وأدركت فيما بعد أنه كان على علم بما تمثله اللحية من رمز مهم مميز لهوية المسلمين، في تلك المنطقة على نحو خاص، وكان من الواضح بالنسبة لي أنه واجه العديد من ردود الفعل المستنكرة من قبل سجناء آخرين، وحاولت أن أعدل وضعية قدميّ، حين أخذ يدير رأسي تمهيدا لحلاقته، كيلا أسقط عن الكرسي، وأبعد الحارس قدميّ بصورة إضافية عن الكرسي، وداس بقوة عليهما، قائلا: «من أذن لك بالتحرك أيها السافل؟».

تمثل الأمر الأكثر إذلالا في رؤية الاعتداء على الآخرين، ومعرفة مدى الخزي والعار اللذين شعروا بهما، ولم يكن أولئك الرجال ليظهروا عراة أمام أي أحد باستثناء أزواجهم، أو يحلقوا شواربهم أو لحاهم اللهم إلا لتشذيبها، أو يتعاملوا بسوقية مع الناس، أو يعاملوا بها في أغلب الأحيان، وشعرت أن كل ما كان مقدسا لي بات ينتهك، ولا بد أنهم شعروا بالمثل.

دفعني الحراس إلى غرفة المعالجة المؤقتة، مع مرافقي، لمواجهة اثنين من عملاء «الإف بي آي»، الغريبين تماما عن المكان في مظهرهما، المميزين بواسطة قبعتيهما اللتين تحملان اسم الجهة المذكورة، ودعا أحدهم نفسه «روب»، والآخر «بيل»، وأخذا بصمات أصابعي، وعينة من لعابي، ثم سألاني قائلين: «متى كانت آخر مرة رأيت فيها أسامة بن لادن، أو الملا عمر؟».

لا ريب أنهما وجها السؤال ذاته إلى المئات من الرجال، دون الحصول على جواب شاف، وكنت قد سمعت سجينا آخر «معالجا»، ممن كانوا يتقدمونني، حين طرح عليه السؤال ذاته، فأدركت مدى عبثية طريقتهم معنا، وفوجئ كلاهما، حين أجبتهما بكل أدب بأنني لم أر أيا من الشخصين في حياتي، فوجئا كثيرا بأنني كنت أتحدث الإنجليزية، وانخرطا في حديث اعتيادي معي حول اللهجات الإنجليزية، وأخبرني أحدهما أنه زار ستراتفورد ـ أبون ـ آفون، التي تبعد عشرين ميلا فحسب عن المكان الذي كنت أسكن فيه، وبينما كنت أقف أمامهما عاريا، مرتجفا. هَزِئَ الحراس مما افترضوه خوفي، وخاطبوني قائلين: «يمكننا البدء حين تهدأ». فلم يدر بخلدهم أنني كنت أرتجف برداً، ودفعوني نحو الأرض فيما بعد، مكررين عملية التكبيل السابقة، وإن كان بالعكس هذه المرة، ألبست في حينه بزة زرقاء باهتة، رقيقة، من القطن، وحذاء قديما، علاوة على بعض الملابس الداخلية، وقبعة «الباكول» الأفغانية المميزة لأحمد شاه مسعود، قائد تحالف الشمال، الذي اغتيل في التاسع من أيلول/ سبتمبر 2001، وقد كان مقاسها كبيراً للغاية علي.

كانت أغلال قدميّ، وأصفاد يديّ وثيقة للغاية حول كاحليّ ومعصميّ، بحيث عجزت عن الإتيان بأي حركة تقريبا، واعتقد الحراس أنني كنت أتعمد ذلك، ما دفعهم لحملي بوضعية «الاستراباد»: كنت معلقا في الهواء، يداي مكبلتان خلف ظهري، وذراعا الحارسين تطوقان ذراعيّ، من خلف كتفي، ولم أصرخ بالرغم من شدة الألم الذي تسببه تلك الوضعية، ولكنني صحت قائلا: إن كتفي الأيسر خلع، وحملت بتلك الوضعية إلى خيمة الاستجواب، لألقى على أحد الكراسي في نهاية المطاف، وينزع غطاء رأسي.

رأيت في هذه المرة محققا عسكريا شابا، سألني عن بعض التفاصيل الشخصية: اسمي، وسني، وعنواني، وحالتي الاجتماعية، وشرح المحقق بعد ذلك قوانين المعسكر، بما فيها «عدم التحدث إلى المحتجزين الآخرين»، و«عدم إخفاء الأطعمة، أو أي شيء آخر»، و«الابتعاد عن الشريط الشائك».

خاطبني قائلا: «لا تلمس الشريط على الإطلاق».

سألته قائلا: «أهو مكهرب؟».

تجاهل سؤالي، قائلا: «ستؤدي عدم إطاعة الأوامر إلى العقوبة». وستقابل أي محاولة للهرب باستخدام القوة المسلحة.

أعطيت الرقم «558»، مكتوبا على بطاقة «أسير حرب معاد» (إي بي أو دبليو)، علاوة على ظهري، وأخبروني أنهم سينادونني «بالإنجليزي»، لأنني كنت أتحدث الإنجليزية، لا لانتمائي إلى إنجلترا.

بدا الأمريكيون واثقين من عدم معرفة أي منا مكان تواجدنا، وخاطبني أحدهم بطريقة ساخرة، قائلا: «أراهن أنك تجهل مكان وجودك». فكنت أعلم أننا كنا في مطار قندهار، بالنظر إلى أن المحققين في إسلام أباد كانوا قد أخبروني عن الوجهة التي سأذهب إليها (كنت قد رأيت كذلك صورا لمطار قندهار، الذي كان يحمل تشابها بسيطا بدار أوبرا سيدني، ناهيك عن الصور التي رأيتها في التلفاز، حين كان مشاة البحرية الأمريكية يقيمون معسكر رينو في المكان). وشعرت بشيء من الرضى لقدرتي على مفاجأتهم بمعرفة المكان.

انتهت عملية المعالجة، حين أخذت إلى ما يمكن اعتباره مخزنا مهجورا مشيدا من صفائح معدنية متموجة، ذات لون بني صدئ، دون وجود ما يكسو أرضيته، مقسم إلى زنازين مفردة مؤقتة بواسطة الأسلاك، ولم تكن هناك أي نوافذ، فاقتدت إلى آخر المخزن، حيث الزاوية، من قبل عنصرين من الشرطة العسكرية، وقد احتوت زنزانتي على بطانيتين، وشال، ودلو، وزجاجة مياه بلاستيكية، وجهاز الربو الخاص بي، لا أكثر، وكان الأمريكيون قد أخذوا نظارتي حين كنا في المطار في باكستان، وذلك ما أجبرني على زمّ عينيّ للرؤية بقدر ما أمكن، فتمكنت من رؤية الشخص القابع في الزنزانة المجاورة، مع علمي أن التواصل بيننا ممنوع، وكان ذلك الشخص قد غطى نفسه بالبطانية، فبدا، وكأنه قادر بالفعل على النوم.

أما أنا فلم أستطع النوم على الإطلاق، بالرغم من أنني كنت منهكا للغاية، وفي حالة صدمة حقيقية، عاجز عن تصديق أن كل ذلك يحدث لي بالفعل، علاوة على أن صوت المولدات التي تمد المعسكر بالكهرباء لم يكن يساعد على النوم.

كانت هناك بعض الثقوب الناتجة عن الرصاص في الزاوية التي كنت عندها، وقد اختلست النظر عبرها، محاولا بلا جدوى تبيان حال الحبس الجماعي (كان أحد الحراس قد أخبرني أن المكان سيروقني هناك)، ولكنه كان مظلما، ناهيك عن عدم وجود نظارتي بأية حال، وسمعت أصواتا تتحدث وتصرخ بالعربية، والبشتونية، والأوردية، والفارسية، والإنجليزية، يختلط بعضها ببعض، وشممت رائحة ما يحترق أيضا، رائحة غريبة نوعا ما، فظننت أن ذلك ربما كان بسبب حفلة شواء، تترافق مع مباراة لكرة القدم، وربما كان الجنود والسجناء يلعبون ضد بعضهم بعضا، فتذكرت فيلمي الحرب العالمية الثانية القديمين «الهروب الكبير»، و«فون رايان إكسبرس»، حيث كان السجناء يعاملون باحترام كبير من قبل النازيين، ويتمتعون باستقلال نسبي عن سجانيهم، آنذاك كنا قد حظينا، بكل الأحوال، ببطاقات «أسرى حرب معادين».

نظرت إلى أنحاء زنزانتي كافة، مندهشا من رؤية ما يحيط بي، فلفت الدلو نظري فيما بعد، إذ كان هو المرحاض الذي كنت مضطرا لاستخدامه، وتذكرت كيف اكتفى الباكستانيون بوضع منشفة حول رأسي، وسمحوا لي بالمسير بشكل طبيعيٍّ إلى المرحاض، وإن رافقني حارس مسلح في الخلف، وقد كان ذلك المرحاض قذرا ومريعا بالفعل، ولكنني حظيت بخصوصيتي في حينه على الأقل، بينما يتمثل كل ما أستطيع القيام به الآن، حفاظا على كرامتي، في لف البطانية أو الشال حول جسدي.

تعين على الجنود الأمريكيين التأكد من إفراغ الدلاء يوميا، ولم يكن ذلك بالعمل الذي يستهويهم، وقد تجلى بوضوح حين بدؤوا اختيار بعض المحتجزين للقيام به، إذ كانت أرجلهم مغلولة، في حين لم تكن أيديهم كذلك، وتطوع العديد

لأداء تلك المهمة، بالرغم من عدم قيامي بذلك، حيث وفرت لهم الفرصة لسماع الأخبار من الواصلين الجدد من السجناء، مع تغاضي بعض عناصر الشرطة العسكرية عن تبادل بعض الكلمات، وكان أول المتحدثين إلي بتلك الطريقة من اكتشفت أنه طالب كويتي فيما بعد، فقد خاطبني، بكل بساطة، قائلا: «الفرج قريب». كنت أعلم أن تلك العبارة تنم عن الأمل، وشكرته عليها، ولكنني ما انفككت عن التفكير، قائلا لنفسي: «هل يعلم ما لا أعلمه؟».

كان الضوء مسلطا على كل من طرفي المخزن ليلا نهارا، فأخفت الصفائح المعدنية المتموجة الزنازين الواقعة أمامي، وتمركز عند كل من الطرفين، في برج حراسة صغير، جندي مسلح ببندقية «إم 16» الهجومية، أو غيرها من الأسلحة ـ التي أصبحت أسماؤها مألوفة لدي بعد مضي وقت قصير ـ ليقوم بمهمة «المراقبة المشددة»، كما كانوا يدعونها. كانا يجلسان هناك ساعات، تتخللها بعض الاستراحات، وأحاديث يجرونها مع عناصر الشرطة العسكرية المارين بقربهما.

كنت أفقد إحساسي بالوقت خلال الليل الطويل البائس، حتى يأتي عناصر الشرطة العسكرية في ساعات الصباح الباكر، صارخين لإيقاظنا، راكلين الأسلاك، ليرموا لنا فيما بعد علبا تحوي وجبة الإفطار. كنا نمنح خمس عشرة دقيقة لتناولها، وقد كانوا يصيحون، عند عودتهم، قائلين: إنه يتعين علينا إعادة ما يتبقى منها، ناهيك عن «النفايات»، بالنظر إلى أننا سنحاسب على ذلك، وقد كان هنالك أنواع مختلفة من الوجبات، دون مراعاة احتوائها على أطعمة حلال، فلم أكن آكل فيما مضى إلا اللحم الحلال، أو الذي نصت عليه قوانين كوشر الغذائية، أما الآن، وأمام خيار تناول وجبات الجيش الأمريكي، أو بعض البسكويت وحبات الفستق والتضور جوعا، فقد اخترت الأول، دون أن يشمل ذلك الوجبات التي تحوي لحم الخنزير، وتعلمت، كالآخرين، فتح العلب بأسناني، بالرغم من صعوبة ذلك، وكنت أرى بعضهم أحيانا وهم يستعينون بالأسلاك الشائكة خلسة للقيام بذلك، وقد كان عناصر الشرطة العسكرية يأخذون بعض

محتويات العلب قبل تقديمها إلينا: الملاعق باعتبارها تشكل «علاقات» محتملة، وسخانات المياه لإمكانية استخدامها في صنع «قنابل دخانية»، والفلفل لأنه يمكن أن «يرمى في عيون أحدهم»، والشوكولاتة باعتبارها تمثل رفاهية «لا نستحقها»، فاضطررنا للارتجال نتيجة افتقادنا للملاعق، حيث كنا نستعمل أيدينا، أو نطوي جزءا من علب الوجبات على شكل ملعقة، أو نكتفي بلعق محتوياتها، وقد مثل الأكل، مظهرا آخر من مظاهر الإذلال، ولم أجرؤ على السماح لنفسي بالتفكير في طعام البيت، وكل العناية والمحبة اللتين كانتا تسودانه، كيلا أفقد رباطة جأشي التي مصمما على الحفاظ عليها أمام سجانيّ.

تمثل الشيء الوحيد الذي لم يوقفوه، في تلك الفترة، بالأذان، فقد استيقظت صبيحة أحد الأيام على صوته المألوف الدافئ، لأتيمم، ثم أتجه نحو الغرب لأداء صلاة الفجر، إذ كان يوم عيد الأضحى، بالرغم من غياب ذلك عن بالي، وهو العيد الذي يحتفل فيه المسلمون بذكرى امتثال النبي إبراهيم للأمر الإلهي بالتضحية بابنه، فعيد الأضحى مناسبة يصل المسلمون فيها أرحامهم، وأحد أهم أعيادهم السنوية.

تمثلت إحدى أكثر اللحظات سريالية في دخول أحدهم المخزن، قائلا: «عيد مبارك» فكانت تلك مقابلتي الأولى مع هيئة الصليب الأحمر الدولية (آي سي آر سي) وطاف الرجل، الذي كان يتحدث العربية، بين الزنازين، موزعا كوبا يحمل شعار الهيئة، ويحوي بعضا من اللحم، وقطعة من الخبز، وقد كانت نية الرجل حسنة بلا شك، ولكن هل يمكن لأي أحد أن يتخيل معايدة شخص يرتجف من برده خلف الأسلاك، ناهيك عن كل ما مررنا به؟ وسألني أحد عناصر الشرطة العسكرية، الذي دعي فيما بعد «رامبو»، وأسماني «بريطانيا العظمى» عما تعنيه عبارة «عيد مبارك». أجبته قائلا: إنها تعني «عيداً سعيداً»، وتمثل الرديف الثقافي لعبارة «عيد ميلاد مجيد».

حضر رجل آخر، علاوة على المرافق العسكري، برفقة مسؤول الصليب الأحمر، وهو باتريك هاميلتون، البريطاني الجنسية، وقد شعرت بشيء من الارتياح تجاهه (بما يماثل الشعور الذي حملته للوهلة الأولى تجاه عميل الاستخبارات البريطانية في إسلام أباد) وقد تحدث باتريك البشتونية بطلاقة مع نزيل الزنزانة المجاورة، دوّن الرجل تفاصيلي الشخصية، عندما حان دوري، ومنحني بطاقة تسجيل في الهيئة، سائلا إياي عما إذا كنت أود كتابة أي رسالة، وقد أردت بالفعل كتابة رسالة إلى زوجي، وإن جهلت مكان وجودها، وأرسلت أولى الرسائل إلى عنواننا في باكستان، آملا في إمكانية بقائها هناك، بالرغم من أن الباكستانيين كانوا قد أخبروني أنها غادرت، وكتبت رسالة ثانية إليها، مرسلا إياها إلى عنوان والدي هذه المرة، على أمل أن تكون قد عادت إلى إنجلترا، علاوة على رسالة أخرى إلى والدي، معتذرا عما سببته له من معاناة، وأخبرني باتريك أن هيئة الصليب الأحمر صنفت وضعنا كأسرى حرب، بما يترتب على ذلك من حقوق، في حين اعتبرنا الأمريكيون «مقاتلين غير شرعيين»، لا يتمتعون بأي حقوق على الإطلاق، فشعرت بالارتياح في حينه لاضطلاع تلك الهيئة الدولية بالدفاع عن حقوقنا، لأكتشف بعد مضي وقت قصير مدى عجزها أمام الأمريكيين.

أُبقيت في المخزن خمسة أسابيع ـ معزولا عن السجناء في الحبس الجماعي ـ أقتاد إلى الاستجواب في أي لحظة كانت، وأظهرت عملية نقل المعتقلين من الزنازين، بالنسبة لي، الصورة الأشمل لإجراءات الجيش الأمريكي، ملخصة الحرب على الإرهاب بأكملها، وذهلت لمدى الغلو فيها، وما انفك الامتعاض الناتج عن ذلك لا يفارقني.

كثيراً ما كنت أعرف مسبقا، حين يتم اقتياد أي من السجناء إلى الاستجواب، عبر استراق السمع إلى أجهزة مذياع الشرطة العسكرية: «إلى المواكبة، نطلب السجين رقم خمسة ـ خمسة ـ ثمانية». كانت الاستخبارات

العسكرية تسأل، عبر تلك الرسالة، فريق المواكبة (أو وكالة المواكبة كما كنت أسميه)، المسؤول عن نقل السجناء جلب أي من السجناء بغرض الاستجواب، وقد كنت أنا في تلك الحالة، وقد كان شمل الفريق يلتئم عندئذ، محضرين أصفادهم، ليقتربوا من زنزانة السجين منادين اسمه، مضيفين في بعض الأحيان عبارة «ستذهب في نزهة».

لم يكن هناك أي أبواب للزنازين، بل مداخل مشادة من الأسلاك الملتفة، فقد كانوا يلبسون قفازات واقية لإزاحة الأسلاك كلما أرادوا اقتياد أي سجين من زنزانته، وكان أحد عناصر الشرطة العسكرية ـ علاوة على العنصرين الآخرين الموكلين بمهمة المراقبة المشددة، اللذين يوجهان بندقيتيهما الآليتين إلى السجين ـ يقف خارج الزنزانة مصوبا مسدسه نحوه، فتعين على السجين «اتخاذ وضعيته»، منبطحا على الأرض، تتداخل ساقاه مثنيتان عند الركب، واضعا يديه خلف رأسه، فتولى ثلاثة حراس آخرين غير مسلحين تكبيل السجين، أو فك قيوده، لقد كانت عملية طويلة، واستلزمت خمسة رجال لنقل سجين واحد، وتكبيله، أو فك قيوده.

تعين علي المسير محني الرأس بصورة مضاعفة، عند مغادرة الزنزانة، تشدني أيديهم نحو الأسفل، تصطك الأغلال بكاحليّ، وكنت أرغم على اتخاذ تلك الوضعية مجددا، فور فك قيودي داخل الزنزانة، يكاد السجانون يتسابقون للخروج منها، مخافة إتياني بأي حركة، وكان ذلك يحدث في الأيام الأولى، إذ أخذت الأمور تقل تعقيدا مع حلول شيء من الألفة معهم.

اقتادني عناصر الشرطة العسكرية إلى خيمة الاستجواب، خلال أسبوعي الثاني هناك، قائلين: إن "المخنثين" قد أتوا لرؤيتي كان مثل ذلك لقائي الأول بعناصر الاستخبارات البريطانية في أفغانستان، حيث استمر بضع ساعات، ودلف آندرو، عميل الاستخبارات البريطانية الذي كنت قد قابلته في بيرمنغهام، الخيمة برفقة رجل طويل القامة، قوي البنية، أحمر الشعر، يرتدي قميص لاعبي

الرغبي، يدعى مات، وقد شعرت بشيء من الأمل والألفة، مجددا، لرؤية شخص بريطاني، وفكرت قائلا لنفسي: «أعرف هذا الشخص، لقد زارني في منزلي، ناهيك عن أنني قدمت له الشاي».

كان آندرو رجلا ذكيا، وقارئا نهما يتحدث عددا من اللهجات العربية بطلاقة، ولم يطرح الرجل، مع ذلك، غير الأسئلة القديمة ذاتها التي وجهها إلي في بريطانيا، حول من كنت أعرفهم من الناس، وما ارتدته من أماكن، والمال الذي دفعته أسرة زوجي لشراء منزلنا.. فقد سألته، بل في الواقع رجوته، أن يزودني بأي أخبار عن عائلتي، فأخبرني أن ذلك لا يمثل عمله، قبل أن يردف قائلا: «نحن مجرد ضيوف على الأمريكيين هنا، هم الذين يملكون زمام الأمور، ولكننا نبقى أوثق حلفائهم، وبإمكاننا التأثير نوعا ما في طريقة تعاملهم معك، صدقني، فكلما تصرفت معهم بطريقة أفضل، كلما أحسنوا معاملتك».

كان ذلك محض هراء، فلم يكن أحد ليتصرف بما هو أفضل مني، وقد لحظت أن آندرو لم يكن مرتاحا على الإطلاق لرؤية رأسي مغطاة، مقيداً بكل تلك الأغلال، وقد سأل عناصر الشرطة العسكرية بالفعل قائلا: «هل هذا ضروري حقا؟». طلب منهم جميعا مغادرة الخيمة فيما بعد، وقدم لي لوحا من شوكولاتة «المارس»، لأرفض أخذها، وغادر آندرو في النهاية، ليبقى مات هنيهة، فخاطبني قائلا: «حسنا يا صديقي، لا أعلم ما يمكنني قوله لك بعد، ولكن كل ذلك سينتهي يوما ما»، فقد كان ذلك نهاية ما أملت أن تفعله الاستخبارات البريطانية من أجلي، وعدت خائب الرجاء.

اعتدت إمضاء ساعات، أزم عينيّ لقراءة المعلومات الغذائية المكتوبة على علب الوجبات ـ كم من السعرات استهلكت لتوي ـ لمجرد الإحساس أنني أقوم بأي مما يمكن اعتباره مفيدا، فلم أكن أملك الكثير من وقت الفراغ فيما مضى، يمتلئ جدولي بالكثير من المشاغل والمتطلبات، فيما يتعلق بالمدارس في أفغانستان، وحياتي العائلية على نحو خاص، أما الآن، فلم يكن لدي ما أقوم به

مطلقا، فما انفككت أدور في زنزانتي، منتقلا من زاوية لأخرى، وقد كانت زنزانتي تقع في آخر صف الزنازين، وذلك ما لم يمكني سوى من رؤية شخص واحد كانوا قد أعطوه مصحفا ليقرأ فيه، وتمكنا من تبادل بعض الكلمات حين كنت أستعير مصحفه، فغالبا ما كان يطلب مني الترجمة لسجناء آخرين أثناء تواصلهم مع الصليب الأحمر أو عناصر الشرطة العسكرية، وذلك منحني الفرصة للتحدث إليهم قليلا في الوقت ذاته.

تم استبدال السجين المجاور لي، بعد مضي وقت قصير، بآخر ذي شخصية مثيرة، وإن كان أمره مريبا، إذ كان روسيا* اعتقل من قبل الطالبان بتهمة التجسس، وسلم إلى الأمريكيين من قبل تحالف الشمال، بعد سقوط قندهار، فقد تحدث الرجل العربية، والبشتونية، والفارسية، والأوردية، وقليلا من الإنجليزية، علاوة على الروسية بالطبع، وهو الذي كان الطالبان قد اتهموه بالتجسس لصالح الروس، وسجنوه بضع سنوات، وقد شاركه في الزنزانة سوري اتهم كذلك بالتجسس من قبل الطالبان، وكنت قد قرأت عنه في السابق، حين كنت في بيرمنغهام، في أحد مواقع الأخبار الأفغانية الإلكترونية، حيث كان قد أدلى ببعض الاعترافات الصريحة، وكان السوريون قد أجبروه على التجسس على الطالبان، علاوة على تعرضه للضرب والتعذيب من قبل السلطات في دبي، وأبقي الاثنان بعيدا عن بقية السجناء، ظنا من الأمريكيين أنهما كانا مهددين من قبلهم، ولم يغير ذلك من حقيقة كونهما سجينين مثلنا، يعاملان بالسوء ذاته الذي نعامل به جميعا.

أدركت بعد مضي وقت قصير أن الأمريكيين كانوا يبذلون قصارى جهدهم لإخافتنا، بدافع خوفهم منا في الأساس، فكانوا يلقنون أشياء مخيفة عنا كجزء من تدريبهم: أننا مسلمون، وعرب، وشرق أوسطيين، وقتلة، وإرهابيون، وقد قمت ببعض المحاولات للتحدث إلى عناصر الشرطة العسكرية، حين كانوا يقفون خارج زنزانتي، بدافع من فضولهم حول «الشخص البريطاني» في الغالب، وحاولت

* إيرات فاكيتوف: أطلق سراحه في شهر أيار/ مايو من عام 2005. (المؤلف).

توضيح بعض الأمور عن المنطقة: الظروف السياسية والتاريخية، والمواقف، والحساسيات، والتنوع الإثني والثقافي، والمذاهب الدينية، والفروق اللغوية، فلم أكن ألمُّ بكل ذلك شخصيا، ولكنني كنت قد تحدثت عددا من اللغات، وتنقلت في المنطقة، دارسا ما يتعلق بها تاريخيا ودينيا، وحسبت أنهم سيكونون راغبين، بل ومهتمين بمعرفة كل تلك الأمور، فقد سبَّب ذلك، في الواقع، مزيدا من الإحباط بالنظر إلى عدم امتلاك معظمهم تلك الرغبة، فهم سعداء بجهلهم حقائق المنطقة، مكتفون بالمعلومات التي لقنت لهم في السابق، فكيف لي، بكل الأحوال، أن آمل توضيح تلك الأشياء لمن لم يغادر جورجيا، أو تينيسي، على سبيل المثال، في حياته؟

علمت فيما بعد أن معظمهم كانوا من جنود احتياط الحرس الوطني، أو الجيش، فقد كان «محاربو نهاية الأسبوع»، كما يدعون من قبل الوحدات العاملة في الجيش الأمريكي يخضعون لتدريب أساسي مدته ستة أشهر، فأسبوعان كاملان، وست عطل نهاية أسبوع في السنة، فما انفككت أشعر بالأسف تجاههم بصورة أو بأخرى، بالنظر إلى أنهم ربما كانوا قد انضموا إلى الجيش للتمكن من القيام برحلة إلى هاواي أو أوروبا، أو الإسهام في دفع أقساطهم الجامعية، ولم يدر بخلد أي منهم في يوم من الأيام أن يجلبوا إلى أحد أكثر الأماكن خطورة في العالم، ويحرسون بعضا من أخطر الناس، كما قيل لهم بالطبع.

تعرفت إلى عدد من عناصر الشرطة العسكرية خلال خمسة الأسابيع الأولى تلك، علاوة على ضابط أفريقي ـ أمريكي مسيحي يدعى النقيب دانر، كنت قد تحدثت إليه كثيرا، فقد كان يستمع إلى شكوانا، وبدا رجلا ملتزما بكلمته، وتمكنت من إجراء حوارات عاقلة معه.

انخرطت في إحدى المرات، أنقل الإنجليزية إلى العربية؛ كي يفهمها الروسي، الذي قرر الإضراب عن الطعام في حينه، وأراد إخبار عناصر الشرطة العسكرية أن الطالبان كانوا قد احتجزوه ما يقارب ثلاث السنوات: «أعامل هنا بصورة أسوأ

مما كان يعاملني به الطالبان، فلقد منحوني على الأقل مذياعا، ووفروا لي وجبات مطبوخة، وفواكه وخضارا طازجة، ناهيك عن احترام معتقدي، وإبقائي بعيدا عن المرحاض، بينما أعيش الآن، تحت الاعتقال الأمريكي، في المرحاض ذاته».

لم يرق سماع ذلك للنقيب دانر على الإطلاق، بالنظر إلى كل ما كان يتحلى به من طيبة، وقد باشر في محاولة إجراء بعض التغييرات، دون أن يحدث ذلك بالفعل، فقد كان الجيش الأمريكي يعمل وفق نظام سخيف في صرامته وتعنته، أثار حنق الكثيرين ـ من عناصر الشرطة العسكرية، والسجناء على حد سواء.

أمضيت الكثير من وقتي، بعد الفجر على نحو خاص، في حفظ القرآن، إذ كنت قد أنهيت للتو حفظ سورة الكهف، التي حُض المسلمون على تلاوتها، في أيام الجمع خصوصا، فكنت أجلس متربعا على بطانيتي، حين لا أسير في الزنزانة، أو أستلقي فحسب، فلم يكن مسموحا لنا معرفة الوقت، أو التاريخ، أو الأيام بالرغم من أننا كنا نستطيع سماع صوت الأذان الآتي من الحبس الجماعي خمس مرات في اليوم، حيث كان أحدنا يكرره في المخزن، وقد مثل ذلك نصراً متواضعا لنا على الأمريكيين: كنا نعلم مواقيت صلاة الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، بينما كانوا يفضلون ألا نفعل، حيث كان الأذان بمثابة نداء روحي للتواصل، يتردد صداه عبر أرجاء المعسكر كافة.

أمضيت وقتي كذلك أحدق، عبر ثقوب الرصاص، في سير الحياة في الحبس الجماعي، متمنيا لو كنت هناك أيضا، وحذرني أحد عناصر الشرطة العسكرية من القيام بذلك، مهددا بسد الثقوب، فلجأت إلى استراق النظر، حين لا أكون مراقبا.

تمثل المنظر في عدد من الأبنية الخشبية المنتظمة في صفوف متناسقة، ذات أسقف قماشية كالخيم، فقد كانت مفتوحة من طرفيها، مغطاة من الأعلى، لا أكثر، إذ كان ينزل في كل مبنى ما بين العشرة والعشرين سجينا، يرتدي جميعهم البزات الزرق، حيث أحيط كل مبنى بصفين من الأسلاك، وكان هنالك بعض

المتسع للخروج، والسير حول المبنى، ولكنني لم أكن أرى أكثر من ثلاثة أشخاص يسيرون في كل مرة، وعلمت، فيما بعد، أنه لم يكن يسمح لأكثر من ثلاثة بالتحدث إلى بعضهم بعضا في وقت واحد، ناهيك عن منع جميع السجناء من الاقتراب من الأسلاك، أو مناداة نظرائهم في المباني الأخرى، وكان كل من يخالف القواعد يعاقب عبر إجباره على الركوع، جالسا على ركبتيه تحت الشمس، واضعا يديه خلف رأسه مدة تتراوح بين الخمس عشرة دقيقة، إلى الساعة.

رأيت في إحدى المرات من المناظر المؤلمة ما علق في ذهني، إذ كان جندي أمريكي يوجه بندقيته إلى وجه سجين جالس في تلك الوضعية، يبكي، وقد ردد الجندي الأمريكي العبارة الآتية مرارا، وهو يصرخ فيه، قائلا: «على ركبتيك، على ركبتيك»، بينما كان السجين جالسا على ركبتيه بالفعل، فشعرت أن الأمريكي كان يرهبه، لا أكثر، إظهارا لقوته، ولم أستطع مع رؤية خوف السجين، والانتقاص من كرامته احتمالا.

لحظت كذلك أن عشرة، أو أكثر، من السجناء كانوا يتشاركون دلواً واحداً كمرحاض، الأمر الذي روعني بالفعل، واكتشفت، علاوة على ذلك، أن الرائحة الغريبة التي اشتممتها في السابق كانت ناتجة عن حرق النفايات، وذلك ما بدد كل تلك الأفكار السخيفة عن حفلة الشواء، ولعبة كرة القدم، وتمضية وقت ممتع.

شعرت بحاجة شديدة إلى استنشاق الهواء، والتعرض لأشعة الشمس، بعد مضي أربعة أسابيع على اعتقالي في المخزن، وأخذت ألح على طلب الخروج لأداء بعض التمارين، وكنا نثير شكوانا، المتعلقة بالطعام عادة، أمام هيئة الصليب الأحمر بصورة منتظمة، حين كان ممثلوها يأتون لزيارتنا، فلم يكن الطعام كافيا في أغلب الأحيان، بالنظر إلى إزالة نصف محتوى الوجبات قبل تسليمها إلينا، وقد كنا نزود بقطع من الخبز الأفغاني المتعفن كتكملة للوجبة، إن لم نقل الوجبة بأكملها أحيانا، واحتججت لدى الهيئة على بقائي في المخزن خمسة أسابيع تقريبا، دون استنشاق الهواء، أو التعرض لأشعة الشمس، ولم أخطُ خطوة واحدة خارج المكان، اللهم إلا عند الذهاب إلى الاستجواب.

وضع الأمريكيون نظاما سخيفا في نهاية المطاف، استجابة لشكوانا، أطلقوا عليه اسم «عملية شمس ـ بوب». كانوا يشيرون إلى المحتجزين كافة باسم «بوب»، انتقاصا من قدرنا، ولم يحظ أي منا بفرصة الاغتسال، أو الماء الكافي للقيام بما هو أقل من ذلك، وذلك ما عنى بصورة حتمية انبعاث الروائح الكريهة منا، فأطلق علينا الأمريكيون اسم «بوب»، لأنه يمثل اختصارا لعبارة (الأولاد ذوو الروائح السيئة)، كما سمعت، حيث كان يضاف إلى اسم كل عملية صغيرة، حيث كانت «عملية غسل ـ بوب»، على سبيل المثال، تعني إخراج السجناء للاغتسال، وهو ما لم يحدث لي مطلقا، بينما تمثلت «عملية شمس ـ بوب» في أخذهم خارج المخزن، وتعريضهم لأشعة الشمس فترة محددة.

كان الأمريكيون يخرجون كل سجين وفق العملية الشاقة ذاتها التي كانوا يتبعونها عادة عند اقتياد السجناء إلى الاستجواب، وذلك ما استنزف الكثير من الوقت والجهد، إذ كانوا يخرجوننا من الزنازين، لا نغيب عن ناظريهم، ويربطوننا جميعا في سلسلة، كما العصابات، عبر حبل يصل بين ذراع كل سجين وآخر، فكنا ننقل إلى خارج المخزن في هذه السلسلة المحكمة، لا ينفك عناصر الشرطة العسكرية يحومون حولنا في كل مكان، حيث كانوا يعتبرون نقلنا إلى الخارج، كي نقف تحت أشعة الشمس دقيقتين لا أكثر، بمنزلة عملية كبيرة للغاية، فتذمر أحدهم، نتيجة كل تلك الإجراءات، قائلا: «إن أردتم النظر إلى الشمس في المرة المقبلة، فافعلوا ذلك عبر الثقوب». تمثل جوابنا بأننا نفضل البقاء في الداخل على التعرض لكل هذه المعاناة بغية الوقوف تحت الشمس برهة.

علمت الكثير عن طريقة عمل الأمريكيين عبر استراق السمع إلى أجهزة مذياعهم، علاوة على الحصول على القليل من المعلومات، ومعرفة عدد السجناء الذين يتعرضون للعقاب، أو يقتادون إلى الاستجواب، والتحركات عند البوابات، والمهام الموكلة لعناصر الشرطة العسكرية، فكثيرا ما كنت أدرك بعض الأمور التي يتحدثون بها فيما بينهم، وقد كنت حريصا على إخبارهم بها، ومثلت تلك طريقة

لإيجاد نوع من العلاقة الإنسانية معهم، إذ كان الكثير منهم يفاجؤون للغاية حين يكتشفون أنني أتحدث الإنجليزية، ناهيك عن كوني بريطانيا، فقد كانت إنجلترا تثير اهتمام العديد من عناصر الشرطة العسكرية ـ بمن فيهم أولئك الذين يؤمنون أن كل من يعتقل من قبل الجيش الأمريكي هو من عتاة الإرهابيين لا محالة ـ وقد أرادوا التحدث إلي حقيقة.

اعتبر احتجاز مسلم بريطاني، على مر سنين اعتقالي، أمرا غير مألوف لكل من تعاقبوا على حراستي من عناصر الشرطة العسكرية، كان لذلك محاسنه ومساوئه على حد سواء، وعنى خضوعي للاستجواب بما يفوق غيري، فلم يكونوا يحتاجون، بكل الأحوال، مترجما عند استجوابي، على النقيض من الغالبية الساحقة من السجناء الآخرين.

كان كودي، الايرلندي الأمريكي الذي نشأ في محمية لهنود الشيروكي في ولاية نورث كارولاينا الأمريكية أحد من تحدثت إليهم كثيراً من عناصر الشرطة العسكرية، وأخبرني عن كفاحه كي يحظى باحترام الهنود الحمر، وارتباطه بهم بما يفوق ارتباطه بالأمريكيين البيض، فقد خاطبني في إحدى المرات قائلا: «أتذكر قومي حين أراكم هنا، لقد عوملوا بالطريقة ذاتها، واحتلت أراضيهم، وذبحوا، وسجنوا، ولم تحظ لغتهم أو معتقداتهم بالفهم، وصوروا، حتى مدة قريبة، كقتلة متوحشين». بلغ الأمر به حد مطالبتي بإخباره، إن جرؤ أي جندي على إساءة معاملتي، كي يتولى «حل المشكلة».

لحظت على مر الشهور مع ذلك، أثناء وجودنا في قندهار، وانتقالنا معا إلى باغرام، أن كودي أصبح أقل حساسية، وأنه يتقبل عملية «الأبلسة» التي تهدف إلى إظهارنا دون البشر، فلطالما عاملني بطريقة حسنة، ولكننا أصبحنا أقل انسجاما عما كنا عليه في السابق، فقد كنا نتحدث عن تاريخ سكان أمريكا الأصليين، وثقافتهم ـ الأمر الذي كنت أفتتن به ـ علاوة على الصيد، والحياة العسكرية، وعائلته في أمريكا، وآماله في المستقبل، وكان حكمي النهائي، مع ذلك، على أي من عناصر

الشرطة العسكرية يبنى على طريقة معاملتهم للآخرين، ممن يقلون عني ودية، وقدرة على التواصل، لقد سقط كودي فيما بعد، بتقديري، نتيجة سلوكه السيئ مع السجناء الآخرين، ووحشيته تجاه أحدهم على وجه الخصوص.

اعتدت التحدث إلى عدد من عناصر الشرطة العسكرية الآخرين، حيث كان وورنيك أحدهم، فأجابني، حين سألته عن أصله، قائلا: «يتمثل كل ما أستطيع إخبارك به في أنني من الجزر». بدا في نظري كلاعب رغبي ضخم من جزر ساموا.

دخل وورنيك المخزن مرة، وقد سمعته ينخرط في حوار مع أحد حراس المراقبة، فخاطبه الحارس، بكل رضى، قائلا: «تنتشر قواتنا في كل مكان يا رجل. نلقن الجميع دروسا في أنحاء العالم كافة: أفغانستان، وكوريا، والعراق، وها هو الرئيس يتحدث الآن عن الفليبين، نزحف كجيوش هتلر في كل الاتجاهات».

أجابه وورنيك، قائلا: «على رسلك، لا نشبه هتلر في شيء، نهدف إلى نشر السلم والديموقراطية».

لم يخيب وورنيك ظني فيما قاله، فقد كان رجلا محترما للغاية، يشبهني في أخلاقه، وما يحمله من قيم، وانخرطنا في باغرام، بعد مضي عدة أشهر، في عدد من النقاشات الدينية والسياسية، إذ كان وورنيك ضابط حفظ نظام، خدم في البحرية الأمريكية سابقا، وكانت زوجه ألمانية، وقد كان يتحدث الألمانية بطلاقة، حيث امتلك الرجل حس دعابة رائعا، وكان يعامل الجميع بنبل، واحترام، وإنصاف، علاوة على تمتعه بشعبية كبيرة بين السجناء، بالنظر إلى أن ملامحه كانت شرق أوسطية نوعا ما، ناهيك عن طريقة تعامله معهم، فكثيرا ما كان يحاكينا في رفع الأيدي أثناء الدعاء، بعد مراقبتنا ونحن نصلي، قائلا «الحمد لله» بنبرته العسكرية الجنوبية القوية، وبلغ الأمر به النطق بالشهادة، التي تدخل المرء الإسلام، وإن لم يدرك ذلك على الأرجح، بعد أن سألته في إحدى المرات، حين كنت أعلمه بعض الكلمات العربية، أن يلفظ عبارة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

أجبته، حين سألني عن رأيي في الحرب، قائلا: «يمكنني تفهم ردة فعل الولايات المتحدة، إلى حد ما، بعد الهجمات على البنتاغون والبرجين، على اعتبار أنها تريد منع تكرارها مستقبلا، واعتقال المسؤولين عنها، ولكنني لا أقبل مطلقا منطق احتلال دولة ذات سيادة ـ وإن كانت بحكم الأمر الواقع ـ كحل للمشكلة».

أردفت قائلا: «هل تذكر الأعمال الإرهابية التي ارتكبت بأيد أمريكية، كتفجير أوكلاهوما الذي نفذه تيموثي مكفاي؟. درب الرجل من قبل ميليشيا ميتشيغان للقيام بذلك، وكان مسؤولا عن إزهاق المئات من الأرواح البريئة، فلم لم تقم السلطات الأمريكية بالإغارة على كل «المرتبطين» به، ناهيك عن اعتقالهم، واستجوابهم، وتعذيبهم؟، ألم يكونوا يشكلون تهديدا محتملا أيضا؟. يخول الدستور الأمريكي، في الواقع، مواطنيه «حق حمل السلاح» ويتم إخبارنا هنا أننا نشكل جميعا تهديدا محتملا لأمن الولايات المتحدة؛ لأننا دعمنا الكفاح ـ منذ أكثر من عقد خلا ـ ضد الاحتلال في أفغانستان، والبوسنة، وكشمير، والشيشان، وفلسطين، وهو الذي كانت القاعدة تدعمه أيضا، وهل يجب أن يكون جميعنا، أعداء لبلدك، نشكل تهديدا كامنا لأمن العالم الحر، بالنظر إلى أننا لا نتوحد تحت راية الدين فحسب، بل والغاية أيضا؟. إن كان ذلك ما هو الحال عليه، فيجب أن تعتقلوا عدة ملايين أخرى من الناس لإزالة ذلك التهديد المفترض، إن هذا لمحض هراء.

كانوا يصمتون، تخلو ملامحهم من أي تعبير، عند سماعي أتحدث بهذه الحماسة. كانت الردود تأتيني، حين أتحاور بهذا الشأن مع بعض من هم أكثر عقلانية بينهم، فقد كانت تأتيني على النحو الآتي: «انظر، أتيت هنا جنديا كباقي رفاقي، لا أفقه السياسة، ولا معنى لها في نظري».

كان بعضهم يعقب قائلا: «لا أفهم لم نقحم كل أولئك الناس في ذلك، ولا يمكن أن يكونوا جميعا مسؤولين عن الهجمات على الولايات المتحدة».

لم يرد آخرون سماع تلك الأحاديث مطلقا، مؤمنين أننا نمثل جميعا إرهابيين خطرين، يستحقون البقاء هنا: «تعلمون أنكم تعتقلون هنا جميعا لسبب ما، وإلا ما كنا اعتقلناكم، أليس كذلك؟».

أخبرني كودي أنه تطوع في الجيش الأمريكي عقب هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، فقد كان جنوبيا أصيلا، ممن يتخذون قرارات انفعالية، بالرغم من ارتباطه بالهنود الحمر، فأردت، بالنظر إلى عشقي التاريخ والثقافات المختلفة، أن أعرف عن الجنوب الأمريكي، ومواقفه تجاه الشمال ما أمكنني، حيث شعر كودي أن الهجوم على البرجين يمثل هجوما على الأمة الأمريكية بأكملها، وأخبرني أن الأمر وصل ببعض أبناء منطقته، في ولاية نورث كارولاينا، إلى حد توقع تعرضهم للهجوم كذلك، فتطوع للقدوم إلى أفغانستان، برفقة عدد من أصدقائه، بغية الانتقام من الطالبان، كان قد أمضى، مع ذلك، ثلاثة أسابيع في أفغانستان بحلول الوقت الذي كنا نتحدث فيه، وقد ندم على قراره أيما ندم، إذ تخيل كودي أنه سينخرط في المعمعة، جاهلا ما كانت الحرب الحديثة عليه، كانت قندهار مقفرة موحشة، تخلو بالتأكيد من الإثارة التي أمل هو وأصدقاؤه أن يشكلوا جزءاً منها.

سمعت، فيما بعد، العديد من عناصر الشرطة العسكرية يتحدثون مثله، عن أفغانستان وغوانتانامو، قائلين: «نحن مثلكم تماما، إلا أن سجننا أكبر».

كنت أعبر عن سخطي، تعقيبا على كلامهم، قائلا: «وفروا ما تظهرونه من شفقة بالله عليكم، فيمكنكم رؤية عائلاتكم حين تغادرون في الإجازات، والتواصل معهم عبر البريد الإلكتروني والهاتف، ناهيك عن ظهوركم بمظهر الأبطال، وتقاضيكم المال جراء ذلك، بينما نحتجز هنا بلا تهم، دون السماح لنا بالتواصل مع محبينا، الذين لا نعرف لهم طريقا، تدمر حياتنا، ونعامل كالحيوانات».

بقي الارتباك يسود تجربتهم، حتى مغادرة العديد منهم، فلم يكن لهم أي تواصل حقيقي مع الحياة الواقعية في أفغانستان، لأنهم لم يبرحوا قواعدهم العسكرية، حيث كان أي مكان آخر يمثل المجهول بالنسبة لهم، وربما كان هناك شيء من الصحة في إحساسهم «بالوجود في سجن أكبر».

كان شاكر عامر، صديقي المقرب الذي أقام برفقتي مدة من الزمن في كابول، هو الآخر محتجزا في قندهار، وقد حدثني عدد من عناصر الشرطة العسكرية عن مدى ما أوقعه في أنفسهم من أثر، إذ سئلت في أحد الاستجوابات عنه، حيث كان أحد عناصر الشرطة العسكرية الموجودين في الغرفة يسترق السمع، فحدثني عنه بعد مغادرة المحقق الغرفة، بينما كنت أنتظر فريق المواكبة، قائلا: «إنه رجل مدهش، لا أصدق أنني قابلت من هو بمواصفاته هنا، لقد كان مقيدا بالأغلال، حليق الرأس، ولكنه تحدث إلي وكأننا أعز الأصدقاء، فكدت أعتنق الإسلام، في الحقيقة، لما لمسته من عاطفة في حديثه عنه».

سألته قائلا: «لم لم تفعل؟». أجابني عبر الإشارة إلى العلم الأمريكي على ذراعه، ما انفككت أفكر في ذلك، فما الذي كان يعنيه بتلك الإشارة؟، هل تمثل اعترافا منه أن بلده قد أعلنت الحرب على الإسلام، ديني؟.

تحدث عناصر الشرطة العسكرية كذلك عن سجناء بريطانيين آخرين كانوا هنا من قبل، لينقلوا إلى خليج غوانتانامو فيما بعد، فقد سمعت، على سبيل المثال، أن ثلاثة من الفتيان المنتمين إلى تيبتون، الواقعة خارج بيرمنغهام، كانوا قد احتجزوا في المخزن، وأخبرني عناصر الشرطة العسكرية أنهم كانوا يدعونهم «البيتلز».

تحدث العناصر كذلك عن سجين بريطاني آخر كان معتقلا هناك، فاكتشفت لاحقا أنه كان فيروز عباسي من كرويدن، الذي قابلته بعد ما يقارب السنتين في غوانتانامو، وأظهرت لي القصص التي كانوا يروونها عن ذلك الرجل، الذي كان يدعى «رجل القوات الجوية الخاصة البريطانية» من قبلهم مدى قابلية الذهنية الأمريكية لصناعة الأشرار، ومن يكافحهم من الأبطال الخيرين، بحيث يمثل أعداء الأمريكيين أسوأ الشخصيات على الإطلاق، وإن كانت عالية التدريب، شديدة الالتزام والفاعلية، فقد كان يصفون فيروز برجل القوات الجوية الخاصة السابق الذي انضم إلى أفراد القاعدة، ملقنا إياهم تكتيكات حرب المدن والعصابات: «لقد كان رجلا شريرا للغاية، خبيرا في فنون القتال وصناعة المتفجرات، ويمكنك اكتشاف ذلك من نظرته، والطريقة التي يسير بها»، إذ كان ذلك المنطق يقود المرء إلى بعض من أكثر الاستنتاجات تطرفا.

لم يكن من المهم كثيراً أن يخوض عناصر الشرطة العسكرية في تلك الإشاعات، ولكن الأمر اختلف تماما عندما اقتنع المحققون بأنني كنت مقاتلا عالي التدريب، انضوى تحت راية الجهاد الأفغاني، والبوسني، والشيشاني، ويحمل حزاما أسود في الجوجيتسو، ويتحدث ثماني لغات أوروبية وآسيوية بطلاقة، ناهيك عن تخرجه في جامعة إكسفورد، حائزا على شهادة الذكاء الصنعي.

تواصلت الاستجوابات، يوما كئيبا بعد يوم، فقد كانت تحدث في أي وقت كان، مرتين أو ثلاثا يوميا، أو تنقطع أياما في بعض الأحيان، وكانت تستمر خمس دقائق، أو ساعة، أو عشر ساعات. لم يتغير استعراض القوة في أي من المرات: حراس مسلحون عند الباب، أو حتى في الغرفة، وكانت الاستجوابات تجري كل مرة مع شخص واحد عموما، فتفتقر إلى المنهجية بالنظر إلى قدوم المحققين من وكالات استخبارات مختلفة، وامتلاكهم جداول أعمال متباينة، وكان أولئك أناساً يحاولون البروز، معتقدين أن بإمكانهم كشف المؤامرات أو الشبكات الإرهابية بمفردهم.

كان نايثن، ضابط الاستخبارات العسكرية الشاب من تكساس، أكثر من استجوبني، يصحبه في بعض الأحيان زميله الياباني الأمريكي «لي»، وكان كلاهما في أوائل العشرينيات من العمر، يرتديان ثيابا مدنية في معظم الأوقات، لا يحملان رتبة عالية كما بدا واضحا بالنسبة لي، حيث بدأ نايثن الاستجواب بلائحة محددة من الأسئلة، تستكمل تلك التي طرحت علي في إسلام أباد، كانا يطرحان سؤالا واحداً في بعض الأحيان، بينما يطالبانني بالمرور على كل تفصيل من حياتي في أحيان أخرى (مدرستي الابتدائية، وعائلتي، وأصدقائي، وجيراني، وجميع ما قمت به من رحلات، وكل من قابلت من الأشخاص). سألاني مراراً عن الأماكن التي ذهبت إليها في البوسنة، والأشخاص الذين التقيتهم هناك، وما فعلت في تركيا، وأفغانستان، فكنت قد أخبرتهما بكل شيء، ولكنهما ما انفكا يسألان.

لم يوجه إلي الاتهام مطلقا بالتورط في أي شيء، أو العلم المسبق بأي شيء، إذ كان الأمر يتمحور برمته حول الصلات بين الأشخاص، فقد كانت علاقتي بنايثن حسنة، ما قد يثير الاستغراب، ولكنني ما انفككت أحاول محبة الناس، ورؤية الجوانب الإيجابية منهم، وما كنت لأبدل من ذلك في حينه.

عمل نايثن على توضيح الأمر بالنسبة لي، قائلا: «نحاول الحكم على نوايا الناس».

عقبت قائلا: «كيف بحق السماء ستقومون بذلك؟ تعلمت، كدارس للحقوق، أن أي جريمة تستلزم بالضرورة توفر عنصرين اثنين: العقل الإجرامي، والفعل الإجرامي، فأتساءل ما إذا كنتم تتصرفون بعقلية بوليسية على غرار روايات أويل؟».

أخبرته أن من المفترض به ـ بعد كل ما أوضحته حول الأشخاص الذين عرفتهم، والأماكن التي زرتها ـ أن يصبح على دراية أنني امتلكت العديد من الفرص للانضمام إلى القاعدة، ولو كنت قد أردت العثور على من يمكنه إيصالي إلى معسكرات تدريب القاعدة، عبر من التقيتهم في باكستان أو أفغانستان، لتحقق ذلك بسهولة.

تحدثنا حول أمور أخرى أيضاً، بعيداً عن الكم الهائل من المعلومات غير ذات الصلة التي كان من المفترض أن يجمعها، وأراد بالفعل أن يفهم الصورة الأشمل لما كان يجري في المنطقة، والعالم الإسلامي، ولكنه كان في الوقت ذاته يصبو إلى الحصول على ترقية، وارتقاء السلم الوظيفي، والفوز بالنجمة الفضية أو البرونزية، مستندا في ذلك ربما إلى عدد الاستجوابات التي يقوم بها، والأشخاص الذين يرسلون إلى غوانتانامو بناء على توصيته، سمعته في إحدى المرات يتحدث عن ساحة المعركة، بالنظر إلى وجوده في منطقة قتال، ما بدا سخيفا بالنسبة لي: كنت أعلم أنه لم يشهد أيا من المعارك في أفغانستان، ولكنه كان شخصا عاملني بطريقة حسنة مع ذلك، ناهيك عما دار بيننا من نقاشات معمقة.

كنت أتوق بشدة، بعد مضي خمسة أسابيع، إلى الانتقال إلى الحبس الجماعي؛ لأكون مع الآخرين لا أكثر، فقد أصبح من الضروري للغاية بالنسبة لي أن أخرج من المخزن، وقد غيرت من تكتيكاتي التي كانت تقوم على تبني العقلانية، وبدأت أحوم في الزنزانة كالمجنون، راكلا الأسلاك، رافضا التحدث إلى عناصر الشرطة العسكرية، فجاء أحدهم، ممن كانت علاقتي طيبة بهم، يرجوني إخباره عن خطبي، فأجبته قائلا: إنني لم أعد أطيق في المخزن بقاء، أفعل ذلك بدافع من يأسي. أعتقد أن الفضل في نقلي إلى الحبس الجماعي، في نهاية المطاف، كان يعود إلى ذلك الرقيب، بعد إثارته الموضوع مع نايثن.

شعرت بإحساس رائع، حين دخلت ذلك المبنى مفتوح الطرفين، بالرغم من أنني كنت لا أزال مسلوب الحرية، وجاء كل من في الزنزانة يصافحني، يعانقني، قائلا: «السلام عليكم»، وقد أحسست براحة كبيرة لما أبدوه من دفء وعواطف جياشة، بالرغم من عدم معرفتي بهم، شاعراً، مع ذلك، أنني أعرفهم منذ زمن طويل لسبب جهلت كنهه، وكان عددهم يتراوح بين الثمانية عشر والتسعة عشر، ينتمون إلى جنسيات مختلفة: مصريون، وأتراك، وشيشان، وباكستانيون، وأفغان، وأوزبكيون، وصينيون، فتوجهوا إلي ناصحين بالصبر، والثبات، والتعقل، وجاء أحد عناصر الشرطة العسكرية فجأة، ليعكر صفو تلك اللحظة السعيدة، مناديا أرقام بعض السجناء كي يعاقبوا، فكان 558 أحد تلك الأرقام، ونظرت إليه مندهشا، بينما كان يصرخ فيّ قائلا: «على ركبتيك».

سألته قائلا: «لم؟، قد أتيت للتو إلى هذا المكان بعد تمضية خمسة أسابيع في المخزن».

أجابني قائلا: «تعلم القوانين، لا يسمح لأكثر من ثلاثة أشخاص بالتحدث في آن واحد». أردت مجادلته، ولكن البقية اتخذوا الوضعية، وحثوني على مجاراتهم، ففعلت.

استلقيت في الليلة الأولى، مستخدما البطانيتين ذاتهما اللتين كانتا بحوزتي في المخزن، أكوِّن مع ثمانية أو تسعة رجال صفا واحدا، يتملكني ما لم أشعر به من قوة في السابق، وتمثل الشيء الوحيد الذي يفوق المخزن سوءا في المرحاض، إذ كان لدينا في الزنزانة دلو واحد ـ أو اثنان أحيانا ـ نشترك به جميعا، وشعرت باشمئزاز شديد لرؤية الذباب يحط على الغائط، والخنافس تزحف عليه، فعودت نفسي على عدم قضاء حاجتي إلا عندما يكون الجميع نائمين، في وقت متأخر من الليل، أو في البكور قبل صلاة الفجر، فمثل ذلك نوعا من التحكم بالنفس، واحترام الذات فيما يتعلق بتلك المسألة الشخصية.

استخدمنا الطريقة القديمة لتحديد مواقيت الصلاة، عبر مراقبة وضعية الشمس والظل، وكنا نصلي جماعة، حيث كان الإمام يطيل الدعاء، فدعونا الله في بعض الأحيان، تبعا لمن كان يؤمنا، لإسقاط الجيش الأمريكي، وتدميره، علاوة على فك أسرنا، ومنح عوائلنا الصبر والقوة، واعتدنا المشي حول الزنزانة كنوع من التمرين، سألت هيئة الصليب الأحمر كي تستصدر لنا إذنا بممارسة التمارين الاعتيادية، ولكن الأمريكيين لم يسمحوا لنا إلا ببعض تمارين الإحماء البسيطة، لا الضغط أو المعدة، فلم يكن يسمح في قندهار بأي مما يقوي الجسم، أو يزيد قدرته على الاحتمال.

اختلفت أيامي كثيراً عما كانت عليه في المخزن، وقد سمعت قصصا عن حياة العديد من الناس خلال فترة الأسبوعين والنصف التي أمضيتها في الزنزانة، وعانى الكثيرون فيما رووه لي، ناهيك عمن قتل، واختفى من الناس، فاستذكرت الأيام الخوالي في أفغانستان، قبل أكثر من عشر سنوات، حين أخبرني المقاتلون الكشميريون عن حياتهم، وشعرت بكثير من الوضاعة في حينه عند مقارنتها بحياتي المريحة في بيرمنغهام، وتحدث الناس عن عوائلهم كذلك، بمن فيهم الآباء والمتزوجون على وجه الخصوص، فاتسم حديثنا عن أغلى من لدينا بكثير من الإنسانية، في ظل لا إنسانية ما كنا نعيشه من ظروف.

علمت، كذلك، الكثير من تفاصيل الحياة في البحرين، على سبيل المثال، ما جعلني أتوق للذهاب إليها، متسلحا بما امتلكته من معلومات عنها، وافتتن الناس بما رويته لهم من قصص عن حياتي في بيرمنغهام، وما كان يعنيه كون المرء مسلما في بريطانيا، فلم يكن أي منهم يعلم شيئاً عن ذلك، ووجدتني أحدثهم عن قرى إنجلترا، وحقولها الخضراء بحنين ما كنت أتوقعه، حيث لم يسبق لي العيش مطلقا في أي من تلك القرى، وأخبرتهم كذلك عن قلعة ورويك، وقصري بلنهايم وباكينغهام، ومنطقة البحيرات، وبحيرة نيس، وسنودونيا، وستراتفورد ـ أبون ـ آفون، وسباركهيل، فقد مثل ذلك تهربا من الواقع الذي كنا نعيشه، وقد استمتعت حقا بالتحدث والإصغاء على حد سواء.

زودتنا هيئة الصليب الأحمر برقعة شطرنج، فأثار ذلك بعض الجدل حين ادعى أحدهم أن لعب الشطرنج محرم في الإسلام، في حين قال آخر: إنه مباح، لما سمعه من أحد رجال الدين البارزين، وإن لعب النرد في الحقيقة هو ما كان محرما، بالنظر إلى استخدامه في المقامرة، لعبت الشطرنج بضع مرات مع عيسى البحريني*، فألهاني ذلك عن واقع الحياة في معسكر الاعتقال فترة من الزمن، ناهيك عن شيء من المتعة التي منحني إياها التفكير فيما يجب تحريكه من قطع، ولم يكن لدينا، سوى ذلك، الكثير مما نفعله باستثناء التحدث فترات طويلة، وحفظ القرآن، الذي لم أستطع القيام به أكثر من ساعة، أو ما يناهزها، في كل مرة، وتوافرت توفرت لدينا كذلك بعض الكتيبات بالبشتونية، والأناجيل بالعربية.

اعتدنا الدخول في سجالات حول هيئة الصليب الأحمر، إذ كان بعضهم يرفضونها تماماً، مفترضين أن عامليها هم مبشرون يتسترون بغطائها، بالنظر إلى اتخاذها الصليب شعاراً، وارتباطها بالأمريكيين، فقد أحببت باتريك لشخصه، وإن كانت الهيئة غير فاعلة، للأسف، في نظري، ورأيت، مع ذلك، شيئا من الفائدة في عملهم، لازدراء عناصر الشرطة العسكرية لهم على نحو خاص.

* عيسى المرباطي: أحد البحرينيين الستة المعتقلين في غوانتانامو. (المؤلف).

وزعت الهيئة، علاوة على ذلك، بعض رقع «الكيرم» علينا ـ وهي لعبة تمارس بواسطة أقراص صغيرة، رائجة للغاية في شبه القارة الهندية ـ يصل حجم الواحدة منها تقريبا إلى ثلاثة أقدام في الطول، ومثلها في العرض، اعتدنا وضعها على الأسلاك حين كنا لا نمارس اللعبة، ليصادرها الأمريكيون بعد مضي وقت قصير، قائلين: إنها تمثل عائقا يحجب رؤيتنا عنهم، فلم يكن أولئك، بالأحرى، يسرون لرؤيتنا سعداء.

كان الجنود الأمريكيون يسيرون حول الزنزانة جيئة وذهابا، يحرسونها طيلة الوقت، مصوبين أسلحتهم باتجاهها، علاوة على الانخراط أحيانا في تدريب دعوه «صخب المعركة الهادر»، وكأنهم يستعدون لصد هجوم حقيقي، فقد كان هنالك ثمانية أبراج حراسة، يراقبنا عناصر الشرطة العسكرية منها على الدوام عبر مناظيرهم.

امتلك السجناء، في تلك الظروف الصعبة، ما يثير الدهشة من حس الدعابة، فدار كثير من المزاح ـ ثقيل الظل في بعض الأحيان ـ بين العرب والأفغان، وإن لم يقلل ذلك من ظرفه بكل الأحوال، إذ كان عيسى يسخر من أحد الأفغان الذي لم يكن يصلي مع الآخرين، بمن فيهم أبناء جلدته، فهو يصلي وحيداً بعد أن يتم الجميع صلاتهم، كان خير الله، بادئ ذي بدء، ينفض الغبار عن الأرض بشاله، ليتخذ وضعية صلاة غريبة فيما بعد، مبرزاً مؤخرته، راصا يديه بقوة أسفل صرته، فكان عيسى يقلده، مبالغا في ذلك، عبر نفض الغبار عن الأرض بمنشفته في الأرجاء كافة، والصلاة فيما بعد مبرزا مؤخرته بشدة، منزلا يديه حتى عانته (كما لاعب كرة القدم الذي يشكل حائط الصد، منتظراً تسديد رمية حرة) فكاد الناس يسقطون على ظهورهم، ضحكا على ذلك المزاح، الذي لم يكن عيسى يوفره في أي من أوقات الصلاة الخمسة يوميا، ونجح بعض الأفغان، في نهاية المطاف، بإقناع خير الله بالصلاة جماعة معنا، وذلك ما سحب الذرائع من عيسى لتقليده، وفوت علينا فرصة الاستمتاع بذلك.

اشترك ثلاثة من الأفغان، في يوم آخر، مع أحد الأوزبكيين في تمثيلية صغيرة يقلدون فيها الأمريكيين وهم يكبلون سجينا، وكان ذلك مضحكا للغاية، ولكن الأمريكيين المرتابين افترضوا أن السجناء تمكنوا بطريقة أو بأخرى من الإمساك بأحد الحراس، وتكبيله استعدادا لضربه، فساد الهرج والمرج بشكل لا يصدق حين اندفعوا إلى داخل الزنزانة، ليسحبونا فيما بعد خارجها، ويوزعونا على زنازين أخرى. مثلت تلك إحدى اللحظات التي أدركت فيها كم كان الأمريكيون يثيرون الشفقة، ويشعرون بالذعر لأوهى الأسباب.

كثيراً ما كانت تتم الإغارة على زنازيننا بصورة عشوائية، دون سابق إنذار، وقد كنت أشعر بالحيرة حقيقة حين أفكر بما كانوا يتوقعون العثور عليه بعد كل الفترة التي أمضيناها معتقلين لديهم، وتمثلت «المهربات» التي كانوا يجدونها بين الفينة والأخرى في بعض بقايا الحلوى التي تركت بشكل ما في علب الوجبات، أو قصاصات زائدة من المناديل الورقية، كانوا يندفعون إلى داخل الزنزانة، يأمروننا، وهم يصرخون، قائلين: «اتجهوا إلى آخر الزنزانة»، و«انزلوا على ركبكم»، بينما يوجه عناصر الشرطة العسكرية أسلحتهم إلينا عبر الأسلاك، ونحن مصطفون جميعا في آخر الزنزانة، ولم يكن يترك شيء داخلها دون أن يفتش، ويقلب رأسا على عقب، لنقتاد فرادى فيما بعد إلى منتصفها، ونفتش بصورة منهجية.

اقتحم عناصر الشرطة العسكرية، في صبيحة أحد الأيام، زنزانة في الطرف المقابل لنا، حين كنا نؤدي صلاة الفجر جميعا، رأيناهم يجرون السجناء على الأرض، بينما كنا نتم صلاتنا، قبل أن ينهوها بدورهم، وكان طارق ديرغول، البريطاني الجنسية، أحد نزلاء تلك الزنزانة، فكنت قد سمعت أنه كان البريطاني الآخر في المعتقل، ولكنني لم ألتقه أبدا.

لم أخرج من الزنزانة غير مكبل، طيلة فترة مكوثي في قندهار، سوى مرة واحدة، وكان ذلك حين هبت العاصفة الرملية، ظهيرة أحد الأيام، لتحجب الشمس بالغبار الذي أحال لون السماء برتقاليا، فهطل المطر بغزارة، فيما بعد،

وضربت الرياح المعسكر بقوة، بحيث أخذ عدد من زنازيننا الخشبية المؤقتة يتداعى، وبدأ عناصر الشرطة العسكرية يشعرون بالذعر مع مغيب الشمس، محاولين إيجاد طريقة لنقلنا، ولم يتوافر لديهم الوقت، أو العدد الكافي من الرجال، فقرروا إخراجنا، مثنى وثلاث، غير مقيدين، وأرغمنا على الانبطاح، مطوقين بعناصر الشرطة العسكرية، الذين كانوا جميعا يصوبون أسلحتهم إلينا، وقاموا بنقلنا على شكل قوس، أو «منطقة رمي متحركة»، بعد إخراج ستة منا.

ساد جو من القلق بين السجناء، خلال بضعة أيامي الأخيرة هناك، مع تزايد الإشاعات حول نقل بعضهم إلى خليج غوانتانامو، حيث كانت إحدى المجموعات قد غادرت بالفعل، فأخبرني كودي قائلا: «سيرتدي بعضهم بزات برتقالية قريبا، ما يعني نقلهم إلى غوانتانامو». لم يرد الناس الذهاب إلى هناك بالفعل، وقد بلغ الأمر بأحد المصريين حد إخباري أنه يفضل الذهاب إلى سجون بلده سيئة الصيت، عوضا عن كوبا.

طفت بالزنزانة، حين قدموا لأخذي منها، مودعا الجميع، معانقهم، حتى بعد أن أمرني عناصر الشرطة العسكرية بالانبطاح على الأرض فكرت في حينه، قائلا لنفسي: «ما الذي سيفعلونه إن لم أنفذ، رميي بالرصاص؟».

واكبني، أثناء نقلي إلى الطائرة، مغطى الرأس بالطبع، عنصران ـ بغيضان على نحو خاص ـ من الشرطة العسكرية، قاما بدفعي نحو الأسفل، بحيث كاد صدري يلمس ركبتيّ، وكان ذلك مؤلما للغاية، وحاولت الانتصاب قليلا بينما كنا نصعد سلم الطائرة لا أكثر لكمني الأول حين صعدنا على متنها، فخاطبته قائلا: «ما خطبك؟، لم تفعل ذلك؟، لا أستطيع السير، ويكاد ينقصم ظهري». أفسح لي العنصر الثاني المجال للانتصاب قليلا، ليصرخ الأول بحدة قائلا: «لا»، ويدفعني نحو الأسفل، ثم يرميني على الأرض، ويركلني على أضلعي، وتحدث فيما بعد قائلا: «سيعلمك ذلك أن تقاوم مجدداً».

فكرت، وكأنني أخاطبه، قائلا لنفسي: «كيف يمكن لي المقاومة؟، ما الذي دهاك؟». بدا أنني كنت أنقل وحدي في حينه.

أقلعت الطائرة، وكنت أعلم أنني متجه إلى باغرام، كما أخبرني نايثن تماماً، وظننت، بالنظر إلى كوني شخصا متفائلا، أنه ربما كان من الممكن أن أرسل إلى باكستان من هناك، ولم تكن الأخيرة بغوانتانامو على أقل تقدير.



-7-
الاختبار الأصعب

وصلت باغرام، آتيا من قندهار، مكبلا، مغطى الرأس، آملا أن أكون مهيأ لتقبل الأسوأ، مهما كانت ماهيته، وكنت أعلم ما تعنيه عملية «المعالجة» منذ كنت في قندهار، واثقا بما يكفي أنها تتضمن فحصا جسديا مذلا آخر، أخضع له عاريا، أمام عدد من الجنود والممرضين. شعرت مع ذلك، بشكل أو بآخر، أن المعاملة إنسانية هناك إلى حد كبير، مقارنة مع صراخ الجنود، وضربهم لنا في قندهار، وقد كنت قد منحت بعض الملابس الداخلية التي أشعرتني بشيء من الدفء، علاوة على بزة زرقاء أخرى، كتب عليها من الخلف 180، رقمي الجديد.

تمثل أول ما لحظته في الصمت الذي يكاد يكون مطبقا، فيما عدا بعض الأصوات العرضية لوقع البساطير التي كان صداها يتردد في المبنى، وتم اقتيادي، مكبلا، غير مغطى الرأس، إلى إحدى غرف الاستجواب في الطابق الأول، فكانت باحته تطل على منطقة السجن الرئيس، وتمكنت من رؤية ما يقارب ست الغرف هناك. اكتشفت، بعد مضي وقت قصير، أن بعضها كان يستخدم كغرف للإدارة، أو زنازين لأهم المعتقلين، كوزير خارجية طالبان السابق وكيل أحمد متوكل*، فكان معظمها، مع ذلك، غرفا إسمنتية كئيبة، مغطاة النوافذ. تمثل كل ما كان فيها بطاولة خشبية، وكراس بلاستيكية رخيصة.

وضعت في غرفة، وأجلست مقابل الباب، حيث كان يوجد أعلاه مصباح كهربائي يسطع ضوؤه في وجهي، ولم يطل الاستجواب الأول كثيراً، فقد خضعت له من قبل محققين مدنيين، لم يسألاني سوى عن بعض التفاصيل الشخصية، بغرض

* أطلق سراحه في شهر أيار/ مايو من عام 2005، ودعي من قبل الرئيس حامد كرزاي لخوض الانتخابات. (المؤلف).

التحقق من البيانات الآتية من قندهار، إذ أخبرني الاثنان، مع ذلك، أن مزيداً من الاستجوابات الطويلة المكثفة كانت بانتظاري في المستقبل، من قبل محققين آخرين.

تمكنت من رؤية السجن بوضوح لأول مرة عند خروجي من غرفة الاستجواب، حيث كان عبارة عن معمل ضخم مهجور، من بقايا طموحات الاتحاد السوفييتي السابق، حين كان عدوا للإسلام والغرب معا، وكانت هنالك قطع من الآلات المهملة، وعبارات تحذير على الجدران باللغة الروسية.

اصطكت السلاسل التي كانت تقيدني بعضها ببعض، حين كنت أنزل الدرجات ببطء، غارقا في أفكاري حول ذلك المكان الاستثنائي، وتذكرت كيف كانت أفغانستان فيتنام أخرى للسوفييت، الذين زعموا، كما يفعل الأمريكيون الآن، أنهم قدموا «لمساعدة البلد»، فقد تعاقبت قوتان عظميان، خلال أكثر من عقد بقليل، على احتلال هذا البلد الذي يعد من أفقر دول العالم، فكان التاريخ يكرر نفسه بصورة غريبة، إذ عدت بذاكرتي إلى الوراء أكثر حين كان هذا البلد المقفر، المحاط باليابسة من جميع الجهات، يشكل مطمعا لروسيا القيصرية، وبريطانيا العظمى إبان فترة تنافسهما للسيطرة على آسيا الوسطى، وتذكرت استذكرت، علاوة على ذلك، ما أخبرني به أحد الأفغان في قندهار عما يتذكره من حقبة الغزو السوفييتي: كانت المعارضة ضعيفة مشتتة في بداياتها، وتسير على وتيرة بطيئة، ليشتد عود المقاومة، المسلحة ببنادق قديمة ليس إلا، في غضون أشهر، بحيث تمكنت من توحيد العديد من المجموعات لقتال العدو المشترك، وإيقاع الخسائر في صفوفه، حيث كان الروس قد دعوا إلى دخول أفغانستان، ولكن ذلك تم من قبل نظام موال لهم.

لحظت شيئا آخر في طريق عودتي من الاستجواب، مارا بالزنازين: كان لكل واحدة منها اسم خاص بها، كتب بخط أبيض عريض: الصومال، ولبنان، «يو إس إس كول» (المدمرة الأمريكية التي ضربتها القاعدة قبالة سواحل اليمن)، نيروبي،

البرجين، والبنتاغون. تساءلت عما كان يجمع بين كل تلك الأسماء والأماكن، هل كانت الولايات المتحدة تفجر غضبها الكامن انتقاما لكل عملية عسكرية خسرتها، أو عمل إرهابي تعرضت له؟، حسنا، يمكن قول ذلك، فقد مثَّل الإسلام عنوان الاستهداف العريض، لو سلمنا بصحة المزاعم حول مسؤولية القاعدة عن بعض تلك الهجمات، فما علاقة ذلك بلبنان، مثلا (ربما بسبب تفجير مقر المارينز في بيروت عام 1983)، أو الصومال (تدخلها العسكري الفاشل، وسحل جثة طيارها هناك، في العقد الآتي)؟. ما لي، بكل الأحوال، وأي من تلك الأحداث؟، ما علاقتي بحق السماء بها؟.

شعرت، نتيجة ما تولد لدي من انطباعات أولية، أن الأمور ربما تكون أفضل، ولو قليلا، هنا: كان عدد السجناء أقل بالتأكيد، ما عنى بدوره قلة عدد الحراس والمحققين. أخذت إلى الزنزانة رقم أربعة، لأفهم سبب الصمت غير الاعتيادي الذي كان يعم المكان.

خاطبني الحارس، بينما كان يفتح قفل الباب، قائلا: «لا يسمح بالتحدث مع السجناء الآخرين»، وطالبني فيما بعد بالدخول عبر ممر يؤدي إلى الزنزانة، فأضاف الحارس، قائلا: إن الوقوف، أو السير، أو الصلاة جماعة، أو الجلوس ضمن مجموعة كان ممنوعا كذلك. علمت، بعد مضي وقت قصير، أن القوانين في باغرام كثيراً ما كانت تتغير دون سابق إنذار، وإن كان ما أخبرني به ساري المفعول في حينه.

سألته قائلا: «ألن تنزع الأصفاد؟».

أجابني، قائلا: «يجب أن تبقى أسبوعا، أو حتى يقول الرقيب المسؤول عن الحراسة: نادِ عناصر الشرطة العسكرية إن احتجت الذهاب إلى الحمام، وسينزع أحدهم الأصفاد عن يديك، ويعيد وضعها حين تنتهي من قضاء حاجتك».

وجدت زاوية فارغة لأبسط عندها البطانيتين القديمتين اللتين سلمتا إلي من قبل، لافا إحداهما على شكل وسادة، متدثراً بالأخرى، حيث كان المكان برمته،

كما في قندهار، مضاء بالمصابيح الكاشفة المتحركة، التي لم تكن تنطفئ إلا عند حدوث نقص في الطاقة، وتعين علي تغطية رأسي لأحاول النوم، حيث كان من الصعب للغاية التحرك والأصفاد تكبل يديّ، ولكنني تذكرت إسلام أباد في حينه، شاكراً حظي الذي جعل مني شخصا ضئيل الحجم، حيث أخذت أحرك معصميّ يمنة وشمالا، لأجدهما ينسلان من الأصفاد دون بذل ما يذكر من جهد، فكنت أنام كل ليلة، مخفيا الأصفاد تحت البطانية، حتى أزيلت عن يديّ في نهاية المطاف.

احتوت منطقة السجن التي كنت فيها على ست زنازين مفصولة بواسطة الأسلاك، وذلك ما مكنني من رؤية المجاور منها جيداً، علاوة على الأرضية الواقعة أمامها، بالإضافة إلى باحة الطابق الأول، حيث كانت غرف التحقيق، وكان لمدخل كل زنزانة باب معدني صلب، يؤدي إلى ممر طوله أربعة أقدام تقريبا، ينتهي إلى باب مماثل آخر، يفتح على منطقة الزنازين الرئيسة، وكان الباب الثاني يسيطر عليه بواسطة حبل رفيع، يرخيه عناصر الشرطة العسكرية، أو يشدونه لعزل السجين عن بقية الزنازين خلال عملية التكبيل، وفتح الباب الأمامي، وكانت الأرضية خشبية، مغطاة بسجاد إيراني رخيص، أحمر اللون في الأساس، تتخلله ألوان رمادية، لبنية، تمثل المرحاض، في آخر الزنزانة، بنصف برميل زيت صدئ، لا يفرغه الحراس إلا كل بضعة أيام، فآذتني رائحة الغائط كثيراً في اليوم الأول، مسببة صداعا حادا، وكانت تزداد سوءا بزيادة عدد السجناء.

بدا، خلال بضعة الأسابيع الأولى هناك، أن عدد السجناء لا يتجاوز العشرين، أو نحو ذلك، في المبنى بأكمله. كنت أرى عددهم يزداد، مع ذلك، كل بضعة أيام، ولم تحتو الزنزانة التي كنت فيها أولا، رقم أربعة، إلا على أربعة أشخاص آخرين: طبيب طاجيكي، وطالب إيراني، وسائقي سيارتي أجرة أفغانيين. تمكنت من رؤية ستة أشخاص في الزنزانة رقم خمسة، الواقعة إلى يسارنا، واكتشفت بعد مدة قصيرة أن من بينهم أفغانيا هرما، وفلسطينيا مسنا، وسعوديا، ومصريا، ومن افترضت أنه أفريقي، لأعرف فيما بعد أنه كان بريطانيا مثلي، يدعى ريتشارد

بيلمر، فتمكنت من تبادل بعض الكلمات معه، بالرغم من الحظر الصارم المفروض على ذلك، علاوة على بعض الحوارات المقتضبة مع الطاجيكي، والإيراني بالأوردية، فأخبرني كلاهما أنهما أحضرا إلى هناك منذ ما يقارب الأسبوع، وبديا حائرين قلقين كما كنت، واكتشفت، بالإضافة إلى ما سبق، أن الزنزانة رقم ستة كانت تضم أربعة سجناء آخرين.

لحظ بقية السجناء، بعد فترة قصيرة، أنني أستطيع التواصل بسهولة مع الأمريكيين، بلا مترجم، طالبين مني استمرار نقل مطالبهم إلى الحراس والمرضين، فسعدت للغاية بلعب دور المترجم، لما توافر لي من فرص التحدث إلى السجناء الآخرين في المواضيع كافة، وتبادل الأخبار معهم أمام ناظري الحراس مباشرة، دون أن يفهموا شيئا من ذلك.

كانت الزنزانتان رقم واحد وثلاثة، الواقعتان إلى يميني، خاليتين، بينما كانت رقم اثنين تضم سجينا واحدا، ولم أكن قد استرجعت نظارتي بعد، منذ صودرت أثناء تسليمي إلى الأمريكيين في إسلام أباد، ولكنني تبينت أن ذلك السجين، الذي كان يرتدي ثوب شالفار كاميز رمادي اللون، ذو شعر أسود طويل أشعث، يتحدث كثيراً كما كان باديا، وإن لم يكن يتوجه في حديثه إلي، أو إلى أي ممن استطعت رؤيتهم.

صرخ أحد عناصر الشرطة العسكرية، هازا رأسه بصورة مضحكة، بينما كان يمر بمحاذاة الزنزانة رقم اثنين، قائلا: «حيوان!». كان ينادي ذلك السجين، الذي افترضت أنه كان خطرا للغاية بالنظر إلى عزله، والاسم الذي يطلق عليه، خاطبه العنصر قائلا: «كيف حالك اليوم؟، هز رأسك لي كما في برنامج «الموبيت شو». هيا افعل ذلك، وسأعطيك قطعة من الفاكهة» فرد «حيوان» ببعض الأصوات المبهمة، يصب اللعنات بالبشتونية، وسألت ذلك العنصر، الذي كنت قد حادثته مرة، بينما كان يمر بمحاذاة زنزانتي، عن سبب إطلاق ذلك الاسم عليه.

أجابني قائلا: «لا أعلم لم يحتجز هنا، أظن أنه مجنون، ويرفض تنظيف أسنانه، أو الاغتسال، ويتحدث إلى نفسه كثيراً، ويشبه شخصية «حيوان» التي تظهر في برنامج «الموبيت شو»، ناهيك عن الشبه الكبير الذي يحمله بتشارلز مانسون».

تمت إعـادة توزيع السـجناء على الزنازين عند نهـاية الأسبـوع الثـاني تقـريبـا، وكبلت ونقلت إلى الزنزانة رقم سـتـة، فدخلتهـا، حامـلا بطانيـتيّ الرقيقتين، لأرى أربعة سـجناء يحدقون فيّ مليـا، ألقيت السـلام عليهم هامسـا، لأجلس في حيـز عند مقـدمـة الزنزانة، إلى يسـار بابهـا، فـرد جميـعـهم السـلام علي، في آن واحـد، بصوت مكتوم.

كـان أول المتـحـدثين إلي «سـعـد»، البـاكسـتـاني الذي نشـأ وتعلم في السـعـودية وإندونيسـيـا، حيث تم اعتقـاله، كان سـعد ممتلئ الجسم، في أواسط العشـرينيات من عـمـره، وإن بدا أكـبـر سنا. أخـبـرني أن والده المتـوفى كـان سـفـيـراً سـابقـاً لبـاكسـتـان في السـعودية، حيث درس القـرآن، وحـفظه في صـغـره، واقـتـرن والده، بعد وفاة أمه، بامرأة إندونيسية، لينتقل معهما إلى جاكرتا.

أخـبـرني هـامـسـا، عندمـا لم يكن أي من عنـاصـر الشـرطـة العـسكرية قـرب الزنزانـة، قـصـة غـريبـة جـداً، زادت من تسـاؤلاتـي عـوضـا عـن الإجـابة عنهـا، إذ تحـدث قـائلا: إنه اخـتطف هو وزوج والده، من قـبل أجـهـزة الأمن الإندونيـسـيـة، ليرسل إلى مصر، حيث احتجز في غرفة ضيقة، واستجوب بطريقة وحشية ثلاثة أشـهـر، قـبل أن يسلم إلى الأمـريكيـين، وأضـاف أنه كـان يسـمـع صـرخـات رجل في الغـرفة المجـاورة له، حين كـان في مصـر، وطاردته تلك الصـرخـات أينمـا حل، وقـد سـمـعهـا مجـددا، مـدوية، بالـرغم من ضـجـيج مـحـركـات الـطـائرة التي أقلتـه إلى باغرام، الأمـر الذي أخافه كثيـراً، وكنت قد شـاهـدت رجـلا، حين كنت في زنزانتي الأولى، غالبا ما كـان يجبر على الوقوف، ليضعف ويسقط على الأرض باستمرار، وأخبرني سعد أنه كان الرجل ذاته*.

تحـدثنا كثيـراً، في الليل على نحـو خـاص، حين كـان الحـراس أقل انتبـاهـا، وبدأنا، بحلول ذلك الوقت أيضـا، نتقن مهـارات فن التكلم من البطن، إذ كنت قد أرغمت على الوقوف بضع مرات كعقوبة للتحدث، عندما كان الحراس قريبين للغاية.

---

* أصبحت على قناعة لاحقا بأن ذلك الرجل كان ممدوح حبيب، الأسترالي الذي أطلق سراحه في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2005. (المؤلف).

تحدثت كذلك إلى أحمد السعودي الذي كان قد اعتقل من قبل الباكستانيين في لاهور ـ حيث كان يقيم عدة سنوات ـ ليبيعوه إلى الأمريكيين، كما أخبرني، فكثيراً ما كان يؤخذ للاستجواب من قبل عربي أمريكي، ذي أصول مصرية، وهو من اكتشفت لاحقا أنه كان يحظى بالكثير من السلطة في باغرام، كان أحمد قد جرد من ملابسه بعد رفضه التعاون، مهددا بقتل المحققين إن تعرضوا له ثانية، فخفف ذلك المحقق العربي من حدة طريقته، بكل الأحوال، على مر الأيام:

«ألا تشتهي امرأة يا أحمد؟، كم من السنين تظن أن بإمكانك البقاء دون نساء؟، إن تعاونت معنا، فسأسهل الأمور عليك كثيراً».

تغنى أحمد برواية رده اللاذع على المحقق: «ولم أكون بحاجة إلى امرأة؟، ألا ترى ـ مشيراً إلى عانته ـ أن سروالي يمتلئ بمفرزات العديد من الأحلام المثيرة؟». كان ذلك آخر ما سمعته من المحقق، ومن أحمد قبل إرساله إلى خليج غوانتانامو.

مثل الطعام مشكلة حقيقية، إذ كانوا يقدمون لنا وجبات من الأطعمة الكوشر/ الحلال مرتين أو ثلاثا في اليوم، وقد كانت تتنوع بمقدار عشر وجبات، ولكنها لم تكن مستساغة بكل الأحوال، ولم يكن أي من الطعام مطهيا، ناهيك عن قدمه، وتمثل ما زاد الطين بلة في فتحهم العلب، ورمي العديد من محتوياتها، بحيث لا نتناول إلا ما أرادوه لنا، لرداءة مذاقه ربما، فلم أكن بذلك الشخص الأكول، ما لم يؤثر في كثيراً، على النقيض ممن فاقوني ضخامة من الأكلة، فقد احتوت العلب على ما يمكن دعوته ملاعق بالكاد، ولكنها ظلت تمثل أسلحة محتملة بالنسبة للحراس، حيث كانوا يحرصون للغاية على عد الملاعق كافة في كل زنزانة.

لم تكن هناك مغاسل في الزنزانة، وكنا نؤخذ للاغتسال خارجها مرة كل أسبوع، إذ كانوا ينزعون أصفادنا، في منطقة مسيجة للاغتسال، ليمنح كل منا، بالدور، دلوا من الماء البارد، وكنت، بالرغم من ذلك، أتعطش للاغتسال بغض النظر عن مدى برودة الماء، مثل عدم توافر الماء للاغتسال بعد استعمال المرحاض

أمراً مقززاً، وقد أصر الحراس على أن زجاجات المياه كانت للشرب فقط، مهددين بمعاقبة من يغتسل بواسطتها. بلغت سعتها خمسين مللجم، وكثيرا ما كانت تأتينا من دول مسلمة (كالكويت، والإمارات، وتركيا، وعمان)، وتوزع علينا بعد أن يتم تسجيل أعدادها بدقة، وكنا نحظى بزجاجتين في اليوم على أبعد تقدير. خلت إحدى وجبات الطعام من أي ماء للشرب، وقد تحدث أحد الحراس في حينه قائلا: «لا يوجد ما يكفي من الماء، تشربون الكثير منه، بما يفوقنا نحن الجنود»، فقد كان ذلك مستحيلا بالنظر إلى أننا لم نكن نتجاوز العشرين، مقابل المئات، بل وربما الآلاف منهم، ناهيك عن أنني سمعت بعضا منهم يشكو بالفعل من نوعية اللحم، أو السرطان البحري الذي يقدم لهم خلال وجبات العشاء، أو أنواع الصودا التي لم تكن تروقهم، وهو ما يعني استحالة قبولهم شرب زجاجتين صغيرتين من الماء في اليوم لا أكثر.

تحدثت، بينما كنت أعيد إليه وجبة طعامهم الكريه، قائلا: «إن لم تعطونا الماء للشرب، فليشمل ذلك الطعام أيضاً».

خاطبني قائلا: «ترفض تناول وجبتك إذا؟».

أجبته قائلا: «نعم، والبقية كذلك»، بينما كنت أشير إلى سعد وأحمد اللذين كانا يعيدان وجبتيهما أيضاً، طالبين مني نقل شكواهما، أردفت قائلا: «تتغير القوانين هنا باستمرار، فكيف تتوقع منا تناول الطعام دون شرب الماء؟. لا تتركون لنا، بكل الأحوال، سوى مكون أو اثنين من الوجبة، لترموا البقية، فما لدينا لنخسره بعد؟».

تعرضت لعقوبتي الأولى نتيجة ذلك، وبدا الحارس الجديد مفاجأ من سيل الشكاوى التي نقلت إليه بإنجليزية ممتازة، وانطلق مسرعا؛ كي يستشير رئيسه، وعاد بعد وقت قصير برفقة الرقيب المسؤول عن الحراسة، وثلاثة حراس آخرين، طالبا مني الدخول إلى الممر الواقع بين البابين.

خاطبني أحدهم قائلا: «اذهب وأحضر أمتعتك العفنة، ستنقل من هنا».

كبلت ونقلت إلى الزنزانة رقم ثلاثة ـ أكبر الزنازين ـ التي كانت خالية، وأجبرت على الوقوف هناك ما يقارب بضع ساعات، وعلمت من أحد الحراس، مع ذلك، أن حصة السجناء من الماء زيدت بمقدار زجاجتين إضافيتين في اليوم، نتيجة مباشرة لرفضنا تناول الطعام، ولم يكن ذلك كافيا أيضا، ولكنه أوفى بالغرض عموما، وتمثل الأمر الأكثر أهمية فيما تعلمته من ذلك الموقف: يؤتي الاحتجاج القوي أكله في نهاية المطاف.

كانت الأيام تمر برتابة وبطء شديدين، ما جعلني أتحسر على ضياعها سدى، إذ كان من الممكن تمضية كل ذلك الوقت مع عائلتي، حيث استرجعت ليلة تلو أخرى، بينما كنت أغطي رأسي بالبطانية الرمادية القديمة، لأحجب ضوء المصابيح الكاشفة الساطع عن عينيّ، مشاهد من حياتي السابقة، فكرت في المقام الأول بالمدرسة، وأيام طفولتي، مغيبا والدي عن عمد، كيلا أتألم بصورة أكبر، وحاولت جاهدا كذلك ألا أفكر بزينب، والأطفال، وسنواتنا الأخيرة معا، كنت أسمح لذهني أحيانا بالخوض فيما يمكن أن أفعله لحظة إطلاق سراحي، منطلقا من قناعتي الراسخة بأنني عائد إلى البيت قريبا، حين ينتهي ذلك الكابوس.

أثارت طريقة جنود باغرام في تواصل فضولي لمعرفة المزيد عن شخصياتهم، ولم يحاولوا إخفاء أسمائهم عبر الإشارة إلى الأحرف الأولى منها (كما فعل عناصر الشرطة العسكرية في قندهار)، بل كانوا يستخدمون أسماء مستعارة كسوبرستار، وسكيليتور، وسوبرمان، وكان صاحب اللقب الأخير من تحدث إلي عن «حيوان»، جاري الجديد في الزنزانة المجاورة.

وجد بعض عناصر الشرطة العسكرية الفرصة مناسبة لمعاقبة «حيوان»، بالنظر إلى المنع التام للتحدث في الزنازين: «يمنع التحدث يا حيوان، حتى لو كان إلى نفسك». أمروه بالوقوف ساعة كاملة، بينما كان يواصل التحدث إلى نفسه،

ناهيك عن الغناء والضحك، نظر بعد بضع دقائق إلى السقف، وكأن أحداً يخبره شيئا ما، فطرح على نفسه سؤالا فيما بعد، قائلا: «كينوه؟»، ليهز رأسه إجابة عنه بالموافقة، قبل أن يجلس أخيرا، فكاد نفسي ينقطع من الضحك، بينما دخل الحراس الحانقون إلى زنزانته، كي يجبروه على الوقوف ثانية، وتمثل السؤال الذي طرحه حيوان على نفسه للتو في «أأجلس؟»، باللغة البشتونية.

تمثلت الإشاعات في أن حيوان، المتشرد الأفغاني الضعيف، الذي لم تكن حاجته إلى مصح عقلي بخافية على أحد، تمثلت في أنه سلم من قبل تحالف الشمال مقابل مبلغ تافه، فلم يؤخذ مرة إلى الاستجواب طيلة المدة التي رأيته فيها هناك، وتم نقله في نهاية المطاف إلى الزنزانة رقم أربعة، ليكون برفقة سجناء آخرين هذه المرة، وقد ضمت الزنزانة شيشانيا، افترض سوبرمان أنه كان روسيا، ليطلق تعليقات ساخرة حول الاتحاد السوفييتي، ولينين، وستالين. شكل ذلك مثالا نموذجيا على الجهل الأمريكي في نظري، ألم يكن يدري أن معاملة ستالين للشيشان ـ بالرغم من مقاومتهم الباسلة للنازيين ـ كانت الأسوأ في تاريخهم بأكمله؟. تبجح السوبرمان الأمريكي الأصيل، مع ذلك، بمعرفته الوهمية عن القادة السوفييت السابقين، ظانا أنه سيفاجئ السجين الشيشاني بذلك.

عبر سوبرمان عن دهشته، حين سمعني أتحدث لأول مرة، قائلا: «من أين أنت؟».

أجبته قائلا: «خمن، حاول معرفة ذلك من لكنتي».

عقب قائلا: «أعرف، من إسكتلندا».

ضمت الزنزانة رقم أربعة كذلك فتى عربيا صغير السن، شاحب الوجه للغاية، يبدو الغضب عليه أكثر من القلق أو الحزن، إذ كان قد أضرب عن الطعام منذ اليوم الأول، حاولت، بالرغم من وجودنا في زنزانتين منفصلتين ـ كنت لا أزال وحدي في الزنزانة ـ التحدث إليه عبر الأسلاك، ولكنه لم يستجب، وصرخ، مع ذلك، في إحدى المرات، يخاطب وافدا جديدا إلى الزنزانة السادسة بالعربية، قائلا: «أخبرني الله عما فعلته، قلت إنني أعلنت الولاء لأسامة بن لادن، أليس كذلك؟».

تم نقله إلى الزنزانة الأولى، نتيجة ثورة الغضب تلك، ورفضه تناول الطعام، كي يبقى فيها بمفرده، وأرغم على الوقوف مكبلا، مغطى الرأس ، فرأيته يهز رأسه بعنف شديد بحيث سقط الغطاء عن رأسه، ودخل الحراس زنزانته، مستبدلين بالغطاء، قبل أن يثبتوه شريطاً لاصقاً، فهز الفتى رأسه ثانية، وحكه بالأرض والأسلاك بغية التخلص من الغطاء، وتوقف عن الحراك في النهاية، ليدخل المحقق المصري الزنزانة، برفقة عدد من الحراس، وأزال ذلك المحقق الشريط اللاصق. ورفع الغطاء قليلا، قائلا بعض الكلمات للفتى، وغادر الحراس بعد فترة قصيرة، آخذين الغطاء معهم.

رأيت، في إحدى المرات، ثلاثة من الحراس يدفعون شيئا ثقيلا بصعوبة بالغة، متجهين ببطء إلى الزنزانة الثانية، واضطروا إلى حمله فوق إطار الباب المعدني، ي يدخلوا به الممر، ما أنهكهم جميعا، بما في ذلك السوبرمان القوي، ووصلوا به في نهاية المطاف قرب نهاية الزنزانة، على بعد بضعة أمتار من المرحاض، وكان ذلك الشيء عبارة عن نوع من العقفات الفولاذية الدائرية الضخمة، ربما مثل التي كانت تستخدم لأجل أنابيب الزيت أو الماء في الحقبة السوفييتية، وقد كانت نهايتاها تواجهان المرحاض، عندئذ قام أحد الحراس بجر سلسلة سميكة طويلة من الفولاذ إلى حيث كانت العقفة، ليلف أحد طرفي السلسلة حولها، ويسحب الآخر خارج الممر، فرأيت في وقت لاحق سجينا جديدا يقتاد إلى الزنزانة الثانية، مكبلا، مجبرا على الانحناء بصورة مضاعفة، ليترك في النهاية بين العقفة والمرحاض، واحتجز السجين داخل العقفة فيما بعد بواسطة السلسلة، بحيث يعجز عن الوصول إلى المرحاض، إن لم يرخوا السلسلة من الخارج عبر الممر، وقيدت حركته داخل العقفة بزاوية 180 درجة، وذلك ما اضطره إلى قضاء حاجته هناك، حيث كان ينام، بالنظر إلى عجزه عن بلوغ المرحاض، إذ كانت الرائحة فظيعة، ولكن الأسوأ تمثل في اضطرار المرء إلى رؤية الإذلال الذي كان الرجل يتعرض له، واشتكيت إلى الحراس، وسمعت آخرين يفعلون كذلك، احتجاجا على وضعه اللاإنساني المهين، فأرخى السجانون السلسلة في نهاية المطاف، دون أن يمثل ذلك نهاية الإجراءات التي اتخذوها بحقه.

كنت قد فاوضت الحراس كي يسمحوا لنا بأداء بعض التمارين يوميا، فقمت بأداء أولاها في الواقع مكبل اليدين، مقيد القدمين، واستمتعنا جميعا، مع ذلك، بممارسة تلك التمارين، بالرغم من أن العديد من السجناء ما كانوا يملكون سوى خبرة ضئيلة للغاية بالتربية البدنية، إذ كانت مشاهدة بعضهم يؤدون قسما من هذه التمارين مضحكة، تثير التعليقات الساخرة من قبل عناصر الشرطة العسكرية، فصرخ أحدهم في إحدى المرات أثناء مروره، عاجزاً عن كبت ضحكاته، قائلا: «التربية البدنية للمعوقين ذهنيا!». استخدمت التمارين الجسدية، مع ذلك، كأسلوب للعقاب أيضا، وكان الجنود يصرخون ساعات في السجين ـ أظن أنه كان أويغوريا (من تركستان في غرب الصين) ـ كي يؤدي تمارين الضغط، والمعدة، والقرفصاء، وغيرها، فسقط الرجل على الأرض من شدة الألم بعد أن نفذ كل ما أمروه به، ونقله الجنود على حمالة فيما بعد، وقد كانت تلك المرة الأخيرة التي أراه فيها.

تم اقتيادي، طيلة الفترة التي أمضيتها في الزنزانة رقم ثلاثة، معزولا عن بقية السجناء نتيجة سلوكي الفوضوي، تم اقتيادي إلى الاستجواب في الأعلى عدة مرات، وأخبرني شخص يدعى غاري، بعد أسبوع تقريبا من حادثة الماء، أن فصلي عن البقية كان بسبب تحريضي لهم على الإضراب عن الطعام، وعقبت قائلا: إن أسبوعا بأكمله تقريبا كان قد مضى على تلك الحادثة، ليعقب بدوره قائلا: إنهم كانوا «بطيئين في التنفيذ، ولكنهم فعلوا في نهاية المطاف».

استجوبني بعد ذلك بفترة قصيرة عميل «الإف بي آي» رايان، الإيرلندي الأمريكي من نيويورك، في مسار مواز لما فعله زملاؤه في قندهار.

خاطبته بانفعال، قائلا: «يعلم جميعكم أنني لم أرتكب أي جريمة، فلم أفعل ما يؤذي أي أمريكي على الإطلاق، لقد حطمتم حياتي وحياة عائلتي دون أي سبب».

كنت مصراً على إظهار براءتي، بالرغم من عدم إخبارهم لي بالجرم الذي يفترضون أنني اقترفته.

سألته قائلا: «ما هي التهمة التي تعتزمون توجيهها إلي؟».

أجابني قائلا: «دعم أعمال إرهابية وتسهيل ارتكابها».

عقبت قائلا: «ولكن كيف يمكن اعتبار إرسال بضع مئات من الجنيهات، خلال أوائل التسعينيات، إلى مقاتلي الحرية الكشميريين، أو زيارة معسكرهم التدريبي، كيف يمكن اعتبار ذلك عملا عدائيا ضد الولايات المتحدة؟ فقد تدرب عشرات الآلاف من الناس، على مر السنين، في المعسكرات المنتشرة في أفغانستان، صحيح أن القاعدة كانت تدير بعضها، ولكن العدد الآخر منها كان مستقلا عنها بالكامل، حيث انضم المعسكر الذي زرته عام 1993، في الواقع، إلى التحالف المناهض للطالبان، وقد أغلقته حين تولت الحكم، قبل سنوات من مناصبتها العداء للولايات المتحدة، وإن أردتم اعتقال الذين وهبوا المال لتلك المعسكرات، أو قاموا بزيارتها، فسيكون الرقم الناتج بالملايين، دعك من غوانتانامو، لن تكفي جزيرة كوبا بأكملها لاستيعابنا جميعاً».

«لن تقاضيني أي محكمة نزيهة في الولايات المتحدة أو بريطانيا على ذلك الأساس، إذ كنت قد سئلت في بريطانيا عن كل تلك التفاصيل، ليخلى سبيلي بلا أي تهمة، ولم يكن ذلك مبنيا إلا على الاعتقاد والفرضيات».

عقب العميل رايان قائلا: «تغيرت القواعد يا معظّم بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وضعنا قوانين جديدة تعتبرك مدانا بالفعل، فقد ولى الزمن الذي تحارب فيه الولايات المتحدة عن بعد، انظر إلينا الآن: لقد أتينا إلى عقر دارهم، يجدر بي قول الآتي، ولكنني أحب التحدث إليك: اشتبكنا قبل بضعة أيام مع مجموعة من أصدقائك الطالبان، وأرسلناهم جميعا إلى الله، باستثناء الذين ستراهم قريبا ممن أسرناهم».

رأيت الحراس، بينما كنت عائدا إلى الزنزانة، يجمعون الكثير من الأصفاد، إذ كانوا بالفعل قد بسطوا العديد من البطانيات في زنزانتي الخالية حتى حينه، وأحضر السجناء الجدد بعد ذلك بفترة قصيرة، واحدا تلو الآخر، فتوجهت نحو

بضعة منهم، ملقيا عليهم السلام، مرحبا بهم، إذ كانت رؤوسهم حليقة، بينما تركت لحاهم على حالها، فأصبح من الواضح بحلول ذلك الوقت، حتى للأمريكيين، أن حلق اللحية يمثل إهانة لمعظم المحتجزين، الأفغان المسنين منهم على وجه الخصوص، الذين كانوا يشكلون غالبية دفعة السجناء الجدد، فدعي أولئك «شائبي الشعور» باللغة البشتونية.

خاطبت العميل رايان، حين رأيته في المرة التالية، قائلا: «تهانيّ، يبدو أن بقية الأفغان الذين أرسلتهم إلى الله يمثلون نخبة وحدات المسنين القتالية لدى الطالبان، فاستحال وجهه أحمر، دون أن يرد بأي كلمة، وأخبرني فيما بعد، بكل الأحوال، أن شخصا جديداً يريد التحدث إلي.

دعا الرجل نفسه مارك، وقد كان قصير الشعر، حليق الذقن، يرتدي ملابس مدنية، ولا يكبرني كثيرا على الأرجح، وتركنا بمفردنا في غرفة الاستجواب، فلم تكن الأمور تجري كذلك في العادة وذلك ما دفعني للتساؤل عما كان ينتظرني، وأخبرني أنه يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية، وأن موقعه السابق كان في سوريا، عارضا علي العمل معهم، وكان عميلا مكتب التحقيقات الفيدرالي، روب، وبيل، قد عرضا علي الأمر ذاته أيضاً: «إعطاء صفة شاهد» و«الدخول في صفقة لتخفيف العقوبة» و«الانضمام إلى برنامج حماية الشهود». بدا الأمر كأفلام هوليوود.

تحدث أحدهما في حينه، قائلا: «سنرسل عائلتك إلى الولايات المتحدة، ونضع أطفالك في مدرسة إسلامية».

عقبت قائلا: «وستشرون لي سيارة لمبورغيني أيضاً، أليس كذلك؟».

أجاب قائلا: «نعم، لن نشتري سيارة لمبورغيني بل يوغو (سيارة رخيصة الثمن)».

كان كلاهما جادا للغاية مع ذلك، بغض النظر عن دعابة السيارة.

ها هو ذا الآن رجل آخر يأتيني من أشهر الوكالات الاستخبارية في العالم، طالبا مني بيع نفسي وحياتي؛ كي أرى عائلتي مجدداً.

خاطبني مارك قائلا: «أنت رجل ذكي، مثقف، يتقن عدة لغات، لائق جسديا، سافر كثيراً، واتصل بمن نهتم بنوعياتهم من الناس، فلو عمل من كان مثلك معنا، لتمكنا من اختراق القاعدة، ومنع وقوع أي هجمات».

عقبت قائلا: «كنت أظن أن لديكم بالفعل الكثير من العملاء، فلا بد أن مصلحتكم تمثلت، بطريقة أو بأخرى، في عدم منع الهجوم على بلدكم، إذ يصعب علي تصديق أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت عاجزة عن اختراق القاعدة بكل عظمتها، وموارد الاقتصاد الأقوى في العالم التي تمتلكها، وعملاءها المنتشرين في كل مكان، فلا تنس، علاوة على ذلك، أن لديكم من النفوذ ما جعل أحد رؤساء الوكالة السابقين رئيسا للولايات المتحدة، الرجل الأقوى في العالم».

عقب قائلا: «سمعت نظريات المؤامرة تلك، ولست هنا لأناقشها معك، هاك عرضي: اعمل معنا، وسنفعل المستحيل من أجلك، فقد أكون العميل المكلف بالاتصال بك، وقد يتغير ذلك على مر السنين، وسنلتقي من آن لآخر، وستبلغنا عن الأشخاص أو الأحداث وفق ما نطلب منك، وسنعتني بك، وبعائلتك مدى الحياة، ونهتم بمن يعملون معنا يا معظّم، كيلا نكتسب صيتا بعكس ذلك، ما ينفر الجميع من التعامل معنا، ويمكننا تدبير هربك، ونشر ذلك في وسائل الإعلام، فسيحاول تنظيم القاعدة الاتصال بك بالتأكيد لتوظيف هربك إعلاميا، وسؤالك عن رجاله المحتجزين لدينا. دعني، مع ذلك، أوضح لك الأمر الآتي ما استطعت: إن حاولت الهرب فعليا، فلن تجد مكانا في الأرض تختبئ فيه منا، فنعلم أين توجد عائلتك، وسأجعل من اصطيادك بلا رحمة مهمتي الوحيدة في الحياة، فلديك الآن ما تفكر به، حتى أراك في المرة القادمة».

تنازعتني الأفكار قائلا لنفسي: «هل هي فرصتي للخروج من هذا المكان؟، هل يجب علي انتهازها، والهرب فعليا بعد ذلك؟، ولكن إلى أين؟، بريطانيا، باكستان،

إيران، كوريا الشمالية، كوبا...؟. إن هربت إلى إنجلترا، فهل سيسلمونني إلى الأمريكيين؟، لا، لن يفعلوا بالتأكيد، فبريطانيا تحترم مكانتها وقوانينها التي تمنع ذلك، أهو ما سيحصل بالتأكيد؟. توجد، بكل الأحوال، قوانين جديدة الآن، ولا يعلم سوى الله ما تنص عليه. لقد كانوا يستجوبونني بالفعل قبل أن أغادر بريطانيا، ولن تزيد الأحداث الجديدة من النار إلا اشتعالا، وربما كان بإمكاني الاختباء مع عائلتي في باكستان. لا، لا أريد توريطهم في الأمر، فيمكن أن يبيع المسؤولون الباكستانيون المنافقون أمهاتهم بالبساطة ذاتها التي يبيعون فيها عائلتي، ناهيك عما فعلوه بي، ولا أعرف، مع ذلك، أي أحد أو مكان آخر ألجأ إليه... ولكن ما الذي سيحصل لو قبلت عرضهم بالفعل؟، لو عملت مع «السي آي أيه» بالفعل؟، سيرحبون بذلك بالتأكيد، فقد قال لي مارك: إنني ذكي، مثقف، أتقن عدة لغات، لائق جسديا... إلخ، وهل أستطيع بيع حياتي حتى اللحظة الأخيرة منها؟، الحياة ذاتها التي أخذتني في هذه الرحلة أساسا؟، كيف يمكنني النظر في وجه أفراد عائلتي، أو مجتمعي، إن قبلت؟. ماذا عن المبادئ التي عشت متمسكا بها: الإصرار، والتحكم بالذات، والثبات؟. لم أفعل ما هو خاطئ، أو أؤذ أحدا، أو أقتل أي إنسان، ناهيك عن محاولة القيام بذلك، أو التخطيط له. لا بد أن أؤمن أن الحق سينتصر لا محالة، وأن كل ما أمر به لن يدوم إلى الأبد، ولكن ماذا عن زينب والأطفال؟. ربما أصبح شخصا غريبا بالنسبة لهم، إن أطلق سراحي بالأساس من قبل عديمي الرحمة، أولئك ال...».

فكرت قائلا لنفسي: «ها هي ذي لحظة الحقيقة قد حانت، لحظة محاكمة الذات، واختبار الإيمان. اجتزها بنجاح؛ كي تصبح حرا، أو أخفق في ذلك؛ لتخسر عائلتك، وشرفك، وكرامتك، وما تحمله من احترام لذاتك، وآخرتك».

يقول الذكر الحكيم، الذي أتلوه كل يوم: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ**﴾[1]. ينص القرآن الكريم على أن الحياة فانية، وما هي إلا دار عبور إلى الآخرة،

(١) سورة النساء، آية ٧٨ .

حيث يحاسب المرء وفق ما عمل في حياته الدنيا، وقد تمثل أكثر ما كان يتردد في ذهني، من الذكر الحكيم، في سورة الممتحنة، وأحسست بالفعل وكأنها كانت موجهة إلي تحديداً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ...﴾(1).

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾(1). غرقت في الأفكار التي ما انفكت تجوب رأسي.

أعدت إلى زنزانتي، يحتدم ذلك النقاش في داخلي، ولم أرد على عرض «السي آي أيه»، أو أرَ مارك، أو أسمع عن مقترحه مجدداً، وفكرت في الأمر مراراً، متسائلا عما إذا كان خدعة لتبيان ما إذا كنت سأنتهز الفرصة، أو أفوتها، وأعتقد أنه لم يكن يتوقع أن أرد عليه على الأرجح، إذ كانت الخيارات قد تغيرت في المرة الآتية التي تحدثت فيها إلى شخص من الوكالة.

تمثل أحد الأشياء المحيرة في باغرام بمحاولة التمييز بين كل من كانوا يرتدون ملابس مدنية، ومعرفة المسؤول الأول عن سير الأمور هناك، فقد كانت منشأة عسكرية بوضوح، لا سيما مع وجود كل من كانوا يحرسوننا من عناصر الشرطة العسكرية، بزيهم النظامي الكامل، فبدا، بكل الأحوال، أنهم كانوا خاضعين لإمرة المحققين المدنيين الآتين من وكالات استخبارية مختلفة، إذ امتلك المحققون العسكريون كذلك خيار ارتداء ملابس مدنية، ولكن تمييزهم كان يسهل عن البقية، حيث كانوا أصغر سنا في العادة، وغالبا ما يرتدون سراويل أو بساطير عسكرية، ويحملون سكاكين قتالية على خصورهم.

---

(١) سورة الممتحنة، آية ١ .
(٢) سورة الممتحنة، آية ٢،٣ .

لحظت أن السجين كان يعامل من قبل جميع المعنيين هناك وفقما كان المحققون ينظرون إليه.

قابلت، في شهر أيار/ مايو، بعضا ممن لم أرق لهم على الإطلاق من محققي «الإف بي آي»، و«السي آي أيه». بدأ اثنان من عملاء الجهاز الأول الاستجواب، مقتنعين بتورطي في عدد من التهم الخطيرة للغاية، بدءاً من التخطيط لاغتيال البابا، مرورا بالإشراف على الأنشطة المالية لتنظيم القاعدة في أوروبا، انتهاء بالمشاركة في إدارة أحد معسكراته في أفغانستان، وعمل الاثنان على إيجاد السبل الكفيلة بتأكيد ظنونهما تجاهي، مفضلين أن يتم ذلك باعترافي.

أحسست، وكأنني إحدى شخصيات أفلام جيمس بوند الإجرامية المعقدة. فقد كانا يظنان أنني خريج إحدى الجامعات البريطانية العريقة، وأتقن العديد من اللغات، وخبير في الكمبيوتر، وفنون القتال.

خاطبتهما في إحدى المرات، قائلا: «لو لم أكن في هذا الوضع السخيف، لاختلت بما تظنانه عني، فيجدر بي مطالبتكما بكتابة سيرتي الذاتية، وسيمكنني ذلك من الحصول على أي وظيفة أريد».

كان من الممكن اعتبار ذلك طريفا بالفعل، لو لم يكن المرء واقعا تحت رحمة أولئك الغارقين في أوهامهم، وذلك ما جعله مروعا بالأحرى، إذ توصل العميلان إلى جزء من تلك القناعات بعد فحص كمبيوتري المحمول، الذي صودر من منزلي في إسلام أباد، وأبرزا عدداً من الصور التي تحويها ملفاته، بعد استعادتها من الحذف، وطباعتها.

سألاني، قائلين: «ما الذي تعنيه تلك الصور؟، لم تحتفظ بها في جهازك؟».

احترت كثيراً في حينه، وعجزت عن التفكير، فمن أين أتت تلك الصور؟، وما الذي يدفعني إلى الاحتفاظ بها في كمبيوتري؟».

أدركت، مع ذلك، بعد امتلاك ما يسمح لي من الهدوء بالتفكير في الأمر مليا أن لا أحد من الناس يلم تماما بكل صورة مخزنة في كمبيوتره، فلو امتلك أي من العميلين

شيئا من المعرفة الأولية بأجهزة الكمبيوتر، لأدركا أن المجلد المسمى «ملفات إنترنيت المؤقتة" يخزن كل الصور التي يحويها أي موقع إلكتروني يتم تصفحه، وأن عملية «تنظيف القرص» تحذف كل الملفات غير الضرورية آليا من المجلد المذكور.

أبرز الرجلان عددا من الصور أمامي، بما فيها صورة إحدى حشرات عناكب الجمال، ومراسلة «البي بي سي» كايت كلارك، والبابا، وخاطباني، قائلين: «تم استعادة هذه الصور المحذوفة من جهازك، فأخبرنا عما كنت تنوي فعله، لم تحتفظ بصور البابا؟».

تحدث شخص ثالث، «الرائد أحمق» كما كنت أدعوه في داخلي، قائلا: «إن حدث أي شيء للبابا، وعلمت أنك متورط فيه، فلأكسرن كل أصبع في يديك، فإنني كاثوليكي أيضاً».

اتسم ذلك بالسخف لدرجة أنني عقبت، قائلا: «خيراً تفعل يا صديقي» ولم يعجبهم استخفافي بالأمر مطلقا، وكادوا يفقدون أعصابهم نتيجة لذلك.

بدأ الاثنان، فيما بعد، طرح الأسئلة حول تعاملاتي المالية: «خمسون ألف جنيه أرسلت من حساب في جيرسي إلى حساب زوجك في بريطانيا، لم كان ذلك؟».

أجبت، قائلا: «لشراء منزل، فقد منحنا والدا زوجي المال لشراء منزل حين تزوجنا، فحسبكما أن تتحريا عن ذلك لتتأكدا».

عقبا، قائلين: «هل أنت واثق من أن ذلك المبلغ لم يرسل إلى أفغانستان؟».

لم أر سبيلا بالفعل للإجابة عن تلك الأسئلة السخيفة، إذ كان كل ما يتعلق بشراء منزلنا موثقا، ناهيك عن عدم وجود نظام مصرفي في أفغانستان، ولم تكن هناك مصارف يمكن للمرء أن يحول إليها خمسين ألف جنيه في ذلك البلد.

سألني العميلان فيما بعد عما إذا كنت مدربا في أحد معسكرات القاعدة في أفغانستان، زاعمين أن أحد المحتجزين قال: إن مدربه في معسكر الفاروق كان باكستانيا يدعى «أبا أمامة» وأصر كلاهما على أن أحد أعضاء القاعدة البارزين كان قد أقسم على أنني كنت مدربا في المعسكر المذكور.

لم أعلم الحقيقة وراء هذا الاتهام إلا بعد مرور عام كامل، حين كنت في غوانتانامو، فقد كان من المريع بالفعل أن يتلاعبوا بحياتي بتلك الطريقة، مستندين في ذلك إلى معلومات استخبارية خاطئة، فلم أقرأ روايات كافكا، ولكنني علمت أن ما فيها من بؤس كان ينطبق علي تماماً.

كان عميل «السي آي أيه»، الذي قدم إلي على أنه مارتن، جالسا أثناء الاستجواب، يحدق فيّ ببساطة، فقد كانت عيناه زرقاوين للغاية، وبدا وكأنه يود قراءة ما يدور في ذهني عبر نظراته الحادة، فمثل ذلك مشهد استجواب تقليدي كما يحدث في الأفلام، ولكنه كان حقيقة أعيشها، إذ كان الضوء مسلطا على وجهي، جلس عميلا «الاف بي آي» إلى جانبي مارتن، الذي كان يحمل بندقية «أم 16» مقابل الطاولة، بينما جلس اثنان آخران، «الرائد أحمق»، وشخص يدعى أليكس، ورائي.

تحدث نيل، أحد رجلي «الإف بي آي»، قائلا: «أخبرنا عما كنت تخطط له يا معظّم».

أجبت، قائلا: «ترجمة نصوص عربية قديمة إلى الإنجليزية...».

قاطعني مارتي، عميل «الإف بي آي» الآخر، وهو يصرخ، قائلا: «لا، ليس كذلك. تعلم ما نقصده، حسبك أن تعترف، فهل كنت تخطط لعملية انتحارية؟، أو شن هجمات كيميائية؟، أو اغتيال...».

قاطعته، قائلا: «ما الذي تتحدث عنه بحق السماء؟. أظن أنك متأثر بكثير من الأفلام التي شاهدتها...».

جاء صوت أليكس من الخلف، قائلا: «هل كنت تقاتل في الخطوط الأمامية ضد القوات الأمريكية والبريطانية؟».

استدرت باتجاهه، قائلا: «على رسلك، أهو لمجرد أنني قلت: إنني زرت...».

قاطعني نيل، وهو يصرخ، ما استدعى عودتي إلى وضعيتي السابقة، قائلا: «لقد سئمت هذا الهراء».

خاطبني مارتي، بينما كان يبرز صورة من مغلفه، قائلا: «هل تود رؤية أطفالك مجددا؟»، فقد كانت معه صورة أمامة، حين كانت في الثانية، برفقة طفل آخر، وأردف قائلا: «يبدو أنك لا تهتم كثيرا لأمر عائلتك، وتتصرف بأنانية كبيرة، فكر بما يمكن أن يحدث لهم من دونك، فكر بأطفالك، بزوجك...».

قاطعته بحدة، قائلا: «توقف!، حسبك أن تتوقف!. لا تقحم عائلتي في الأمر، فلم أفعل ما يؤذي أي أحد، ولم يتعرض أي أمريكي للأذى بسبب أي مما قمت به، ولم أخطط لأي شيء كذلك».

انفطر فؤادي جراء التفكير في ابنتي، وقد كنت حزينا للغاية، غاضبا، خائفا مما يخبئه المستقبل، ووددت لو أموت في تلك اللحظة، ووددت لو يموت مَنْ يستجوبونني كذلك. من منحهم الحق لتدنيس ذكرى زوجي وأطفالي؟، لقد كان أولئك السفلة من دمر حياتهم في المقام الأول.

سحب أحدهم فجأة الكرسي بعيداً، وذلك ما اضطرني للوقوف، فخاطبني الرائد قائلا: «انهض من على مؤخرتك، فلم تعد تستحق التكريم الذي منحناه إياك عبر السماح لك بالجلوس حين تخاطبنا».

غادر الجميع الغرفة فيما بعد، ليتركوني مع مارتن، عميل «السي آي أيه» فقد كان لا يزال يحدق فيّ، ومضت بضع دقائق قبل أن يتكلم.

خاطبني، قائلا: «معظّم بيغ»، بينما رفع قبضته، مبرزا إبهامه، ليقلبه إلى الأسفل فيما بعد، كناية عن القتل، فشعرت بقلق وخوف جديين بالنظر إلى توتر الأجواء.

أردف فيما بعد قائلا: «قررت إرسالك إلى القاهرة، حيث ستتكلم» فقد أخبرني ابن الشيخ الليبي*، الذي كان يفترض أنه أبرز أعضاء القاعدة المعتقلين

* انتزعت «السي آي أيه» اعترافا من الليبي، مفاده أن صدام حسين درب القاعدة على استخدام أسلحة الدمار الشامل، واستخدمت هذه المعلومة كأحد التبريرات الأمريكية لغزو العراق، وقد تراجع الليبي عن اعترافه في عام 2004، لصدوره تحت التعذيب. العميد دايفيد آر. إيرفين. الترنيت. تشرين الثاني/ نوفمبر 2005. (المؤلف).

لدى الأمريكيين، إذ كان جالسا حيث كنت تماما، قبل بضعة أسابيع خلت، وقد «مارس معنا الألاعيب ذاتها التي قمت بها، فأرسلناه إلى القاهرة، وتحدث هناك في غضون ساعتين، وستفعل الأمر ذاته».

كنت قد تابعت في الأخبار ـ فيما بدا أنه سنوات طويلة ماضية، خلال حياة أخرى ـ أن الأمريكيين اعتقلوا ابن الشيخ، الذي أعلنوا في حينه أنه يمثل غنيمتهم الأكبر في «الحرب على الإرهاب»، فلم أكن أعرفه، ولكنني قابلت من نفى انتماءه للقاعدة من معتقلين في قندهار، ممن كانوا في معسكرات التدريب.

اقتدت إلى غرفة أخرى، عقب ذلك الاستجواب الأول القاسي، لأترك هناك، فقد كبل الحراس يديّ خلف ظهري، قبل تقييدهما إلى ساقيّ، اللتين كانتا مقيدتين أيضا، وقاموا فيما بعد بوضع غطاء على رأسي، فشعرت بصعوبة كبيرة في التنفس، وكدت أتعرض لنوبة من الربو، إذ كان الظلام الدامس مخيفا، وانهالت الركلات بعد ذلك على رأسي وظهري، فقد كنت ملقى على الأرض، مقوس الظهر، تحتك الأغلال المعدنية بمعصميّ وكاحليّ بشدة، شاعرا بما لا يوصف من الألم جراء ذلك، ولم أستطع اللجوء إلى وضعية أقل إيلاما، ولو لثانية واحدة، وكانت هناك سجادة رقيقة على الأرضية الصلبة، وشال صغير للتدفئة، لم يؤديا الغرض منهما على الإطلاق، ففقدت إحساسي بالوقت، لا بسبب رأسي المغطاة في أغلب الأوقات فحسب، بل لأنهم كانوا يغطون النوافذ أيضا، عند رفع الغطاء عن رأسي لتمكيني من تناول الطعام، وكانت هناك، مع ذلك، بعض الفتحات في أغطية النوافذ، ولكنني لم أستطع تحديد ما إذا كان الضوء المنبعث منها طبيعيا أو صناعيا وقد دخل أحدهم في نهاية المطاف ليزيل الغطاء عن رأسي، ويعيد تكبيلي بالوضعية الطبيعية.

بقيت في الحجز الانفرادي هناك ما يقارب الشهر، أو نحو ذلك، ومنعوني في إحدى المرات من النوم مدة يومين كاملين، فما انفك الحارس يدخل الغرفة، يوقظني كلما غفوت، وأصبحت، بحلول نهاية تلك المدة، منهك القوى، مشوشا للغاية، جاهلا مصيري، وقد كانوا يأخذونني في بعض الأحيان إلى مرحاض

خارجي يستخدم من قبل الجنود، لعدم وجود آخر في الأعلى، ويغطون رأسي كذلك، ولم يكن الغطاء ينزع إلا داخل المرحاض، وهناك رأيت عبارة "تبا للإسلام"، مكتوبة على أحد جدرانه بحروف سوداء كبيرة.

بقيت وحدي في الغرفة أياما عند نهاية تلك المدة، ويعودون مجدداً، ويستجوبونني حول المزاعم ذاتها: المعسكرات، ودوري في التدريب، وارتباطي بالقاعدة، ومشاركتي في تمويل هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، كان عناصر «السي آي أيه»، و«الإف بي آي» من يقومون بذلك أحيانا، بينما جهلت البقية في أحيان أخرى، فقد أراد جميعهم، بكل الأحوال، سماع قصة لم تحدث بالأصل.

تعجز الكلمات عن وصف شعوري في حينه، ولا أريد تذكر ذلك.

فوجئت لرؤية نايثن، محقق الاستخبارات العسكرية، عند دخوله الغرفة.

سألني، قائلا: «أراك مقيدا بالكامل، ما الذي حدث؟».

أجبته، قائلا: «يهددون بإرسالي إلى مصر؛ كي أعذب هناك».

عقب، قائلا: «تحدث تلك الأمور البغيضة بالفعل يا معظّم».

تمثل ما يدعو للاستغراب في امتلاكي بعض الثقة به، لوجود ما يسمح بذلك من علاقة تربطنا، فقد كان نايثن فتيا للغاية، ودارت بيننا العديد من المناقشات، حول موضوعات مختلفة، حين كنا في قندهار، وتحدثنا حول الأفلام، والتاريخ، الإسبرطيين على نحو خاص، وحملات يوليوس قيصر، والصراع العربي ـ الإسرائيلي، وأخبرني عن تجربته كطفل ذي أصول مختلطة، نشأ في حي يقطنه البيض بالكامل في تكساس، فكان كل ما يقوله يتحقق بالفعل، وأخبرني في ذلك اليوم عن أمر أثار القشعريرة في جسدي، لا أنساه ما حييت:

«اعتقل أحد الأشخاص في أمريكا، ليرسل إلى سوريا كي يتم تعذيبه*، فلا نشارك نحن (الأمريكيين) بالطبع في أي مما يحدث هناك، بل نراقب ببساطة».

صدقته، حين قال ذلك.

---

* عبد الله المالكي: انظر الخاتمة. (المؤلف).

كان نايثن يحاول قول الحقيقة في نظري، وإن سعى للتأثير في كبار مسؤولي «السي آي أيه»، كي يحصل على ترقية بالنظر إلى تدني رتبته، فدفعه ذلك إلى محاولة إخافتي بصورة أكبر، علّي أبوح بشيء ما.

كان رجل الاستخبارات الأمريكية مارتن، علاوة على آندرو عميل البريطانية، المحقق الوحيد الذي أثر فيّ لذكائه ومعرفته، فقد كان مثقفا للغاية، يتحدث العربية بطلاقة، عارفا التاريخ الإسلامي، والمنطقة، والاختلافات بين المجتمعات العربية، وأشعرني الرجل مع ذلك بالخوف، على النقيض من آندرو، فقد كانت تهديداته مبطنة في أغلب الأحيان، وأعتقد أنه كان صاحب الشأن الوحيد بين البقية، من محققي مكتب التحقيقات الفيدرالي وعملائه، فلم يمثل جميعهم سوى مزحة بالمقارنة معه.

حضر مارتن إلى زنزانتي، ليجلس على أحد الكراسي، ورمقني بنظرته الحادة ذاتها، قبل أن يخاطبني، قائلا: «قررت ألا أرسلك إلى مصر، فقد درسنا قصتك حول الكمبيوتر، ووجدناها معقولة»، حيث بدا ذلك قراره الشخصي، إنصافا للرجل، بينما استاء عناصر «الإف بي آي» كثيراً، ولم يكن لديهم بالفعل أي فكرة عن أجهزة الكمبيوتر. أبرزوا في إحدى المرات صورة غير واضحة، مستمدة من جهاز الكمبيوتر، إذ لأحد الأشخاص، كي ألقي نظرة عليها، وخاطبني «الرائد أحمق»، حين قلت إنها كانت مشوشة، قائلا: «لم أسمع بذلك المصطلح من قبل، فيبدو بوضوح أنك عارف للغاية بتلك الأمور».

عقبت، قائلا: «لا يتعلق الأمر باتساع معرفتي يا حضرة الرائد، بل، إن أذنت لي، بقلة معرفتك، تعلم ابنتي، ذات الأعوام السبعة، معنى تلك الكلمة، كمعظم طلاب المدارس الابتدائية، حيث أتيت»، فقد أردت التأكيد بشدة على أن جهلهم بالكمبيوتر كاد يرسلني إلى مصر؛ كي أتعرض للتعذيب.

سألني أليكس، بينما أبرز صورة أمامي، قائلا: «هل تعرف هذا الرجل؟».

سألته، والدهشة تعم ملامحي، قائلا: «أهو خطاب؟» فقد كانت صورة لما بدا أنها جثته، علاوة على بعض الكلمات بالروسية، وتساءلت، قائلا لنفسي: «هل وصل الأمريكيون إلى الشيشان أيضاً؟».

أجابني، قائلا: «نعم، إنه هو، يتساقط أصدقاؤك كالذباب».

عقبت، بصوت خفيض، قائلا: «إنا لله وإنا إليه راجعون، لم ألتقه مطلقا، ولكنه كان بطلا في العالم الإسلامي، فما الذي تأخذونه عليه؟، هل قام بشيء ضد الأمريكيين؟».

أجابني، قائلا: «لم يلحق، أعترف أنني لا أعلم الكثير عنه، باستثناء أنه إرهابي».

عقبت، قائلا: «حسنا، أعلم أن الروس يدعونه ذلك، ولكنه كان قائدا للمجاهدين، ما هاجم إلا أهدافا عسكرية فحسب، يحبه الشيشان كثيراً... هل تتحدث الروسية؟».

سحب أليكس الصورة.

علمت فيما بعد أن خطاب مات مسموما، وأن لا علاقة للأمريكيين بذلك.

بدت الاستجوابات التي أخضع لها أقل قسوة لمدة من الزمن، وبدؤوا يعرضون علي الصفقات مجددا، بما في ذلك ضمي إلى برنامج حماية الشهود، مقابل الإدلاء بشهادة ضد كل من يريدون، بحيث تتمكن عائلتي من زيارتي في المكان الآمن الذي يوفرونه لي، داخل الولايات المتحدة ربما، أو أي مكان آخر، وإن خضعت للإقامة الجبرية فيه، وأخبرتهم، بالمقابل، بضرورة وجود جريمة شهدتها، أو اشتركت فيها، شيء مادي يتهمونني بارتكابه: «لا يمكنكم أن تقولوا بكل بساطة: (نريدك أن تشهد ضد الجميع)».

هددوني، قائلين: «سترسل في نهاية المطاف إلى غوانتانامو، وستعتقل هناك مدة لا يعلم مداها إلا الله، ولن ترى عائلتك مجدداً، وخاطبني مارتي بنبرة

الوعيد ذاتها، ملوحا بالهاتف أمامي، قائلا: «لا يفصلك عن ذلك إلا مكالمة واحدة، وهذا هاتف فضائي يمكن الاتصال عبره بأي مكان في العالم، ولا يسعك إلا قبول ما نقوله إن أردت لقياهم ثانية»، فلم يكن عرضهم إلا سرابا، وقد ازدادت الأمور سوءاً.

بدأت أسمع صراخ امرأة آت من الجوار، وغرقت في التساؤل عما كنت أخشى معرفة الإجابة عنه: «ماذا لو كانت... زوجي؟». لحظ سجاني بوضوح نظرة الخوف المرتسمة على وجهي، فقد كنت واثقا من أنهم كتبوا الآتي في تقاريرهم جميعها: «لا يمكن النفاذ إلى هذا الرجل إلا عبر عائلته...».

كنت أسأل على الدوام عن عائلتي، باحثا عن أي ممن يملك ذرة من التعاطف بينهم، وصليت كي يقول أحدهم على سبيل المثال: «حسنا، يمكننا فعل ما نريد بهذا الرجل، ولكن لنمنحه على الأقل ما يعزي به النفس، عبر معرفة أن عائلته على ما يرام». صليت بغية حدوث ذلك، ولكن أيا منهم لم يفعل.

سمعت الصراخ ذاته يومين بلياليهما، وشعرت بذهني ينهار، وإن لم تبرحه الأفكار.

فكرت في إحدى المرات، حين بدأ الصراخ يعلو، قائلا لنفسي: «سأسحب معصميّ خارج الأصفاد، وأضرب الحارس، ثم أستولي على سلاحه، وأتجه إلى الغرفة المجاورة لأوقف ما كان يحدث»، فقد كانت الفكرة الأخرى تندفع إلى ذهني على الفور: «حسبك أن تمنحهم ما يريدون».

بدأت أفكر أن الشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به، لوضع حد لتلك المعاناة، يتمثل في الاعتراف كذبا بتورطي في أي من المخططات الإرهابية، وتطلب الأمر، مع ذلك، أن يبدو الاعتراف منطقيا، وإن كان بمقدوري إخبارهم بأي شيء. فكرت، ضاحكا، أن أخبرهم أنني خططت لتفخيخ حمار، وإرساله إلى سوق يتردد إليه الأمريكيون، «حمار انتحاري» وقد غير السجانون، بكل الأحوال، رأيهم قبل أن أخرج بأي قصة.

قررت في النهاية أن أقول وأفعل ما يريدون، وتعين علي إيجاد نهاية لمعاناتي، فلم تكن قصة الحمار المفخخ تفي بالغرض، فلأكن شاهدهم إذًا على ما يريدون.

سألتهم فيما بعد، قائلا: «لم تعتقلون امرأة بجواري؟». أجابوا قائلين بعدم وجودها، ولكنني لم أقتنع بذلك.

تردد صدى صرخاتها خلال أسوأ الكوابيس التي رأيتها، مدة طويلة من الزمن، وعلمت لاحقا، من سجناء آخرين، حين كنت في غوانتانامو، أنهم سمعوا تلك الصرخات أيضاً، معتقدين أنها كانت تعود لزوجي، فقد كانوا يصلون كي يفك الله أسرها.

لم تتمحور أفكاري في تلك المدة حول زوجي فحسب، بل حول العائلة أيضا، ما الذي حدث لأطفالي؟، أين هم؟، لم أستبعد، بعد أن عرفت نوعية من كانوا يعتقلونني، أن يعذبوا النساء، أو الأطفال، كي يحصلوا على الأجوبة التي يريدونها من معيليهم، فقد كان ذلك مبررا للغاية في نظرهم، تحت العنوان العريض «إنقاذ أرواح الأمريكيين الأبرياء»، كما يضعونه في الغالب، وكأنه لا توجد أرواح بريئة أخرى في هذا العالم تستحق الحفاظ عليها.

كان استذكار تلك الصرخات أسوأ من الإذلال الجسدي، وكان أسوأ من تعرية المرء، أو إشباعه ضربا، حاولت نسيان كل تلك الاعتداءات، وبينما كان جسدي يتعافى كان المحققون، في نظري، يتفننون في ابتكار أساليب التعذيب النفسي والجسدي، وكأن لسان حالهم يقول: «لم نوسعه ضربا بما فيه الكفاية، لم نؤذه حقيقة».

⁂

-8-

وكلاء الشيطان

وضعت مع مجموعة جديدة من السجناء، العرب في معظمهم، حين تم إنزالي إلى الزنازين مجدداً، وكانوا قد اعتقلوا في مناطق عدة، وقدموا من موريتانيا، وليبيا، ومصر، والجزائر، واليمن، والسودان، بل من روسيا، كان السوداني الضخم، دمث الأخلاق، «أمير»، أكثر من تقربت إليه، فكنت أجاوره تماما في الزنزانة. وأخبرني، حين كنا نتحدث بعيدا عن أعين الحراس، أنه اعتقل في باكستان، حيث قدم لمساعدة الأفغان عقب الغزو الأمريكي، وكان يشعر أنهم بحاجة ماسة لكل مساعدة ممكنة، وتعرفت كذلك إلى بريطاني آخر*، قدم مع أمير إلى الزنزانة، دون أن يمضي فيها أكثر من ليلتين، وذلك ما لم يفسح لنا المجال للتحدث كثيراً.

توطدت معرفتي بأمير، إذ كان يخبرني عن الاستجوابات التي مر بها، فقد كان نايثن يحقق معه، وكثيرا ما استشارني قائلا: «ما الذي يجب علي فعله؟، هل أسأله عن سبب إحضاري إلى هنا؟».

أجبته في إحدى المرات، قائلا: «لو كنا نمر بأي من المواقف الاعتيادية لقلت: إن قول الحقيقة يمثل الخيار الأفضل على الدوام، ولكنك لا تعلم في الموقف الراهن ما الذي سيحدث، أو ستكون ردة فعلهم عليه، فلا أعلم ما أقول لك، فسيستخدمون الحقيقة ضدك هنا، لا في محاكمة عادلة، ولن نحظى على الأرجح بفرصة المجادلة حول قضيتنا».

أخبرهم أمير الحقيقة بكل الأحوال، فأرسلوه إلى غوانتانامو، بينما كنت لا أزال في باغرام.

---

* جمال كيمبا: لا يزال معتقلا في غوانتانامو حتى كتابة هذه الأسطر، وتتوقع عودته إلى أوغندا. (المؤلف).

تحدثت من آن لآخر إلى ليبي كان قد فقد قدمه بسبب لغم، خلال حرب القذافي مع تشاد، وعانى الرجل على نحو خاص؛ لأن الأمريكيين أخذوا ساقه الاصطناعية، وذلك ما اضطره للسير على ركبتيه، فلم يكن عناصر الشرطة العسكرية يسمحون، عندما يحين وقت تغيير زجاجات المياه الفارغة، بأن يقوم رجل واحد بإحضار الماء إلى الزنزانة بأكملها، وتعين على كل منا فعل ذلك بنفسه، فدائما ما كان أحدنا يتطوع لإحضار زجاجة مياه الليبي، ولكنهم كانوا يرفضون ذلك، قائلين: إن عليه القدوم بنفسه لأخذها، فقد كان الرجل مرنا بما يثير الدهشة، وأعيدت ساقه الاصطناعية إليه في نهاية المطاف، ليرسل فيما بعد إلى غوانتانامو.

لم أصدق عينيّ، في أحد الأيام، حين رأيت صاحب محل البقالة ـ الذي كنت أبتاع منه في كابول ـ يدخل الزنزانة، فكنت قد رأيت «دين محمد» آخر مرة قبيل جلائنا عن كابول.

أخبرني دين أنه اعتقل، وبيع إلى الأمريكيين في باكستان بتهمة التعاطف مع القاعدة، بالنظر إلى أن معظم زبائنه كانوا من الأجانب، واعتقد العديد ممن التقيتهم في السجن أنهم بيعوا بالطريقة ذاتها، وأكد لي عدد من المحققين، فيما بعد، أن ذلك كان عرفا شائعا، فقد كان دين مستاء للغاية، وكثيراً ما يبكي، حين يخبرني عن صغاره، كيف يمكنهم تدبير أمرهم من دونه؟، لقد كانوا جميعا من اللاجئين.

منحت، عند وصولي إلى باغرام، نسخة من القرآن الكريم كما منح الباقون وبدأ الحراس في الإساءة والاستهزاء، حين طالب أفراد المجموعة، التي حضر دين معها، بنسخهم:

«هيا، هيا (تقليدا لبائعي الجرائد)، تعالوا واحصلوا على نسختكم الإضافية من القرآن، أكثر الكتب قدسية لديكم، تعلموا كيف تقتلون الأمريكيين...». ألقى عناصر الشرطة العسكرية القرآن على أرضية الممر، عوضا عن تسليمه لدين، فساد الهرج والمرج، وأخذ السجناء يصرخون في الحراس، وشعرت بعجز شديد

في تلك اللحظة، فلم يكن لدى أولئك الجنود أي فكرة عما كانوا يهينون، كان القرآن كلام الله المنزل بالنسبة للمسلمين، فلم أفهم سبب كل ذلك الكره، عاجزاً عن تخيل قيام أي منا بفعل الشيء ذاته بالإنجيل.

أصبح الأمر، مع ذلك، أكثر وضوحا، حين قمت بتحليله: لم يمثل القرآن بالنسبة لهم إلا كتابا من ورق وحبر، فإن كان الجندي يبرر لنفسه امتهان كرامتنا كبشر، فما عساه فاعلا بذلك الكتاب؟.

دخلت مرة في نقاش مع أحد الحراس، من المعمدانيين المتحمسين، الذي كان يرى الحرب مناقضة في بعض الأحيان لمعتقداته المسيحية: «أقنع نفسي كل يوم أنكم دون بني البشر، وكلاء الشيطان، ما يمكنني من القيام بعملي، فيتعين علي، فيما عدا ذلك، أن أعاملكم كبشر، ولا نعامل الناس بتلك الطريقة حيث أتيت».

كنت قد فاوضت الحراس بالفعل كي يسمحوا لنا، على الأقل، بساعة من التمرين قبل الغداء يوميا، فقد كنت أديره في زنزانتي والزنزانة المجاورة، حيث يستطيع السجناء رؤيتي، بينما يقوم بذلك أي ممن يمتلكون بعض الخبرة في الزنازين الأخرى، وكان ريتشارد بيلمر أحدهم، فاعتدت البدء بتمارين الإحماء، فالضغط، والمعدة، فكان التمرين قاسيا بما يكسب القوة والسرعة، وقد ضمنته الجري والدوران، وكان يمثل بالفعل الشيء الوحيد الذي كنت أتطلع إليه في تلك الفترة.

مثلت زيارات هيئة الصليب الأحمر ـ كما كانت في قندهار، بالرغم من تقطعها ـ متنفسا، وفرصة لكتابة الرسائل، فكتبت إلى زينب، جاهلا ما إذا كانت استلمت أيا من رسائلي، حين كنت في قندهار، أو توقيت ذلك، كتبت لها قائلا إنني أصبحت أكثر لياقة مما كنت عليه مدة طويلة، الأمر الذي شكل مفاجأة لها بكل تأكيد، وشعرت بكثير من الرضا لبدئي التمرين، واستمراري به حتى مغادرتي بعد عام لاحق، لقد صرف ذهني بالفعل إلى التفكير في أمور أخرى، وساعدني على مغالبة الاكتئاب، مع أنه لم يدم سوى ساعة يوميا.

احتجت إلى كل ما يمكنني إيجاده من تسلية، فقد كان سبيل الناس يخلى بصورة دورية، مع أنهم كانوا من الأفغان جميعا، وجدت شيئا من الطرافة، حتى في ذلك.

كان يتم إعلام المعتقل، في العادة، قبل إطلاق سراحه بيوم، أو اثنين، أو بضع ساعات، فقد حصل ذلك مع أحد الأفغان في زنزانتي بعد ما يقارب الشهرين من اعتقاله، وكانت تلك الأوقات العاطفية تزيدني شوقا للحرية، جمع الأفغاني حاجاته، وأخذ يودع الجميع، معانقا إياهم، ومضى فيما بعد إلى الممر، حيث كبله الحراس، وأخذوه إلى الزنزانة المجاورة، فبدا في نهاية المطاف أنه لن يذهب إلى بيته، وأنهم نقلوه لا أكثر، وبدت الحيرة واضحة على المسكين، بينما انفجر الجميع تقريبا، من حراس وسجناء، بالضحك، إذ لم يكن الأمر برمته سوى مزحة، كان الرجل ذاهبا بالفعل إلى بيته، ولكنني سألت بعض الودودين من الحراس إغاظته قليلا قبل مغادرته.

أرسل الجميع من غير الأفغان إلى غوانتانامو، فصعب ذلك علي بشكل خاص، بالنظر إلى أن أصدقائي غادروا إلى هناك خلال شهرين أو ثلاثة، بينما تركت وحدي، ومضت أشهر منذ انتهت الاستجوابات، ولكنني بقيت على جهلي بما كان يخطط لي.

تساءلت، حين فكرت في الأمر، عما إذا كان عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي قد قرروا إرسالي إلى الولايات المتحدة، بالنظر إلى موافقتي المبدئية على القيام بما يريدون مني، فلم أكن لأشهد في حياتي، بالطبع، ضد أحد بالباطل، ولكنني فكرت في قول الحقيقة إن تمكنت من الوصول إلى المحكمة، باعتبارها المكان الأنسب لذلك.

بدأت، مع مرور الوقت، بناء علاقة مع بعض الحراس، فلم يعد ذلك لبقائي هناك مدة طويلة نسبيا، بالقياس مع حركة التنقلات الاعتيادية، فحسب، بل لأنني كنت مفيدا، وأساعد في الترجمة، وإدارة التمرين يوميا.

حضر آندرو، عميل الاستخبارات البريطانية، مجدداً في شهر تموز/ يوليو، فدار الكثير من حديثنا حول أمور اعتيادية، ولم أكن واثقا حتى من سبب مجيئه هذه المرة.

بدأت، ما إن أبرز أمامي لائحة بأسماء أئمة المساجد في بريطانيا أدرك مدى الاستهداف الذي يتعرض له الإسلام، فلم أجد، مع ذلك، رابطا بيني، مكبلا بالأصفاد هنا في باغرام، وبين مسجد لم أسمع به في غرب يوركشاير، على سبيل المثال.

عاد آندرو كذلك إلى رحلاتي السابقة إلى البوسنة، والمعسكرات الأفغانية في التسعينيات، مكررا أسئلته ذاتها، فلم يكن مهتما، على وجه الخصوص، بما دفعني للذهاب إلى أفغانستان في عام 2001، بالرغم من أنني ما انفككت أخبره عن المدارس، وحفر الآبار، والفقر.

أخبرته عما حدث لي خلال الاستجوابات التي خضعت لها في شهر أيار/ مايو، مؤكدا أن الأمريكيين كانوا ينوون حقيقة إرسالي إلى مصر كي يتم تعذيبي، وسألته عن شعوره، والحكومة البريطانية، إزاء ما فعله حلفاؤهم الرئيسون، وما هددوا بفعله، وما الذي سيفعلونه إن نفذ الأمريكيون تهديداتهم بالفعل؟ فأجابني قائلا: إن الاستخبارات البريطانية لا يمكن أن تتورط في مثل تلك الأمور، وعقبت قائلا: إن الأمريكيين لا ريب يشركون البريطانيين في أي معلومات يجمعونها عبر الإساءة والتعذيب، فلم يعقب على ذلك، مكتفيا بالتأكيد على أن بريطانيا لا يمكن أن تكون شريكة في ذلك.

عقبت قائلا: «ولكنه حدث، حدث لي يا آندرو، ولم يكونوا ليطرحوا علي كل تلك الأسئلة دون معرفتك، وتعاونك الكاملين، فلا جدال في ذلك بالنسبة لي، ولم ينقذني من الذهاب إلى مصر إلا بعض ما اتسم به أحد ضباط استخباراتهم من ذكاء، فيما يتعلق بصور الكمبيوتر، ولقد كان من السهل كثيرا بالنسبة لهم أن يرسلوني إلى هناك، من السهل كثيراً، ولا يسمح لي بالوصول إلى أي تمثيل قانوني، أو دبلوماسي عبر السفارة البريطانية، بالرغم من أنها فاعلة في كابول».

سألني، قائلا: «كيف علمت ب...؟».

قاطعته، قائلا: «سمعت ذلك من أحد المحتجزين الجدد، تماما كما سمعت عن «عملية آناكوندا»، و«عملية الترمجان» التي قامت بها البحرية الملكية».

عقب، قائلا: «ولكن التحدث ممنوع بين السجناء على ما أعتقد».

عقبت، قائلا: «هو كذلك بالفعل».

سألته عما إذا كان الأمريكيون والبريطانيون قد توصلوا إلى نوع من الاتفاق حول وضعي، ناهيك عن ريتشارد: «يقولون في بعض الأحيان: إنني سأذهب إلى سجن باكستاني، ليغيروا ذلك فيما بعد إلى غوانتانامو، أو أمريكا، فقد أخبرني نايثن أن بريطانيا طلبت بشكل رسمي عودة جميع المعتقلين البريطانيين».

عقب، قائلا: «هل فعل حقا؟، لا علم لي بأي مطالبة رسمية كهذه، ويتمثل كل ما أستطيع قوله لك في أن الأمريكيين هم من يملكون زمام الأمور، ويقررون بهذا الشأن».

سألته، قائلا: «لو قرر الرئيس بوش عدم عودتي إلى الديار مجددا، فهل سيكون ذلك مقبولا بالمطلق بالنسبة لكم؟».

أجابني، قائلا: «إن كان ذلك قراره، فلا نستطيع فعل شيء حياله، فهو صاحب القول الفصل».

أعاد آندرو التأكيد مجددا على أن خياري الوحيد كان متمثلا في التعاون مع الأمريكيين: «هو السبيل الوحيد لإنهاء ما تمر به».

أحببت آندرو في شخصه، بما يثير الاستغراب، فقد كان مغايرا تماما لمعظم من التقيت من الأمريكيين، وأكبرت فيه ثقافته، ومعرفته بتقاليد المنطقة، وحساسيات أهلها، وذكرت مرة فيلم «سقوط مروحية بلاك هوك» أمامه، ليعقب قائلا: إنه لم ير في حياته فيلما ذا دعاية متحيزة مثله، فأدهشني ذلك للغاية.

تحـــدث في إحـــدى المرات، قـــائلا: «لـو كنـا نجلس فـي مــقــهـى، نناقش آراء سياسية، فستفاجأ للغاية من بعض ما أملكه منها». تخيلت نفسي جالسا في مقهى لندني أنيق ـ بوجود آندرو، أو عدمه.

كانت لكنته، بالمقارنة مع تلك التي يتحدث بها الأمريكيون، مألوفة بما ينعش النفس، فتوهمت، بالنظر إلى بريطانيته، أن جهاز «الإم آي فايف» كان في صفي، فما انفككت أذكر نفسي بما قاله لي ذات مرة: «يمكن أن أكون الناطق بلسانك أمام الحكومة البريطانية».

علمت، مع ذلك، ما كان يمثله ذلك الجهاز، والعالم الخفي المظلم الذي ينتمي إليه، فكان بإمكان أفراده قول وفعل ما يريدون، إذ كانوا يظهرون ويختفون دون سابق إنذار كالأشباح، فخاطبني آندرو، قبل أن يغادر، قائلا: «أثق أنني سأراك مجددا يا سيد بيغ، فأنا من لاحقك طيلة أربع السنوات الأخيرة بكل الأحوال».

بدأت أشعر بمزيد من التفاؤل، حين تلقيت أول رسالة من الوطن، أخيرا، حيث كانت من زوج والدي، وقد قالت فيها: إنهم على اتصال مع زينب، وإنها ستعود مع الأطفال قريبا إلى بيرمنغهام، حيث ستضع مولودنا القادم، فمنحني ذلك شيئا من راحة البال، بعد كل الأشياء المريعة التي تخيلتها.

أخبرت الآخرين في زنزانتي عما حدث مع آندرو، وقد كانوا جميعا متفائلين، قائلين: إن ذلك ربما كان يمثل إشارة إلى أن البريطانيين يمكن أن يسترجعوني، فكان الجميع يتنبهون إلى من يتم أخذه للاستجواب، وقد كنا مهتمين بتحليل كل تفصيل، في أي اتجاه اقتيد، كم من الوقت بقي خارجا، فرأيت عناصر الشرطة العسكرية يقتادون ريتشارد أيضا، وكنت أعتقد أننا ننتظر المصير ذاته، آملا بالفعل أن يحدث لنا، نحن البريطانيين، ما هو أفضل، لتضيع آمالي سدى على أرض الواقع، دفعتني كل تلك التحليلات والتكهنات نحو الجنون، فكنت أحاول اتباع المنطقية في تحليل من يفتقدها تماما: الجيش الأمريكي في أفغانستان.

اعتدت أن أراقب بدقة اللوح الأبيض الذي وضعوه قبالة الزنزانة رقم ثلاثة، إذ كانت أرقام جميع السجناء مكتوبة عليه على التوالي، وتشير ألوانها المختلفة إلى أوضاعهم: (الأحمر: وضع عادي)، (الأخضر: وضع مرضي ـ السل عادة)، (الأصفر: وضع خاص، كالحرمان من النوم)، (الأزرق: إرسال إلى غوانتانامو).

تلقيت، في شهر آب/ أغسطس، رسالة من جملة واحدة، تلاها أحد أعضاء هيئة الصليب الأحمر علي: «مولود ذكر، رأى النور في الثامن والعشرين من شهر حزيران/ يونيو، حالته جيدة، وحالة أمه كذلك». سمي الطفل أيوب، كما علمت لاحقا، فأخبرت بقية السجناء في الزنزانة عن تلك الأخبار الطيبة، مصليا من أجله، ومن أجل زينب، وتدثرت بالبطانية فيما بعد، متظاهراً بالنوم، أنتحب حقيقة.

تغيرت الأمور كثيراً منذ أتيت المكان، حين كان عدد السجناء لا يزيد على العشرين تقريبا، شيدت الآن زنازين انفرادية، وتغير النظام، بحيث أخضع كل من يتم إحضاره من السجناء إلى الحرمان من النوم، وقاموا فيما بعد ببناء زنازين أخرى لذلك الغرض، يديرون على الدوام أشرطة «الهيفي ميتال» الصاخبة للمغني مارلين مانسون، كي يحطموا معنويات السجناء الجدد، علاوة على أغنيات فريق «البي جيز» طيلة الليل، ولم يكن ذلك، باعتقادي، ليحطم أيا ممن عرفتهم.

كثيراً ما كنت أمزح في أكثر ما لا يتوقع من مواقف، مستعينا بروح الدعابة في مواجهة واقع الحياة المرير الذي كنت أعيشه، أحب الكثير من الجنود، لكونهم من الجنوب، الاستماع إلى الموسيقا «الكانتري والويسترن»، التي اعتبرت بالنسبة لمعظم المعتقلين كسائر أنواع الموسيقا «الإنجليزية» الأخرى، وكنت أعرف أكثر منهم، لسوء الحظ، فيما يتعلق بذلك.

كنت أخاطب عناصر الشرطة العسكرية، شبه مازح، حين يستمعون إلى تلك الموسيقا، قائلا: «أوقفوا هذا الهراء من فضلكم، وإلا تحدثنا (نحن السجناء) جميعا». لم يعرف العناصر للوهلة الأولى ما يردون به على تلك الملاحظات غير المتوقعة، كما كنت أحس عند النظر في وجوههم المتجهمة، إذ كان معظمهم يسر، مع ذلك، لوجود من يمازحهم من الطرف الآخر.

كان جهلهم التام، بكل الأحوال، يثير الدهشة أحيانا، فقد ساد الهرج والمرج مرة، حين تجمع الحراس والمحققون أمام معتقل جديد، في ممر الزنزانة الثالثة، وصرخ فيه أحدهم، قائلا: «أيها النازي الحثالة». كان ذلك القروي الأفغاني يحمل وشم الصليب المعقوف على ساعده.

ناديت أحد المحققين، قائلا: «رويدك دقيقة، فمن أين حصل النازيون على شعارهم في رأيك؟».

أجابني، قائلا: «آه... لست واثقا، من هتلر؟».

عقبت، قائلا: «تعود أصول ذلك الشعار إلى ثلاثة آلاف سنة مضت، في هذه المنطقة، حيث أتى الآريون من آسيا الوسطى».

عقب، قائلا: «لا يشمل ذلك من نقصدهم...».

أردفت، قائلا: «تدعى الخطوط الجوية الأفغانية «اريانا»، وتملك كلمة إيران الأصل ذاته، ويستخدم الهندوس والبوذيون الشعار ذاته حتى يومنا هذا، وأثق تماما أن هذا الرجل يعلم عن النازية بقدر ما يعلمه عن بوني برينس تشارلي...».

سألني، قائلا: «من؟».

أجبته، قائلا: «لا عليك. يتمثل كل ما آمل به في عدم اعتقادكم بوجود مؤامرة جديدة بين الطالبان، وعصابة (الأخوة الآرية)».

مضى المحقق نحو الحراس الثائرين، ليهمس لهم بشيء ما، وينصرفوا جميعا تاركين «النازي».

تحسنت بعض الأمور على مر الأيام، وأصبحت ثيابنا تستبدل بين الفينة والأخرى، وحصلنا على فرصة مناسبة للاغتسال ـ وإن كان الماء شديد البرودة في العادة ـ عوضا عن استخدام الدلو، وقد مثل ذلك الاغتسال الجماعي، بكل الأحوال، مشكلة لنا جميعا، فمن المهين بالنسبة للمسلم أن يتعرى أمام الآخرين، وقد رفض بعضهم الاغتسال ببساطة، إذ كان ينادى إليهم، ثم يصرخ فيهم، ليقتادوا بالقوة فيما بعد.

توجه الأفغاني الدمث الودود، عبد الرحيم، للاغتسال برفقتنا في إحدى الأمسيات، وقد كان الماء شديد البرودة بالنسبة له، وذلك ما أسقطه أرضا، لينقل إلى المستشفى فيما بعد.

وفَّر لنا السجانون صابونا، وسائل تنظيف شعر رخيصين داخل مكان الاغتسال، ومجموعة من المناشف المشتركة خارجه، ولم نكن نحتاج أمشاط الشعر في أغلب الأحيان، بالنظر إلى أن رؤوسنا كانت تحلق في العادة مرة كل شهر، وحظينا، على الأقل، بفرش أسنان مرقمة، وتعين علينا دخول الممر عند تنظيف أسناننا، واحداً تلو الآخر، نسلم ما يشبه حوضا بلاستيكيا صغيرا مع فرشاة الأسنان، ومعجونها.

سمعت أحد الحراس يصرخ، فيما بعد ظهيرة أحد أيام شهر تموز/ يوليو، قائلا: «ما الذي تظن بحق السماء أنك فاعله؟»، ليعقب ذلك صوت شجار، وضربات مكتومة، خلف الزنزانة رقم ثلاثة، فرأيت فيما بعد كودي، الإيرلندي الأمريكي الذي تعرفت إليه في قندهار، وعنصر شرطة عسكرية آخر من ولاية نورث كارولاينا، رأيتهما يجران سجينا مصابا، بمحاذاة زنزانتنا، إلى المستوصف، وتمكنت من ملاحظة الكدمات على وجهه، والتراب يغطي جسده، بينما كانا يجرانه، ولا ريب أنهما تحدثا بالمذياع طلبا للعون، بالنظر إلى اندفاع الممرضين، والأطباء، والضباط، بمن فيهم الآمرة الجديدة، الرائد ستيوارت، إلى المستوصف، وفتح الباب في نهاية المطاف، وخرج منه الحراس، يحملون الرجل على نقالة، لا تظهر إلا قدماه من تحت الغطاء.

تمثلت القصة في محاولة ذلك الأفغاني الشاب الهرب، إذ كان قد تجاوز السلك الشائك ـ الواقع بجانب المرحاض في آخر الزنزانة ـ بمسافة قصيرة، فقد اعتدنا تغطية الأسلاك بالبطانيات، عند استعمال المرحاض، حفاظا على خصوصيتنا، ويبدو أنه تمكن بتلك الطريقة من عزل الأسلاك الشائكة، بعد إزاحة البرميل المستخدم كمرحاض، ليزحف عبرها في التوقيت المناسب، حين لا يكون الحراس موجودين في الممر الخشبي، الواقع خلف الزنازين، فلم يكن الممر يخلو من واحد أو اثنين منهم في العادة، وذلك ما عنى أنه اختار توقيته بعناية.

حضر كودي لاحقا في تلك الليلة، بعد أن ضمدت ذراعه، وبدأ التحدث إلي، وكنت قد اعتدت بالفعل أن يسر الكثير من الحراس إلي ببعض الأمور، ولكنني فوجئت حقيقة، حين بدأ يخبرني بالتفصيل عما فعله لذلك السجين: (كان قد صرخ فيه، قائلا: «ما الذي تظن بحق السماء أنك فاعله؟»، لينقض عليه مباشرة، انتبه حارس المراقبة المشددة الآخر إلى الأمر، لينقض عليه بدوره من الطرف المقابل، فبدأ كودي يضربه بقوة شديدة لدرجة أنه شعر بكسر ما في جسده، وينضم إليه الحارس الآخر، مستخدما مرفقيه، وركبتيه، كما في الملاكمة التايلندية) ولم أعلم ما إذا كانا قد علما أنهما قتلا الرجل بذلك.

أكد لي وورنيك، بكل الأحوال، بعد فترة قصيرة، أن الرجل قد مات بالفعل، ليدرك أنه أخطأ عبر القيام بذلك، وأكد مخاوف الجميع، وقد حاول التلاعب بأقواله، فيما بعد، قائلا: «آه، لا، لم يمت الرجل بالفعل، وقد غطوا وجهه لإخافة الناس لا أكثر، وجعله عبرة لهم». لم أصدقه، مع ذلك، أو أكن المحتجز الوحيد الذي يبلغ هيئة الصليب الأحمر بالواقعة في زيارتها التالية*، وأكد لي جندي آخر، داميان، موت الرجل بعد مضي بضعة أسابيع، قائلا: «كان من المقرر أن يطلق سراحه في الأسبوع الآتي للحادثة، ولكن أحدا لم يخبره بذلك».

بقيت في الزنزانة، بعد إرسال العرب إلى غوانتانامو، مع بعض الأفغان الذين لم أتواصل معهم بشكل جيد، فقد كنت حزينا، صامتا، أمضي وقتي في إعداد لوائح بأسماء ألعاب كمبيوتر جديدة، وبعض مواقع الإنترنت، وما لقنني إياه محتجز موريتاني من كلمات اللغة الفرنسية، وأعدادها، وقواعدها، بعد أن منحني الجنود قصاصات ورقية صغيرة، ناهيك عن كتابة الكثير من الرسائل.

---

* كان من المقبول بالنسبة للأمريكيين وقوع عدد من حوادث الوفاة في باغرام، فقد استجوبت في غوانتانامو، وبعد إطلاق سراحي من قبل «الإف بي آي»، وأجهزة أمريكية أخرى حول هذه الحادثة، وأخرى شهدتها بعد مضي بضعة أشهر، فتم اتهام سبعة عسكريين أمريكيين على خلفية الحادثتين في عام 2002. (المؤلف).

كانت زيارات الصليب الأحمر تعني، في بعض الأحيان، تلقي رسالة من الوطن، وإرسال عديد الرسائل التي كنت أكتبها من قبل، في أوقات مختلفة، وإن كانت جميعها تحمل التاريخ ذاته، ولم تكن الكتابة تسهل علي، في بعض الأحيان، لعدم تغير الأوضاع بالنسبة لي، علاوة على مرور الوقت ببطء شديد، فكنت أشعر بمزيد من الاكتئاب، حين كانت زينب تخبرني باستيائها الشديد، وكثيراً ما كنت أخفي عنها، عامداً، حالتي المتردية، وقد أخبرتها في إحدى المرات، قائلا: «لا أعرف أيا ممن بقوا هنا فترة طويلة».

كنت، في بعض الأحيان، أكتب رسائل تطمينية قصيرة، بينما أحاول متابعة حياة الأطفال، كيفما استطعت، في أحيان أخرى، فقد كتبت إلى زينب أطلب منها الاتصال بمحاميتنا، لاسترجاع الأموال التي صادرها الأمريكيون من منزلنا في إسلام أباد.

لم أتمكن حقيقة من فهم طبيعة العلاقة بين هيئة الصليب الأحمر والأمريكيين، حيث ظننت في بادئ الأمر أنها كانت وثيقة، لأكتشف فيما بعد أنهم لم يروقوا للأمريكيين، لاعتقادهم أنهم كانوا يتدخلون في عملهم، فتوقفت عن تسليم الرسائل إليهم؛ مخافة ألا يمرروها إلى الهيئة، وشعرت بإحباط شديد لجهلي بما يصل من رسائل، في كلا الاتجاهين، وتوقيت حدوث ذلك، فكتبت الكثير من الرسائل في باغرام، ولم يأتني بالمقابل سوى حفنة منها.

اكتسبت، بعد مضي فترة قصيرة، صديقين رائعين، كان شريف أحدهما، أفغاني شاب فقد عينه منذ مدة طويلة في حادث وقع داخل مصنع، يتحدث العربية والأوردية بطلاقة، وبعضا من الأوزبكية، والإنجليزية، وتمثل الصديق الثاني في سعيد، روسي الجنسية، فقد أحببت كليهما على نحو خاص، لانتظارهما التمرين اليومي بما لا يقل عني لهفة، وبذلهما الكثير من الجهد خلاله، وكان شريف قد تدرب على الفنون القتالية في معسكرات اللاجئين بباكستان، حيث ترعرع، بينما شغل سعيد في السابق رتبة ملازم في الجيش الروسي.

علم شريف الكثير عن أفغانستان وسياستها، ولم أكن الوحيد ممن أحبوا توجيه الأسئلة إليه حول ذلك، فقد حرص المحققون كثيراً على التحدث إليه، وغالبا ما كانوا يستدعونه للخارج، وأخبرني أن والده أعدم من قبل الروس، ودفن حيا مع سجناء سياسيين آخرين قرب مركز العاصمة كابول، في سجن بوليشاركي*، وأخبرني كذلك عن زيجته المدبرة، وأنه لم ير زوجه حتى ليلة الزفاف، مؤكدا على أن خيار والدته كان مناسبا بالنسبة له، وكان تقليديا للغاية في حياته، عصريا في الآن ذاته، كره الرجل حقيقة وجود الأمريكيين في أفغانستان، وعدهم كالمحتلين الذين قتلوا والده، ولكنه كان دافئا معهم على الصعيد الشخصي، يتحدث بعقلانية، محاولا توضيح خطأ ما كانوا يفعلونه ببلده، وقد أدار شريف في حقبة الطالبان مدرسة غير مرخصة (كمدارسنا) للبنات، معلما إياهن الإنجليزية، متقبلا كل المخاطر المرافقة لذلك، فقد أحببت فيه تعقيده، حيث لم تنطبق أي شخصية نمطية عليه، وكان يتمتع بروح الدعابة، مازحا في أكثر ما لا يجده مواطنوه طريفا من مواقف.

اقتيدت دفعة جديدة من المسنين إلى السجن في حينه، وكان أحدهم طاعنا في السن لدرجة أنه جهل عمره، وقال عناصر الشرطة العسكرية: إنه كان في التسعينيات، وكان ظهره محنيا إلى درجة كبيرة، يجر قدميه جرا، ورفض الحراس إعطاءه آلة السمع، وحين سألهم القيام بذلك، تعللوا بأنها تشكل خرقا أمنيا محتملا، وقد أثار ذلك اشمئزاز الجميع، بمن فيهم بعض عناصر الشرطة العسكرية، وتحدث كودي، من بين الجميع، قائلا: «لم آت هنا لأتصرف بهذه الدناءة» وأخبرني أنه رفض «معالجة» ذلك المسن.

كان نزلاء زنزانتنا جميعهم من المسنين، باستثناء شريف، سعيد، وأنا.

اقتيد، فتى أفغاني صغير، «شمس»، إلى الزنزانة في أحد الأيام، ولم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من العمر، فوضعه الحراس مع نقالته عند الزاوية، وكان قد أصيب بطلق في أعلى فخذه، وذلك ما هتك عظامه، ومنعه من السير،

* أوردت الفاينانشال تايمز خبرا مفاده أن الولايات المتحدة تخطط لبناء سجن شديد الحراسة هناك. (المؤلف).

ناهيك عن الوصول إلى المرحاض، أو جلب دوائه، أو الماء، أو الطعام، وقد عجز الفتى كذلك عن الاغتسال، وذلك ما جعل رائحته تزكم الأنوف، فكلفت أنا وشريف بمساعدته، ولم ينته بي المطاف بمساعدة شمس فحسب، بل دربته على السير مجددا، علاوة على كل ما أمكنني التفكير به من تمارين لتقوية الساقين، وقد كنت أنزعج منه في بعض الأحيان، وأصرخ فيه لليونته الزائدة، وأردت إدخاله في حالة من الصدمة، كي يبذل ما يمكنه من السير مجددا، ليفعل في نهاية المطاف، وإن تطلب الأمر عدة أشهر، فاعتاد وضع ذراعه على كتفي، لنمشي الهوينا في الزنزانة، ومنحني ذلك فرصة السير شخصياً.

أخبرني شمس قصة إصابته: هاجمت المروحيات الأمريكية منزله في إحدى الليالي، أثناء تمشيط المنطقة، فقام بإطلاق النار عليها من سلاح عمه، لترد بالمثل، فأصيب واعتقل مع عمه.

كان الأمريكيون يقتادون إلى الزنازين، بين الفينة والأخرى، من يثير ارتياب بقية السجناء، وكان بينهم اثنان على الأقل في زنزانتي، يجولان فيها باستمرار، طارحين أغرب الأسئلة، عارضين مساعدتهما على المعتقلين بعد إخلاء سبيلهم، وقد كان شريف ماهرا في تمييز الأفغان منهم، ولم أكن متأكدا من كون أحدهما مدسوسا من قبل الأمريكيين، ولكنني ارتبت في أمره، إذ ادعى أنه كان ضحية للنزاعات القبلية، وأحد أعضاء الميليشيا المؤيدة لكرزاي*، (ما يدعو للسخرية)، وأنه بيع إلى الأمريكيين مقابل مبلغ من المال، وأخبرني شريف أنه يحب النوم مع الأولاد، وقد روعني ذلك بالفعل.

وقعت حادثة غريبة مع هذا الرجل وجندية شابة كنت أعرف أنها شاذة، لاشتراكها في حوار دار بيني وبين نايثن في إحدى المرات، حول الصعوبات التي لقيها مع صديقاته في السابق، وتحدثت في حينه، قائلة: «هذا صحيح، ألقى الصعوبات ذاتها مع امرأتي»، وقد بدت كولد وسيم بالفعل، ذات شعر قصير للغاية.

* أصبح حامد كرزاي رئيسا لأفغانستان بعد سقوط الطالبان. (المؤلف).

أتت في أحد الأيام لتبديل زجاجة مياه ذلك الأفغاني، ليقوم بإمساك يديها، محاولا تقبيلهما، فأمسكت يديه بدورها، قبل أن تسحبه صارخة، حتى أتى بقية الحراس، وفتحوا باب الزنزانة، ليقتادوه إلى الخارج، ويشبعوه ضربا، ثم يعيدوه.

شهد شريف الحادثة بأكملها، مصراً على أن الأفغاني لم يكن يعلم أنها فتاة، وأنه ما كان ليقترب منها لو فعل.

أخبرني وورنيك عن أحد نشطاء القاعدة المحتجزين لدى الأمريكيين، قائلا إنه كان إرهابيا خطراً للغاية، حاقداً، عالي التدريب، هاجم قافلة للجنود الأمريكيين بقنبلة يدوية، وهي ماضية في سبيلها، تساعد الناس، ليقتل أحد جنودها، وأضاف وورنيك أنه كلف حراسته بالتبادل مع زملائه، وأن جراح المعتقل كانت بليغة، لإصابته بطلقة في الصدر، ناهيك عن فقدان إحدى عينيه.

كان الفتى يدعى عمر، كندي الجنسية، في الخامسة عشرة من عمره، وكنت قد أمضيت معه بضعة أسابيع في الزنزانة رقم اثنين، وكان الممرضون يحضرون يوميا لإعطائه قطرات لعينيه، والوقوف على حال جراحه، وقد لحظت بوضوح الجرح الكبير المقطب في صدره، فاعتصر الألم قلبي حزنا عليه، بما يفوق جميع السجناء الآخرين، لا لصغر سنه فحسب، بل لأنه مثَّل أرق الشخصيات التي التقيتها في حياتي، فلم أر فيه ذلك الفتى الشرير، الذي يركض حاملا القنابل اليدوية؛ ليلقيها على الجنود الأمريكيين المسالمين، كما ادعى وورنيك.

أخبرني عمر قصة مختلفة كليا، إذ كان قد سكن أفغانستان مع عائلته سنوات عديدة، وتُرك مع عدد من الأشخاص، حين بدأ الناس ينزحون، في منزل الرجل المسن «بابا»، الذي اعتقل أيضاً، حين أغار الأمريكيون على المنزل بالمروحيات ليقتلوا كل من فيه، باستثناء بابا وعمر، الذي أصيب في ساقه، داهمت وحدة من القوات الخاصة المنزل، وأخذت تطلق النار على جثث القتلى، آنذاك كان عمر مرميا على الأرض، مصابا بجروح بالغة، وقتل في تلك العملية جندي أمريكي أطلق رفاقه النار على عمر، لينقلوه فيما بعد إلى مستشفى عسكري في باغرام، حيث منحه الجنود، بالفظاظة العسكرية الأمريكية المعروفة ذاتها لقب «طلقة بوب».

عومل عمر بطريقة فظيعة انتقاما لمقتل الجندي، فكثيراً ما كان الحراس يصرخون فيه، ويدفعونه، وكان الحراس الجدد يأتون بحماسة بالغة، حين يستبدلون بزملائهم القدامى، مقتنعين بأننا نستحق السجن جميعا، فقد كانوا يخرجون عمر، في أغلب الأوقات، من زنزانته، ويجبرونه على العمل كالدواب في نقل براميل المياه، وتعبئة الزجاجات، وحمل صناديق الطعام، ناهيك عن نعته بالقاتل.

واجه عمر الكثير مما لا يطاق من الصعوبات* التي تمثل إحداها في اعتقال أخيه في كابول من قبل تحالف الشمال في وقت سابق، وقبوله العمل فعليا مع «السي آي أيه»، بعد إرسال الأمريكيين له إلى غوانتانامو، وأرسلوه أيضاً للعمل في مناطق متعددة كالبوسنة، والشرق الأوسط، قبل أن يستسلم في نهاية المطاف، ويخبر إحدى الجرائد قصته كاملة.

أدرك بعض الأمريكيين، على أقل تقدير، ما كانت حال عمر عليه لاحقا في باغرام، وأنه كان قاصراً يستحق معاملة أفضل، وقد أخبرت أحد المحققين أن مجموعة الحراس الجدد كانت تعامله بصورة سيئة للغاية، ليتحدث في النهاية مع الرقيب المسؤول عن الحراسة.

أطلق الحراس والمحققون الكثير من الإشاعات، ضمن ما كانوا يتبعونه من أساليب لإخافة السجناء، حول إرسالهم إلى غوانتانامو، ولحظت، فيما بعد، عدم وجود معايير محددة لذلك، إذ كان كل شيء متوقفا على المحقق الذي كان يقدم توصيته التي كانت فرصة قبولها تبلغ 100% تقريبا.

علمت، فيما يتعلق بحالتي، أنهم استنفدوا أسئلتهم جميعها بحلول نهاية شهر أيار/ مايو، وإن أبقوني معتقلا لديهم أشهرا بعد ذلك، وطالت تلك الفترة كثيراً، وقد سببت لي ما لا أحسد عليه من ضيق.

---

* شاعت الأخبار في غوانتانامو، بعد مضي سنتين، أن والد عمر قتل رميا بالرصاص في شمال باكستان، وتم تقديم عمر للمحاكمة من قبل لجنة عسكرية في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 2005. (المؤلف)

اعتدت، بعد مغادرة دفعة الحراس القدامى، الخروج من الزنزانة في معظم الأمسيات، لتقديم العون فيما يتعلق بوجبات الطعام، فقد منحني ذلك شيئا من الاستقلالية، وقدمت العديد من الاقتراحات إلى دفعة الحراس الجدد حول إعادة تنظيم الإجراءات، إذ كانت أطنان الطعام ترمى كل أسبوع، لنأوي إلى الفراش جوعى حيث بلغ بي الأمر حد سؤال الملازم التبرع بالطعام إلى الأطفال المحليين، عوضا عن رميه، واقتنع أحد الضباط، في نهاية المطاف، ووافق على منح الطعام لنا، بعد استبعاد كل ما يمكن أن يشكل مخاطر محتملة كالفلفل الأسود، أو سخانات المياه، مثل ذلك إنجازا كبيراً آخر بالنسبة لي، وفاوضت بنجاح للحصول على كمية إضافية من بذور عباد الشمس، والفستق.

كان شريف، سعيد، وأنا من يتم إخراجهم في العادة للقيام بتلك المهمة، يرافقنا عمر أحيانا، إذ كنا نجلس على الكراسي خارج الزنازين، تكبل أيدينا وأرجلنا بسلاسل طويلة، توفر لنا حرية أكبر للحركة، فكان الحراس يجلسون أمامنا، لنتحدث جميعا، وكأننا أصدقاء، وسمح لنا معظمهم بتناول ما نود من العلب، علاوة على استخدام المسخنات لتسخينها، وكنا نأخذ علب الطعام، في النهاية، ونضعها خارج الزنازين، تمهيدا لتوزيعها على السجناء في اليوم الآتي.

تم إطلاق سراح شريف بعد مدة قصيرة، لأتابع أنا، وسعيد، القيام بتلك المهمة، واسترعى انتباهي، ما كتب على اللوح الأبيض في أحد أيام شهر تشرين الأول/ أكتوبر: انتقلت أسماء سعيد، وشمس، وعمر، وريتشارد بيلمر، وجمال كيمبا، علاوة على آخرين، إلى اللون الأزرق.

لم أعد أستسيغ إعداد وجبات الطعام، في معظم الأحيان، بعد مغادرة تلك المجموعة إلى غوانتانامو، وقد تغير ذلك، حين التقيت أكثر من أثر فيّ من الجنود في باغرام، وهي ستيفاني طالبة إدارة أعمال من أوهايو، في أوائل العشرينيات من عمرها، وأحد أكثر الجنود المثقفين الذين التقيتهم، ناهيك عن كونها الوحيدة تقريبا ممن كانوا يشاركوننا في إعداد الوجبات، على النقيض

من زملائها الذين اكتفوا بالجلوس والمراقبة، واكتشفت بمرور الأيام أنها تهوى الأدب والشعر الإنجليزيين، فناقشتها في عدد من الروايات، علاوة على ما حدثتها به عن الإسلام، وكتبته لها حتى من بضع صفحات المقارنة بين تاريخ ديننا ومعتقداته.

أطلعتها على صورة أطفالي حين تلقيتها أخيراً، ليتمثل ردها الفوري في قول الآتي: «لدي ما أظن أنه سيروقك». فأحضرت بعض أوراق الكتابة، المزينة بصور أزهار جميلة، كي أكتب إلى الأطفال، وطلبت منها مراجعة بعض الجمل التي كتبتها إلى زوجي بالفرنسية، حين اكتشفت أنها تتحدثها بطلاقة.

كثيراً ما كنا نتحدث، عند إعداد وجبات الطعام، وعن الحياة في أمريكا، وبريطانيا، وأفغانستان، فقد كانت ستيفاني، في نظري، شخصا يود مساعدة الأفغان بصدق، لا سجنهم، أو قتلهم، وتحدثت في إحدى المرات قائلة: «لست كأولئك الناس على الإطلاق»، في إشارة إلى زملائها، وقد صدقت.

راجت إشاعة في السجن تقول: إن «المعتقل 180»، البريطاني ضئيل الحجم، كان قاتلا عالي التدريب، يقبض عشرات ألوف الدولارات ليقتل.

سألتني ستيفاني ذات مرة، قائلة: «هل تمانع إن طرحت عليك سؤالا؟».

أجبتها قائلا: «على الإطلاق».

طرحت سؤالها، قائلة: «هل أنت قاتل بحق؟».

أجبتها، قائلا: «وماذا لو كنت؟».

أجابت، قائلة: «آه، لا شيء. سيكون ذلك رائعا في الحقيقة، فلم ألتق قاتلا من قبل».

لم أعرف ما إذا كان ذلك يمثل مديحا أو إهانة، ولكنني وجدت في النهاية أنه أقرب إلى ما يعد غريبا من الإطراء، قائلا: «ولا أنا أيضاً».

كانت ستيفاني جندية احتياط شابة، بسيطة حتى السذاجة، يسهل التأثير فيها، وكنا نستمتع بالحديث مع بعضنا بعضا، فقد لاحظ عدد من الحراس أنها كانت تكثر من الحديث مع المحتجزين كسبا لودهم، وضايقها ذلك قليلا، لتحدثني في إحدى المرات، قائلة: «لا أستطيع أن أكون كأولئك الشباب فحسب، أملك نظرة مختلفة إلى الحياة عن معظمهم، بالرغم من محبتي لهم».

كتبت إلى عائلتي عن كل شيء، بما في ذلك الحشرات، التي اجتاحت المكان في الصيف، لا سيما عناكب الجمال، التي كنت قد بحثت عن المعلومات عنها في الإنترنت، قبل أن نذهب إلى كابول، وقد كانت صورة عنكبوت الجمال إحدى ما استجوبت من أجله من صور، وجدت على كمبيوتي المحمول، في شهر أيار/ مايو، وكتبت، بالنظر إلى أنني مارست التدريس نوعا ما في السابق - بالرغم من الظروف التي أمر بها حاليا - قائلا: «... تعد عنكبوت الجمال الوحيدة في العالم التي تملك عشرة أرجل، ولا يمكن اعتبارها في نظري عنكبوتا بالمعنى العلمي للكلمة، فأنها تكبر بما يفوق حجم اليد البشرية، وتتحرك بسرعة كبيرة، وتؤدي عضتها إلى تفسخ الجسم...». لم أنم العديد من الليالي بسببها، بعدما رأيت، على نحو خاص، ما فعلته عضتها باثنين من المحتجزين، أخذ جسدهما يتفسخ، ويكتسب اللون الأسود. تلذذ الحراس في بعض الأحيان، بصورة لا تخلو من السادية، بالتقاط تلك العناكب، ووضعها في إناء مع العقارب، لمشاهدتها تتصارع فيما بعد، رأيت، في إحدى المرات، حارسا يرمي إحداها على العجوز، بابا، في الممر.

كتبت الرسائل في بعض الأحيان لمجرد السخرية من الأمريكيين، مستبعدا أن يتم السماح بتمريرها، فهاكم بعض ما كتبته لأبي في إحداها: «... دخلت في نقاش مع أحدهم مؤخرا حول أكبر إسهامات الولايات المتحدة في الحضارة الإنسانية (بعد الحديث عن اليونان القديمة، ومصر، وبلاد ما بين النهرين، والهند، والصين، إلخ). فكرت ساعات لأصل إلى الجواب في النهاية: زبدة الفستق (الطرية والمقرمشة في الوقت ذاته!). لم يكن ذلك مسليا بالنسبة لشريكي في النقاش...».

كان الشاب الأسود إيفانز، دارس تاريخ الفن من إنديانا بوليس، مهتما بالأدب الإنجليزي، علاوة على الأدب الأسود، وذلك ما أثار فضولي، فقد تحدثت إلى الحراس على الدوام حول ما يقرؤونه من كتب، وكان إيفانز يملك الكثير منها، ناقشنا الأعمال والفلسفات المتعددة لبوكر تي، وواشنطن، ودبليو، وإي. بي. دوبويز، ومارتن لوثر كينغ، ومالكوم إكس، وأحببت في صغري على نحو خاص موسيقا الآر اند بي، والريغي، والهيب هوب، وقد فاجأ ذلك إيفانز كثيراً.

خاطبني في إحدى المرات، قائلا: «أنت أكثر من قابلت من الرجال السود ثقافة ووعيا خارج أمريكا».

كان العرب والأفغان يقرؤون بالفعل كتبا توافرت لهم من هيئة الصليب الأحمر، دون أن يشمل ذلك المكتوبة بالإنجليزية منها، وما انفك إيفانز يزودني بما تحويه مجموعته الخاصة من كتب.

استمتعت بالقدر الأكبر بقراءة «محاربو الله»، مقارنة بين حياتي صلاح الدين، وريتشارد قلب الأسد، و«العائلة» لماريو بوزو، وقرأت كذلك رواية لتوم كلانسي للمرة الأولى، فتبدأ «أوامر تنفيذية» بطيار حاقد يصدم طائرة الركاب التي يقودها في مبنى واقع في الكابيتول هيل، ليقتل كل أعضاء الحكومة الأمريكية، وتقوم الخلايا الإرهابية الإسلامية، فيما بعد، بشن هجمات بالأسلحة البيولوجية في أنحاء الولايات المتحدة، ويدفع ذلك رئيس «السي آي أيه» السابق، الرئيس الحالي في الرواية، لشن حرب مدمرة ضد العراق وإيران، ويعد التشابه بين تلك الرواية، وما حدث فيما بعد مذهلا، وإن كتبت في عام 1996.

قرأت العديد من الكتب في باغرام، بعد أن زودني بها الحراس، تضمنت كتبا عن الدماغ، والأنثروبولوجيا، ووينستون تشرشل، وحرب الاستقلال، والحرب الأهلية الأمريكية، والحرب العالمية الثانية، وفيتنام، وأفغانستان أيضاً، وقد اعتدت تصنيفها بدقة، وتدوين ما يمكن أن يفيدني ـ يوما ما ـ مما ورد فيها من اقتباسات وحقائق.

كان الرقباء المسؤولون عن الحراسة هم من يملكون زمام الأمور في باغرام، وقد علمت، بعد مضي فترة قصيرة، أن بمقدورهم سحب كل الامتيازات البسيطة التي حصلنا عليها في لحظات.

كان أحدهم بغيضا، لم أحببه على الإطلاق، ناهيك عن أن تعامله مع المحتجزين شجع من كانوا تحت إمرته على التصرف بالطريقة ذاتها، فقد رأيته مرة يفتش إحدى الزنازين مع عدد من الحراس، بطريقة قاسية تعبر عن شخصيته تماما، وطلب من جميع نزلائها التوجه إلى آخرها، والنزول على ركبهم، بعد وضع أيديهم خلف رؤوسهم، دخل الحراس الزنزانة فيما بعد لتفتيشها، مبعثرين كل ما كان فيها من محتويات وبطانيات، فلم يكترث لسير جنوده على بطانيات السجناء، وفوق أماكن صلاتهم، فقد كان أحدهم لا يزال يصلي في حينه، ليمسك به الرقيب، ويجره من شعره إلى آخر الزنزانة، قبل أن يرمي به أرضا، حيث كان الجميع راكعين، ويصرخ فيه قائلا: «يجدر بك أن تصلي إلي أيها السافل. أنا ربك الوحيد هنا». طُلب منا الاستدارة في زنزانتنا، وعدم مراقبة عملية التفتيش، ولكننا كنا قد رأينا بالفعل ما يكفي.

تم اقتياد أفغاني آخر، في أواخر العام 2002 تقريبا، إلى الزنزانة التي كنت معتقلا فيها، وتمثلت الإجراءات آنذاك في تعريض السجناء الجدد إلى الموسيقا الصاخبة، ووضعهم في زنازين انفرادية، وحرمانهم من النوم، كخطوات تمهيدية لنقلهم إلى الزنازين الرئيسة، قد كانوا يحتجزون بعض الوقت في ممرات الزنازين قبل إدخالهم إليها، ويحتجز ذلك الأفغاني في الممر الخاص بنا، فاستطعت رؤيته حين كان واقفا، يترنح من شدة النعاس بعد حرمانه من النوم، فلم أتمكن من رؤية وجهه إلا مرة واحدة، بالنظر إلى أن الحراس كانوا يجبرونه على الوقوف مقابلهم.

كثيراً ما اضطر السجناء الجدد إلى النوم في الممرات، بالرغم من ضيق مساحتها، ولكن يسمح له بذلك، إذ كانوا يأمرونه بالوقوف على الدوام، واقتيد مرة أو اثنتين إلى غرفة الاستجواب، لتتم إعادته، ويؤمر بالوقوف مجدداً، وأذكر أن رقمه كان 421، بالنظر إلى أن فرشاة أسنانه تركت مع العائدة لنا، على الرف خارج الزنزانة، بعد اختفائه في نهاية المطاف.

تهاوى الرجل بكل بساطة في إحدى الأمسيات، بعد وقوفه فترة طويلة داخل الممر، فأرغمه عناصر الشرطة العسكرية على الوقوف مجددا، عبر تكبيل يديه بقمة باب الزنزانة، فوق رأسه تماما، وقد بدأ الرجل يقول بعض الأشياء، متعمدا إحداث جلبة، لعل أحد الحراس يأتي ويزيل أصفاده، ولكنني لم أفهم أيا مما قاله، إذ كان من الواضح أنه لم يكن مرتاحا في تلك الوضعية على الإطلاق، ينادي الحراس طلبا للعون، وانهار الرجل في نهاية المطاف، ليدخل الحراس الممر، ويبدؤوا في توجيه اللكمات إليه، عوضا عن فك قيده، والوقوف على حاله، فقد كان أحد الرقباء، الخاضعين لسابق الذكر، يلكمه بكل قوة على أضلعه، وقام الحراس بعد ذلك بإزالة أصفاده، وإعادة تكبيله، بعد إبعاده عن باب الزنزانة، ليسحبوه إلى غرفة الاستجواب، ولم نر الرجل ثانية.

سمعت لاحقا في تلك الليلة أحد الجنود ـ بورتوريكي، محترم للغاية في تعامله معي ـ وهو يصرخ، صاعدا السلالم، هابطها، قائلا: «سنتعرض إلى ما لا تحمد عقباه بسبب ذلك». استنتجت، بناء على ذلك حدوث أمر سيئ للغاية، وبدأت الإشاعات تسري، فيما بعد، أن السجين 421 قد قتل، وهي الإشاعات التي يتحدث بها بعض الأفغان الذين كانوا يحتجزون في الزنازين الانفرادية.

لم يكن اختفاء سجين واحد، فيما يتعلق بباغرام، بذلك الخطب الجلل، إذ كان العديد من الناس يأتون ويذهبون، دون أن أكون واثقا من وجهة أي منهم، وإن تمكنت من رؤية ملامح الفرح على من يتم إطلاق سراحهم، فقد كانوا يطيرون فرحا، ويجولون في الزنزانة معانقين الجميع، مودعيهم، بالرغم من عدم سماح الحراس بذلك، ولم يكن أي منهم ليكترث بالنظر إلى نيله الحرية مجدداً، حيث كان الأمريكيون يسمحون لهم بأخذ بطانياتهم معهم.

اقتيد إلى السجن، بحلول تلك الفترة، بشر الراوي، وجميل البنا، من لندن، لأبدأ التحدث إليهما كلما استطعت، وكنت قد التقيت جميل مرة في السابق حين قدم إلى المكتبة، وابتاع بعض الأشياء، بينما لم يحدث ذلك مع بشر، الذي جهلت

ما إذا كان يتحدث الإنجليزية، لأدرك بعد رؤيته يخاطب الحراس أنه كان يفعل بالتأكيد، فقد صعقت للغاية حين رأيتهما أول مرة هناك، لاعتقادي أن بريطانيا كانت تسلم مواطنيها الموجودين على أراضيها إلى الأمريكيين مباشرة، مثل ذلك صدمة حقيقية بالنسبة لي، وقد فكرت قائلا لنفسي: «لم يعد لي أي أمل الآن بالخلاص مما أنا فيه، أصبح الأمر خطيراً للغاية». تخيلت قدوم عشرات الشاحنات المحملة بالبريطانيين لنقلهم إلى باغرام وغوانتانامو.

سألت أحد الحراس مرة عما إذا كان بمقدوره إحضار بشر إلى الخارج، بينما كنت أعد وجبات الطعام، ليوافق على ذلك شريطة أن نتحدث بالإنجليزية، فقد تحفظنا في الحديث بادئ الأمر، لننتقل في غضون دقائق إلى مناقشة أوضاعنا، إذ كنت متلهفا على نحو خاص لمعرفة الأحوال في بريطانيا، وما سمعه بشر عن قضيتي، فلم يكن يعلم الكثير عنها للأسف.

كان بشر إنجليزيا في الصميم، واثقا من نفسه، يتوق لمساعدة الآخرين، رأيته في إحدى المرات يعلم أفغانيا كيفية تنظيف أسنانه، عبر تحريك الفرشاة، لا رأسه، وتمكنت من إعارته بعض كتب إيفانز، عبر رميها فوق الأسلاك إلى زنزانته.

تحدثت كذلك إلى جميل مرة حين كان في الزنزانة المجاورة، لحظ أحد المحققين ذلك، بلا ريب، حين كان في الأعلى، ليقتاده إلى الاستجواب، فلا بد أنهم قالوا ما أفزعه، بحيث لم يكلمني على الإطلاق فيما بعد، وكانوا يلقبونه «بكيني روجرز»، بالرغم من أنه لم يسمع بذلك الاسم على الأرجح، فقد كان يشبه مغني موسيقا «الكانتري» ذاك بالفعل، فطالبوه في إحدى المرات بغناء مقطع لقنوه إياه من إحدى أغنياته، ليلبي طلبهم بصوت نشاز مرتفع، فلم يبد جميل مستاء للغاية في تلك الفترة، وقد تولد لدي انطباع بأنه يعتقد بإطلاق سراحه قريبا، وأن الأمريكيين ربما يدركون خطأهم باعتقاله.

لم أكن لأتخيل مطلقا في حينه أنني سأكون في بيتي، بعد ما يقارب ثلاث السنوات، أنجز كتابي، بينما لا يزال هو معتقلا في غوانتانامو.

قـرر الأمـريكيـون في نهـاية المطاف، بعـد عـدة أشـهـر من عـدم التـعـرض إلى الشـمس، أو أي ضـوء طبـعيّ آخـر إقامـة مـا يدعـى «سـاحـة التـمـرين» من أجلنا، إذ قـامـوا بتكبيلنـا، ووضع سـترات علينا، وإلبـاسنا طاقيـات سـخيفـة، لشـدة البـرودة، قبل إخـراجنا واحدا تلو الآخـر، فقـد كنا نربط بسلسلة واحدة، ونجـري في خط مـسـتـقـيم، وكـانوا يخـرجـوننـا إلى مكان مـسـور بالكامل، لا إطلالة له، ويـربطـون السلسلة بمقـعـد خـشبي كـبيـر، حيـث كنا نجلس، فـتعين علينا جمـيـعـا، إن وقف أحدنا، أو جلس، أو سار، أن نفعل مثله، منتظمين على هيئة قوس، لا أكثر، حول المقعـد، ولم يكن يفترض بذلك أن يدوم أكثر من عشـر دقائق، ليتفق جميعنا، بعد مـرور خـمس منهـا، على أنه لم يكن سـوى مـضـيـعـة للوقت، مـفـضلين العـودة إلى زنازيننا، حيث مثل ذلك جزءاً من «التمرين» الذي كنت أقوم به خارج الزنزانة.

كنت أجلس طيلة الوقت، فيما عدا ذلك، حيث كنت أنام تماما، باستثناء سـاعة التمرين اليومية قبل الغداء، وبقيت على ذلك المنوال عاما كاملا في الحقيقة.

كـان أكثـر من أمضيت معـه الوقت، فيمـا بعـد، سعوديا اعـتقل في أذربيـجـان، ليـسلم إلى الأمـريكيين، وهـو مـحـمـد أحـمـد الذي عـومل بطريقـة سـيئـة للغـاية، باعتباره قريبا لأحد منفذي هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

تحدث الحـراس عنه، قائلين: إنه كـان «أحد أعضـاء القـاعدة الفـاعلين، وجنديا سـابقـا في البـحـرية السـعـودية». وأرغمـوه على العمل كـالدواب، كمـا فـعلوا مع عـمر إلى حـد كـبيـر، نـاقـلا الماء من مكان لآخـر، صـعـودا ونزولا، ناهيك عن مـحـاولات إذلاله بكل السبـل الممكنة، فقـد طالبـتهم التوقف عـن ذلك ولكن بلا جـدوى، وقـد توافقت مع مـحمد إلى حد بعيد، ورغم ذلك كان الوحيـد الذي كدت أتشاجر معه في الزنـزانة.

سـألتـه في إحـدى المرات طي بطانيـتـه، عندمـا حـان مـوعـد التـمـرين، فـرفض متـعللا بـأن مـزاجـه لا يسـمح بذلك، وبقـي مـسـتلقـيـا علـى الأرض، سـاداً الطريق أمـام بقـيـة المتـمـرنين من السـجنـاء، فـبدأت طيـهـا بنفـسي، فـفـرشـهـا علـى الأرض

مجدداً، وتبادلنا النظرات الحادة، ولكنني لم أرغب في التشاجر معه، إذ قام في نهاية المطاف بطي بطانيته، كيلا يركض السجناء فوقها، وانزوى في الركن عابسا، و لم نتحدث بعد تلك الحادثة بضعة أسابيع، حتى حان يوم مغادرتي، فنظرت إليه، فنظر إلي بدوره، مصافحا يدي، معانقا إياي، قائلا: «آسف حقا لما حدث، أعتذر منك».

عقبت، قائلا: «تحدث تلك الأمور أحيانا».

شهدت شجارين وقع كلاهما في زنزانتي، كان الأول بين أفغاني ضخم الجثة، يبلغ حوالي سبعة الأقدام في طوله، يفوق المئة والعشرين كيلو غراما في وزنه على الأرجح، وبين محمد السعودي، فقد كان سبب الشجار بينهما تافها، حول من ينظف أسنانه أولا، أو حول شيء من هذا القبيل، فكرَّ عليه محمد راكلا إياه في وجهه، فالتقط الأفغاني زجاجة مياه بلاستيكية، محاولا ضربه بها، وركضت في نهاية المطاف لأحول بينهما، ووقع الشجار الثاني بين أفغانيين يؤيد أحدهما طالبان، ويعارضها الآخر، فتشاجر الرجلان كما القطط، يخرمشان بعضهما بعضا، ويعضان، ويصفعان، بلا ركلات، أو لكمات، فوقفت حائلا بينهما كما فعلت في السابق.

حل رمضان - مجدداً - وهو الثاني الذي أمضيه بعيداً عن عائلتي، فلم أكن واقعا هذه المرة تحت تأثير الصدمة، كما كنت في قندهار، لأشعر بشديد الحزن والوحدة، إذ كانت الحال رهيبة بالفعل، فلم يكن يسمح لنا بالتحدث، أو الصلاة جماعة، أو القيام بأي شيء، وتمثل الأسوأ في تفويت صلاة التراويح الرمضانية المميزة جماعة، فلم يكن الحراس يسمحون بأدائها، أو يعطوننا حتى ما نفطر عليه، ولم يقدم لنا أي طعام، في الواقع، خلال أول أسبوعين من رمضان حتى العاشرة مساء، بعد غروب الشمس بخمس ساعات، كان تصرفهم حاقداً للغاية، وقد كانوا يعلمون ذلك، إذ لقد كانوا يمنعون عنا التمر الذي كانت تجلبه هيئة الصليب الأحمر، إلى أن يحل المساء، وأحضرت لنا الهيئة بعض الكعك في يوم العيد، الذي يفترض به أن يكون احتفاليا، فحرمنا الحراس منه حتى اليوم الآتي، مما جعله متأخراً للغاية، فكان ذلك بمنزلة الاحتفال بعيد الميلاد في اليوم الآتي له.

جعلونا نصوم فعليا في يوم العيد، فأخبرت ستيفاني بالأمر في تلك الليلة، حين غادرتُ الزنزانة لإعداد وجبات الطعام، إذ شعرتُ باستياء بالغ، وذهبتُ إلى حيث كان الحراس، لتعود بحصتها من الحساء، والكعك، والشوكولاتة المسماة «قبلات»، وتقدمها لي، ولعبد الرحيم، الأفغاني الذي وقع في الحمام، قائلة: «لتعرفا أننا لا نتصرف إلا بالطريقة ذاتها جميعا».

تأثر عبد الرحيم بموقفها، المخالف لما خبره عن الأمريكيين، قائلا: «إنها فتاة جيدة بحق».

عقبت بالقول، ضاحكا: «أعلم ذلك، فقد منحتنا بعض القبلات للتو».

لم تكن هناك الكثير من اللحظات الإنسانية الجميلة كتلك، وقد أصبح إحساسي بمرور الوقت، بعد رمضان، مؤلما بما لا يطاق، فكتبت إلى والدي الرسالة الآتية:

أبي العزيز،

السلام عليكم... قارب وجودي في الحجز السنة، مؤمنا بتعرض حقوقي الإنسانية لانتهاك صارخ، وبخاصة ذلك المتعلق بالحرية، والبراءة؛ حتى تثبت إدانتي، وأجهل حتى الآن ما يفترضون ارتكابي له من جرائم، لا أدفع ثمنها وحدي فحسب، بل زوجي وأطفالي كذلك، فأمر بحالة من اليأس، وقد بدأت أخسر معركتي ضد الاكتئاب، وفقدان الأمل... لم أر الشمس، أو القمر، أو السماء ما يقارب السنة... سجنت أكثر مما يكفي لإشباع «تخيلاتهم» حولي، دون رؤية أي نهاية لما أمر به، وأكره كثيراً إلقاء هذا الحمل على عاتقك، لاجئا إليك كملاذ أخير لتخليصي من هذا الظلم، أرجوك تذكرني في صلواتك.

ولدك معظّم.

كان شريف قد أخبرني أن الأمريكيين سيطلقون سراحه، لاجتيازه اختبار كشف الكذب بنجاح، مقترحا قبل مغادرته أن أطلب الخضوع له أيضا، فكتبت في نهاية السنة، بدافع من يأسي، رسالة من أربع صفحات إلى الأمريكيين، مفصلا

فيها جريمتي المتمثلة في قتل السجينين اللذين شهدتهما، والمعاملة الرهيبة التي كنا نتعرض لها بصورة عامة، ومطالبتي الثابتة بالخضوع لاختبار كشف الكذب، ودونت في الرسالة أكثر ما اعتقدت أنه مهم من الأسئلة التي يمكن أن تطرح علي: «هل كنت متورطا في أي عمل إرهابي؟، هل كنت متورطا في أي عمل عدائي ضد الولايات المتحدة؟، هل كان لدي علم مسبق بأي من الأعمال الإرهابية؟، هل مولت أيا منها؟، هل كنت عضوا في القاعدة، أو أي جماعة مماثلة؟». لم أتلق أي جواب على تلك الرسالة، أبدا.

ما الذي كان يميزني عن البقية في نظرهم يا ترى؟.

استدعاني في نهاية المطاف، في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 2003، أحد أفضل المحققين الذين التقيتهم، جاي، قائلا: «ستذهب إلى غوانتانامو، وربما تتحسن الأمور بالنسبة لك هناك، حيث ستجد حلا، فلا خيار لك سوى ذلك».

تساءلت، قائلا لنفسي: «هل يمكن أن تكون الحال أسوأ، في تلك الأقفاص الصغيرة، منها في باغرام؟».

روعتني، كالآخرين، فكرة الذهاب إلى غوانتانامو باستمرار، وقد كنت أشعر، كلما غادرت مجموعة إلى هناك ـ حوالي الأربع طيلة مدة مكوثي في قندهار، وباغرام ـ بارتياح كبير لعدم وجودي بينهم، وبلغت بحلول دوري، مع ذلك، مرحلة شعرت فيها أن أي شيء يمكن أن يكون أفضل من باغرام، فقد كنت ملولا تعبا من المكان، وقوانينه، وأطعمته، ومواقف حراسه، وروائحه، وأنواره، وزنازينه، وبلغت الأمور مداها بالنسبة لي، إذكانت الأقفاص الصغيرة في غوانتانامو التي كنت أعلم بها، معتبرا إياها كأوجرة الكلاب أكثر احتمالا في نظري، لما بدا أنها تمثله من تقدم باتجاه محاكمة معقولة، على الأراضي الأمريكية ربما، فاعتبرت ذلك بمنزلة خطوة إلى الأمام، متفائلا كعادتي.

لم أكن مهيئا، للحبس الانفرادي في غرفة محرومة من أي ضوء طبعيّ، ولم أتخيل أن يتم اعتقالي في هذه الظروف عشرين شهراً، أو أن الأمريكيين كانوا يخططون لإجباري على توقيع اعترافات مكتوبة من قبلهم.

زودنا الأمريكيون، حين أزفت ساعة مغادرتنا باغرام، بسترة، وطاقية برتقالية اللون، علاوة على ما كنا نرتديه من ملابس تحمل اللون ذاته، وتمت حلاقة رؤوسنا مرة أخرى، تحسبا، كما قال الحراس، لاحتمال إخفائنا دبابيس، أو أي أسلحة دقيقة أخرى في شعورنا، فقد كان ذلك مبالغة سخيفة، كالعادة، فمن أين يمكن لنا إحضار تلك الأسلحة؟. كنا مكبلين جميعا، بسلاسل ملتفة حول خصورنا، تتصل بالأصفاد، ناهيك عن أرجلنا المقيدة بالطريقة المعتادة، جلسنا ننتظر في غرفتين، بينما كان الحراس يواكبون السجناء، بين الفينة والأخرى، إلى المرحاض، بالنظر إلى أن الرحلة يمكن أن تطول ستا وثلاثين ساعة، أو أكثر، وقررت أن أكبت نفسي، مهما طالت الرحلة، على أن أتعرض للإذلال، فقد فعلت ذلك يومين كاملين في الحقيقة.

كان معظم السجناء قد أخبروا بما يخيفهم الذهاب إلى غوانتانامو من قصص، رأيت، في الزنازين المجاورة، اثنين من الأفغان الذين كانوا يهابون ذلك الاحتمال على نحو خاص، فانهارا باكيين، حين تم إخبارهما بإمكانية تحوله إلى حقيقة واقعة، ولم يستطع أحدهما النهوض فعليا، لما سببه له التفكير في ذلك من إنهاك جسدي وعقلي، فقد كانت غوانتانامو تمثل نهاية العالم بالنسبة له، إذ شعر أن حياته انتهت، وأنه لن يرى عائلته مجدداً، وكانت إحدى المحققات، شابة لاتينية الأصل، قد أخبرته ذلك بالفعل، قائلة: «يمكنك كتابة رسالة إلى زوجك لإخبارها أنك لن تراها مجدداً» وتمثل السبب الوحيد لإرساله إلى غوانتانامو في رفضه الاعتراف أنه كان عضوا في الطالبان، حاولوا خائبين رشوته، قائلين: إنهم لن يرسلوه إلى هناك إن أقر باتهاماته.

عمل سجناء آخرون أيضاً على إظهار براءتهم، كشاب باكستاني في السابعة عشرة من العمر، كان قد اعتقل على الحدود بطريقة ما من قبل تحالف الشمال، وأصر الأخير على أنه كان عامل بناء في أفغانستان، فقد بدا واضحا أنه لم يكن من أهل المنطقة، ناهيك عن بشرته الأشد اسمراراً، وكان ذلك كافيا بالنسبة للأمريكيين ليعتقدوا أنه يخطط لعمل شنيع ما.

جلسنا مكبلين، ننتظر الصعود إلى الطائرة، فكنت أتطلع حقيقة لذلك، فقد كانت غوانتانامو، مجددا، تمثل تقدما بالمقارنة مع باغرام.

جلست ستيفاني في غرفة الانتظار بيني وبين وزير خارجية طالبان السابق الملا متوكل، الذي كان قد احتجز بمعزل عن بقيتنا، حيث علمت أن ستيفاني كانت حزينة لرؤيتي أغادر، وقد جلست بضع دقائق دون أن تنبس ببنت شفة، ولكنها نهضت فيما بعد متجهة نحوي، لتمسك يدي المكبلة، وتصافحها، فكان ذلك عملا شجاعا بالنظر إلى وجود جنود آخرين على مقربة منها، وقد نظر إليها بقية المحتجزين بدهشة بالغة، إذ كان ذلك محرجا، ولكنني تأثرت به، لقد كانت مجرد فتاة تؤدي عملها، وكانت تلك هي اللحظة الأخيرة التي أراها فيها، وباغرام كذلك، بعد حجب حواسي بالنظارات القاتمة، وأغطية الأذن، وقناع للوجه.

شعرت فيما بعد بشيء على ظهري، إذ خاطبني أحد عناصر الشرطة العسكرية، قائلا: «اسمع أيها السجين 180، سيصبح رقمك 558 مجدداً في غوانتانامو، لذا سأكتبه على قميصك».

أحسست أن الناس كانوا يخرجون واحداً تلو الآخر، حتى سمعت الصراخ، فقد ودعت، حين غادرت أفغانستان، بالإذلال نفسه الذي استقبلت به حين وصلت قندهار، فمثل ذلك تذكيراً قاسيا بأنني أنا وغيري ممن يرتدون البزات البرتقالية، كنا لا نزال الأعداء، بغض النظر عما بلغته من توافق مع الحراس.

تمثلت آخر ذكرياتي في مركز اعتقال قاعدة باغرام الجوية بدموعي، وصرخاتي.

-9-
صدى العزلة

نقلونا فيما يشبه الشاحنة إلى الطائرة، فشعرت بالهواء الطلق لأول مرة منذ أشهر، وإن أخذت أنفاسي تضيق خلف القناع، ودفعونا بقسوة أثناء صعود سلم الطائرة، وبما أن النظارات القاتمة لم تكن مشدودة تماما على وجهي، فقد تمكنت، حين كنت أحني رأسي إلى الخلف قليلا، وأنظر بعينيّ إلى الأسفل، من تمييز صفوف من المقاعد على طول الطائرة، فقد جلس المعتقلون في المنتصف، ظهرا لظهر، بينما تقدمهم الحراس، تمثل ما لحظته على الفور، حين تم تسليمنا إليهم على متن الطائرة، في أنهم كانوا يرتدون بزات الكاكي العسكرية، في حين ارتدى نظراؤهم في باغرام الصحراوية الفاتحة منها، ففكرت قائلا لنفسي: «أدخل الآن مرحلة مختلفة تماما من الاعتقال، فلا بد أن أبقى على تفاؤلي بأنها تمثل تقدما». لم أستطع التفكير، بعد مضي وقت قصير، إلا فيما كنت أشعر به من عدم ارتياح تام، فقد كانت الأغطية تضغط بشدة على أذنيّ، بينما وجدت صعوبة كبيرة في التنفس تحت القناع، ناهيك عن عجزي عن الرؤية بالتأكيد، وشعرت، بالنظر إلى الضجيج المنبعث من المحركات، وما سببته السلاسل والأصفاد من ضغط على وسطي، ويديّ، أنني لن أستطيع الصمود طويلا.

قدموا لنا فيما بعد شطيرة زبدة الفستق، ففكرت حين تذوقتها، قائلا لنفسي: «نمط الحياة الأمريكية ذاته». فلم أستطع، رفعها إلى فمي، لارتباط أصفاد يديّ بسلاسل وسطي، وحاولت حني رأسي إلى الأسفل، حيث كانت الشطيرة، فوجدت ذلك مستحيلا، وأدرك الحراس الأمر في النهاية، وأخذوا يرفعون الشطائر، والماء في بعض الأحيان، بحيث يتمكن السجناء من تناولها، فتمنيت أن يتم تخديري كي أنتهي من كل تلك المعاناة، فما انفككت، أقوم بشيء ما لأثير انتباه الحراس، فقد

حاولت جاهداً، بالرغم من الألم الناتج عن احتكاك السلاسل بجسدي، إزالة النظارات القاتمة، أو القناع، أو أغطية الأذن بمعصميّ، أو ذراعيّ، فكان الحراس ينهضون لإعادتها إلى مكانها كلما فعلت، وقد تكرر ذلك بضع مرات، وتبينت وجود صف من الحراس يجلسون أمامنا، حوالي الخمسين أو أكثر ربما، مفترضا وجود مثلهم خلفنا.

كنت قد سمعت من أحد الحراس أن عدداً من المعتقلين كانوا قد خدروا قسرا في رحلات سابقة إلى كوبا، فلم أتحمل فكرة البقاء في تلك الوضعية ما يقارب اليومين، فصرخت، بالرغم من هدير المحركات، أنادي من يمكن أن يسمعني، قائلا: «هل لي بمسكن، أو أي مما يمكنه تخديري، من فضلكم؟. لا أطيق مع هذا الوضع احتمالا» ومضى الحارس بعيدا، ليأتي من افترضت أنه كان ممرضا عسكريا، ويعطيني بعض الأدوية.

استفقت، فيما بعد، مصابا بالدوار، عند وصولنا إلى غوانتانامو، وتمثل أول ما أحسست به في الرطوبة والحر الشديدين، فأدركت أنني أصبحت خارج الطائرة، وأن أصفادي تم تبديلها، فقد كانت هناك سلسلة تمتد من وسطي إلى كاحليّ، مقيدة حركتي بما يفوق السابق، فكان مثل ذلك تمهيدا لتعريفي «ببزة ثلاث القطع»، التي لم أعهدها جيدا إلا بعد مضي فترة قصيرة، إذ كنت لا أزال نصف خدر، متبينا، وإن كان بصورة مبهمة، وجود العديد من عناصر الشرطة العسكرية في الجوار، وكنت واعيا بالكاد عند ركوب العربة، والدخول إلى الحمام، وارتداء ما قدموه من ثياب برتقالية إضافية، فأمسكني الحراس من الجانبين مسيرة بضع خطوات، ولحظت أن الأرض تحت قدميّ كانت تختلف كثيراً عن أي مما رأيته في أفغانستان، كانت هناك صخور بنية صغيرة فاتحة، وإن ضربتها أشعة الشمس طويلا، فبدا الجو أكثر جفافا وحرارة، ولم تكن رائحة البحر بخافية، إذ كانت تختلف كثيرا عن رائحته في بريطانيا، ولكنني اشتممتها بالتأكيد.

كنت في معسكر الصدى، أو إسكيمو، كما كانوا يدعونه، حيث كنت أجهل ذلك في حينه، وتم اقتيادي إلى غرفة، لينزع الحراس غطاء رأسي، والنظارات القاتمة، وأغطية الأذن، والقناع، ويأخذوني إلى زنزانة في زاويتها، طالبين مني دخولها، قبل أن يقفلوا بابها، فسألني الحراس فيما بعد الوقوف، وظهري مستند إلى الباب، كي يتمكنوا من إزالة الأصفاد عبر فتحة فيه، يتم رفع أو إنزال غطائها المعدني من الخارج، إذ قاموا بتحرير ساقيّ أولا، ثم وسطي ثانيا، لأستدير وأسلمهم بقية السلسلة الممتدة من معصميّ إلى كاحليّ، وتمت إزالة الأصفاد عن معصميّ فيما بعد، لأصبح حراً في زنزانتي الصغيرة، بيتي الجديد، التي لم تكن تتجاوز في مساحتها ثمانية أقدام في الطول، وستة في العرض، وكانت تحوي مرحاضا عربيا معدنيا في أرضيتها.

لم أدر ما كنت أتوقعه، ولكنه لم يكن ما رأيته بكل الأحوال، فنظرت حولي في دهشة تامة، لا أكاد أصدق ما أمر به، إذ لم يتغير شيء، بل ازدادت الأمور سوءا في الواقع، بعكس ما كنت أظن، بدءا من قندهار، ومرورا بباغرام، ووصولا إلى غوانتانامو.

فكرت، قائلا لنفسي: «ما الذي يمكن أن يكون أكثر كآبة، أو وحشة، من البقاء في مثل هذا القفص؟». لم أستطع الرؤية بوضوح خارجه؛ لأنه كان مغطى بشبكتين خضراوين باهتتين من الحديد الصلب، وضعتا بشكل متصالب فوق بعضهما بعضا، وكنت أرى بالكاد عبره، وقد كان ذلك يؤذي عينيّ كثيراً، فشعرت وكأنني حبيس أربعة جدران في أي زنزانة عادية.

يحث الإسلام المرء على عدم القنوط، ولكنني ما استطعت إلى تجنبه سبيلا حين كنت في باغرام، أمر بأسوأ أيامي في شهر أيار/ مايو من عام 2002، فقد عاد اليأس إلي مجددا، هنا في غوانتانامو، حين أدخلت لأول مرة إلى هذا القفص الحديدي ـ المسور بالشباك من جميع جوانبه ـ بسقفه الحديدي، وأرضيته الحديدية، وسريره ومرحاضه الحديديين، تحويها جميعا غرفة بيضاء حديثة، منارة بالكامل.

تمثل كل ما أعطوني إياه في ملاءة، ولفافة من مناديل المرحاض الورقية، دون أن يشمل ذلك نظارتي، فطالبتهم بما يمكنني الصلاة عليه، ليحضروا إحدى الحصائر الرقيقة المستخدمة في التخييم، التي أصبحت ما أفترشه طيلة العامين الآتيين.

وددت الصلاة على الفور، فسألت عناصر الشرطة العسكرية عن القبلة، ولكنهم لم يكونوا واثقين من اتجاهها، وأخبروني بعدم وجود سجناء آخرين في الجوار، وأن الحراس هم من يعلمون، بالنظر إلى توجيه ذلك السؤال إليهم من قبل جميع المحتجزين، فهل خافوا يا ترى من أن معرفتي بالاتجاهات يمكن أن تمكنني من تحديد موقعي على الجزيرة، وذلك يعد خرقا أمنيا محتملا؟. أديت الصلاة، لأجلس فيما بعد، أفكر، فنظرت إلى الطلاء على الجدران، والمشمع النظيف على الأرضية في الخارج، لأستنتج بوضوح أن هذا المكان كان قد أقيم حديثا، ولم يستخدم من قبل على الأرجح.

استلقيت فيما بعد، لا أزال أشعر بالدوار من تأثير الأدوية التي أخذتها في الطائرة، وأعطوني ما أسموه بطانية، لأكتشف أنه كان مصنوعا من البلاستيك، إذ لم يكن يحوي أيا من القطن، أو الصوف، أو يكفي لوقايتي برد مكيف الهواء، الذي تركه الحراس يعمل معظم الوقت.

أخبرت لاحقا أن تلك البطانية لا يمكن أن تمزق، لصنع أنشوطة مثلا، بغية محاولة الانتحار، فلم أفهم لم أعطوني إياها، ولا أعتقد، على حد سواء، أنهم فهموا السبب وراء ذلك، أو العديد من القواعد والإجراءات، فلقد كانوا يتبعونها فحسب لمجرد أنها كانت مفروضة عليهم.

تساءلت، بينما كنت مستلقيا، عن سبب وجودي في ذلك المكان، معزولا عن بقية السجناء، فأدركت أنني كنت بمفردي تماما، ولكنني لم أتخيل على الإطلاق أن يستمر ذلك ما يقارب العامين (عدم السماح لي برؤية أي من السجناء الآخرين) وظننت أنهم لا يزالون يرون فيّ صيدا ثمينا، فلقد عهدوني طيلة الوقت

في باغرام أنني لم أكن مثيرا للمتاعب، أو مضربا عن الطعام، أو أتوعد الحراس، أو أصرخ فيهم، أو أقذفهم بأي من الأشياء، ولا بد أنهم رأوا فيّ، بالأحرى، من يملك تأثيرا كبيرا بين السجناء، مسيئين تفسير ذلك، بالنظر إلى أنني كنت أتحدث الإنجليزية، والعربية، والأوردية، وأتمتع بقدر من الثقافة، وذلك ما جعل من الطبعيّ لمن كانوا يحتجزونهم في باغرام ـ من قرويين، وفتية، ومن لم يحتكوا من قبل بغربيين ـ أن يتطلعوا لمساعدتي في التفاوض على الأمور كافة، فلم يبقوني هذه المرة، مع الآخرين.

نمت بعمق لاستمرار تأثير الأدوية التي تناولتها في الطائرة، وأحضر لي أحد الحراس، في الصباح الآتي، أول وجبة طعام مطبوخ تقدم لي منذ عام كامل: الإفطار، فقد أخبرت من قبل أن أتوقع الحصول على وجبات مطهوة في غوانتانامو، فسببت تلك الوجبة خيبة أمل كبيرة بالنسبة لي، إذ كانت تتألف من كأسين بلاستيكيين من الشاي، وحليب مجفف رديء الطعم للغاية ـ كان كلاهما بارداً ـ علاوة على الطعام المطبوخ «المقزز»: أرز، وبازلاء مهروسة، وبيض مسلوق، خلطت جميعها في طبق واحد، لم أستطع أكله أبدا، فخاطبت الحارس، قائلا: «أفضل تناول كأس الشاي فحسب».

حضر جاي، من أخبرني بذهابي إلى غوانتانامو، مساء اليوم الثاني، برفقة رجل يدعى جورج، فقد كان جاي محققا في باغرام، ومن أعطيته الرسالة المطولة التي كتبتها إلى السلطات، فخاطبني قائلا: «وصلت رسالتك إلى ما لا تتخيله من مستويات». كنت سعيداً لرؤية وجهه المألوف بالنسبة لي، الخالي مما كان يحمله الآخرون من حقد، وكاد قلبي يتوقف، حين دخل اثنان آخران بعده. هما مارتي، ونيل، عميلا «الإف بي آي» في باغرام.

أبقاهم الحراس جميعا في القسم الخارجي من الغرفة، ليدخلوا زنزانتي، ويقيدوني ببزة ثلاث القطع، قبل اقتيادي خارجا.

جلست إلى طاولة كان الحراس قد أحضروها، مقابل جاي، وجورج، ومارتي، ونيل، فقد كان الأخيران ضخمين، بدينين، على غرار شرطة شوارع نيويورك، من أصول إيرلندية ربما.

أخبرني روب، أحد زملائهما، في باغرام أنهما كانا يتباهيان بأن وزنيهما مجتمعين يفوق الخمس مئة رطل، وهو ما لا يجدر بهما فعله في رأيي، فربما كانا يتقنان العمل بدقة في شوارع نيويورك، ولكن ذلك لم يكن يمثل واقع الحال هنا، أضف إلى ذلك أنهما كانا يعلمان عدم خضوعهما لأي محاسبة، مطمئنان إلى تحررهما من رقابة رؤسائهما، أو قسم الشؤون الداخلية، على النقيض مما يحدث داخل الولايات المتحدة فقد امتلك كلاهما حرية التصرف كما أرادا، وكان بمقدورهما انتزاع المعلومات من الناس بما يروق لهما من طرق، مثل ذلك آلية عمل الوكالات الاستخبارية التي تعاملت معها كافة، في قندهار، وباغرام، ولم يكن تأثر الوكالات الأخرى، بأساليب «السي آي أيه» غير الإخلاقية بخاف، إذ حاول عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي، في وقت متأخر للغاية، ارتداء ثوب العفة والطهارة، منتقدين كل ما كانوا يرونه من تعذيب بحق السجناء، وكأنهم لم يشاركوا به في الأساس، فقد كانوا جزءاً لا يتجزأ من العملية في نظري.

علمت هذه المرة أنهما لن يهدداني بأساليب التعذيب المصرية، بالنظر إلى وجود جاي الذي كان تدخله ما منع دفعة الحراس الجدد من الاستمرار في الإساءة إلى الفتى الكندي عمر، في باغرام، فقد منحني جاي، في الواقع، شيئا من الأمل في إحدى المرات، حين خاطبني قائلا: «ستكون غوانتانامو بداية النهاية لك» وكنت متفائلا، بكل الأحوال، بما يفوق ذلك.

استرجعت كلمات مارتي في باغرام، حين رأيت وجهه: «لن ترى عائلتك مجدداً، قد تواجه بالإعدام رميا بالرصاص، أو بالحقن القاتلة، أو بالغاز».

هددني الاثنان مجدداً بالفعل، وخاطباني، بينما وضعا ست أوراق مطبوعة على الطاولة أمامي، قائلين: «نريد منك قراءة، هذه الوثائق وتوقيعها» فكانا قد كتبا اعترافاتي.

كانت هناك ثلاث نسخ على الطاولة: واحدة لي، وأخرى لجاي وجورج، وثالثة لنيل ومارتي. اللذين هدداني بأوخم العواقب في حال عدم توقيعي، بما في ذلك البقاء في غوانتانامو عدة سنوات قبل أن ينظر أحد في قضيتي، والخضوع فيما بعد إلى محاكمة صورية سريعة، تتم إدانتي فيها: «ستكون محاكمة قصيرة للغاية، وسينظرون في الأدلة التي نقدمها إليهم، وسيأخذون بها بكل تأكيد، مصدرين الحكم عليك بالسجن مدى الحياة، أو الإعدام، أو كليهما معا، أو الإعدام بعد مدة طويلة».

أخذت أقرأ «اعترافاتي» المكتوبة عاجزا عن التصديق، وتمثل رد فعلي الأول في قول الآتي: «هذا فظيع، فقد كتبت هذه الاعترافات بإنجليزية ركيكة للغاية، ولن يصدق أحد أنني يمكن أن أكتب مثلها». فكرت فيما بعد، قائلا لنفسي: «يمكن أن يصب هذا الأمر في صالحي، وسيدرك أي ممن يعرفون أسلوبي في الكتابة أنني لم أدون هذه الاعترافات، ولا أكتب بهذه الطريقة» إذ بدت ركيكة للغاية، مليئة بالمغالطات والمبالغات، كترهات طالب انقطع عن دراسته في السادسة عشرة من العمر، أكثر من كونها محصلة إبداع مكتب التحقيقات الفيدرالي، وأذكر أن مارتي خاطبني في أحد الاستجوابات، قائلا: «توقف!. توقف عن استخدام الألفاظ الكبيرة»، قرأت «الحقائق» التي تضمنتها تلك الاعترافات، علاوة على الإنجليزية الركيكة، بمنتهى الدهشة، إذ كانت تعج بالأكاذيب، والمبالغات، والافتراضات، وتحوي أسماء لم أسمع بها من قبل، وقد كانوا يعلمون ذلك تماما، فنصت وثيقة اعترافي، من بين أمور أخرى، على أنني كنت عضوا قديما في تنظيم القاعدة، درب وعلم في معسكراته، وموَّل أفراده، بما لا يستثني منفذي هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وأجابوني، حين سألتهم عن الكيفية التي توصلوا بها إلى ذلك الاستنتاج، قائلين: إنني كنت قد اعترفت بالفعل بزيارة «المعسكرات»، وتمويلها.

كان من المثير للجنون سماعهم يتحدثون عن «المعسكرات»، وكأن كل معسكر تدريبي في التاريخ الإسلامي المعاصر يعمل تحت إمرة القاعدة، وبدا المنطق والعقل غائبين، مجددا، في خضم افتراضاتهم تلك، فلم أستطع منع نفسي من الضحك أثناء قراءة «اعترافاتي»، بالرغم من كل ما كانت تتسم به من خطورة.

كانوا مهووسين بكلمة «القاعدة» إذ افترضت الاعترافات المكتوبة من قبلهم أن كل من التقيتهم في حياتي تقريبا كانوا أعضاء في ذلك التنظيم، وأنني «زرت ومولت معسكر الجماعة الإسلامية التابع للقاعدة...». هل كانوا من الجهل حقا ليفترضوا أن الجماعة الإسلامية، ثالث أكبر الأحزاب السياسية في باكستان، كانت تتبع القاعدة؟. هل اختلط الأمر عليهم، ربما، بالجماعة الإسلامية في مصر؟. شكلت الجماعتان كلتاهما جزءاً من حركات الصحوة الإسلامية في بلديهما، علاوة على دعمهما المجاهدين في الثمانينيات ضد السوفييت، ولكن ذلك يمكن أن يقاس على مئات الجماعات والأحزاب، بما في ذلك «السي آي أيه». هل مثل ذلك، يا ترى، استغلالا متعمدا لجهالة معظم الأمريكيين، الذين يعجزون عن تمييز الفارق عند قراءة تلك العبارات؟.

تضمنت الاعترافات كذلك أنني مولت رجلا لم أسمع باسمه من قبل ـ متورطا في مخطط لتفجير مطار أمريكي ـ دون ذكر كيفية، أو مكان وزمان التقائي به، وأنني «وفرت ملاذا آمنا لمشتبهين إرهابيين وعائلاتهم، بينما كانت الأعمال العدائية تشن ضد الولايات المتحدة»، دون أن تذكر مجددا من كانوا، أو ما اتهموا به تحديداً. علمت، بالطبع، أنهم كانوا يشيرون بذلك إلى جواب قدمته سابقا عن أحد أسئلتهم، حين أخبرتهم أن بعض النسوة والأطفال، ممن اعتبر معيلوهم مفقودين، قد أقاموا مع عائلتي بضعة أيام في باكستان، بمن فيهم بعض الأكراد الذين ساعدوها في الجلاء عن أفغانستان، ولم تقدم الاعترافات تفسيرا لكيفية انتماء أولئك النسوة والأطفال إلى القاعدة، أو معاداتهم للولايات المتحدة.

زعمت الوثيقة كذلك أن مكتبتي في إنجلترا كانت مركزاً لتجنيد أعضاء تنظيم القاعدة، الذي كان يمولنا، بينما كنت أعتقد العكس، ألم يقولوا لتوهم: إنني كنت من يمول القاعدة؟، أو ليس ذلك سخيفا، وخياليا إلى أبعد الحدود؟. طولبت فيما بعد بالتوقيع على وثيقة الاعترافات.

نظرت إلى جاي، بينما رفعت الوثيقة، قائلا: «هل قرأت هذا الهراء؟».

أجابني، قائلا: «لو قرأت المسودة يا معظّم لظننتنا مجانين».

عقبت، قائلا: «لن أقبل بأي من الأشكال التوقيع على هذه الترهات، فهي مليئة بالأكاذيب أولا، ولا أكتب بهذا الأسلوب ثانيا، وليست تلك بكلماتي، وإن أردتم أن أوقع على هذه الاعترافات، فيجب أن تسمحوا لي بإدخال التعديلات عليها، وإضافة بعض التفسيرات، وإزالة كل العبارات والتأويلات الخاطئة التي تتضمنها، فوافقوا بالفعل على إدخال بعض التعديلات المنتقاة على الوثيقة، دون أن يشمل ذلك معظم المغالطات الكبيرة، كالقتال في الصفوف الأمامية مع القاعدة، واستخدام المال الذي أرسلته إلى الكشميريين، عام 1994، في هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر.

شعرت بهدوء مفاجئ، متخيلا مدى الضرر الذي يمكن أن تسببه لهم هذه الوثيقة في المحكمة، ناهيك عن فضح الكثير من أساليبهم، فلم أكن أعرف، ما أصبحت عليه القوانين، إذ كان الجميع يقولون: إن قوانين جديدة سنت بشكل مباشر داخل الولايات المتحدة عقب الهجمات، وقد كان ذلك مخيفا بالنسبة لي، فكيف يمكن للقوانين الأمريكية أن تطبق، بأثر رجعي، على مواطن بريطاني، لم يسافر إلى ما هو أبعد من غرب دبلن، بسبب جرائم لم ترتكب في الأصل؟. هل كانوا سيحاكمونني بناء على النوايا والتقارير الاستخبارية، كما أخبرني نايثن في قندهار؟.

شعرت بدوار شديد، ولكنني بقيت على قناعتي بأن أي محكمة نزيهة في العالم لن تأخذ بتلك الاعترافات، بعد قراءة أول جملة فيها.

كان جاي يدرك مدى سوء ذلك، وهذا ما أثار ارتياحي، فقد كان مستعداً للإدلاء بدلوه في الأمر أمام «الإف بي آي» واحتقرت نيل ومارتي بالفعل لوضاعة ما كانا يقومان به، ناهيك عما اتصفا به من مكر: أتيا في وقت متأخر من الليل، قبل أن يسألا الحراس مغادرة الغرفة، كيلا يشهد أحد على فعلتهما، فقد كان من المفترض أن يتم الأمر بسرعة: «هاك الأوراق والقلم، اقرأها بسرعة، ووقع».

أخذ نيل ومارتي الوثيقة بعيداً بمجرد أن أدخلت التعديلات عليها، فلا بد أنهما كانا يحملان جهاز كمبيوتر وطابعة في العربة، بالنظر إلى عدم وجود أي مبنى آخر قرب معسكر الصدى، كما تم إفهامي، وغادر جميعهم الغرفة، سائلين الحراس العودة إليها، واحتجزت في الزنزانة مجدداً، بينما عاد جاي، جورج، ونيل ومارتي في غضون عشر دقائق، فأبرزوا وثيقة جديدة أمامي، قبل أن أبدأ قراءتها، وأردت إدخال تعديلات عليها، ولكنهم لم يسمحوا بأي منها هذه المرة، وبدا الغضب واضحا عليهم: «كف عن ممارسة الألاعيب معنا، نعرف ما فعلت». كان الغضب ذاته الذي رأيته باديا على وجهيهما، حين أمرا بمعاقبتي في باغرام، ولم أنس للحظة أنهما كانا الرجلين ذاتهما.

خاطبني مارتي، يضبط نفسه بشق الأنفس، قائلا: «يمكن أن تعدم رميا بالرصاص يا معظّم، هل تفهم؟».

أردف نيل، قائلا: «بنوا غرفة إعدام هنا، قد رأيتها».

«هل نسيت أطفالك، وزوجك...».

عقبت، قائلا: «حسنا، حسنا، حسبكما أن تمنحاني دقيقة».

كنت قد فكرت في الأمر عدة مرات في السابق، منذ آخر مرة رأيتهما، فقررت في النهاية فعل ما يريدان، ولم تكن هناك جريمة واضحة في الوثيقة، بالرغم من كل التلميحات، كما تراءى لي على أقل تقدير، وخاطبتهما، قائلا: «لن يشكل ذلك أي فرق، سأوقع ما تريدان، ولكن يجب علي القيام بشيء أولا».

طلبت الذهاب إلى زنزانتي، مؤديا صلاة الاستخارة هناك، سائلا الله أن يجعل في هذه الوثيقة مخرجا مما أنا فيه، وأن تفضح أكاذيبهم بطريقة أو بأخرى، ووقعت عليها فيما بعد، سائلا إياهم منحي نسخة منها، فقابلوا طلبي بالرفض، وانتهى الموقف برمته في تلك اللحظة، ولم أر أيا منهم بعد ذلك.

لا ريب أنهم غادروا في وقت متأخر للغاية، فالأنوار لم تكن ساطعة في حينه، ولكنها كانت مضاءة كما هو الحال دائما، فشعرت أنني قمت بخطوة كبيرة، يمكن أن تؤثر في كل ما يتعلق بمستقبلي، ومستقبل عائلتي، فقد بدأت وضع ملاحظات عديدة لتقديمها إلى محامي الدفاع، والمحكمة، التي توقعت أن تتشكل في غضون أيام، كما أخبروني، لقد كانوا ينتظرون مني الإقرار بالذنب في أي من التهم الموجهة إلي، غافلين عن امتلاكي خططا أخرى.

لم يكن لدي سوى قلم رديء للكتابة، وقد جف حبره بعد فترة قصيرة، حين بلغت الصفحات التي كتبتها العشرين.

بدأت الكتابة إلى عائلتي أيضا، مستهلا كل رسالة بعبارتي «بسم الله الرحمن الرحيم»، و«زوجي الحبيبة». أخبرت زينب أنني كنت أفكر فيها، في الأطفال، كل ساعة، وشعرت بالازدواجية حيال التفكير فيهم: لم أرد أن تتلطخ ذكريات الدفء والحنان بهذا الواقع القذر الذي كنت أعيشه، ولكنني كنت بحاجة إليها لاستبقاء الأمل.

كتبت لزينب رسالة من تسع صفحات صغيرة، بعد حوالي ستة الأسابيع، قدمت لها النصح في كل ما يتعلق بشؤون الحياة العائلية، التي تعين عليها تدبيرها من دوني، فقد حاولت مساعدتها في اختيار المدارس للأطفال، وفي صراعها ضد مرض الربو، الذي كانت هي وابنتها أمامة، مصابتين به، وشجعتها على الانضمام إلى ناد للياقة البدنية، والسباحة، أو القيام بتمارين الإحماء في المنزل، والانخراط فيما هو مفيد من أنشطة، أردتها أن تفخر بنفسها: «قلتِ إنك لم تنجزي الكثير في حياتك، ليس هذا بصحيح، ما تقدمينه من تضحيات، وتواجهينه من صعوبات يجعلك شخصا استثنائيا، قل نظيره، فلا تملكين إلا ما هو سليم من النوايا (إرضاء الله، وإسعادي)، أتحمل المسؤولية عن كل الأخطاء، وسوء الحسابات التي ندفع ثمنها جميعا الآن، ولا يعتريني الشك للحظة أن منزلتك أصبحت عالية في الحياة الدنيا، والآخرة، أعلم أنك تودين تغير الأمور حين يتم إطلاق سراحي، وسأفعل جاهدا لحدوث ذلك، وتعويض كل ما فاتنا، ممضيا ما أمكنني من وقت معكم، ساعيا ما استطعت لتحقيق رفاهيتنا».

كتبت لها ثانية بعد مضي ما يقارب ستة أسابيع أخرى: «أحبك كثيراً، وأفتقدك بشدة، وأنتظر رسائلك بفارغ الصبر، لأشعر فيما بعد بما لا يطاق من الحزن... لا بد من مصارحتك والاعتراف أنني أحاول جاهدا عدم التفكير فيك، وفي الأطفال، أو ما أمضيناه معا من أوقات في السابق، لما يسببه ذلك من ألم. لا يزال هناك الكثير مما أود مشاطرتك إياه، بجانب أطفالنا، ولا أرغب في شيء كالحصول على فرصة التعويض عن أخطائي ـ بحقك على نحو خاص ـ وحق عائلتنا، فقد وضعت الكثير من الخطط في ذهني، وأجهل ما يمكن أن تسفر عنه، ولكنها تتضمن عدداً من التغييرات في أسلوب حياتي، وحياتنا السابقة».

كتبت في إحدى المرات رسالة إلى والدي، مستخدما ما أشك أن يفهمه الأمريكيون من تعابير، دون أن يتلقاها، فلم أرد أن يرى والدي الإذلال الذي كنت أعيشه، بما يشمل ذلك من أدق التفاصيل كفرشاة، أو معجون الأسنان الرديئين، أو الطعام المقزز الذي كنت أتقيؤه أحيانا.

وضعت، في أيامي الأولى هناك، تقويما للعام 2003 على قصاصة من الورق، إذ كان أحد عمال الصليب الأحمر في قندهار قد نصحني بعدم عد أيامي في السجن، لأنها يمكن أن تطول أسابيع، وأشهراً، وسنوات، ومنحني ذلك التقويم ما أتطلع إليه من أيام قادمة، آملا التحرر بحلولها.

بدأت أدرك، بعد مضي وقت قصير، عدم وجود أي تشابه بين باغرام وغوانتانامو، فلم يكن ما يصح في الأولى ينطبق على الثانية بالضرورة، فقد كانت القواعد والإجراءات مختلفة، ولم أكن أحظى في غوانتانامو بما كنت أحظى به في باغرام بشكل تلقائي. عجزت عن فهم ذلك، وقد أصبح مميزاً، في نظري، لمواقف الجيش الأمريكي، وتصرفاته، فقد أخبرني المتعاطفون من الحراس كذلك عن مدى انزعاجهم من صرامة القوانين، وروتينيتها، واعتادوا قول العبارة الآتية: «هنالك طريق الصواب، وطريق الخطأ، وطريق الجيش». كانوا قد أخذوا نظارتي مجدداً، كما حدث في الأيام الأولى لوجودي في قندهار، ناهيك عن رسائلي ـ القليل منها الذي كنت أحتفظ به في باغرام ـ وصور أطفالي، وبعض الملاحظات التي دونتها، فلم أحصل عليها مجددا حتى يوم إطلاق سراحي.

كان الجندي المكلف بحراستي مهووسا بتسجيل كل حركة أقوم بها، كما كان أقرانه كذلك: متى آكل ومتى أنام، ومتى أقضي حاجتي، ومتى أذهب للتمرن أو الاغتسال، ومتى أقرأ القرآن، ومتى أخضع للمعاينة الطبية، أو الاستجواب، ومتى أقدم أي طلب أو شكوى، وهو ما كنت أفعله نادراً.

كان مدى ارتيابهم في بادئ الأمر فظيعا، إذ بدأ الطلاء الأخضر الجديد في زنزانتي يتقشر قليلا، قريبا من حيث كنت أستلقي، فبدأت، بدافع من الملل، إزالته بأظافري ليتقشر بصورة إضافية، وإن لم تكن كبيرة، ربما ما يعادل مساحة بوصة في الطول، وثلاث في العرض، فلاحظ الحراس وجود تلك الرقعة المقشرة أثناء إحدى جولات التفتيش، بينما كنت في ساحة التمرين، ولم يتحدثوا إلي بصورة مباشرة، بل تهامسوا أمامي، وكأنني لا أفهم، أو غير موجود، قائلين: «يقشر الطلاء في زنزانته، نحتاج استدعاء الطبيب، والرقيب المسؤول عن الحراسة».

فحصني الطبيب والممرضون بصورة شاملة، للتأكد مما إذا كنت أتناول الطلاء بغية تأزيم حالتي الصحية، أو الانتحار، أخرجهم طبيب البحرية الأمريكية، لحسن الحظ، من بؤسهم، وهو يشير إلى الرقعة، قائلا: «ينبغي أن يتناول كمية أكبر بكثير من الطلاء ليؤذي نفسه، يوجد بالتأكيد طرق أسهل للقيام بذلك».

أمضيت الكثير من الوقت فيما اعتدت القيام به بشكل روتيني كالتمرين، ومتابعة حفظ القرآن، الذي كان أصعب كثيراً حين يكون المرء بمفرده، فقد كنت، في بادئ الأمر، أتمرن مرتين أسبوعيا في الخارج، حيث الجو شديد الحرارة، وكانوا يقتادونني، مقيداً ببزة ثلاث القطع، خارج الزنزانة، فالغرفة، التي كانت مرتفعة عن الأرض بدعامات، مكنني ذلك، من استراق النظر إلى البحر من فوق السياج البلاستيكي الأخضر، الذي كان يحيط معسكر الصدى بأكمله، فوصلت في النهاية إلى ساحة التمرين، وتعين علي أولا الوقوف مقابل فتحة الباب، كي يتمكنوا من إزالة، أصفادي أو استبدالها، فقد سمح لي فيما بعد بالجري حول

الساحة ربع ساعة، قبل الذهاب للاغتسال، وكانت هذه العملية تدعى «الاغتسال والتمرين». فكثيراً ما كنت أغيظ عناصر الشرطة العسكرية، قائلا: «ألا يفترض بي، إن كانت تدعى (الاغتسال والتمرين)، أن أغتسل أولا، ثم أتمرن؟»، مثلت تلك التسمية مبالغة كبيرة، فأي تمرين هذا الذي كنت أحظى به؟.

كانت رؤية السماء الزرقاء، والغيوم البيض المنتشرة فيها، مدعاة سعادة لي، بعد الحرمان الطويل من التعرض لأي ضوء طبعيّ في باغرام، فقد استنتجت، بعد المقارنة بين باغرام وغوانتانامو، أن الوضع في غوانتانامو لم يكن أفضل حالا، إن لم نقل: إنه كان أسوأ، كما كنت أجيب الحراس، حين كانوا يسألونني بهذا الصدد.

كان الحراس المسلحون يجولون خارج الساحة، بعضهم راجل، وبعضهم الآخر بواسطة عربات «الهمفي» المزودة بمدافع رشاشة في قمتها، تحسبا لمحاولتي الهرب، وكأنني أستطيع القيام بذلك أصلا، ولم أكن متحفزا للتمرن بمفردي، بعد أن كنا نقوم به جماعة في باغرام، ناهيك عن عجزي عن بذل الكثير من الجهد بسبب الحر القائظ، على النقيض مما يمكنني فعله لو كان التمرين مسائيا، وإن صعب أداؤه، بسبب الخف الذي كنت أرتديه. لم يكن هناك ما يمكن رؤيته، باستثناء بعض الأسلاك الكهربائية، وثلاثة الحراس الملولين الذين كانوا يراقبونني، فقد كانوا يستدعون أحد الجنود، يجر وراءه كلب حراسة مدرب، علاوة على الدوريات سابقة الذكر، كلما تم اقتيادي للتمرين: المبالغة العسكرية الأمريكية ذاتها مجدداً، وكان الحراس وكلابهم يتناوبون على الدوام، وإن لفت انتباهي أحد الكلاب الشرسة الذي ما انفك ينبح باستمرار، حتى على الجنود، فخاطبه حارسه، الشاب البدين الأشقر، في إحدى المرات، قائلا: «هل تود مطاردة بعض الأجساد البرتقالية؟». لا بد أنه افترض أنني لم أكن أتحدث الإنجليزية، وأردف قائلا: «يشبه الأمر مشاهدة فأر يركض في القفص».

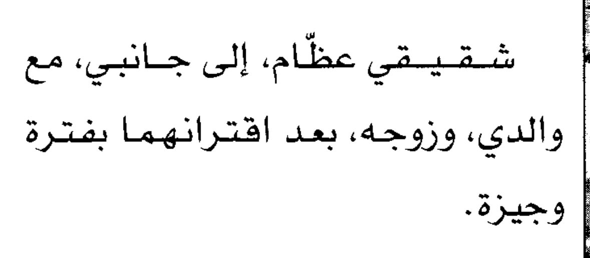
توقفت عن الجري، ونظرت في وجهه، قائلا: «نعم، ولكن هذا الفأر يملك ساقين، ويتحدث الإنجليزية أفضل منك».

تابعت الجري فيما بعد، وأخذ الرجل على حين غرة، فاغرا فاه، عاجزاً عن قول أي كلمة، ليعقب في النهاية قائلا: «نعم»، لا أكثر، إذ كاد الحراس خلفه يسقطون على ظهورهم من شدة الضحك، وتناقل الجنود هذه القصة أكثر من عام.



جدي، عبد الستار بيغ، في عشرينيات القرن المنصرم، (إلى اليمين)، وشقيقاه، محمود بيغ، الذي قضى أثناء قتال قبائل البشتون إبان فترة الاستعمار البريطاني، (في الوسط)، وغوث بيغ (إلى اليسار).





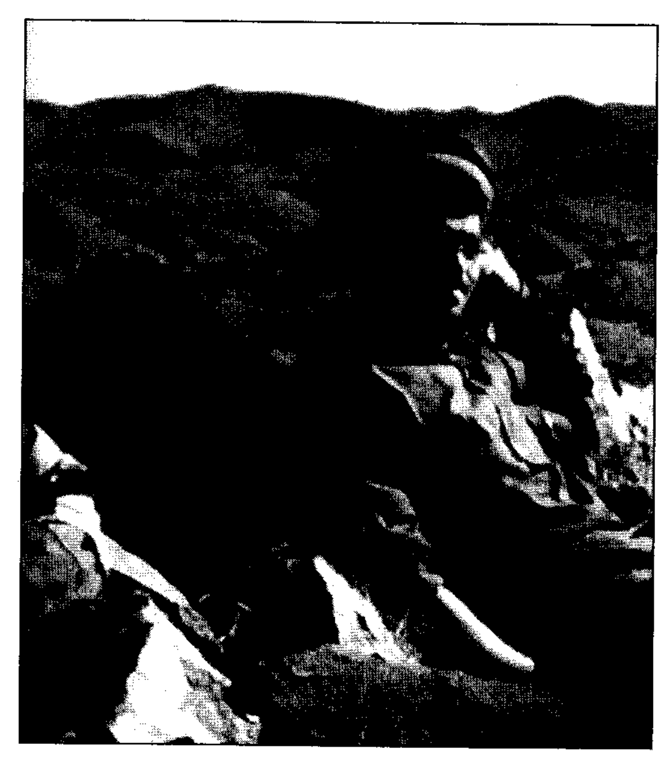
شقيقي عظّام، إلى جانبي، مع والدي، وزوجه، بعد اقترانهما بفترة وجيزة.



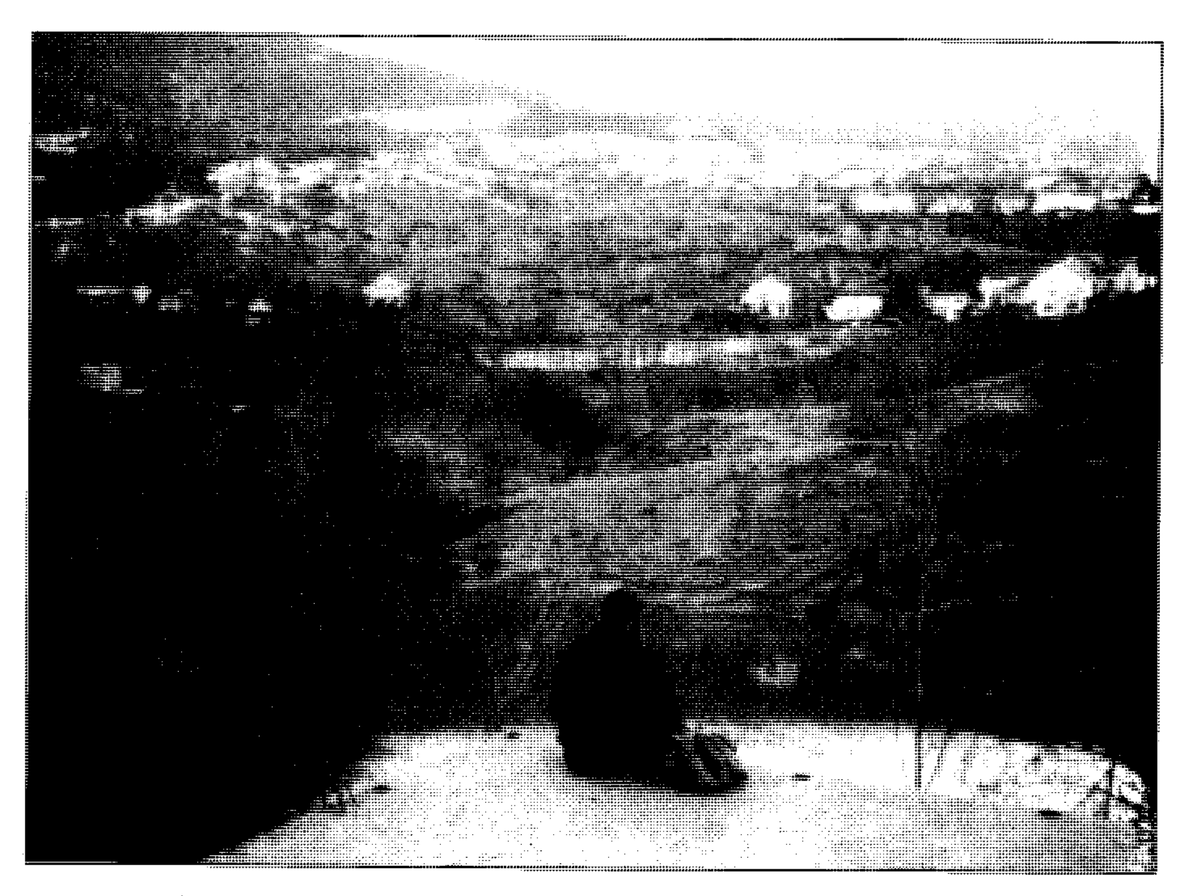
ركلة طائرة: أتدرب على إحدى الركلات الهوائية العديدة التي تتضمنها رياضة التايكواندو.



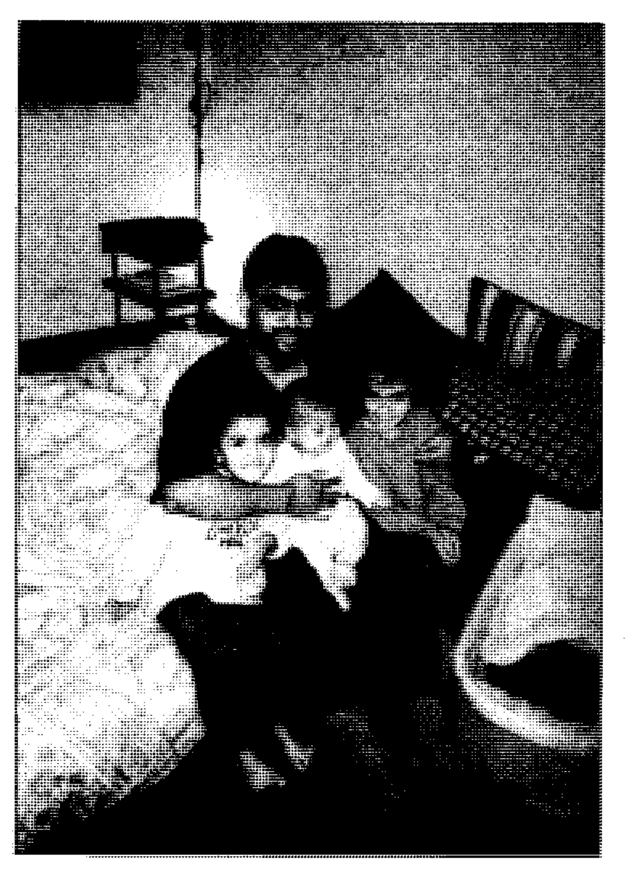
اللينكس: وقوفا (من اليسار إلى اليمين): بودا (توفي عام 1998)، وكوربشن، وبونز، وماركي، وعارف، وشيكو، وبووت، ومو، ووايني، وأولي، والصف الثاني (من اليسار إلى اليمين): أنا، وخان، وأنزيم، وسيغي (توفي عام 1990)، وسام (توفي عام 2005).



جالسا بين صخور أحد الجبال المحيطة بمعسكر الفجر، قرب الحدود مع باكستان (1993).



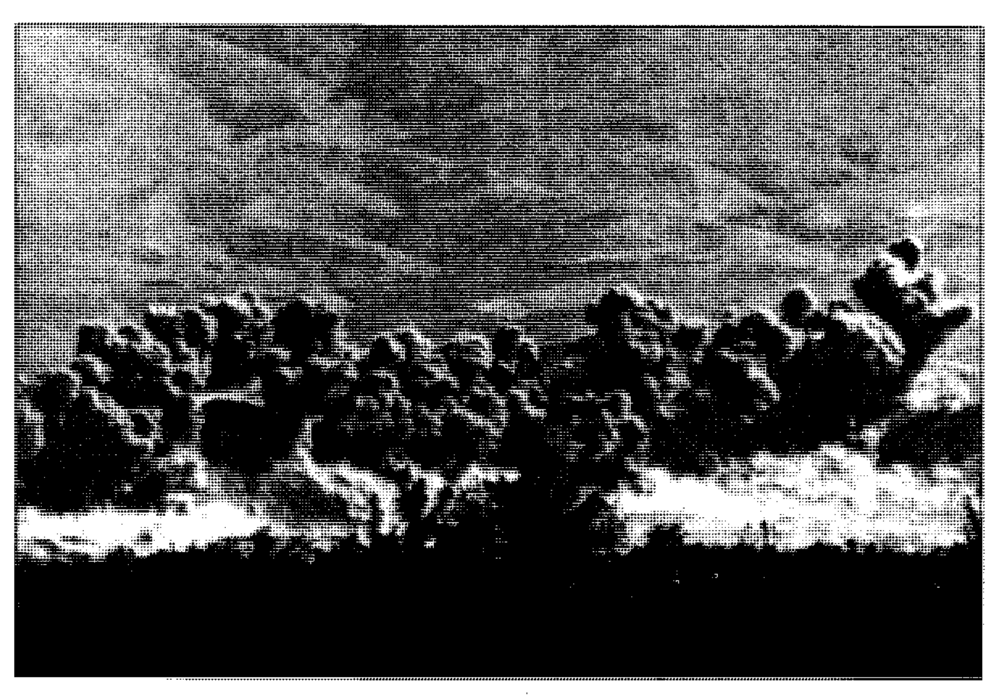
جالسا خارج مركز توزيع مساعدات قافلة الرحمة، في قرية أوسترازاك البوسنية، قرب جابلانيكا (1994).



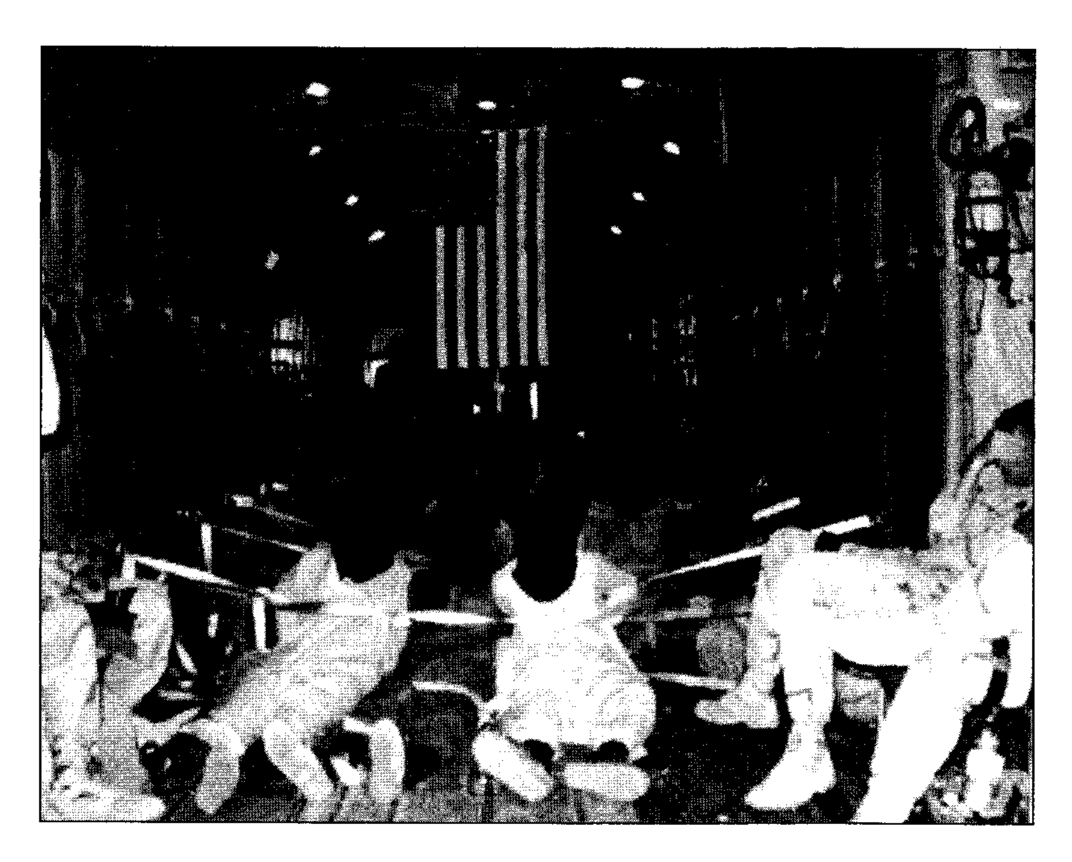
مع أطفالي: عبد الرحمن، وأمامة، والصغيرة نسيبة، قبل رحلتي إلى تركيا بمدة وجيزة.



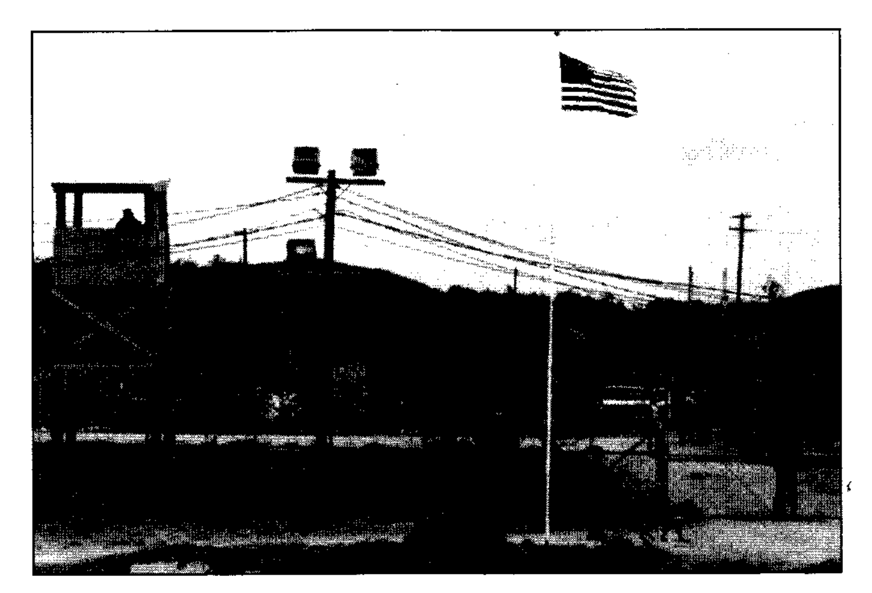
بئر ماء مزودة بمضخة يدوية، قرب مدينة هيرات، إبان مدة الجفاف في عام 2000. ورفع اسم ولدي، عبد الرحمن، فوق هذه البئر.



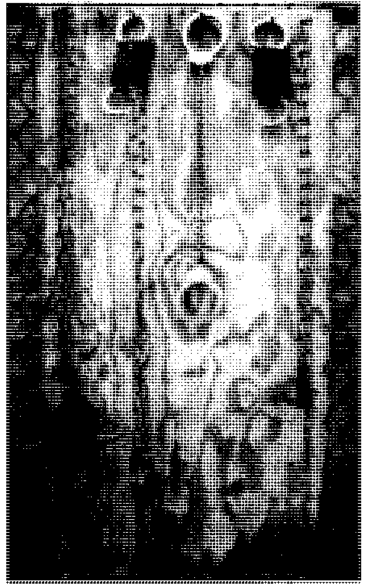
طائرات «بي 52» أمريكية تنفذ قصفا سجاديا على مواقع طالبان الأمامية، شمال غرب العاصمة كابول، في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2001.



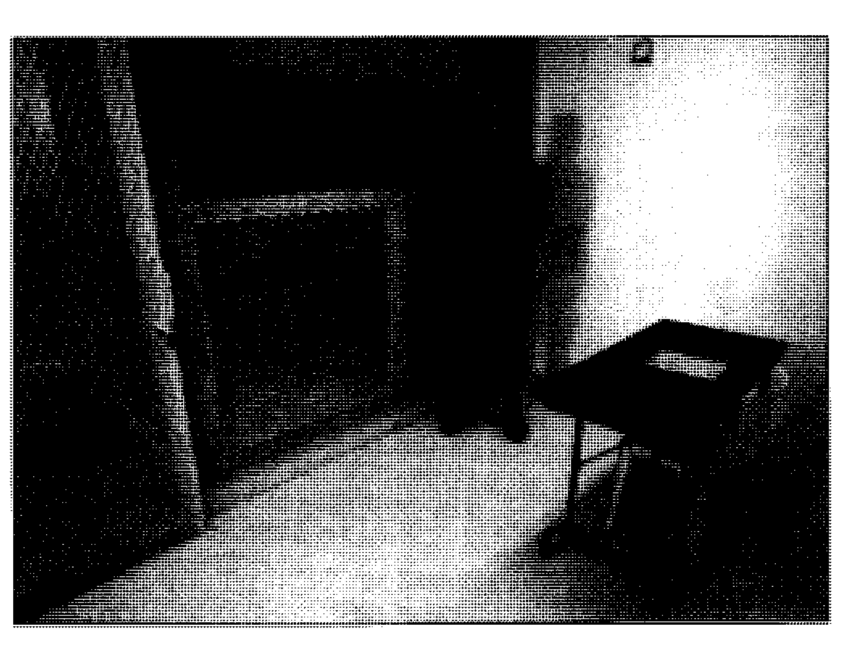
معتقلون مغطو الرؤوس، ومقيدون، في أثناء نقل القوات الأمريكية لهم.



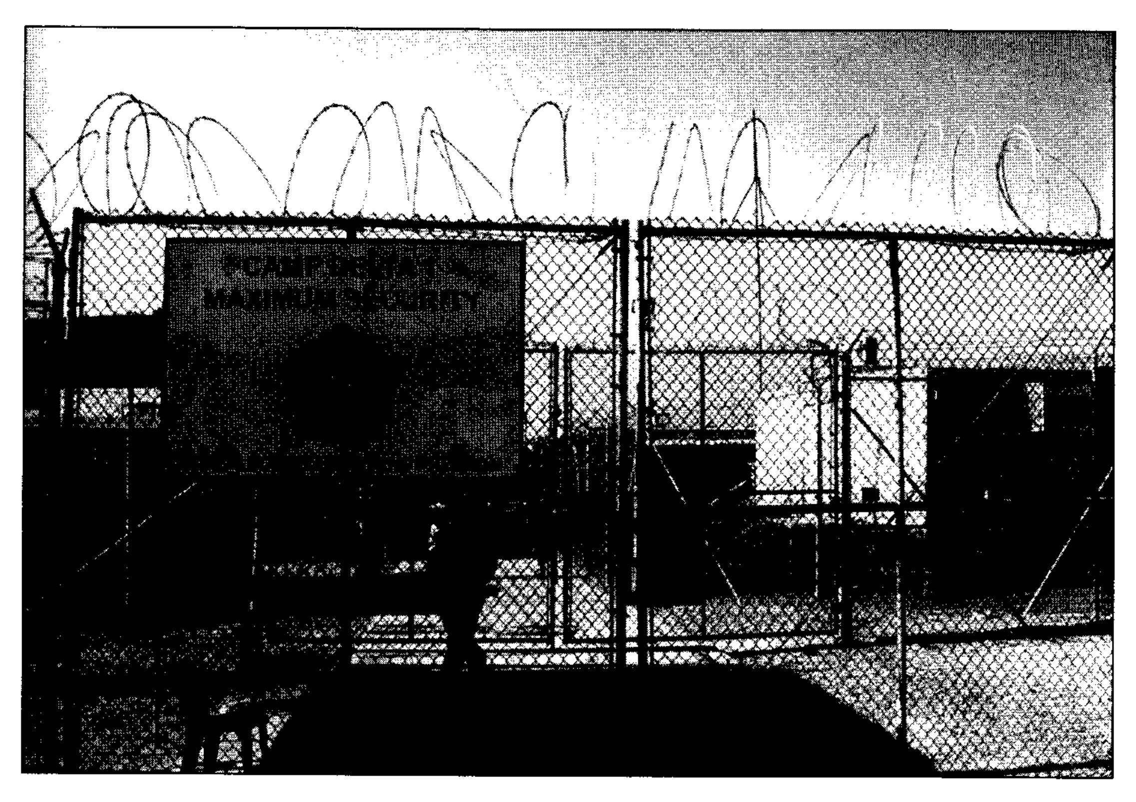
معتقل غوانتانامو.



أغـــلال أرجل، وأصــــفـــاد تستخدم في تقييد المعتقلين في معسكر دلتا.



جندي أمـــريكي خارج زنزانة انفرادية شـديدة الحـراسـة في معسكر الصدى، حيث اعـتـقلت عـشـرين شهراً.



بوابة، ونقطة تفتيش تؤدي إلى قسم الزنازين الرئيس في معسكر دلتا.



والدي، وتيري وايت، خلال حملتهما لإطلاق سراحي، أمام المحكمة العليا الأمريكية، واشنطن (2004). يقف كورين ريدغرايف خلف والدي في الصورة.



معتقلون سابقون، وأقرباؤهم، في أثناء مؤتمر أمنستي/ ريبريف، في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2005. وقوفا (من اليسار إلى اليمين): طاهر أبو خالدي، وابن عم محمد سي (تشاد)، ومحمد صغير (باكستان)، ورستم أخمياروف (روسيا)، ومارتن موبانغا (المملكة المتحدة)، وجمال الحارث (المملكة المتحدة)، وأنا، وعبد الله، شقيق عادل حجي (البحرين)، وإيرات فاكيتوف (روسيا)، وجلوسا (من اليسار إلى اليمين): ربيعة كورناز، والدة مراد كورناز (تركيا/ ألمانيا)، وناديا ديزديروفيتش، زوج الحاج بوديلا (البوسنة)، وفاطمة تيكايفا، والدة رسول كودايف (روسيا).



عائلة بيغ بعد التئام شملها: زينب، وأمامة، وعبد الرحمن، ونسيبة، وأيوب، وأنا (2006).

أدركت، نتيجة ذلك، كم كنت محظوظا لتحدثي الإنجليزية، وأكثر تأثراً، في الحبس الانفرادي، بالطريقة التي كان الحراس يتصرفون بها تجاهي، كما يشاؤون، بلا حسيب أو رقيب، فقد وجد على الدوام من كان يساندني في الحبس الجماعي.

كنت قد عاهدت نفسي منذ البداية على ألا أفقد احترامي لذاتي أو كرامتي، مهما كانت الأثمان، وأردت الحفاظ على مستوى عال من النشاط الروحي، والذهني، والجسدي، ولم أكيف نفسي وفق أي نمط روتيني، لاعتقادي أن المرونة يمكن أن تساعدني في التأقلم مع القوانين المتغيرة باستمرار، فوضعت لنفسي أهدافا محددة أردت تحقيقها، تمثلت تلك الأهداف، في أغلب الأحيان ـ فيما يتعلق بالجانب الجسدي ـ في ممارسة تمارين الضغط، والمعدة، والإحماء، وكنت قد بدأت ممارسة تمارين الضغط بيد واحدة أيضا، لأتوقف عن ذلك حين لحظت أن الحراس كانوا يسجلونه باهتمام بالغ، وكأنه يمثل ظاهرة خارقة يمكن أن يبنوا مزيدا من الافتراضات المغلوطة على أساسها، إذ بلغ رقمي القياسي مئة حركة في دقيقتين، وقد اعتدت مقارنته في تلك التمارين، علاوة على تمارين المعدة، بما كان يسجله بعض الودودين من الحراس من أرقام قياسية، خلال اختباراتهم البدنية، التي كانوا يجرونها كل بضعة أشهر، كانوا يحرجون للغاية عند إخباري بمدى سهولة تمارينهم بالمقارنة مع تلك التي كنت أؤديها.

تمثل أكثر من رأيتهم، خلال ستة الأشهر الأولى، في كيم ـ كما عرفت نفسها إلي ـ ضابطة «قوة مهام التحقيق الجنائي» المشكلة حديثا، كانت مسؤولة عن استجوابي، وإن لم أنظر إليها أبدا كمحققة، فقد كانت امرأة طويلة القوام، حسنة السلوك، ذكية، في منتصف الثلاثينيات من العمر، ذات شعر أشقر ـ رمادي طويل، وساعدت كيم في تحسين وضعي بطرق عدة، تمكنت من استعادة نظارتي، واستبدلت بخفي حذاء مطاطيا، وجلبت المزيد من الكتب والوجبات الخفيفة بين الفينة والأخرى.

كانت تحضر مع محققين آخرين في البداية ـ ليقتصر الأمر عليها لاحقا ـ وتشعر بالراحة لعدم تكبيلي، حين أكون في حضرتها، فكثيراً ما كانت تأتي، كما كنت أحس، لمجرد التحدث إلي، مدركة، على ما يبدو، ما أعانيه بسبب الحبس الانفرادي، راغبة في الفهم أكثر من الاستجواب، وكانت تدون الملاحظات في بعض الأحيان، بينما كنا نجلس ونتحدث في أحيان أخرى، ولم يكن من السهولة معرفة ما إذا كان اهتمامها صادقا، أو يمثل محاولة، لا أكثر، لجمع المزيد من المعلومات: استنتجت صحة الأمرين معا، إذ تمثل كل ما كنت أعرفه في أن أحدا من المحققين السابقين، في قندهار أو باغرام، لم يمض معي وقتا أطول، أو يظهر مزيدا من التعاطف، أو يبدو أكثر حيادية منها.

تحدثت كيم عن نفسها أيضا، ربما بأكثر مما كان مسموحا، كانت أكثر قابلية للاستجابة والنقاش حين كنت أنتقد الحرب الأمريكية على الإرهاب، وبدت إنسانا بسيطا للغاية، يحاول فهم كيفية حل مشكلة الإرهاب، أكثر من محاربته.

خاطبتها في إحدى المرات، قائلا: «كيم، لست واثقا من طريقة استجابتي إليك في بعض الأحيان، وأعتبر في نهاية المطاف عدوك، وها أنت ذه تعاملينني بلطف، لم يتصرف العديد ممن سبقوك بتلك الطريقة، ولا أعرف، كيفية التعامل معك».

عقبت، قائلة: «لست عدوي يا معظّم، وأتمنى الأفضل لك بحق، وأعني ذلك تماماً».

عقبت، قائلا: «ربما لا ترينني عدوا يا كيم، ولكن حكومتك تفعل».

لم ترد على ذلك.

حضر زائر آخر معها في أحد الأيام، مختلف للغاية: أول ممثل قنصلي بريطاني للمعتقلين في غوانتانامو، وهو مارتن الذي بدا طويلا، أصلع الرأس، في الخمسينيات من العمر، قدم الرجل في مهمة رسمية، وقد أصبح صلة اتصالي الوحيدة بالحكومة البريطانية خلال سنوات اعتقالي في غوانتانامو، وإن كانت

العلاقة معه مخيبة للآمال، ارتدى في ذلك اليوم قميصا ورديا «مخجلا»، وسروالا أبيض واسعا، فنظرت إلى كيم، الأنيقة بالمقارنة معه، قائلا لنفسي: «كم هذا محرج!. لقد قام الأمريكيون أخيرا بخطوة جيدة للغاية، ولكن هذا الرجل يبدو...».

حضر شخصان آخران برفقة مارتن، وإن لم يكونا تابعين لوزارة الخارجية، عرَّف كل من لوسي وأيان نفسيهما كعميلين للاستخبارات البريطانية، فلم تكن الأولى كأيٍّ ممن التقيتهم في السابق من عملاء الجهاز، فقد كانت تتحدث كثيراً، لا سيما عن التمثيليات والأفلام، وذلك ما أثار دهشتي إلى أبعد الحدود، أما أيان، فكان مختلفا عنها، وبدا راغبا في إشعاري بالطمأنينة، كجزء من خديعتهم. لم يقدما لي أي شيء، اللهم إلا مجموعة جديدة من الأسئلة كي أجيب عنها.

أثار مارتن حيرتي بشدة، إذ كان يتبع وزارة الخارجية، ويستجوبني، برفقة عميلي الاستخبارات البريطانية، وكان من المستحيل بالنسبة لي أن أميز بين الطرفين، بالرغم من تعريفهما عن نفسيهما، ظننت أنهما كانا يتبعان الجهة ذاتها، وضايقني الرجل كثيراً عبر أحد الأسئلة التي وجهها إلي: «أحتاج التأكد أنك بريطاني، فهل يمكنك إخباري باسم مدير مدرستك الثانوية؟».

أجبته، قائلا: «نعم أيها السيد الكريم، هل أنت جاد فيما تقوله حول التأكد من جنسيتي البريطانية؟. لديك الاستخبارات البريطانية هنا برفقتك، يعلمون بالفعل من أنا، ناهيك عن زيارة منزلي». سألته فيما بعد، قائلا: «ما الذي استلزم الحكومة البريطانية الكثير من الوقت للتحرك؟».

لم أفهم مغزى السؤال، الذي طرحه إجابة عن سؤالي، قائلا: «لم تظن أنها استلزمت الكثير من الوقت؟».

أردت قول الكثير من الأشياء، التي لم يكن أي منها لائقا، لذلك الرجل، ولكنني بقيت صامتا على أمل أن يساعدني في حل مشكلتي، ولم أرد الخوض في أي جدال، أو توتير الأجواء، لعله كان يقصد أن الأمريكيين هم من منعوهم من التحرك بسرعة.

أردت معرفة بعض الأمور، منخرطا في حوار مع أيان، الذي بدا أكثرهم قابلية للاستماع، ووصل بنا الحديث في نهاية المطاف إلى إيرلندا الشمالية، سائلا إياه عن الأحوال هناك.

أجابني، قائلا: «آسف، لا يمكنني إخبارك».

عقبت، قائلا: «ما المانع؟».

أجابني قائلا: «حسنا، أخضع لأوامر مشددة بعدم مناقشة الأوضاع الراهنة».

كان من المثير للإحباط أن يشعر أن الحديث في مثل هذا الموضوع، غير ذي الصلة، يمكن أن يشكل خرقا لأمن الولايات المتحدة القومي في كوبا، بقي البريطانيون بضع ساعات، ليعودوا في اليوم الآتي مجدداً، بدا واضحا أنها كانت زيارة للتحدث في مواضيع عامة، ناهيك عن الغاية الاستخبارية منها، وطرحوا علي العديد من الأسئلة حول أناس في بريطانيا، ومن ظننت أنهم إرهابيون محتملون، يمكن أن يشنوا هجمات ضد المصالح البريطانية حول العالم، أو في بريطانيا ذاتها.

أجبتهم، قائلا: «أي أحد، الكل، ولا أحد، ما رأيكم بتلك الإجابة؟. لا أفهم كيف تتوقعون مني الإجابة عن ذلك، بينما لم أتورط من قبل في أي عمل إرهابي، أو أعرف أيا ممن فعلوا».

ظننت، مع ذلك، أنهم كانوا يتبعون نمط الأسئلة ذاته، الذي بدؤوه منذ مدة طويلة، لا أكثر.

أخبرتهم حول الاعترافات الكاذبة التي انتزعها مكتب التحقيقات الفيدرالي مني، موضحا بدقة كيف حدث ذلك، علاوة على حرماني من الحصول على نسخة منها، تحدثت أمام كيم، متعمدا قول الآتي: «لا أصدق أنني سأحصل على محاكمة عادلة من قبل الأمريكيين»، نظرت إليها حين قلت ذلك، بالرغم من توافقي معها إلى حد كبير، كي تعرف رأيي في حكومتها، مسجلا مخاوفي منها.

لم يكتفوا بسؤالي عن أبي حمزة، العلامة الإسلامي في مسجد فينسبوري بارك فحسب، بل عن أماكن تردد الشيخ المثير للجدل، اللاجئ في لندن، أبي قتادة. خاطبتهم، غير مصدق أنهم قاموا بذلك، قائلا: «هل تعلمون كم من الوقت مضى علي في الاعتقال؟».

تجاوزت تلك الفترة السنة بكثير في حينه، ولكنهم كانوا مصرين على أن أسئلتهم كانت منطقية للغاية.

أحضروا كذلك مئات صور الناس، الذين لم أكن أعرف معظمهم. بلغ الأمر بهم، في بعض الأحيان، حد إبراز صور لمؤخرة رأس أحدهم، أو ذراعه، أو ساقه، طارحين السؤال الآتي علي: «هل يمكنك التعرف على هذا؟».

حاولت جاهدا التمييز بين الأمريكيين والبريطانيين، ليتضح فيما بعد أنهم كانوا متعاونين، حريصين على إبقائي سجينا، راغبين في استفادة الأجهزة الاستخبارية من ذلك إلى أقصى الحدود، فما عساها كانت تلك الفائدة يا ترى؟.

لم أجد الكثير من الاستخدامات، قبل اعتقالي، لعبارة «التقاء الأضداد»، ولكنني اكتشفت بعد فترة قصيرة أنها كانت مناسبة تماما عند الإشارة إلى الاستخبارات العسكرية*، مثلما كان العديد من عناصر الشرطة العسكرية يمزحون، قائلين: «لا يمكنك أن تكون ذكيا، ومنتميا إلى الاستخبارات العسكرية في الوقت ذاته».

كانت معلوماتهم، علاوة على ذلك، متخبطة للغاية، لم يبدأ الأمريكيون ـ بعد توقيعي على الاعترافات ـ في تبني طريقة أقل عدائية تجاهي فحسب، بل ومعاملتي بودية أكبر أيضاً.

حضر كل من مايك، آخر عملاء «الإف بي آي» الذين تحدثت إليهم في إسلام أباد، وروب، العميل الذي التقيت في قندهار وباغرام، حضر كلاهما إلى زنزانتي خلال زيارتهما إلى غوانتانامو، وسألني مايك بصورة مفاجئة، قائلا: «هل تمانع في رفع قميصك قليلا؟. أريد رؤية ما إذا كنت تحمل أي علامات مميزة، لا أكثر».

---

* تتشاطر «الاستخبارات»، و«الذكاء» الكلمة ذاتها في الإنجليزية. (المترجم).

أجبته، قائلا: «لديكم صور عارية لي بالكامل، عندما أحضرت إلى هنا». لبيت طلبه، فيما بعد، على أية حال.

أدركت أن الأمريكيين كانوا يملكون نظاما ضعيفا لتبادل المعلومات، ناهيك عن قلة التعاون بين عملائهم الكثيرين، الذين كانوا يتنافسون فعليا فيما بينهم، تحدث أحدهم مرة في باغرام، قائلا: «لا تعلم اليد اليمنى ما تفعله اليسرى»، فقد ذكرني ذلك، بغض النظر عن البون الشاسع بينهما، بالحديث النبوي: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»، الذي يحض المرء على التكتم على ما يقوم به من أعمال خيرية، وكانت المعلومات تنتزع من السجناء، وتضاف إلى ملف كونته إحدى المجموعات، لتأتي أخرى وتنسخه، مضيفة إليه الغث مما جمعته من معلومات خاصة بها.

لم أتمكن من حل اللغز الكامن وراء طلب مايك الغريب، وإصرار مارتي، عميل «الإف بي آي»، في باغرام على أنني كنت مدربا في معسكرات القاعدة، فلم أتمكن من ذلك إلا بعد مضي أكثر من عام ونصف، حين نقلت أخيرا من معسكر الصدى، فأخبرني أحد المحتجزين أنه كان قد تدرب في معسكر الفاروق، التابع للقاعدة، قرب قندهار، وأنه استجوب حول شخص يحمل اسمي ذاته، باكستاني الجنسية، كان يعمل مدربا هناك، وأضاف المحتجز، كما أخبر الأمريكيين، أن ذلك الرجل يبلغ 188 سم في الطول، أعزب، ولا يتحدث الإنجليزية، ومصاب بجرح نجم عن رصاصة أصيب بها في صدره، في حين كنت أبلغ 160 سم في الطول، ومعافى الصدر.

لم تتوقف الافتراضات والأسئلة، مع ذلك، عند تلك النقطة.

سألني روب، بينما أبرز صورة رجل أفريقي الملامح، قائلا: «هل سبق لك رؤية هذا الرجل من قبل، في أحد المعسكرات؟».

أجبته، قائلا: «لا. من هو؟».

أجابني، قائلا: «جون محمد، هل يذكرك هذا الاسم بشيء؟».

أجبته، قائلا: «لا، ولكنه يجمع أكثر الأسماء شيوعا في المسيحية والإسلام، ولا بد أنه أمريكي».

لم أكن أعرف ذلك في حينه، ولكن روب كان يتكلم عن جندي أمريكي سابق، مسؤول عن مقتل اثني عشر شخصا في الولايات المتحدة، فلم سألني روب عنه يا ترى؟، ربما لأنه كان مسلما، ويجيد الرمي.

سألني روب مجددا، قائلا: «ماذا عن اسم أبي مصعب الزرقاوي، ألا يبدو مألوفا؟. ربما كان موجودا في أفغانستان حين كنت هناك».

أجبته، قائلا: «لم أسمع به قط، فمن هو؟».

أجابني، قائلا: «لا يهم».

لم أكن أعرف في حينه أنني سأسمع بذلك الاسم كثيراً عند عودتي إلى بريطانيا.

خاطبني روب، قائلا: «يتمثل ما لا أفهمه بشأنك يا معظّم في سبب مغادرتك بريطانيا، ومجيئك إلى أفغانستان، دونا عن كل الأماكن، فإن لم تكن عضوا في القاعدة أو الطالبان، فلم فعلت ذلك، مصطحبا زوجك وأطفالك؟». كان الأمريكيون والبريطانيون يحتارون على الدوام في تفسير الدوافع والنوايا وراء السفر.

أجبته، قائلا: «لم يتعين علي أن أكون عضواً في أي جماعة كي أسافر إلى أي مكان؟. يعد الجواب بسيطا للغاية يا روب، ولكنك لن تفهم، على الأرجح، لأنك أبيض البشرة».

عقب، قائلا: «آه، بالله عليك، لدي العديد من الأصدقاء السود، علاوة على المسلمين».

سألته، قائلا: «أحقا؟. كم منهم تزور بانتظام؟، كم مرة يلهو أطفالكم معا خارج المدرسة، إن كانوا يقصدون المدارس ذاتها؟. هل تسكن حتى في مناطقهم ذاتها؟».

لم يجبني.

أردفت، قائلا: «هل رأيت؟، لا يحدث ذلك في أمريكا، وهي التي سكنها السود، على الأقل، منذ ما يقارب الأربع مئة عام، فقد ولدت ونشأت في إنجلترا، دون أن أرى نفسي إنجليزيا على الإطلاق، أو يراني الإنجليز كذلك، وأعرف التاريخ الإنجليزي، واللغة الإنجليزية، والأدب الإنجليزي بما يفوق الكثير من الإنجليز، ولكنني لست بأبيض، أو مسيحي، أو إنجليزي الأصل، فلا تسء فهمي. يعد المجتمع البريطاني الأفضل من بين المجتمعات متعددة الثقافات في أوروبا، ولكنني أشعر بالغربة في معظم أنحاء البلاد، وأود الذهاب إلى أي من قرى الريف الإنجليزي، ببشرتي الداكنة، ولحيتي، برفقة زوجي المحجبة، دون أن يحدق بنا أحد، أو نشعر بالتمييز، أود فعل ذلك، في الحقيقة، في أي من المناطق المجاورة لتلك التي أقطنها. أود أن يرى الناس أننا نريد الأشياء ذاتها في الحياة عموما، وألا يشعروا بالتهديد من قبلي، أود أن يحبني الإنجليز بدافع من قبولهم، لا احتمالهم لي على مضض، إن حاولت الاندماج بهم، فلا أعلم كم تفهم من قولي كأمريكي، ولكنك تحظى، بطريقة أو بأخرى، بأكثر مما يمكنني الفوز به من قبول المجتمع البريطاني، وتظل، في نهاية المطاف، لا أبيض البشرة فحسب، بل ومسيحيا أيضاً».

عقب، قائلا: «أفهم ذلك: أردت الذهاب إلى حيث تندمج أكثر، لا تستطيع مع البقاء احتمالا، ولكن لم أفغانستان بالتحديد؟».

أجبته، قائلا: «هل كان هذا السؤال أثير لو افترضنا للحظة أنني أبيض البشرة، وغير مسلم؟. لا يمكنك العثور على مكان واحد، على وجه الأرض، لا يوجد فيه مغترب بريطاني، رأيت في أفغانستان أوروبيين وأمريكيين بيضا، يعيشون ويعملون مع عائلاتهم، لم يكونوا من ذوي البشرة السمراء، أو يرتدوا

الشالفار كاميز، أو يتحدثوا اللغة المحلية، أو يصلوا في المساجد، ولكن أحدا لم يشكك في نواياهم مع ذلك فقد دفن بعض أجدادي في أفغانستان، وكنت ألبس كالأفغان، أصلي في مساجدهم، أتحدث بلغة يفهمها معظمهم، وقد شعرت تجاههم بما يفوق التعاطف الإنساني الاعتيادي، فلم يعان أولئك بشدة من الحروب التي دعمها بلدك فحسب، بل الكوارث الطبيعية أيضا، وأردت العيش في دولة إسلامية متحررة من الفساد والطغيان اللذين يعمان بقية أرجاء العالم الإسلامي».

عقب، قائلا: «فاخترت الطالبان بناء علي ذلك؟».

أجبته، قائلا: «بل أفغانستان، وأعترف أنني ارتكبت أخطاء، ولكنني أظن ـ لو لم تقع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ـ أنني كنت سأستمر في العيش بسعادة في أفغانستان».

عقب، قائلا: «كعضو في القاعدة، أو الطالبان على الأرجح».

عقبت، قائلا: «علمت أنك لن تفهم، إذ كان الطالبان أفضل ما حظيت به أفغانستان خلال الخمس والعشرين سنة الماضية، ولم تعش هناك قبل توليهم الحكم، أو بعده، ولم يتوقف الاستغلال الجنسي للأطفال، أو اغتصابهم، أو النهب، أو السرقة، أو القتل، أو إنتاج المخدرات، فلم يتوقف كل ذلك إلا بعد إمساكهم بزمام الأمور».

عقب، قائلا: «ليحل عهد بتر الأعضاء، والجلد، والإعدامات».

عقبت، قائلا: «آه، وهل ألغت الولايات المتحدة عقوبة الإعدام؟. لا أتفق مع الكثير من الأشياء التي كان الطالبان يفعلونها، ولكن بعضها كان يحدث بالفعل، قبل توليهم الحكم، بصورة أسوأ في الحقيقة، إذ يعد المجتمع الأفغاني قبليا، فيمكن أن يجد معظم الأمريكيين، في بلدك، بعض قوانين قبائل الهنود الحمر فظيعة، وأعرف أن الطالبان عزلوا أنفسهم نتيجة تطبيقهم الصارم، وتأويلهم المتزمت للشريعة الإسلامية، ولكنني واثق من أن الأوضاع عادت إلى ما كانت عليه من سوء في السابق، بالنظر إلى عودة أمراء الحرب».

تذكرت حين أخبر شريف الأمريكيين، في باغرام، عن أن إنتاج المخدرات تضاعف ثلاث مرات منذ سقوط الطالبان، وأن أمراء الحرب، الذين كانوا حلفاء للأمريكيين، عادوا لاستغلال الأطفال جنسيا.

عقب روب، قائلا: «لو لم تقع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، بكل الأحوال، يا معظّم، لما ضيعنا وقتنا على الإطلاق في أفغانستان».

عقبت، قائلا: «كنت أصدق ذلك من قبل، ولكنه لا يمثل الحقيقة ببساطة، فأعتقد أن أفغانستان كانت مدرجة ضمن مخططاتكم منذ مدة طويلة، لا تحتملون وجود دولة إسلامية حقيقية في أي مكان».

بقيت ما يقارب ستة الأشهر في زنزانتي الواقعة داخل الغرفة، حيث كانت الأنوار مضاءة على الدوام، وإن خفت إضاءتها قليلا في الليل، فكنت أستطيع بالكاد التمييز بين الليل والنهار ـ اللهم إلا في أثناء أدائي التمارين في الخارج ـ عندما يفتح الباب، أو يبدل عناصر الشرطة العسكرية مناوباتهم، فتعين علي سؤالهم عن مواقيت الصلاة، لعجزي عن سماع الأذان في المعسكر الرئيس، وتمثل كل ما أمكنني سماعه، واضحا أكثر ما يكون في ساحة التمرين، في النشيد الوطني الأمريكي في الصباح والغروب، إذ كان الجنود يقفون في مواقعهم، أينما كانت، أثناء تأدية التحية للعلم، وما انفككت أشعر بالسأم من ذلك الصوت.

كانوا يبنون خلال تلك المدة ما تبقى من معسكر الصدى، اثنتي عشرة زنزانة أخرى، وكنت أسمع صوت الآلات وأعمال البناء، علاوة على قرع باب الغرفة، إذ اعتاد زائروها القيام بذلك، من ممرضين أو محققين، ليتأكد الحراس من هوياتهم قبل فتح الباب، أو يكتشفوا، حال عدم وجود أي منهم في الخارج، أن نقار الخشب أحمر الرأس هو من فعل ذلك، وتمثلت مهمته في الحياة، كما في أفلام الرسوم المتحركة، في إزعاج بعضهم، وتسلية الآخرين، إذ وفر أحد العقداء فرصة اللهو لعناصر الشرطة العسكرية، عبر إصدار الأوامر لهم بمطاردة ذلك الطائر، مسلحين بالحصى، ليقذفوه بوابل منها، ألم يكن لذلك العقيد عمل أكثر أهمية يقوم به؟.

دعيت زنزانتي، والأخرى التي نقلت إليها لاحقا، «السنجاب السري»، كان ذلك الاسم عبارة عن شفرة، وذلك ما عنى أن لا أحد كان يعلم هوية الشخصين المعتقلين فيهما، كانا يحتجزان من قبل وحدتين عسكريتين مختلفتين، يستجوبهما محققون خاصون، فقد تم تغيير وضعي الآن إلى «شبه مطلق السرية»، فلم يكن عناصر الشرطة العسكرية، في معسكر الصدى، يعلمون هويتي، أو سبب اعتقالي، تمثل كل ما أخبروا به في أنني كنت شخصا عالي الأهمية، اعتقل في الحرب على الإرهاب، ولا بد أنني كنت كذلك بالفعل، بالنظر إلى كوني أول المحتجزين في معسكر الصدى، وحدة الحبس الانفرادي الجديدة.

حضر، في إحدى المرات، العقيد الأفريقي الأمريكي الكهل، طويل القامة، «متصيد الأخطاء التافهة»، كما أسميته في حينه، إلى الغرفة، مؤنبا أحد الجنود لعدم جلوسه أمام زنزانتي، ومراقبتي أربعا وعشرين ساعة في اليوم، فقد كان هذا الجندي موجودا عند زاوية الغرفة، حين دخلها العقيد، قبل أن يتجه نحوه، ويصرخ فيه، قائلا: «أيها الجندي!، أنت في الخطوط الأمامية الآن، وما قمت به يعادل ترك المهام الموكلة إليك أثناء وجودك فيها، فلو كان القتال دائرا بالفعل، لقتل عدد من الجنود الآخرين نتيجة تصرفك».

فكرت، قائلا لنفسي: «من أي أفلام جون وأين خرج هذا العقيد لتوه؟، ولم يوبخ جنديا أمامي؟». يبدو أن عديم اللباقة هذا وصل إلى الافتراض الشائع ذاته: أن الشخص الموجود في القفص، ببزته البرتقالية كبقية السجناء الآخرين، لا يتحدث أو يفهم الكثير من الإنجليزية.

خاطب العقيد الجندي فوستر، وهو يشير إلي، قائلا: «هذا شخص مهم للغاية، يتعين عليك مراقبته طيلة الوقت»، فكرت قائلا لنفسي: «أصبحت شخصية مهمة للغاية الآن». فلا يعلم العقيد «متصيد الأخطاء التافهة» شيئا عني، ولم ينخرط في أي من استجواباتي، ويجهل حتى اللغات التي أتحدثها، فكيف عرف، أنني شخص مهم للغاية؟. ربما توصل إلى ذلك الاستنتاج بالنظر إلى وجودي في الحبس الانفرادي.

كان فوستر شابا غريبا للغاية، يمثل مع ذلك نموذجا لصغيري الرتب من المراهقين المجندين بدوام جزئي في غوانتانامو، فقد كان يحب التحدث عن السيارات، أو «الشاحنات» كما كان يسميها، ويحرص من يملكون الشاحنات في بريطانيا على إخفاء ذلك خجلا من الآخرين، ولكن تلك التسمية، على ما يبدو، لم تكن تعبر عن الشاحنات التقليدية الكبيرة في الولايات المتحدة، بل تعبر عن سيارات الجيب رباعية الدفع، أحب فوستر التحدث إلي في أثناء مناوبته، بدافع من الملل على ما أفترض، إذ اعتاد إخباري بكل القصص الخيالية عن بطولاته، كقتال مجموعة من الأشخاص بمفرده، وصعود الجبال شديدة الانحدار بسيارته، حيث لم يفعل غيره من قبل، أو زيارة جزيرة في المحيط الهادئ، حيث كان والده، قريباً من مخلفات نووية اجتذبت أعداداً من حيوانات السلطعون الجائعة، لتجعلها الأكبر حجما، فسألت بعض الحراس الآخرين عنه، فنصحوني بعدم تصديق كل ما يقوله.

قدم لي فوستر مرة إحدى الغنائم الثمينة في تلك المدة، فقد كان من المفترض أن يكون هناك ضابط واحد مسؤول عن المكتبة، يجول بين الزنازين، مقدما كتابا واحداً، على الأقل، لنزلائها أسبوعيا، ولم يحصل ذلك لي أبداً، بالرغم من قيام بعض الجنود بالنزول إلى المكتبة بضع مرات، وإحضار كتاب أو اثنين من أجلي، أحضر فوستر ثلاثة أعداد حديثة من مجلة التايم، تاركا إياها على الطاولة خارج زنزانتي، وكنت واثقا أنها لم تكن من أجلي، بالنظر إلى عدم السماح لي بالاطلاع على أي من الأوضاع الراهنة، ناهيك عن تسجيل كل ما يمنحونني إياه، فسألت أحد عناصر الشرطة العسكرية، عند رؤية المجلات الموجودة على الطاولة، بالرغم من تغيير نوبة الحراسة، بثقة، قائلا: «هل يمكنك إعطائي مجلاتي الموجودة على الطاولة، من فضلك؟».

أجابني، قائلا: «بالتأكيد، لا مشكلة»، بينما كان يسلمني أول ما حظيت به من «مهربات» في السجن.

بدت ألوان صفحاتها براقة للغاية، حين ألقيت نظرتي الأولى عليها، وقرأت عن كارثة المكوك ديسكفري، وتفجيرات بالي، ومحاولة مهاجمة طائرة شركة

العال الإسرائيلية في مومباسا، واحتجاز المسلحين الشيشان لرهائن في أحد مسارح موسكو، وتصاعد التوتر في شبه القارة الهندية، واعتقال ـ وإن قرأت هذا الخبر سابقا ـ الساعد الأيمن لأسامة بن لادن. فبدا الموضوع المهيمن متمثلا في الحرب على الإرهاب، وما تسببه من تدهور في الأوضاع.

كنت قد أتممت قراءة المجلات بالفعل، حين قدمت كيم، منبهة عناصر الشرطة العسكرية إلى أن القوانين تحظر اطلاعي عليها، فخاطبتهم، قائلا: «يمكنكم أخذ المجلات، فقد قرأتها جميعا، شكرا لكم».

كنت محظوظا، فيما عدا ذلك، إن حصلت على ما يتعدى قصص التشويق السخيفة، وروايات المحاكمات، وكتب «الريدرز دايجست» الملخصة من الخمسينيات، ومجلات «ناشيونال جيوغرافيك» من السبعينيات، بعد تمزيق العديد من صفحاتها، وكان هنالك، ما أحببته من الروايات الأدبية، ككلاسيكيات القرن التاسع عشر، بما في ذلك روايات ديكنز «المنزل الكئيب»، «قصة مدينتين»، و«دايفيد كوبرفيلد»، ورواية أيميلي برونتي «مرتفعات وذرنغ»، ورواية دوستويفسكي «الأخوة كارامازوف»، واستمتعت كثيرا ببعض الكتب، التي لم أكن لأقرأها بصورة اعتيادية، مثل «سيد الخواتم»، و«هاري بوتر»، وتمثل الشيء الغريب في استمتاعي بكل كتاب قرأته أن بلغ بي الأمر، في إحدى المرات، حد قراءة رواية رومانسية، بدافع من يأسي الشديد، نظرت إليها لاحقا، لأفكر، قائلا لنفسي: «ما الذي كنت أفعله عند قراءة تلك التفاهة؟». مثل ذلك هروبا من الواقع المرير الذي كنت أعيشه، كما يحدث عند مشاهدة فيلم ما، والاندماج فيه كليا، وكنت أقرأ بعض تلك الكتب بنهم شديد، خاتما إياها في ساعات، لأرغب في قراءة المزيد بعد الانتهاء منها مباشرة.

أقعدني الملل عن ممارسة التمرين طيلة اليوم، ناهيك عن حفظ القرآن، فقد كنت أتوق إلى قراءة المزيد من الكتب التثقيفية، وقد فكرت في الانتساب إلى أي من الجامعات، فكنت أعلم أن عددا من السجناء، في جميع أنحاء العالم، كانوا قد حصلوا على شهادات الاختصاص والدكتوراه أثناء وجودهم في الاعتقال، فمثل ذلك، طموحا مبالغا فيه.

بدأت، مغالبة للرتابة الشديدة التي ما انفكت تضرب أطنابها في حياتي اليومية، وضع اللوائح مجدداً، مستعينا بذاكرتي لإنجاز الكثير منها: لوائح بالكتب التي قرأتها، وأود قراءتها، ولوائح بالكلمات، لا سيما المفيد من الصفات، علاوة على لوائح بكلمات وعبارات لاتينية وفرنسية، وأخرى بالملاحظات والاقتباسات اللافتة مما قرأته من كتب، والكلمات وأصولها، من العبرية، والأوردية، والعربية، واللاتينية، والمقارنات بين رموز العربية، والعبرية، واليونانية، ودول العالم وعواصمها، والجدول الدوري للعناصر، وكل ما أتذكره من أدعية بالعربية، وأسماء الصحابة، وأهم شخصيات التاريخ، وكل ما أود دراسته من مواد، وسجل بكل ما أرسلته وتلقيته من رسائل.

مثلت الكتابة المتأنية إلى عائلتي أسلوبا آخر لمغالبة الملل، إذ أمضيت الكثير من الوقت والجهد في التفكير بما كنت أكتبه، ولم أكن أفعل ذلك لمجرد الكتابة فحسب، فقد كنت أفكر مليا في وقع كل جملة، أو كلمة نصح إلى زوجي، مؤمنا بأن أي حذف، أو منع، أو فرض للرقابة على ما كنت أرسله إليها يمثل خرقا لحقوقي، وهو ما كان يشعرني بالإحباط الشديد، بالرغم من حرصي الدائم على ضبط النفس، ولم يعترني الشك للحظة في أحقيتي بالتواصل مع عائلتي.

ما انفككت أشكو من الرقابة على الرسائل، وحرماني من تلقيها، فقد كان يقدمون الجواب ذاته على الدوام: «لا ندري ما حل بها».

لم يكن هناك أي تفسير من قبلهم، فلم يصارحني أي منهم مباشرة، على سبيل المثال، قائلا: «انظر، لقد قررنا حجب رسائلك، سامحين بما يمر منها وفق مشيئتنا» وقد كان من شأن ذلك أن يكون أكثر نزاهة وصدقا مما اعتادوا ممارسته من ألاعيب، قائلين: «يسمح لك بكتابة الرسائل، وتلقيها» ولم يفعلوا ذلك، باعتقادي، إلا للظهور بمظهر من يمنحنا ذلك الحق أمام هيئة الصليب الأحمر.

لم أشعر بالغضب، من معظم عناصر الشرطة العسكرية، في أغلب الأوقات، فقد تمثل أحدها بشابة صغيرة السن من ماين، كانت ودودة للغاية، يملؤها الفضول، تجلس قبالة زنزانتي، حين تأتي إلى الغرفة، لتبدأ التحدث إلي، كانت

تهتم كثيراً بمعرفة ما أمكنها عن الثقافة الإسلامية، واللغة العربية، ليصل بها الأمر حد طلب بعض الكتب المتعلقة بهما، بعد التحدث إلى عدد من السجناء، وقد أخبرتْ أحد الحراس المسؤولين عن الكلاب، في إحدى المرات، أن زوجها كان مستاء نتيجة قيامها بذلك، وعلمت لاحقا، من فوستر الثرثار، أن ذلك الحارس كان مسلما أسود البشرة، وإن لم يتضح ذلك من طريقة حديثه أو تصرفه، فاسترقت السمع إليه، حين كان يتحدث إليها، قائلا: «يجدر بزوجك أن يكون منفتح الذهن قليلا، وأكثر اطلاعا، قبل التحدث عما يجهله من أديان».

علمت أن اثنين من الجنود كانا قد اعتنقا الإسلام في غوانتانامو، فقد كان أحدهما، كما سمعت من الحراس، بورتوريكيا، يصلي مع المحتجزين في بعض الأحيان، وتم اعتبار ذلك فيما بعد «اختلاطا بالعدو»، ليتم نقله من الجزيرة، وتمثل الجندي الثاني بشابة سوداء من الجنوب، تحدثت إليها بضع مرات في معسكر الصدى، لأكتشف أن قرارها جاء نتيجة الكثير من التأمل، والدراسة، والنقاش مع السجناء، وكانت مترددة في إشهار إسلامها؛ مخافة أن يناصبها الكثير من الجنود العداء، كما كان يحدث مع كل المسلمين المتموضعين في الجزيرة من مدنيين وعسكريين، فقد كانت متبصرة بوضوح، ومكنني ذلك من فهم السبب الكامن وراء رغبتها في التغيير.

اعتدت استراق السمع إلى الجنود، حين كانوا يتحدثون إلى بعضهم بعضا، في الكثير من الأحيان، ناهيك عن أن العديد منهم كانوا يخبرونني عن تفاصيل حياتهم اليومية: القلق المحيط بالحياة العسكرية، على ضوء ما يحدث في أفغانستان والعراق، والضغوط الناتجة عن الاختبارات البدنية، والترقيات أو خفض الرتب (رأيت فوستر وجندي آخر يتجادلان بالفعل حول ذلك أمام زنزانتي)، والوضع الماديّ، والعائلة، والصديقات والزوجات، وكان أحد الجنود، في الواقع، قد أقدم على الانتحار، عبر إطلاق النار على نفسه، حين اكتشف أن زوجه هجرته، بينما ارتكب آخرون، كما تناهى إلى سمعي، جرائم قتل بعد

قضائهم مدة طويلة في الخدمة، وعودتهم إلى الديار، ليكتشفوا رحيل من أحبوا، قد تم نقل أحد صغار السن من الجنود من معسكر الصدى، بعد انهياره أمامي، نتيجة هجر زوجه له، إثر علمها بارتكابه الزنا ـ جريمة يعاقب الجيش الأمريكي عليها ـ مع فتاة في غوانتانامو، وقد كان العديد من الجنود يهابون، في المقام الأول، إرسالهم إلى سوح القتال.

ترسخت لدي القناعة، التي كنت قد توصلت إليها بالأساس، بأن أولئك الجنود كانوا ماديين إلى حد كبير، بعد أن اطلعت على طموحاتهم، وما يودون تحقيقه في الحياة، وأعلم ما يشعر به المرء من رضا عند القيام بما يخدم وطنه، إن في الداخل أو الخارج، ولكن ذلك لم يكن يستشف من الطريقة التي تحدث بها معظمهم، فقد بدا أنهم يمتلكون بعض القناعات المحددة، بما لا يستثني الانضمام إلى الجيش، وتبين لدي، بعد الاستماع إليهم، أن القليل منهم نسبيا تطوعوا كجنود نظاميين، بما لا يشمل الجيش العامل، على اعتبار أن معظمهم كانوا من الحرس الوطني، أو جنود الاحتياط. فلم يتخيل أولئك على الإطلاق أن يخدموا في الجيش بدوام كامل، في هذه المدة المهمة، الحاسمة، من حياتهم، حتى تم إلحاقهم به، ونشرهم في أماكن وجوده.

ازدادت ثقتهم بي بمرور الأيام، وبدؤوا يشركونني في أحاديثهم، وتمثل الفارق الوحيد في كوني حبيسا داخل القفص، فقد كانوا يقولون في بعض الأحيان: إنهم يكرهون الحياة العسكرية، ويشعرون أنهم محتجزون على حد سواء، لا من الناحية الجسدية فحسب، بل ومعنويا كذلك لعجزهم عن ترك الجيش، وكنت أخاطب أكثرهم تذمرا، قائلا: «حسنا، هذا أمر جيد، لأنكم علمتم، عند التحاقكم بالجيش، ما كانت أمريكا عليه، وما كان الجيش الأمريكي يفعله طيلة العشر، أو الخمس عشرة سنة الأخيرة» فكانوا يردون قائلين: إنهم كانوا يجهلون ذلك، وإنه كان صحيحا على الأرجح، ولم يعرفوا الكثير عن العالم، حقيقة، مما يتجاوز نطاق اهتماماتهم الشخصية.

علمت، بمرور الأيام، الكثير عن تلك الاهتمامات، وأصبحت قريبا من بعض من فاجأني من أصحابها، فقد كان أحدهم جنديا فتيا للغاية يدعى كارلسون، مر بتحول كبير في غوانتانامو، إذ كان أحد الضباط قد خاطبه بشأني، قائلا: «لا تتحدث إلى هذا الرجل، فهو خطير، ومخادع للغاية، وربما يبدو لطيفا، ولكنه خبير في الفنون القتالية، وأحد أسوأ الذين نحتجزهم هنا».

مثل كارلسون نموذج الأمريكي المتعصب، الذي لم يكن يسعد بإعطائي أي شيء أطلبه، وإن كان معجون الأسنان، وفهمت، فيما بعد، أنه كان يتصرف بتلك الطريقة لانفصاله للتو عن صديقته، التي كان يود الزواج بها، وذلك ما جعله محطما للغاية.

قرأت في أحد الأيام قصيدة لكيم بصوت عال، ليسمعها، وكانت تلك أولى ما كتبت لزينب من قصائد، وقد كانت عاطفية، شاعرية للغاية، وإن أكدتُ قبل كل شيء على أنها كانت صديقتي أيضا، وكنت قد ختمتها بكلمة «أحبك» بالفرنسية.

اتجه كارلسون نحوي، حين غادرت كيم، قائلا: «سمعت شعرك، إنه جيد للغاية، وقد كتبت قصيدة أيضا، هل تود سماعها؟». قرأها أمامي، وقد كانت تدور حول علاقته مع من أحبها بجنون، ولكنها تركته أثناء وجوده في غوانتانامو، أخبرني بكامل تفاصيل قصته، لأصبح موضع ثقته، مطلعا على تطوراتها كافة في الأشهر اللاحقة: «تريد العودة إلي»، أو في بعض الأحيان: «هي برفقة شخص آخر»، كان الشاب حائرا، وقد كانت هي كذلك، وبدا كلاهما صغيرين للغاية في نظري، بينما تتبعت قصتهما، أمريكيين في الصميم.

تحدثنا عن العديد من الأمور الأخرى، وما كان يحدث في حينه، فعلمت أنه كان يأسف لحالي، مستاء لوجودي في ذلك المكان، وقد كانت صداقتنا حقيقية بحلول وقت رحيله، وكان ذلك غريبا للغاية، لعدم وجود الكثير مما يجمعنا، بمعزل عن أحاديثنا حول الأدب، والسفر، والتصوير، وما هو إنساني محض من الأمور، فقد كان في التاسعة عشرة من العمر، بينما كنت في الخامسة والثلاثين، وكان يهوى الشرب، يخبرني عن بلوغه حد الثمالة، في بعض الأحيان، ليتقيأ في أرجاء المكان كافة، لم أرغب حقيقة في الاستماع إلى ذلك، وقد أخبرته بماهية شعوري.

غادر كارلسون مرة إلى بورتوريكو في إجازة استمرت أربعة أيام، ليحضر معه مئات الصور، ويريني إياها في الزنزانة، فلم يفعل أحد ما يماثل ذلك من قبل، وقد كان حسنا للغاية في تعامله معي، وحاولت مساعدته عبر تقديم النصح إليه حول ما يجدر به فعله، وكيفية تدبير القروض الكبيرة التي شكلت الدافع الرئيس لالتحاقه بالجيش.

أخبرني كارلسون، قائلا: إنه لم يدرك الورطة الكبيرة التي وقع فيها حتى نقلوه إلى معسكر الصدى، وبدأ يتحدث إلي، فأخبرني عن أشياء قام بها في أقسام أخرى من المعسكر، دون ذكر اسم المحتجز ذي العلاقة: «لا أصدق أنني قمت ببعض من تلك الأمور معه» فلم يدخل في تفاصيل ما فعله على وجه التحديد، ولكنه أقر بصفعه عدة مرات، قائلا: إنه يخجل من بعض ما ارتُكِب بحق ذلك الرجل، متمنيا لو لم يشارك به على الإطلاق: «لا أعرف ما حدث لي، كيف انحدرت إلى هذا المستوى، بحيث أرتكب تلك الأشياء؟».

لم أضغط عليه في حينه، ولكنني فكرت فيما قاله لاحقا، متسائلا عما إذا كانت تلك الأشياء ستؤثر في حياته الاعتيادية في الوطن ـ التي لن أعرف عنها شيئا بالتأكيد ـ وكيفية حدوث ذلك.



-10-
اختبار القوة

علمت، بعد مضي ثمانية أشهر على اعتقالي في غوانتانامو، أن وعود الأمريكيين السابقة حول أحقيتي في توكيل محام لم تكن إلا هباء منثوراً، وأنني كنت «رجلا معلقا»، على حد تعبير الرئيس جورج بوش، فقد بدا وكأن حياتي في غوانتانامو يمكن أن تستمر إلى الأبد، بينما كنت أقبع في زنزانتي الحديدية، أرى الحراس والمحققين صغار السن يُستبدل بهم غيرهم من الوجوه الجديدة عند انتهاء مهامهم، وبدأت أدرك مدى صلابة النظام العسكري الأمريكي، وقوته وقدرته على إنهاك أي فرد، وذلك ما يتمثل بي في هذه الحالة.

فاجأني أحد الحراس، صبيحة أحد الأيام، حين أخبرني أنني سأقتاد إلى الاستجواب خارج معسكر الصدى، وكانت تلك المرة الأولى التي أتوجه فيها إلى أي من الأماكن القريبة من معسكر دلتا ـ المعتقل الرئيس في غوانتانامو ـ وقد اعتراني الفضول في حينه، آملا، كالمعتاد، حدوث ما يعد إيجابيا من الأمور.

قيدني عناصر الشرطة العسكرية ببزة ثلاث القطع في زنزانتي، لأمشي الهوينا فيما بعد، أجر قدميّ خارجها، ووضعوني في مؤخر عربة طبية صغيرة، حيث حشرت إلى جانب أحد الحراس، وكأنني داخل فرن حديدي، ولم يكن هناك ماء للشرب، إذ لم تتعد المسافة بين المعسكرين نصف ميل أو نحو ذلك، كما سمعت من الحراس، وقدرت حين تسلقت القفص مرة في ساحة التمرين، لأسترق النظر، فرأيت في حينه طريقا متعرجا يؤدي إلى منطقة مغلقة، هي معسكر دلتا، وتمكنت من سماع صوت الأذان عن بعد، وقد استغرقت الرحلة أكثر من ساعة، نتوقف أحيانا، ونسير ببطء في أحيان أخرى.

كان الحر شديدا لا يطاق، فسألت الجندي، قائلا: «هذا سخيف للغاية، لم نستلزم كل هذا الوقت للوصول إلى مكان الاستجواب؟، وهو لا يبعد سوى بضع دقائق بالسيارة» فلم ينبس ببنت شفة، فقد إن كان تأثره بالحر واضحا.

لم أكن قد تناولت طعام الإفطار في حينه، بالنظر إلى دخول الحراس المباغت إلى زنزانتي، طالبين مني الاستعداد لمرافقتهم، قائلين: إن أحدهم يود رؤيتي.

كان وجهي يتصبب عرقا، يكاد العرق يملأ أصفادي. فخاطبت الحراس قائلا: «أحتاج بعض الماء بحق، من فضلكم».

أجابني أحدهم، قائلا: «لا أستطيع فتح الباب من الداخل، ولن يقوموا بذلك حتى نصل وجهتنا». كان بإمكانه قرع الباب، أو استخدام المذياع، ولكنه فضل الانتظار، وكنت أشعر بالإحباط حقيقة ـ وإن حرصت دوما على ضبط نفسي ـ نتيجة صرامتهم العسكرية تلك، وعجزهم عن التعامل مع المواقف بإنسانية، وافتقارهم إلى أي قدر من المرونة، فقد تقيأت فجأة داخل العربة التي كانت تحوي دلوا، باعتبارها عربة طبية، وتمكن الحارس من وضعه قربي، قارعا الباب في النهاية بما يكفي للفت الانتباه، فتوقفت العربة أخيراً، ليقوم الحراس بمساعدتي، وإعطائي بعض الماء.

حاولت الحفاظ على رباطة جأشي، وخاطبتهم، قائلا: «هذا سخيف حقا، هل تعلمون كم مضى علي من الوقت في مؤخر هذه العربة؟».

رد أحدهم، قائلا: «حسنا، لست بأفضل حالا من الجندي المكلف بحراستك».

استشطت غضبا في تلك اللحظة، قائلا: «ولكنه غير مقيد بحق الله، أليس كذلك؟».

اقتادوني إلى غرفة، وقيدوني إلى عقدة معدنية تبرز من الأرض، وتركت جالسا على كرسي هناك، وإن لم أشعر بالراحة مطلقا، عاجزاً عن تحريك ساقيّ، أو بسطهما، إلا بشق الأنفس، واستلقيت في نهاية المطاف على الأرض، لا أكثر، وبقيت هناك سبع ساعات على أقل تقدير، بمفردي، بلا ماء أو طعام.

وصل زائري، «المفاجأة»، في نهاية المطاف، فكان مارتن من وزارة الخارجية، يرافقه أحد الأمريكيين، محقق على الأرجح كما تم إخباري، ونهضت عن الأرض حين دخلا، مفصلا لهما ما حدث لي في ذلك اليوم.

طلب مارتن فك قيدي على أقل تقدير، ففعلوا ذلك، مستثنين ساقيّ، فقد كان من المفترض بتلك الزيارة أن تكون تفقدية: «هل لديك أي شكاوى؟».

بالطبع كان لدي، فأخبرته، كما فعلت في المرة الأولى التي قدم فيها، قائلا: إنني كنت محتجزا فيما تأبى الكلاب سكناه، ولا أتلقى الرسائل أو أرسلها بشكل منتظم، وأتناول ما يقزز النفس من الطعام، ولا تعدو ممارستي الرياضة أكثر من نكتة، وأجهل، فيما يعد الأسوأ، ما سيحصل لي، دون أن يحضر أي من المحامين الذين وعدت بهم.

لم تكن الصورة واقعية إلى حد كبير، فها هو ذا الإنجليزي الذي سعدت لرؤيته، بما لا يخلو من السخافة، لمجرد انتمائه إلى إنجلترا، ولأنه سيحضر لي ما أود من الوطن، من رسائل، وصور، ومجلات، ها هو ذا يجلس مقابلي على الطاولة، في غرفة الاستجواب الكئيبة تلك، وكأننا نجري محادثة اعتيادية في أحد المقاهي.

أبدى الرجل بعض الحرج على أقل تقدير، وخاطبني، بينما كان يشير إلى قدميّ المقيدتين، قائلا: «لم تكن الأمور على هذه الحال حين رأيتك آخر مرة، أليس كذلك؟». كانت الظروف أفضل بالفعل في حينه، عندما حضر برفقة لوسي، وأعتقد أن الفضل كان يعود إلى كيم، إلى حد كبير، فيما يتعلق بذلك، تملكنا الاعتقاد جميعا، طيلة الأشهر الماضية، أن مشكلتي كانت في طريقها إلى الحل بطريقة أو بأخرى.

أجبته، قائلا: «تعلم أنها لم تكن كذلك» فقد أردته أن يسجل أن الوضع الذي كنت فيه لم يكن طبعيا، وأخبرته أنني كنت مستسلما لقدري لا أكثر، إذ لم يكن هناك من المنطق ما يمكن للمرء الاعتماد عليه في غوانتانامو.

كان مارتن قد أحضر لي بعض الرسائل والصور التي رسمها أطفالي في زيارته السابقة، وقد كان الحرج وعدم الارتياح باديين عليه هذه المرة، حين اضطر إلى إخباري أن كل شيء يجب أن يخضع لقسم الرقابة في الجيش الأمريكي، وذكر لي الرجل، بعضا مما قرأه من الرسائل، قائلا: «تعاني ابنتك الكبرى من بعض المشكلات في المدرسة...».

سألت نفسي، قائلا: «ما الذي يعنيه بذلك؟» ـ خائفا للغاية مما يمكن أن يقدمه من أجوبة عن ذلك السؤال، إن طرحته عليه ـ «هل تتم مضايقة أطفالي بسببي؟». لا إلهي، أرجوك، لقد مروا بما يكفي حتى الآن، هم أطفال صغار لا أكثر، ولا تتجاوز ابنتي ثمانية الأعوام من عمرها، وأعلم كيف يتحدث الأطفال عن والديهم، مبجلين إياهم في معظم الأحيان، ويتمثل كل ما يعلمه أطفالي في أنني سجين الآن، وهو ما يعني حتمية كوني...».

قررت الانتظار حتى تلقي إليّ الرسائل، فأخبرني مارتن أن ذلك سيحصل ما إن يفرجوا عنها، وشككت في كلامه، قائلا: «لا أعتقد أنني سأتلقى أي شيء إن لم تكن موجوداً للتحقق من ذلك» فلم يرد أن يظهر بمظهر المتعاطف معي كثيراً، أمام الأمريكيين، على افتراض أنني كنت إرهابيا، وإن تعين عليه إبلاغ رؤسائه بحالتي وظروف اعتقالي، وإيصال تلك المعلومات إلى عائلتي.

أصبحت، في السابع من شهر تموز/ يوليو، من عام 2003، أحد المعتقلين الستة في غوانتانامو، الذين سيواجهون محاكمة محتملة، بأوامر عسكرية من الرئيس بوش، ولم أكن أعرف ذلك حتى يوم الزيارة، بعد شهرين تقريبا من صدور تلك الأوامر، حين خاطبني مارتن، وهو يقرأ ورقة على الطاولة، قائلا:

«يتعين علي إعلامك، بعد سلسلة من المباحثات التي عقدت بين الحكومتين البريطانية والأمريكية، أنك ستحاكم من قبل لجنة عسكرية أمريكية، وأود سؤالك عما إذا كنت تعي ما ذكرت للتو، وما إذا كانت لديك أي أسئلة، فلست مستشاراً قانونيا، ولا علاقة لي بالشق العسكري، ولكن ربما استطاع زميلي أن يرد على أي من أسئلتك».

هكذا كان الأمر إذًا: محاكمة، من قبل لجنة عسكرية، محاكمة جندي، وفكرت، قائلا لنفسي: «ما الذي يعنيه ذلك؟، ما الذي سيتهمونني به؟، هل سيحاكمونني هنا، أو في الولايات المتحدة، أو في بريطانيا؟، ماذا لو أدنت استناداً إلى وثيقة الاعترافات التي وقعتها؟، هل سأسجن مدى الحياة؟، هل لن يعدموني بالتأكيد...؟، هل سأحصل على محام أوكله أنا؟، هل يمكن أن أرى عائلتي في المحكمة؟». لا، لم أطق مجرد التفكير في مثل ذلك الأمر، فلا يجب أن يحدث ذلك مطلقا، حتى لو كنت أتوق بشدة إلى رؤيتهم مجدداً: «لا يمكن أن يروني مقيداً كالحيوان في محكمة أجنبية، هل يمكن لي حقا توقع الحصول على محاكمة عادلة، أو أنها ستكون صورية سريعة؟». ما انفكت الأسئلة تثار في ذهني في حينه، ولأشهر لاحقة.

سألني مارتن، قائلا: «هل لديك أي أسئلة إذًا، يا سيد بيغ؟».

أجبته، قائلا: «لا، كل شيء واضح تماما».

غادر بعد مدة قصيرة، ومحادثة مبتذلة حول انتقال دايفيد بيكهام من نادي مانشيستر يونايتد إلى ريال مدريد، ووفاة أم الملكة في العام السابق، وأبقيت هناك ساعتين أخريين، لا أزال بلا طعام أو ماء، قبل أن يحضر عناصر الشرطة العسكرية لاقتيادي، وكان الظلام قد حل عندئذ.

تكرر الأمر ذاته في اليوم الآتي، بالرغم من شكواي بخصوص ذلك لمارتن الذي كان قد أخبرني أن عملاء الاستخبارات البريطانية سيتحدثون إلي في اليوم الآتي، لأسأله، قائلا: «هل يمكنك التحقق من عدم تعرضي للمحنة ذاتها، عند اقتيادي للاستجواب مجدداً؟». تكرر الأمر ذاته، وإن سُمح لي هذه المرة بأخذ زجاجة مياه إلى العربة، دون أن أتقيأ مجددا، وصرخت عاليا لألفت انتباه الحراس، الذين تركوني مجدداً، مقيدا سبع ساعات في غرفة الاستجواب، وكثيرا ما كنت أتساءل عما إذا كانت تلك الإجراءات تتخذ عن عمد، بدافع من الحقد، أو أنها تعكس نقصا في الكفاءة لا أكثر.

حضر عميلا الاستخبارات البريطانية، لوسي وشخص آخر، إلى الغرفة أخيراً، واعتذرا بشدة، قبل أن يقدما لي كتابا بعنوان «مسافرون إنجليز» فلم يدم الاستجواب طويلا، متضمنا عشر دقائق من إبراز الصور، وطرح الأسئلة عمن لا أعرفهم من الناس، أو من كنت قد رأيتهم آخر مرة منذ سنوات طويلة.

كان الوقت قد تأخر بحلول عودتي إلى الزنزانة، مفوتا العشاء والتمرين، وتمثل عزائي الوحيد في قراءة بحث إنجليزي خيالي، أجري في القرن التاسع عشر، حول جنة عدن، في تسمانيا.

لم أستطع التوقف عن التفكير في الرسالة التي نقلها مارتن، وشعرت بشيء من الغباء لعدم سؤاله عنها، وإن كان ذلك خوفا مما يمكن أن تكون بعض أجوبته عليه، فقد كنت أعرف أن تلك المحاكمة تمثل أمرا سلبيا، بغض النظر عن ماهيتها، ولم تسر الأمور، كما فهمت من مارتن، وفق ما أتمناه: الذهاب إلى محكمة أمريكية، تعمل وفق القوانين القضائية المرعية، حيث يقع معظم العبء على كاهل الادعاء لإثبات تورطي في ارتكاب أي من الجرائم.

بدأت سؤال الحراس، بنبرة قلق متصاعدة، قائلا: «ما الذي سمعتموه عن اللجان العسكرية؟» فكانت ردودهم، بصورة عامة، مشوشة، تفتقر إلى المعلومات الكافية، وإن قالوا: إن تلك المحاكمات تتضمن استخدام معلومات سرية، وغياب هيئة المحلفين، وتوفير محامي دفاع عسكري، دون أن يكون لي ما أقوله بذلك الشأن، وقد مثل ذلك انتهاكا صارخا في نظري: كيف يمكن لجندي، بحق السماء، أن يدافع عني؟، جندي أقسم على الولاء للولايات المتحدة، وجورج بوش، قائد القوات المسلحة، الذي كان قد صنفنا بالفعل كإرهابيين، قتلة؟.

أراد أحد المحققين التمثيل على حالتي في إحدى المرات، قائلا: «هل سبق لك رؤية فيلم «أ فيو غود مين» من بطولة توم كروز، وديمي مور؟».

عقبت، قائلا: «نسيت جاك نيكلسون».

عقب، قائلا: «نعم، هو أيضا، تعلم أن معظم أحداث القصة وقعت في خليج غوانتانامو، بما يدعو للاستغراب، فقد حاول المحامي العسكري الدفاع عن موكله بكل ما أمكنه».

عقبت، قائلا: «صحيح، ولكن ذلك حدث لأن موكله كان جنديا في البحرية الأمريكية، التي ينتمي إليها أيضاً، أدعى «مقاتلا غير شرعي»، وتتحدث عن مجرد فيلم سينمائي، متناسيا أن حياتي بمجملها موضوعة على المحك».

خاطبتني كيم، قبل عدة أشهر من حينه، قائلة: «لا يسمح لي، أنا المحققة ـ ما إن يتم تعيين المحامي ـ بالتحدث إليك، أو زيارتك دون موافقة صريحة منه»، وكنت حزينا لمجرد التفكير في فقدان زياراتها، وقد قالت بدورها إنها كانت تشعر بالذنب للمغادرة، بينما أظل باقيا في المعتقل، وأمضيت حوالي ثلاثة الأسابيع أنتظر قدوم المحامي.

ظهرت كيم مجددا، وذلك ما فاجأني كثيراً، فخاطبتها، قائلا: «ظننت أنني لن أراك مجدداً، فما سبب حضورك ثانية؟».

أجابتني، قائلة: «قيل لي: إنك كنت تسأل عني، لأن المحامين لم يظهروا بعد، أليس كذلك؟».

أجبتها، قائلا: «بلى، فقد ظننت أنك تعلمين ذلك».

عقبت، قائلة: «إنني آسفة للغاية، فقد تم التأكيد لي على توكيل محام عسكري لك، ومقابلته إياك في غضون أيام، بعدما رأيتك آخر مرة، ويمكنني ذلك من رؤيتك طيلة أسبوعين، حتى أغادر».

غادرت بالفعل بعد انقضائهما، لا تنفك تؤكد حضور المحامي قريبا، ولم يحدث ذلك مطلقا، فأبقوني في تلك الزنزانة مدة طويلة جداً، وكان استبقاء الأمل عسيراً إلى أبعد الحدود، ناهيك عن إخفاء القلق والتوتر اللذين كنت أشعر بهما، وقد كان لقائي الأخير بكيم حزينا للغاية، إذ كانت قد أمضت ما يفوق ستة

الأشهر، حيث كنت معتقلا، وشعرت أنها كانت تهتم شخصيا بحالي، وأذكر مرة حين قدمت خصيصا لتطلب من الرقيب المسؤول عن الحراسة إخراجي من الزنزانة، للنظر إلى ما لفت انتباهها من الأمور الغريبة في الخارج، ولم يكن ذلك اعتياديا على الإطلاق، بالنظر إلى أنه لم يكن يسمح لي بالخروج إلا في أوقات التمرين، لتتمكن من إقناعه فتوجهنا جميعا للخارج، كنت مقيدا بالطبع في حينه، لتطلب مني النظر إلى الأعلى، وكان الأمر غريبا إلى أبعد الحدود: بدت الشمس محاطة بهالة ذهبية فدهش كلانا للغاية، بما لم يشمل الآخرين وأعطتني كيم، قبل مغادرتها، نسخة عن إحدى الصور التي التقطتها للشمس في ذلك اليوم، إذ كانت مختومة، كغيرها من الرسائل أو الكتب: «مسموح من قبل الجيش الأمريكي».

استبدل بكيم غيرها من المحققين، الذين كانوا يتصرفون كما اقتضته وظيفتهم تماما وكنت قد سئمت من معظمهم في حينه وأحسست أن الأمور بلغت مداها بالنسبة لي فبدأت أفقد الصبر والاحتمال فيما يتعلق بأسئلتهم المكررة التي لا تنتهي، وأجوبتهم المنعدمة ومرت الأسابيع والأشهر تباعا دون أن يصل المحامي، بالرغم من تأكيدهم جميعا على أنني سأراه قريبا.

طلبت مرة من أحد الجنود، في لحظة نادرة من الغضب، أن يسجل الآتي: «إن عاد المحققون، وأخرجتني من الزنزانة للتحدث إليهم، فلن أكون مسؤولا عما سيحصل، فقد ينتهي بي المطاف بضرب أحدهم» ورفعت صوتي عاليا فيما بعد، حين بلغ الغضب مني مداه، قائلا: «هم حفنة من السفلة الكاذبين المنافقين...».

عقب، قائلا: «ممم، كيف تتهجى كلمة المنافقين أيها السجين خمسة ـ خمسة ـ ثمانية؟».

خاطبني الرقيب المسؤول عن الحراسة، المناوب في تلك الليلة، بعد أن قرأ ذلك أثناء قيامه بزيارة روتينية إلى زنزانتي، قائلا: «أعدك، أيها السجين خمسة ـ خمسة ـ ثمانية، بأن تندم إن حاولت إيذاء أي من عناصر الشرطة العسكرية».

عقبت، قائلا: «لا يمثل جنودك المشكلة أيها الرقيب، بل يعد بعضهم أصدقائي الوحيدين في الحقيقة، فقد وجهت تهديداتي إلى المحققين فحسب، ولا أرغب رؤية وجوههم، أو أن يتم اقتيادي إلى أي مكان بقربهم» وواصل المحققون استجوابي مع ذلك.

كنت أعلم وجود توترات بين عناصر الشرطة العسكرية والمحققين، وشعر الحراس أن المحققين يعاملونهم بفوقية: لا يخالطونهم، أو يتحدثون إليهم، إلا إذا اضطروا لذلك، فقد كان العديد من المحققين متبلدي الشعور، يعاودون استجوابي بالرغم من رفضي الصريح الإجابة عن أسئلتهم، وكانوا يتذرعون أحيانا بأنهم يحاولون إنقاذ أرواح الناس، مهددين في أحيان أخرى بإيذائي.

خاطبني أحدهم في إحدى المرات، قائلا: «لن نسمح بإمرار رسائلك حتى تجيب عن أسئلتنا».

تركت لي كيم قاموسا مع من استبدل بها، موصية إياي بطلبه منه حين يأتي، متعللة بعدم امتلاكها الوقت لختمه قبل مغادرتها، وأجابني، حين طلبته منه، قائلا: «حسنا، أجب عن أسئلتي أولا».

عقبت، قائلا: «لا، لقد ترك لي من قبل كيم، ويفترض بك تسليمه إلي لا أكثر».

عقب، قائلا: «يجب أن تتعامل معي الآن، لا علاقة لها بالأمر، وحسبك أن تجيب عن عدد من الأسئلة، وسأحضر لك بعض الكعك في المرة القادمة، لنتحدث معا، فقد سمعت أنك تحب فلسفة الأمور، وينطبق ذلك علي أيضاً».

عقبت، قائلا: «يمكنك الاحتفاظ بكعكك، ولتذهب أسئلتك إلى الجحيم، لأنني لن أجيب عنها، واحتفظ بالقاموس أيضا، يبدو أنك تحتاجه أكثر مني».

أعطاني القاموس أخيرا في محاولة للتقرب مني، والحصول على بعض المعلومات، كما كنت أفترض، وبدأ فيما بعد «التحدث» إلي.

خاطبني، قائلا: «حسنا يا معظّم، ما هو رأيك في المفجرين الانتحاريين؟».

فكرت، قائلا لنفسي: «ها نحن ذا نعيد الكرة مجدداً». وتمنيت في بعض الأحيان لو لم أكن أتحدث الإنجليزية.

أجبته، قائلا: «لا تمثل العمليات الانتحارية ظاهرة جديدة، أو تقتصر بالتأكيد على المسلمين، فهي نتاج مواقف متطرفة، يائسة، تقترن بما يحمله المرء من إيمان راسخ بمكافحة الظلم، مستخدما في ذلك سلاحه الأمضى، نفسه، مضحيا بها في الوقت ذاته، ولا يفعل ذلك أي إنسان، مسلما كان أو غير مسلم، عن وعي كامل إلا خدمة لغاية نبيلة في نظره، قد تكون من أجل عائلته، أو أصدقائه، أو وطنه، أو معتقده، وتختلف آراء فقهاء المسلمين حول تلك العمليات، إذ يعارضها بعضهم بشدة، مستندا إلى ما أورده القرآن من تحريم قتل النفس البشرية، تحت أي ظرف كان، بينما يستشهد بعضهم الآخر بسوابق من مهد الإسلام، حين كان المقاتلون المسلمون يندفعون، عامدين، وسط حشود العدو طلبا للموت، ويدور جدل حاد حول كيفية ترجمة ذلك في الوقت الحاضر، لا سيما في المناطق المحتلة كفلسطين، والشيشان، ولا أعتقد، من حيث المبدأ، وجود فرق كبير بين إلقاء القنابل الذكية على علو عشرين ألف قدم في السماء، وذلك ما يقتل أعداداً كبيرة من المدنيين عادة، مسببا «دمارا إضافيا» كما تدعونه، وبين من يفجر نفسه في مطعم وسط المدنيين...».

قاطعني، في محاولة منه لإفحامي، قائلا: «إذًا تسعد للغاية بتوجه شخص، يمتلك ما هو «سليم من النوايا»، داخل مركز تسوق، مزنّرا بأربعين رطلا من المتفجرات، يترقب اللحظة المناسبة لقتل مَنْ أمكنه من الكفرة؟».

أجبته، قائلا: «لا، لا أفعل، ولكن المسألة تدور حول الغاية، لا الوسيلة، ولا أقبل على الإطلاق استهداف المدنيين في أي عمل عسكري، إذ يعد ذلك خاطئا بما يعادل قتل المدنيين الآمنين في بيوتهم ـ في بيوتهم بحق الله ـ بواسطة القصف السجادي، نتيجة الاشتباه في وجود عناصر معادية بينهم، لا أكثر، لمجرد أن طياري قاذفات «بي 52» لا يضطرون للنظر في وجوه ضحاياهم».

عقب، قائلا: «ولكنك ترى الإرهاب، حيث وليت وجهك: يزداد عدد المفجرين الانتحاريين كل يوم، وهم ينبعون دائما من العالم الإسلامي، يمعنون قتلا في الناس باسم الدين، في الجزائر، وأفغانستان، والعراق، ولبنان، والصومال، والبوسنة، وإسرائيل، والهند، والفليبين، وروسيا، ومصر، والسودان، وحيثما شئت، وها هم الآن قد وصلوا شواطئنا، ولكننا وضعنا أحد أبناء تكساس في البيت الأبيض...».

عقبت، قائلا: لا يمثل ذلك ظاهرة جديدة على تخوم شواطئكم، فقد انخرط عالمكم في حرب مع نفسه منذ عقود، إذ خضتم حربين عالميتين، وحروبا ضد سكان أمريكا الأصليين، ناهيك عن الحرب الأهلية المدمرة، وتاريخكم الأسود في تجارة الرقيق، ولا تزال حربا كوريا وفيتنام محفورتين في ذاكرة الأجيال، وأعلم أن العالم الإسلامي واقع في الفوضى، ولكن هل يمكنك إخباري عن منبع فكرة الحرب العالمية؟ وماذا عن أسلحة الدمار الشامل؟، ألا تعد «إينولا غاي» أسوأ الطائرات سمعة في التاريخ لإسقاطها القنبلة الذرية على هيروشيما؟ ويعد لوبي السلاح أحد أقوى المنظمات في الولايات المتحدة، وتقاتلون دفاعا عن حق حيازة السلاح، في بلد يعج بحوادث العنف الناتجة عنه: قتل الطلاب في الجامعات، وقناصو مراكز التسوق، والسفاحون المتسلسلون، وتبادل إطلاق النار على النمط الهوليوودي مع رجال الشرطة، وعنف العصابات من الأعراق كافة ـ اللاتينية، والمكسيكية، والآسيوية، والزنجية ـ وأعلى معدلات الجريمة في العالم بأسره، لا سيما في عاصمتكم، وقد قابلت حتى الآن جنودا من كل الولايات في بلدكم تقريبا، فلم أجد بينهم من لم يكن على علم بمن قتل، أو أطلقت النار عليه، ناهيك عن تعرض بعضهم لذلك، لقد كانوا أكثر أمنا في أفغانستان».

انتهت «المحادثة» عند هذه النقطة.

منحني البقاء في الحبس الانفرادي، كل تلك المدة الطويلة، ما لم أتخيله من فرص التفكير في حياتي، فقد كنت أظن أنني أعلم الكثير من قبل، إذ رأيت والدتي تموت، حين كنت في السادسة لا أكثر، وشقيقتي، حين كنت في الحادية عشرة، وأحد أعز أصدقائي، حين كنت في الحادية والعشرين، ورأيت جثث القتلى في البوسنة وأفغانستان، وذلك ما جعل فكرة الموت مألوفة بالنسبة لي، فلم أكن أهابه، ولكنني خفت كثيرا من الحساب يوم الآخرة، فعملت على القيام بما ينجيني في ذلك اليوم، مساعدا الفقراء والمضطهدين من المسلمين، أكثر من تعاملت معهم من الناس، فقد كان ذلك السبب وراء ترحالي في أوروبا وآسيا، بما في ذلك أفغانستان، ناهيك عن استكشاف ما كان غريبا علي من العوالم.

توصلت إلى اكتشاف مذهل في أثناء مدة سجني، فيما يتعلق بالتعامل مع الناس، وفكرت، حين رأيت الرقيب فوشي لأول مرة، قائلا لنفسي: «هو أكبر سنا من أن يبقى في الجيش، لا بد أنه يائس للغاية» وظننت، حين سألني، متشدقا بلهجة ولاية الأباما، عما إذا كنت إنجليزيا، أنه يمثل أمريكيا كارها آخر، متعصبا.

كان الرجل كذلك بالفعل إذ اعتاد الجلوس أمام زنزانتي، يقرأ الإنجيل، في معظم الأوقات، دون أن نتحدث معا، وسمعت من كيلفن، القادم من جزر فيرجين، وغيره أن فوشي كان عنصريا، يعارض انضمام النساء إلى الجيش، ويكره جون كينيدي، ويفقد أعصابه بسرعة، ويعامل الناس بتسلط، وعمل في مكافحة المخدرات، حين كان في الولايات المتحدة، ناهيك عن مشاركته في حرب فيتنام.

خاطبته في إحدى المرات، قائلا: «عذراً حضرة الرقيب، هل تمانع إن سألتك عن بعض ما يتعلق بفيتنام؟».

كنت مهتما للغاية بتلك الحرب في أثناء مراهقتي، متعاطفا مع الفيتناميين باعتبارهم الطرف المضطهد في حينه، ودفعني ذلك، إلى سؤاله عن تجربته المتعلقة بها.

لا بد أن سؤالي جاء في محله، وقد أحب فوشي إخباري بتفاصيل تلك التجربة، لأقول هل من مزيد، ووصف بوضوح ما شارك فيه من هجمات، وكيفية مقتل رفاقه أمام ناظريه، والمجازر المرتكبة بحق المدنيين، وما شعر به من توتر عند عودته إلى الوطن، إذ كان العديد من رفاقه قد سقطوا أسرى في يد الفيتناميين.

جئنا فيما بعد على ذكر المقارنة الحتمية بيننا وبينهم.

كان فوشي منزعجا للغاية من الطريقة التي نعامل بها كمعتقلين، فلم يكن يفهم السبب وراء عدم معاملتنا كأسرى حرب، وكان يكن لنا احترام الجنود:

«لا أعلم إن كنتم قد ارتكبتم شيئا ما، ولكنهم يقولون: إنها الحرب، فيجب أن ترسلوا جميعا إلى دياركم، لأنها حطت أوزارها، أو تعاملوا كأسرى حرب، وأعلم وجود من قاتلوا السوفييت لسنوات هنا، ولا أعد سوى طفل بالمقارنة معهم، فيما يتعلق بالسن والخبرة، وأشعر بضيق شديد حين أرى أولئك الأولاد التافهين يعاملونكم جميعا بتلك الطريقة، بينما لم يفعلوا ما يذكر خدمة لهذا الوطن». كان يقصد جنود معسكر الصدى الذين غمروا المحتجزين بالماء، تاركين مكيف الهواء يعمل فوق رؤوسهم: «أود لو تفتح أبواب زنزانة أحدهم، لأرى ما يستطيع أولئك الصغار الحمقى فعله، حين يكون الرجل متحررا من قيوده».

مثَّل فوشي لغزا محيرا بالنسبة لي: كانت مواقفه جمهورية بامتياز، كارها ما يجري في الوقت ذاته، ولم يكن الوحيد الذي يفعل بكل الأحوال.

كانت جينيفر في أوائل العشرينيات من العمر، تنتمي إلى منطقة جنوبية متأصلة: سيلما، الأباما، تمثل أكثر ما يلفت الانتباه في شعرها الأسمر المحمر الطويل، الذي كانت تخفيه تحت قبعتها العسكرية ـ التزاما بالقوانين ـ في معظم الأوقات، وقد دار حديثنا الأول حول رواية ديكنز، «المنزل الكئيب»، التي كنت أقرؤها، ولحظت أن حواراتي معها تتسم بالغنى، كانت تجلس ـ كلما أتت إلى

الغرفة التي تحوي زنزانتي، حاملة إبريقا أخضر من القهوة ـ لتبدأ الخربشة على قطعة من الورق، أو هكذا تخيلت، فقد تبين في النهاية أنها كانت ترسم وتلون أشكالا هندسية معقدة للغاية، وانخرطنا، في الوقت ذاته، في حوار معمق حول مختلف الموضوعات، إذ أخبرتني، فيما عدا ذلك، عن السبب الذي جعلها تطلي شفاهها وأظافرها، في وقت فراغها، باللون الأسود، وتلبس ثيابا غريبة، فلم أكن أتخيل قبل ذلك، مع نهجي الإسلامي المحافظ في الحياة، أن أتخذ من مثلها صديقة، كانت، فوق كل ذلك، جمهورية.

ما الذي جمعني بها من قواسم مشتركة يا ترى؟. تمثلت، كما تبين لاحقا، في ممارسة الفنون القتالية، وتعلم الطيران، والتعلق باللغة الإنجليزية، والشعر، وتذوق الأدب التقليدي، والميل إلى دراسة التاريخ القديم، فقد كانت صداقة استثنائية نتجت، بطريقة أو بأخرى، عن ظروف استثنائية.

خاطبتني في إحدى المرات، قائلة: «ربما بدا في ذلك شيء من الخيانة، ولكنني أفضل الجلوس هنا، والتحدث إليكم جميعا، على فعل ذلك مع رفاقي الحمقى، فلا يسعون إلا إلى شيء واحد فقط، كائنا من كان برفقتهم، فهم مهووسون بذلك، بما لا يستثني العديد من الإناث، فإن لم تسلم نفسك لهم، فسيثيرون ما هو مغرض من الإشاعات حولك».

«لم نكن نستسيغ فكرة البقاء هنا مطولا، حين تم استدعاؤنا، بالنظر إلى أن الوطن يمثل أفضل الأمكنة على علاته، فقد تم فيما بعد اختيار حفنة منا للخدمة في معسكر الصدى، المعتقل الانفرادي شديد الحراسة، حيث يحتجز أكثر الإرهابيين خطورة في الجزيرة، وكنت أتوقع التعرض لأسوأ المواقف معكم، وأنتم تحاولون ترويعنا بألاعيبكم الذهنية الملتوية...».

عقبت، قائلا: «وما هو شعورك، وأنت تتحدثين إلى أحد أخطر الرجال على وجه الأرض؟».

أجابتني، قائلة: «أرى الآن كم كنا متأثرين بالدعاية السلبية حولكم، وأجهل إن كانوا قد اتهموكم بشيء ما، ولكنني أعلم ببراءتكم، فلو كنتم مذنبين بالفعل، لكانت الحكومة قد عرضت أقوى أدلتها في أكثر المحاكمات دعائية بحلول هذا الوقت... أتوقع منكم جميعا كره الأمريكيين بعد كل ما مررتم به، لا سيما نحن الجنود. تحيرني، مع ذلك، للغاية يا معظّم، فلم تكن كما توقعت أبدا».

كانت ناضجة إلى حد بعيد مع صغر سنها، تستمتع، على النقيض من معظم أقرانها، بالانخراط بما هو فكري من المناقشات، ولم تبق جينيفر في غوانتانامو إلا بضعة أشهر، مغادرة المعتقل فجأة بسبب بعض المشكلات في الوطن، وتمثل الانطباع الدائم الذي خلفته فيّ، في أن الأمريكيين ليسوا سواء.

أخبرني جينر، المراهق من مينيسوتا، أن أحد أجداده كان إدوارد جينر، الذي، كما أذكر من خلال دراستي علم الأحياء في المدرسة الثانوية، هو الذي اكتشف أن لقاح الجدري يستخلص من العاملين في حلب الأبقار، ممن أصيبوا بجدري البقر، وقد أتت تسمية «اللقاح» لهذا السبب من كلمة بقرة باللاتينية، وقد عُدَّ جينر، بنظارته المعدنية دائرية العدسات، وشعره الأشقر القصير، وصوته الناعم، غريب الأطوار، لا سيما نتيجة ولعه بألعاب الكمبيوتر، وقراءة الروايات الخيالية حول الجن والسحرة، وكان بعض الجنود يعدونه رعديداً عاجزاً على حد سواء، مطلقين عليه اسم «المكسور»، بعد أن صرخ، في إحدى مباريات الكرة، قائلا: إن كاحله قد كسر، بينما لم يكن إلا ملويا قليلا في الواقع، وبدأ جينر كذلك في مواعدة إحدى أكثر المجندات غرابة في الأطوار.

اعتدت منح الألقاب لمن يستحقها من الجنود، فدعوت أحدهم «صدام هتلر» لأنه كان يشبه أحدهما، ويتصرف كالآخر، ناهيك عن غيرها من الأسماء التي أطلقتها على جنود آخرين، بما في ذلك صديقة جينر.

وجدت جينر سهل المعشر، وقد أحببت الاستماع إلى ما كان يرويه من قصص عن رحلتيه إلى كوريا، والمجر، حيث أسهم في حراسة القوات الأمريكية التي كانت تدرب مسلحين عراقيين، استعدادا للحرب الوشيكة على العراق، وسمعت، علاوة على ذلك، بحواراته الفلسفية حول الإسلام، التي كان يجريها مع معتقل مغربي يعرف «بالجينرال»* .

تمثلت أكثر القصص التي رواها جينر عمقا، في الرسالة التي تلقاها للتو من صديقه المتمركز في العراق، فقد تحدث قائلا: إنه التحق بالجيش، برفقة ستة من أصدقائه في المدرسة، فعاهدوا أنفسهم على الالتقاء مجددا في العام 2007، في اليوم السابع، من الشهر السابع، عند الساعة السابعة مساء، فلم يعد بإمكان سبعة الأصدقاء الوفاء بذلك العهد؛ لأن أحدهم كان قد قتل في عملية انتحارية، فتأثرت كثيراً بتلك القصة، وبأنه أشركني بها.

خاطبته، قائلا: «أشعر يا جينر بخسارتك الشخصية، وأعرف كيف يشعر الإنسان حين يخسر أحباءه، بما لا أتمنى أن تضطر إلى تخيله يوما، فسيقتل من هم على شاكلة صديقك مع ذلك، طالما بقيت قوات الاحتلال الأمريكي في ديار المسلمين، تذبح الناس بلا تمييز، حتى ترحل عنها، فربما لم يكن من اللائق قول ذلك، ووجب علي الصمت، ولكن رده فاجأني بشدة: «أنت محق!. لا أعلم بحق السماء ما نفعله في بلد لا يعرفه معظمنا، أو يبالي به، فإنه يتعين على المرء الدفاع عن بلده ضد الأعداء الداخليين والخارجيين على حد سواء، ولكن العراقيين، فلم يفعلوا ما يؤذينا. لم يتعين علينا الموت هناك؟»

أخذ بصري يتضرر، نتيجة التحديق في الشباك التي تسور القفص، منذ اليوم الأول لوجودي في غوانتانامو، وأصبحت أشعر بما هو حاد من الصداع بصورة متزايدة، مستهلكا ما لم أعهده من أدوية في حياتي، وترافق ذلك مع ألم شديد في أذنيّ، شاعرا وكأنهما ستنفجران في بعض الأحيان، وقد وصف أطباء السجن لي، بعض الأقراص المنومة، ومضادات الاكتئاب.

* أحمد الرشيدي: المغربي المقيم في بريطانيا. (المؤلف).

يصعب علي وصف ما أحسست به من يأس، ناهيك عن إرهاب الاحتجاز الذي ما انفك يلازمني طيلة سنتين تقريبا، معزولا في زنزانة تصغر مراحيض المنازل في حجمها، فقد أمضيت العديد من الليالي أصلي إلى الله، باكيا، منهمكا في التفكير، نادما على اتخاذ قرارات معينة في حياتي، إذ كانت أحلامي تزخر، حين أخلد للنوم أخيرا، برؤى غريبة عجيبة، تأخذني بعيداً عن الجنود الأمريكيين، ومعسكرات الاعتقال، وكنت أكره الاستيقاظ، في الحقيقة، متمنيا الاستمرار في النوم إلى ما لا نهاية، ونظمت قصيدتي، «العالم المظلم»، بحلول تلك المدة، وهاكم بعضا من أبياتها*:

بلغ القلق المضني مداه،

تحجب العتمة ضوء النهار،

كل شيء يزول، إلا الليل،

بكت العيون دموعها في الظلام

انتظر مصيري بقلق،

يقترب الحبل كثيراً.

لا يحول دونه شيء،

رغم براءة من يتهمون

تستنزف الحياة من قبل من يتطفلون،

يوقعون الألم، يلدغون،

تقترب النهاية، ولكن ليس كثيراً،

عالمي مظلم، في «أبيضهم» يرتعون

* كل ما ورد في هذا الكتاب من أبيات منقول من الإنجليزية. (المترجم).

أخذت الرائحة الكريهة تزداد شيئا فشيئا في زنزانتي، بعد أن اجتاحها نوع من اليرقات، وذهبت شكواي، فيما يتعلق بذلك، أدراج الرياح، وأكنس تلك الكائنات وأرمي بها في المرحاض، وازداد عددها، وبدأت في التحول إلى حشرات طائرة، إذ كانت إحدى أفاعي الأغوانا قد ماتت أسفل زنزانتي.

شعرت في أحد الأيام بالحنق يشتد داخلي، ولم يكن هناك ما يكفي من مساحة للسير إلا ثلاث خطوات للأمام، والعودة مثلها، جيئة وذهابا، فتفجرت غضبا فيما بعد، فاقدا السيطرة على نفسي، وهو ما لم يحدث لي من قبل، وقد مثل توجيه التهديدات إلى المحققين، عن بعد، أسوأ ما فعلت في السابق، فبدأت أحطم كل شيء في زنزانتي عبر رميه على الأرض، راكلا الشباك، والباب، لاكمهما، باكيا، لاعنا الجميع، لا جينر على وجه التحديد، وصدم جينر تماما، جاهلا ما يتعين عليه فعله، بالنظر إلى هدوئي المعتاد أمامه، فهرع إلى الخارج مناديا الرقيب لاتيني الأصول لوبيز، الحرفي، والمحترم، والمتعاطف، وهرع قائد المعسكر، الرقيب الأول غلين كارنهان، إلى الغرفة التي تحوي زنزانتي، لأبدأ صب اللعنات ما إن رأيته، ولم يكن كارنهان إنسانا سيئا أيضا، ولكنه كان بحكم موقعه، الوجهة الأمثل للتنفيس عن إحباطي.

صرخت فيه، قائلا: «أتيت لرؤية العرض، أيها السافل اللعين؟، إما أن تدخل إلى زنزانتي، أيها الجبان العاجز، أو تغرب عن وجهي!، هيا، حسبك أن تغرب عن وجهي!».

أخبروني فيما بعد أنه ذهل إلى الحد الذي دفعه إلى مغادرة المعسكر على الفور.

حاولت التوضيح لهم، قائلا: «اسمعوا، يتعين عليكم أن تعلموا وجود خطب ما، حين ينفجر من هو مثلي غضبا».

استاء فوشي كثيراً، حين علم بالحادثة، محاولا التخفيف عني عبر سرد قصصه عن «هانوي هيلتون»، راويا كيف نجى بعض رفاقه من التعذيب، وتحرروا من الأسر، مثلي في نهاية المطاف، بينما لم يفعل الآخرون، وقد كونت عدداً من الصداقات مع الحراس خلال سنوات اعتقالي، ولكن أحدهم، لا أكثر، هو من حظي باحترامي حقيقة.

اعتذرت لاحقا لكارنهان بسبب فقدان أعصابي، لا لعدم أحقية شكواي، بل لأنني لم أكن من الشتامين في العادة.

ازداد توتري بالتأكيد مع مضي الوقت، وأخذت أتكلم بصورة أقل، فاقداً اهتمامي بالتحدث إلى الجنود الجدد، فشعرت وكأنني أتنسك شيئا فشيئا.

تمثل عزائي الوحيد في الكتابة إلى عائلتي، ناهيك عن نظم الشعر، واكتشفت أن بمقدوري ترجمة بعض ما أشعر به من غضب عبر القيام بذلك، لأخرج في النهاية بقصيدة من ثلاثة وخمسين بيتا، بعنوان «اتهام الولايات المتحدة» وأردت لكل مقطع فيها أن ينتهي بعبارة «تبا للولايات المتحدة»، «اللعنة على الولايات المتحدة»، لتتحول، بعد استعادة هدوئي، وصفائي الذهني، إلى سرد لتاريخ الولايات المتحدة في ثلاثة مقاطع: منذ مرحلة تأسيسها، وصولا إلى حركة الحقوق المدنية، ومنذ الحرب العالمية الثانية حتى الحرب على الإرهاب، والشؤون الداخلية لأمريكا ما بعد الحداثة، مع خاتمة شخصية في النهاية.

جاء الأطباء النفسيون لرؤيتي نتيجة ثورة الغضب تلك، ولم يكونوا من احتججت حين طالبت الرقيب لوبيز باستدعاء أحدهم لمساعدتي، فقد احتججت ضابطا عالي الرتبة أشكو إليه بقائي في ذلك المكان بلا ضوء في نهاية النفق، علاوة على مسألة الرسائل، والمحامين، والتمرين، والطعام، وظروف الاعتقال بصورة عامة، وقد كان الرقيب لوبيز، بلا شك، مقيدا للغاية فيمن يمكنه استدعاؤه، وتعين عليه القيام بذلك عبر الرقيب الأول كارنهان، احتراما لتسلسل الرتب. وقد استدعى كارنهان من ظنه الأنسب لمعالجة الوضع، طبيبا نفسيا، ولم يعكس ذلك، في نظري، إلا محدودية تفكير كارنهان، وضيق أفقه.

فوجئ الطبيب في البدء لتحدثي الإنجليزية، وبدأ يخبرني فيما بعد عن بعض التفاهات والطرق التي يتبعها لعلاج الناس ومساعدتهم، مستنداً في ذلك إلى تجارب الناجين من «بيلسن وأوسشفيتز»، قاطعته قائلا: «تعترف على الأقل إذاً أن ما تقومون به هنا يشبه كثيراً ما كان يحدث في المعسكرات التي أسهم أجدادكم في تحريرها، منذ ما يزيد على نصف قرن مضى». فكرت، قائلا لنفسي: «يمن عليّ هذا الأحمق بترهاته...».

أردفت، قائلا: «تراني عدوا لك، فتخاطب الجهة الخاطئة، مرتديا زي المعركة، يعلوك العلم الأمريكي، مشيرا إلى عدوك في بزته البرتقالية، ولا أحتاج نصحك».

خاطبني، متجاهلا ما ذكرته للتو، قائلا: «انظر إلى ناجي أوسشفيتز، انظر إلى نيلسون مانديلا ...».

سألته، قائلا: «هل سبق لك قراءة قصة حياة مانديلا، (طريق الحرية الطويل)؟».

أجابني، قائلا: «لا».

عقبت، قائلا: «ربما كان من الأفضل أن تفعل قبل الإشارة إليه».

أردف، قائلا: «هل قرأت سفر أيوب في الإنجيل؟، يمثل طريقة ملهمة للغاية للنظر في كيفية التعامل مع المحن والصعاب».

أجبته، قائلا: «نعم، فعلت ذلك عدة مرات في الواقع، فقد أسمت زوجي طفلنا الأصغر أيوب لذلك السبب تحديدا، وتمثلون، سبب محني وصعابي، كم مرة طالبت بإحضار مسلم آخر، وإن كان رجل دين يعمل مع الجيش الأمريكي، كي أتحدث إليه؟، كم مرة فعلت ذلك ليجلبوا لي، في نهاية المطاف، طبيبا نفسيا يتحدث عن دين لا يؤمن به، وكتب لم يقرأها أبدا».

علمت تماما ما دفعه إلى القيام بذلك: اعتقدَ أنني لا ريب مشكك بقصص الإنجيل، باعتباري مسلما ملتزما.

خاطبته، قائلا: «مضى علي أكثر من سنتين رهن الاعتقال من قبلكم، وكان يجدر بك سؤالي، وأنا المعتقل في هذه الظروف، عما منع ثورتي من الانفجار قبلا، أي إنسان عاقل كان سيفعل ذلك».

كان هنالك حيوان قارض في غوانتانامو يلقب «بجرذ الموز»، يعادل في حجمه القط، ذو ذيل يشبه ذيل الجرذ، وإن كان أكثر طولا، واعتاد بعض الجنود والمحققين ارتداء قمصان برتقالية اللون، تصور حيوانات «جرذ الموز»

كالمعتقلين، ولم أر أيا من تلك القمصان في الحقيقة (بالرغم من رؤيتي ما يماثلها في باغرام). زل لسان أحد الحراس، ليخبرني عنها، قبل أن أتأكد لاحقا من وجودها من أناس آخرين كانوا يتحدثون عن ابتياعها كتذكار عند العودة إلى ديارهم.

سألت الطبيب النفسي، قائلا: «أخبرني، أنت ضابط، أليس كذلك؟».

أجابني، قائلا: «بلى».

عقبت، قائلا: «حسنا، ما الذي فعلته حيال عملية لا أنسنة المعتقلين، التي يعد ما نعانيه جزءا لا يتجزأ منها؟».

أجابني، قائلا: «ما الذي تعنيه؟، لا نجردكم من إنسانيتكم على الإطلاق، بل نعدكم بشرا، ونعاملكم على هذا الأساس».

عقبت، قائلا: «حقا؟، ما الذي فعلته إذًا، كضابط، حيال تلك القمصان المنتشرة في الجزيرة، التي تصورنا، ساخرة، كحيوانات؟».

بدت تعابير وجهه، وكأنه يود أن يصرخ، قائلا: «كيف علمت بحق السماء أنني ابتعت أحدها؟».

رأيت بعد ذلك طبيبين نفسيين آخرين، ممن كانوا يلقبون بهيتشكوك (افترض أن التسمية جاءت من فيلم «سايكو»). قدم أحدهما بعد أن فقدت أعصابي مجددا، وإن كان بما يقل عن الحادثة السابقة، مقررين استدعاءه مع ذلك، فقد كان بالأحرى طبيبة أفريقية أمريكية، لم أتبين حقيقة أمرها في حينه، بالنظر إلى أنها كانت حمقاء بالفعل، أو تتعمد ممارسة الألاعيب الذهنية؛ لتكتشف نقاط ضعفي.

سألتني، قائلة: «هل سبق لك التفكير بإيذاء نفسك؟».

أجبتها، قائلا: «لا، أبدا».

سألتني مجدداً، قائلة: «ألم تفكر من قبل في ربط سروالك بملاءة سريرك، كي تصنع منهما أنشوطة، تلفها حول عنقك؟»*.

أجبتها، قائلا: «لا، ليس قبل طرحك السؤال».

أرسلوا لي بالفعل هذه الطبيبة عوضا عن رجل الدين المسلم، الذي كنت أطلب مجيئه باستمرار، فيرفضون ذلك على الدوام، فقد كان من الواضح لي أن التواصل مع من يشاركني المعتقد يمكن أن يساعدني كثيرا من الناحية النفسية، وهو ما لم يرغبوه تماما.

اعتاد الممرض، بلوندي، زيارتي في الزنزانة كل بضعة أيام؛ لأتحدث إليه من آن لآخر، فسألني مرة عما إذا كنت قد قابلت رجل الدين المسلم في المعتقل، فأجبته بالنفي**. أخبرني أنه اعتقل من قبل الجيش، قبل أن يتم اتهامه بتزويد تنظيم القاعدة بمعلومات سرية، واسترق أحد الحراس السمع إلى بلوندي، حين قال ذلك، ليستدعي الرقيب المسؤول عن الحراسة في غضون دقائق، وتم اقتياد بلوندي إلى الخارج على الفور، وقد كانت تلك المرة الأخيرة التي أراه فيها، إذ سمعت من ممرض ثانٍ أن بلوندي تعرض للتوبيخ بشدة لمناقشته معلومات سرية مع العدو.

كنت قد طالبت مرارا بالتواصل مع معتقلين آخرين، والانتقال من الحبس الانفرادي، فيحضرون لي الأطباء النفسيين عوضا عن ذلك، زارتني الدكتورة «بي» على امتداد مدة طويلة نسبيا، وكانت مثقفة إلى حد ما، وقد وفرت لي جلسة

* قرأت، بعد عودتي إلى الديار، عن تلك الطرق التي كان يستخدمها الجيش الأمريكي كجزء من إستراتيجيته لكسر معنويات السجناء. النيويوركر، تموز/ يوليو 2005، والإنترناشيونال هيرالد تريبيون، 25 حزيران/ يونيو 2005. (المؤلف).

** النقيب جيمس يي تم اتهامه زورا في العام 2003، من قبل «الإف بي آي»، والجيش الأمريكي بالتجسس على الولايات المتحدة، ونقل معلومات سرية إلى السوريين، والتعاطف مع تنظيم القاعدة، وتمت تبرئته من جميع التهم، بعد أن أمضى ستة وسبعين يوما في الحبس الانفرادي، دون تلقي أي اعتذار. انظر «لله والوطن»، جيمس يي (ببليك أفيرز، 2005). (المؤلف).

الساعة الأسبوعية المجال للانخراط فيما أصبحت أمنع عنه، بصورة متزايدة، من حوارات، ولم يعد الحراس يتفقدون الزنازين، حين ركبت كاميرات المراقبة في صيف العام 2004، إلا مرة كل ساعة، أو نحو ذلك.

تحدثت الدكتورة بي في إحدى المرات، قائلة: «أعتقد أن أجزاء من هذا المعسكر ستعرض يوما ما في متحف سميثسونيان، تماما كما بقايا معسكرات الاعتقال اليابانية، باعتبارها شاهدا على تاريخنا». لم تبد فخورة للغاية بأمريكا.

حاولت الحصول منها على معلومات عن المعتقلين الآخرين، سائلا عن أسوأ ما رأته من حالات في غوانتانامو، فأخبرتني بوجود من فقدوا كل ما يملكونه من إحساس بالوقت، والمنطق، والواقع، ومن وضعوا في الحبس الانفرادي، معزولين تماما بلا أي نوافذ، في زنازين لا تتجاوز ثمانية أقدام في طولها، وستة في عرضها، كتلك التي أقبع فيها، دون أن يتحدثوا مع أي من الأشخاص، على الإطلاق، وأردفت قائلة: إن المطاف انتهى ببعضهم إلى التحدث مع أنفسهم، ناهيك عن تأكيدها حدوث محاولات انتحار، وسمعت من الحراس عن معتقل دعوه «تيمي»، كان قد حاول شنق نفسه. فتمكنوا من الوصول إليه في الوقت المناسب لإنقاذ حياته، ولكن دماغه كان قد تضرر جراء تلك المحاولة، وأبقي في المستشفى على الدوام، يرتعش، عاجزاً عن الكلام.

كنت قد نقلت إلى المستشفى بحلول ذلك الوقت، بعد بضعة أشهر من الشكوى، جراء ما شعرت به من ألم في أسناني. نقلوني في العربة الطبية، كما حدث حين تم اقتيادي إلى الاستجواب في المرات السابقة، ووضعت على أحد أسرة المستشفى العسكرية، بعد تقييد يدي وساقي إليه، بحيث أعجز عن الحراك، وتمكنت، مع ذلك، من الجلوس منتصب الظهر، فسمعت من الأصوات ما أعلمني بوجود أحد المعتقلين قربي، وإن أحاطوا سريره بستارة، وكان من الممكن، كما تراءى لي، أن نتحدث، ناهيك عن رؤية بعضنا بعضا، لو تمكنا من الانحناء، وجذب الستارة، وتمنيت حدوث ذلك بعد كل تلك المدة التي أمضيتها في غوانتانامو، دون رؤية أي من السجناء.

لم يعلم حراس المستشفى هويتي، أو أنني كنت قادما من معسكر الصدى، فقد كانوا يظنونني أحد معتقلي معسكر دلتا، الذين كان يسمح لهم في العادة بالتحدث إلى بعضهم في المستشفى.

جذبت الستارة قليلا، قبل أن أهمس، قائلا: «السلام عليكم».

رد المعتقل الآخر السلام بمثله.

خاطبته، قائلا: «اجذب ستارتك إلى الأمام قليلا».

استجاب إلى طلبي، لأتمكن من رؤيته فيما بعد، فلم أكن أعرفه، وعلمت بعد مضي مدة طويلة أنه كان سليم حمدان، أحد سائقي أسامة بن لادن الكثر، كما كانوا يزعمون، والذي كان محتجزا في معسكر الصدى أيضاً، على بعد ثلاث غرف من زنزانتي، بدأنا نتحدث إلى بعضنا، وقد قال ما شجعني كثيراً، بمعزل عما شعرت به من ارتياح نتيجة التواصل مع من خبر ما كنت أمر به، فأخبرني أن اللجنة العسكرية وكلت محاميا عسكريا للدفاع عنه، وأنه تمكن من خلاله، وإن لم يكن مدنيا، من التواصل بصورة أكبر مع العالم الخارجي، وقد أورد سليم كذلك بعض المعلومات عن معسكر دلتا، حيث كان معتقلا قبل نقله إلى معسكر الصدى.

كان مجرد النظر إلى وجهه، لا أكثر، مذهلا، وقد رفعت الحادثة معنوياتي حقيقة، وكنا نتهامس في حديثنا، لنتوقف عنه كلما سمعنا وقع أقدام الحراس، ولم يدم لقاؤنا القصير أكثر من عشر دقائق، أو نحو ذلك، إذ قدم الحراس فيما بعد لاقتيادي إلى طبيب الأسنان.

كانت الحياة في معسكر الصدى رتيبة مملة، وتغيرت الظروف هناك مع تغير الحراس، كل بضعة أشهر، وتعين علي الاعتياد، في كل مرة، على طاقم جديد من الحراس، ناهيك عن المحققين الجدد، الذين أثاروا فيّ الغضب بما أفقدني السيطرة على نفسي، وقد كان أولئك الحراس توليفة من الرجال والنساء من الوحدات العاملة بدوام كامل، علاوة على الحرس الوطني، والاحتياط، وكانوا من الشمال والجنوب، بينما أتى أفراد الوحدة السابقة، في معظمهم، من المناطق المحيطة بميتشيغان، وأوهايو.

كانت المجموعة الجديدة مختلطة، تحوي أفرادا من الأباما، وآركنساس، وجزر فيرجين، وبورتوريكو، بالرغم من عدم وجود وحدات بورتوريكية في معسكر الصدى، وأراد الجميع، مع كل تغيير لأطقم الحراس، أن يظهروا كمن يطبق أساليب جديدة مطورة لإدارة المعسكر، ناهيك عن إعادة صياغة قوانينه، وقد تتبعت الفروق الواضحة بين من أتوا من ثقافات وخلفيات مختلفة من الحراس: أعمارهم، وخبراتهم، وانتماؤهم إلى الوحدات العاملة بدوام كامل، أو الحرس الوطني، والاحتياط، وقد مثَّل فهم كل تلك الفروق المعقدة أمرا مغريا بالنسبة لي، وكان ذلك يعود إلى اهتمامي الدائم بالناس، وما يحفزهم، من جهة، ومثَّل انشغالا فكريا يساعدني على تمضية الوقت، من جهة أخرى، ولحظت، على سبيل المثال، أن السود من الجنود كانوا ينزعون إلى التسكع، والتحدث إلى بعضهم، والابتعاد عن الجنود البيض من الأباما، مثلا، فقد كان ذوو الأصول اللاتينية من الجنود يتسكعون مع بعضهم بعضا على حد سواء، واعتاد الكثير منهم تمضية الوقت برفقتي، ولو كان أحدهم، - ولنقل لوبيز - موجوداً في الغرفة التي تحوي زنزانتي، فسيدخلها غونزاليز أيضا، وغيرهما من الجنود، ولم تختلف الحال مع من أتوا من جزر فيرجين كذلك، وقد انسجمت معهم كثيراً.

عرفت الكثير من الجامايكيين، حين كنت فتيا في بيرمنغهام، من سانت كيتس، وجزر فيرجين البريطانية، مخالطا إياهم، معتادا الاستماع إلى موسيقا الريغي، وتناول الطعام برفقتهم، وأدركت بوضوح، حين التقيت من ينتمون إلى جزر فيرجين الأمريكية ـ التي لم أكن قد سمعت بها قبلا ـ ممن يتحدثون اللكنة ذاتها، وإن كانت أخف وطأة من الجامايكية أنهم يختلفون تماما عن نظرائهم المنتمين إلى الداخل الأمريكي، وبدت ملامحهم مختلفة، أكثر أفريقية من الأفريقي الأمريكي العادي، فقد كان لدينا الكثير مما نتحدث حوله.

كانوا، علاوة على ذلك، أكثر هدوءاً، وسكينة، واسترخاء، يعاملونني بما يفوق غيرهم إنسانية، فلم يكونوا من المتقيدين كثيرا بالقوانين، وكانوا يتحدثون إلي، وكأنني شخص عادي، ولم يهتموا، بالتأكيد، بإخفاء أسمائهم عني، وقد كان

الحراس الآخرون يزدرونهم، عنصريين للغاية في تعاملهم معهم، لا يعتبرونهم أمريكيين على الإطلاق، بل ينظرون إليهم كمن يرتدي بزة الجيش الأمريكي، لا أكثر، كي يحظى بما توفره الجنسية الأمريكية من مزايا، وقد أخبرني بعضهم عن مدى استيائهم من الطريقة التي كانوا يعاملون بها، ناهيك عن العنصرية الواضحة التي يبديها البيض تجاههم في معظم الأحيان: «لا يحبون ذوي البشرة السوداء... ننتمي، في نظرهم، إلى ما يفوق مرتبتكم، (المحتجزين)، تدنيا، بالنظر إلى أنكم أقل سمرة منا... نحن سود البشرة، وهم يكرهوننا لا أكثر».

غدا اثنان منهما صديقين لي، كان أولهما كيلفن، الرجل البسيط القادم من جزر فيرجين، الذي تمثلت أهدافه في اقتناء أسرع السيارات والدراجات النارية، وأكثر المسجلات والأقراص المدمجة تطورا، وفي مشاهدة أحدث أفلام الجنس، وجسد الرجل ـ حين تحدثت إليه حول الدين، والفلسفة، وسياسة الحرب ـ مثالا عمن يبدأ سبر أغوار نفسه للمرة الأولى، اكتشافا للعالم من حوله، وقد غادر كيلفن جزيرته للمرة الأولى، حين توجه للتدريب الأساسي في الجيش، ليصدم من قبل المدربين حين وجهوا له الأسئلة الآتية: «هل توجد لديكم كهرباء هناك؟، هل توجد لديكم منازل، أو سيارات؟». أخبرني أن ذلك أثار سخطه كثيراً.

فوجئ الرجل إلى أبعد الحدود بجهل الأمريكيين، وما دفعهم من تحامل وضيق أفق إلى درجة عدم اعتباره أمريكيا، وكان، كما العديد من نظرائه المنتمين إلى جزر فيرجين الأمريكية يحن إلى الوطن بشدة، إذ كان موطنهم، من الناحية الجغرافية، قريبا للغاية من حيث كنا في كوبا، نصف ساعة بالطائرة لا أكثر، فما انفكوا يستذكرون شيئا من تاريخهم عند مخالطة المعتقلين، وقد اعتدت التحدث إلى بعضهم حول أصول الحرب على الإرهاب، مشيرا إلى أن أجدادهم كانوا آخر من اقتيد جماعيا، عبر الأطلنطي، ليجلب إلى الأمريكيتين.

غدا كيلفن أحد أوثق أصدقائي، معتادا التحدث إلي حول أكثر الأمور خصوصية، كمدى تأثره بموت والده، الذي افتقده بشدة، وقد فكرت، حين كان يشركني في تلك الأمور، قائلا لنفسي: «أشك في قيامه بذلك مع الرقيب

المسؤول عن فصيله»، وتوثقت الصلات بيننا، وقد كانت صداقتنا حقيقية، وكنت أقرأ التغير الطارئ على مزاجه من يوم لآخر، وعلمت أن فيروز ـ زميلي، الذي لم أره، في معسكر الصدى ـ اعتاد التحدث إليه أيضا، وقد كان يذكر بعض الأشياء عنه أحيانا، أو عن غيره من السجناء في المعسكر، كدايفيد هيكس، أو سليم حمدان.

سألني كيلفن ذات مرة، قائلا: «ما الذي يدفع القاعدة إلى مهاجمة أمريكا؟، ما الذي يريده أسامة بن لادن؟». أخذت أشرح له أن أحد الأسباب تمثل في الوجود الأمريكي في شبه الجزيرة العربية، لأدرك فيما بعد أن تلك الأمور كانت خارج نطاق اهتمامه، بعيدة كل البعد عن الحياة التي كان يعيشها، فخاطبني قائلا: «يتعدى ذلك نطاق فهمي فحسب. فلا أفهم أيا منه»، ثم أردف فيما بعد، رادا الأمور إلى ما يشعر به، قائلا: «أكره هذا المكان المنحط، ولا أريد البقاء هنا، تبا للجيش، فما انخرطت في صفوفه إلا اعتقادا مني بأنني سألتحق بالحرس الوطني، ولم يخطر ببالي مطلقا أن أرسل إلى هذا المكان اللعين، أكرهه، وها هم أولاء الآن يتحدثون عن إمكانية إرسالنا إلى العراق أيضا، فسأترك الجيش، وسأفعل أي شيء عدا الخدمة في صفوفه»، وقد كان متزوجا وأبا لطفل، وأخبرني الكثير عن كيفية التقائه بزوجه، وما كانت عليه، من أخلاق ومبادئ، وغيرها من الأمور الشخصية للغاية، وفكرت، حين كنت أنصت إليه، قائلا لنفسي: «يحب زوجه حقا». أحسست بقربي منه، بالرغم من اختلاف العوالم التي أتينا منها.

أخبرت العديد من الحراس أن عليهم زيارتي يوما ما في بيرمنغهام، وقد كان كيلفن الوحيد الذي دعاني بالمقابل إلى زيارته، ولقاء عائلته، وهو ما أمكنني تخيل القيام به حقيقة.

خاطبت صديقه البدين ناتي ـ الذي كنت أستطيع ممازحته، والتزام الجدية معه في الوقت ذاته ـ قائلا: «لو كنت مكانك، لبحثت في أصولي، وحاولت إيجاد ما يربطها من علاقة بوضعنا الحالي، وإن لم تستطع ذلك، فأظن أن قراءتك

للتاريخ ستكون قاصرة، إذ كانت غالبية العبيد التي أحضرت من غرب أفريقيا مسلمة، وابدأ بقراءة رواية «الجذور» لهايلي، إن كنت تشكك فيما أقوله، قبل أن تجري بحثك الخاص»، ولا أعرف إن كان قد فعل، ولكنه استمتع بتلك المناقشات، وتحدث العديد منهم بافتخار عن ثقافتهم الكاريبية، المتميزة بشدة عن الداخل الأمريكي.

سألته في إحدى المرات، بينما كنت أداعبه عبر وصفه بالبدين، ليشير إلى قصر قامتي بالمقابل، وسألته عما إذا كان يعلم أن التسمية الأسبانية، التي تطلق على أحد الأطباق الكاريبية، تعني «مسلمي شمال أفريقيا» بالإنجليزية، ليجيبني بالنفي.

لم تؤثر الحرب على الإرهاب، والهجمات على الولايات المتحدة، كثيراً في سكان الجزر، ولم يشعروا أنها كانت تشملهم، فقد حدثني كيلفن ذات مرة، قائلا: «كان الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر أول يوم يلتقط فيه السود أنفاسهم، وأصبح البيض يكرهونكم، أيها المسلمون، بما يفوقنا».

عقبت، قائلا: «ما الذي سيحدث، إذًا، لو كنت أسود البشرة، ومسلما؟».

كانت هنالك فتاة، من بين المنتمين إلى جزر فيرجين، تدعى تومسون، الفتاة البيضاء الوحيدة في تلك الوحدة، وعرفت نفسها كسوداء مع ذلك: «إنني سوداء، إذ يمثل السواد حالة ذهنية، لا لونا بحد ذاته» فقد أشارت إلى بعض السود من الجنود المنتمين إلى الداخل الأمريكي «بالأمريكيين غير المتمرسين».

كان ريتشاردسون، الفتى القادم من مكان ما في لويزيانا، والذي يملك طموحات كيلفن ذاتها أحد أولئك الجنود، وتحدث في إحدى المرات، قائلا: «تتمسكون جميعا، أيها المسلمون، بدينكم، ولكن ذلك لا يمثل إلا مضيعة للوقت».

عقبت، قائلا: «حسنا، ما هو الدين؟، بل ما هو دينك في الواقع، إن كنت تتبع أيا من الأديان بالأساس؟».

أجابني، قائلا: «لا أعلم يا رجل». لم يرد الدخول في مثل ذلك الحوار.

عقبت، قائلا: «حسبك أن تنظر إلى تاريخك، لم يكن أجدادك بالتأكيد من سكان أمريكا الأصليين، انظر إلى المكان الذي قدموا منه، ابحث في ذلك قليلا، وأخبرني فيما بعد عن رأيك في ديني، أسألك القيام بذلك؛ لأن ديني هو ما كان يعتنقه أجدادك أيضاً». فلم يتوقع أن أقول ذلك على الإطلاق.

كنت أتناقش مع تومسون، في أحد الأيام، حول ماركوس غارفي، وأثره في الأمريكيين السود، ودخل ريتشاردسون الغرفة، وهو من لا يجهل غارفي فحسب، بل لم يسمع به مطلقا، وانتقدت تومسون جهل هذا «الأمريكي غير المتمرس»، فصببت الزيت على النار عبر الاستشهاد بعبارة غارفي: «شعب بلا تاريخ، كشجرة بلا جذور».

وتحدثنا فيما بعد عن مالكوم إكس، والدكتور كينغ، والفهود السود، وحركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة، فشعرت بالحزن لجهله بهم على حد سواء، وربما لم يكن يكترث لذلك.

رأيت ريتشاردسون، بعد مضي بضعة أيام، يحمل كتابا سميكا في يده، أثناء دخوله الغرفة التي تحوي زنزانتي، فاعتراني الفضول على الدوام لمعرفة ما كان يقرؤه الحراس من كتب، أحدق بنهم عبر الشباك، متمنيا لو ينسونها، كي أطلب «تمرير كتابي الموجود على الطاولة» ممن يأتي بعدهم من الحراس الغافلين، وأمعنت النظر في محاولة لتمييز عنوان الكتاب، إذ جلس ريتشاردسون إلى الطاولة، رافعا الكتاب تمهيدا لقراءته: «الجذور» لأليكس هايلي.

سألني كيلفن ذات مرة، قائلا: «لم يدعونا أصدقاؤك، يا معظّم، «بالحمير» طيلة الوقت؟»، فقد كان ذلك ما سألني عنه العديد من الحراس.

أجبته، قائلا: «لأنهم يحبونكم، فلو لم يكونوا كذلك لدعوكم (الخنازير)».

أخبرني كيلفن في إحدى المرات كذلك أن أحد المحتجزين من العرب دعاه «الزنجي».

عقبت، قائلا: «أنت كذلك بالفعل يا كيلفن، إذ تشتق تلك التسمية من كلمة فرنسية تعني (أسود)».

عقب، قائلا: «هو عنصري يا معظّم، لا يحب السود على الإطلاق، فلم أرتكب ما هو خاطئ بحقه، ولكنه يسيء على الدوام إلى السود من المجندين».

فوجئت لسماع ذلك حقيقة، فخاطبته، قائلا: «عد إليه، وأخبره أنه لا يقل جهالة عمن اعتبرونا «إرهابيين» إذ يتضمن التاريخ الإسلامي حادثة مماثلة وقعت مع أحد صحابة النبي محمد ﷺ، «بلال الحبشي»، الذي كان أول مؤذن في الإسلام أيضا، فقد كان صوته عذبا للغاية، ودعاه أحدهم مرة «ابن السوداء» فغضب النبي محمد ﷺ حين علم بذلك، وتوجه الرجل إلى بلال، بعد أن أدرك أنه أغضب النبي محمداً ﷺ بفعلته، واضعاً رأسه على الأرض، قبل أن يرفع قدم بلال فوقها، طالبا منه السماح، فاذهب وأخبره هذه القصة، فهي معروفة للغاية في العالم الإسلامي، وتدلل على رفض الإسلام للعنصرية».

كان أحد الجنود ذو الأصول الهاييتية، «ميسادور»، مختلفا للغاية، يكاد يشعر بالحرج من تلك الأصول، وكان يتحدث الفرنسية الدارجة، وقد حاولت تثبيت ما تعلمته منها في باغرام بمساعدته، ولكنه لم يكن مرتاحا لذلك: سأنظر، لا أتحدث الفرنسية بصورة سليمة».

عقبت، قائلا: «حسنا، يظل ذلك أفضل ممن لا يتحدثها على الإطلاق، فلا تحبطن نفسك».

نظر العديد من الجنود إلى الهاييتيين على أنهم الأقل شأنا بين الكاريبيين أجمعين، فقد كان معسكر «إكس ــ راي» قد استخدم قبلا، في العام 1991، من قبل الولايات المتحدة لاحتجاز الآلاف ممن حاولوا دخول أراضيها.

أمضى ميسادور ما يقارب العام في معسكر الصدى، وكنا ننخرط في حوارات يومية تقريبا حول كل الموضوعات، بدءا من حياته الجديدة في الجيش، وانتهاء بمصاعب الحياة في ضواحي ميامي الهاييتية، وقد كان

ميسادور، كزميله جينر، جندياً عاملاً متمركزاً في فورت بولك، لويزيانا، ولم يكن يحق له، على حد ظني، طلب الإعفاء من الاستدعاء، كما جنود الحرس الوطني، والاحتياط، فقد كان أحد الجنود صغار السن ـ المتزايدين عدداً ـ الذين التحقوا بالجيش لتأمين المعيشة والترحال، ليس لأنهم وطنيون، لكن لم تأخذه الحماسة الوطنية التي اجتاحت البلاد بعد وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، فقد ألح عليه رقيب مسؤول عن التجنيد في كليته بالانضمام إلى الجيش، بعد أن أبدى بعض الاهتمام بذلك، وقيل له: إنه سيتمركز في ألمانيا، وكوريا، وأخبرني أن ذلك الرقيب كان مطالبا بنسبة شهرية محددة من المتطوعين، وأن فشله في ذلك كان يعني تخفيض رتبته (العمل الوحيد الذي يتسم بذلك في الجيش).

أخبرته عن كيفية اعتقالي، وتجربتي في قندهار، وباغرام، ليعقب، على ضوء ما كان يعرفه عن غوانتانامو، قائلا: «تباً يا معظّم، إن لم تكونوا إرهابيين جميعاً قبل قدومكم إلى هذا المكان، فستصبحون كذلك ما إن تغادروه، بسبب الطريقة التي عوملتم بها».

كان ميسادور من أخبرني عن أهرامات المعتقلين العراة في سجن أبو غريب. وشعر بالخزي؛ لأن المعتدين عليهم كانوا ينتمون إلى الشرطة العسكرية، مثله، وقد كتب ميسادور، في ربيع العام 2004، قصيدة حولنا، هاكم الشطر الأخير منها:

مخدوعا للغاية بحلم العدالة،

استيقظت الآن، لا أجرؤ أن أناقشه،

آلام الرجل البرتقالي، وظلم الرجل الأبيض،

يغادر الجندي التافه وحدته، ملؤه الاشمئزاز.

لم يكن ميسادور يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، وغالبا ما كان يسبح ضد التيار ضمن وحدته، فقد أخبرني أنه لم يرق لبعض المحتجزين، ولكن تجربتي معه كانت إيجابية، إذ كان أحد من اعتادوا ائتماني على أسرارهم من الجنود، وقد كنت أقدم له ما أمكنني من النصح، وكثيراً ما كان يغير طريقه ليجلب لي ما تيسر له من الأشياء، ككتاب أو وجبة خفيفة، معرضا نفسه لما هو جدي من المشكلات، إذ لم يكن يُسمح للحراس بإعطائي الكتب؛ لذا كنت أخبئ، كل ما كانوا يمررونه لي منها، بين تلك التي يسمح لي بقراءتها، فنادرا ما كان الحراس يتأكدون من الكتب المختومة.

أخبرني ميسادور، قبل مغادرته، بما قاله لي العديد من عناصر الشرطة العسكرية من قبله: "اسمع يا سيد بيغ، لقد تعلمت الكثير منك، فلن أنساك أبدا".

ولن أنساهم كذلك.

كانت كلمة «معتقلين» تستخدم بصورة حصرية تقريباً للإشارة إلى من كانوا يحتجزون إلى أجل غير مسمى، بلا تهمة أو محاكمة، من قبل القوات الأمريكية في خليج غوانتانامو، فقد كان يطلب من الحراس هناك، تحت التهديد بالمعاقبة، كما أخبروني، أن يشيروا إلينا جميعا «بالمعتقلين»، وهو ما كان يثير استيائي في بعض الأحيان، ويدفعني للتشاجر معهم، إذ كنت أسيراً، مختطفا، أو سجينا على أقل تقدير.

كان العديد من الحراس، كما سمعت من ميسادور، وخبرت بنفسي، يرفضون الدخول في حوارات مع «أي ممن يرتدون البزات البرتقالية» وقد حاول بعضهم معاداتي عبر إغلاق أبواب الزنزانة بعنف، أو تقوية الإنارة، في وقت متأخر من الليل، بينما كان الآخرون يكتفون بإبعاد الأغلال أكثر مما هو ضروري؛ كي يسببوا لي الألم، وعدم الارتياح في أثناء التنقل، واكبني أحدهم في إحدى المرات إلى ساحة التمرين، وكان رقيبا أسود البشرة، ضخم الجثة من واشنطن (ميزت رتبته من الرقعة الموجودة على ذراعه، والشارات الثلاث على قبعته، وياقته).

نادى الحراس على الجانب الآخر، قائلا: «المعتقل قادم في الطريق، فأغلقوا ذلك الباب عند «12 ألفا (رقم الزنزانة)».

وجدت الأغلال تحتك بساقيّ بقوة، بينما كنا نتحرك.

خاطبته، قائلا: «الأغلال مشدودة للغاية أيها الرقيب، فهل تعتقد أن بالإمكان إرخاءها قليلا؟».

توقف بصورة مفاجئة، مبقياً قبضته المشدودة حول ذراعي، وخاطبني، وهو ينظر إلي مباشرة، قائلا: «كيف علمت برتبتي؟».

أجبته، بينما كان لا يزال يحدق بي، قائلا: «من النظر إلى ياقتك، فكيف عرفت أنني معتقل؟».

هز الحارس الآخر رأسه، لا أكثر، بينما واصل الرقيب السير، دون أن يقول شيئا، إذ لم يكن يحب التحدث إلى المعتقلين.

سألتني حارسة أخرى من العاصمة عن جنسيتي في إحدى المرات، ففكرتُ للحظة، حين أخبرتها أنني من إنجلترا، قبل أن تسألني قائلة: «هل توجد عندكم أسود، وفيلة، وما شابه، هناك؟».

أجبتها، قائلا: «في حدائق الحيوان فقط، قلت لك إنني من إنجلترا، لا أوغندا».

تمثل عزائي الحقيقي الوحيد في كتابة الرسائل إلى زينب من حين لآخر، وقد سألتها في إحدى المرات، قائلا: «هل تذكرين حين استيقظت، قبل سنوات عدة، أنتحب باكيا بعد رؤية ذلك الحلم؟، هل تذكرين كم كان يشبه الوضع الذي أمر به الآن: يولد طفل لنا، دون أن أكون موجودا؟ ولم تكن أمامة هي المقصودة به، كما ظننت في حينه، بل طفلنا أيوب، كما اتضح الآن» وشعرت بإحباط شديد لصغر ما كنت أكتب عليه الرسائل من أوراق هيئة الصليب الأحمر، ناهيك عن جهلي المدة التي تستلزم وصولها، وكنت أسألها على الدوام عما إذا كانت تتلقى رسائلي وقصائدي، وعما إذا كانت تتعرض، وأطفالها، لأي من المضايقات بسببي، وقد

أخبرتها مرة أن إيماني ضعف بشدة؛ لأنني لم أتحدث إلى أي من المسلمين طيلة أشهر عدة، فقد أردت إفهامها أنني أشعر بالاكتئاب مثلها، فما الذي كان بإمكاني نقله لها، مع ذلك، عن الحياة الرتيبة المملة التي أعيشها؟.

كتبت لها، بعد مرور سنة كاملة على وجودي في غوانتانامو، قائلا: «... لا يمكنني توقع انتظارك لي إلى الأبد، آسف إن كنت قد قلت ما لا تودين سماعه. فلم أكن أود القيام بذلك، صدقيني... أشعر بأسف شديد؛ لأن الأمور سارت على هذا النحو، فإنني أحبك، أنت والأطفال، أكثر من نفسي... إن كنت قد قلت ما هو خاطئ هنا، فحسبك أن تتجاهليه، وأشعر بالإحباط ليس إلا، جاهلا ما يجدر بي فعله».

تغير مزاجي، مع ذلك، بعد مضي أربعة أيام: «تلقيت اليوم «القلب» الجميل الذي رسمته بالقلم المعطر، وهذا غريب للغاية، تحدث الكثير من الناس هنا عن عيد الفالينتاين، وبالرغم من أننا لا نحتفل به، فقد تلقيت رسالتك الآن، في منتصف شهر شباط/ فبراير» وقد كتبت لها رسالتين في ذلك اليوم، واحدة عبر هيئة الصليب الأحمر، وأخرى عبر الجيش الأمريكي، آملا وصول إحداهما على أقل تقدير، وحاولت تفسير السبب وراء النبرة الحزينة التي ميزت رسالتي السابقة، قائلا: «تتازعني الكثير من الأفكار المتضاربة، وأشعر بالمسؤولية المطلقة عن الصعوبات التي لا ريب تواجهينها الآن، وتتمثل في عجزي عن القيام بأي شيء... أشعر بالحيرة من أمري، وما يجدر بي فعله، وأشعر في معظم الأوقات أن الله لا يستجيب صلواتي، لما اعترى إيماني من ضعف، أحبك، زوجك».

كتبت في اليوم ذاته إلى ابنتي الكبرى، الأعز إلى قلبي أمامة، قائلا: «آسف لأنني لم أكتب لك منذ مدة، فقد تلقيت رسائلك الرائعة جميعها من قبل: التي كتبت بالحبر «المعطر»، وتحوي رسوم «القلب»، والأخرى التي كتبتها عن «الظربان» و«الخفافيش»... أود أن أعرف ما يحصل معكم جميعا... أحبك وأفتقدك إلى أبعد الحدود، باكيا حين أفكر بما أكنه من مشاعر تجاهك، وأقرأ

رسائلك على الدوام، وتعجبني كتابتك حقيقة، واستعيني بقاموس الصغار إن أردت استخدام كلمات جديدة، وتهجيتها. أفكر فيك في كل يوم، وأرغب العودة إلى البيت بشدة، اذكريني في صلاتك، وقبلي الجميع نيابة عني».

زارني مارتن، من وزارة الخارجية، بعد مضي شهر لا أكثر، في آذار/ مارس 2004، وتلا علي بيانا حول إطلاق سراح خمسة من المعتقلين البريطانيين* في غوانتانامو، فلم تكن ردة فعلي منسجمة حيال ذلك: فرح غامر لمعرفة أن الأمور بلغت خواتيمها بالنسبة لبعض البريطانيين، وخيبة أمل؛ لأن «المفاوضات جارية على قدم وساق بين الحكومتين البريطانية والأمريكية حول قضيتي»، وذلك ما يعني عدم مرافقتي إياهم، وبقاء ثلاثة بريطانيين آخرين في المعتقل. وقد تمثلت الحقيقة المرة في عدم امتلاكي أي فكرة عن المدة التي سأمضيها في غوانتانامو.

تلقيت زيارة أخرى، من الاستخبارات البريطانية، بعد مضي بضعة أشهر، إذ قدم لي مات، الذي التقيته في قندهار ـ فيما اعتبرته بادرة ودية ـ كتاب «الإنجليز: صورة شعب» لجيرمي باكسمان، فلم اختاروا هذا الكتاب تحديداً؟، كان هزليا، غنيا، شاملا بمعنى الكلمة، فهل تضمن، رسالة حول «لا إنجليزيتي أو بريطانيتي»؟، هل كان لسان حالهم يقول: «أيها الخائن!، قاتل أجدادك إلى جانب الجيش البريطاني، بينما تفعل ما تفعله الآن. انظر إلى شعبك ووطنك، انظر إليهما بينما تشارك الإرهابيين الذين يودون تدمير تراثنا».

قرأت الكتاب خمس مرات، من الغلاف إلى الغلاف، باحثا فيه، فاستنتجت في النهاية وجود ما يمكن اعتباره دافعا خفيا في النظرة الحنينية إلى الوطن، التي تضمنتها بعض محتوياته.

تساءلت كذلك حول تأكيد باكسمان على «عدم الاستخفاف بقدرة الإنجليزي على مناصرة المضطهدين». فكرت للحظة، قائلا لنفسي: «ربما كنت إنجليزيا بالرغم من كل شيء».

* شفيق رسول، آصف إقبال، روهيل أحمد، طارق ديرغول، وجمال الحارث. (المؤلف).

لم يبد ذلك، على أية حال واقعيا بالنظر إلى معرفتي بالتاريخ، فكثيراً ما كان الإنجليز ـ في الماضي أو الحاضر، صحيحا كان ذلك أو خطأ ـ يقفون ضد المضطهدين، إن لم نقل يقاتلونهم، وربما تمثلت الفكرة التي استهوتهم، في مناصرة الطرف الأضعف الذي يسير عكس التيار (حتى، وإن لم يفعلوا).

كان الكتاب ممتعا في نهاية المطاف، وإن دفعني للتفكير حقيقة.

«أتينا لمجرد السؤال عن حالك، والتحقق مما إذا كنت بخير، فصودف وجودنا في المكان، فقررنا المرور بك»، لا يمر أحد بأحد في غوانتانامو!. لم أفهم أبدا سبب زيارة الاستخبارات البريطانية تلك، فلم تكن بالتأكيد لمجرد تسليم كتاب باكسمان، فلم يوجهوا لي أيا من الأسئلة، باستثناء: «كيف هو احتمالك يا معظّم؟، أيزداد إيمانك رسوخا، أم أنك تضعف أكثر، فأكثر؟».

«انتهزت الفرصة للشكوى مجددا: «لا رجل دين مسلما، لا رسائل منتظمة، لا محامين، حبس انفرادي، لا تحسن...»، ولكن لم أنتم هنا؟».

«لاهتمامنا لأمرك، وإعلامك أن جهاز «الإم آي فايف» ليس بذلك السوء».

عقبت، قائلا: «بل هو كذلك».



-11-
الوهم المزعج

اعتدت، بعد مضي ما يقارب العام والنصف في الحبس الانفرادي في غوانتانامو ـ سنتين ونصف منذ رأيت عائلتي آخر مرة ـ الحياة التي كنت أعيشها، مدافعا عن كرامتي وإنسانيتي، وإن غضبت لأبعد الحدود في داخلي، نتيجة ما كنت أعانيه من ظلم شديد، فكنت لا أزال أجهل سبب اعتقالي، في الحبس الانفرادي على وجه الخصوص، وكنت أحصل في العادة، عند تلقي الزيارات من وزارة الخارجية، على رسائل من والدي، وزوجه، وزينب، بما فيها من صور للأطفال، ورسومهم المؤثرة، وكنت لا أزال حاضرا في حياتهم، عاجزا، مع ذلك، عن إطلاعهم على تفاصيل حياتي الروتينية في الزنزانة، وساحة التمرين، والطعام المقزز، والبزة البرتقالية، وقراءة القرآن التي مثلت أمرا إيجابيا، ناهيك عن عدم رغبتي في معرفتهم بذلك، ولم يكن المسؤولون البريطانيون، صادقين معي، فما الذي كانوا يظنونه حولي يا ترى؟، هل كانوا واثقين من أنني لست من الإرهابيين، أو من المتعاطفين معهم؟.

فوجئت للغاية، حين تلقيت ما بدا إشارة، في نظري، إلى ما يجعل وضعي خاصا بالنسبة للأمريكيين، وذلك ما يعزلني عن بقية السجناء، إذ كنت شاهدا على جريمتي قتل ارتكبهما جنود أمريكيون، وكانوا ينوون استخدامي بغية أغراضهم التأديبية، الانضباطية، الداخلية الخاصة، التي لم يكن لها، بالطبع، أي علاقة بما كنت اتهم به شخصيا.

حضر اثنان من محققي «قسم التحقيق الجنائي» إلى زنزانتي، في شهر حزيران/ يونيو 2004، يطرحان علي الأسئلة حول المدة التي أمضيتها في باغرام، والجريمة الأولى التي شهدتها، وإن انصب جل اهتمامهما على الثانية وكان التحقيق شاملا، وقد طالبني كلاهما بالوصف الدقيق لما رأيته، ومدى قربي من

مكان وقوع الجـريمة، وأبرزا في بادئ الأمـر صـورة السـجين 421، وقد تعـرفت عليـه، وإن كان بصعوبة، بالرغم من أنني لم أره بوضوح في السابق، وقد نبهني المحققان فيما بعد، قبل إبراز صورة مؤثرة لجثته، إذ كانت الأنابيب تتدلى من منخره، وتبدو الكدمات واضحة على جسده إلى أن ما يقومان به كان عبارة عن تحقيق جنائي. أبرزا صورا كمبيوترية للحراس، لأشير إلى من اعتقدت أنهم الفاعلون، وسألني المحققان، فيما بعد، عما إذا كنت مستعدا للشهادة ضدهم.

عقبت بقول الآتي، لا أكثر: «يا للسخرية، احتجزتموني طيلة تلك المدة، لتطالبوني بالشهادة ضد معتقلين آخرين، ليتبين في نهاية المطاف أن من يمكنني الشهادة ضدهم هم الجنود الأمريكيون، ليس إلا».

فكرت، فيما بعد، في احتمالية أن يكون ذلك السبب الحقيقي لحبسي انفراديا في معسكر الصدى، فقد شهد معتقلون آخرون الجريمة بالطبع، ولكنهم لم يكونوا يتحدثون الإنجليزية، ناهيك عن أن سبيل معظمهم كان قد أخلي، بحلول تلك المدة، وذلك ما يجعل التواصل معهم، في قراهم الأفغانية، من الصعوبة بمكان.

سمعت من الرقيب فوشي، لاحقا في ذلك الشهر، بوجود قضية تنظر بها المحكمة العليا الأمريكية حول معتقلين في غوانتانامو، وأن القضاة يميلون، على ما يبدو، إلى الحكم لصالحهم، فذهلت حقيقة لسماع ذلك، وبدا ذلك تحولا مؤثراً بعد العديد من الأشهر التي لم أسمع خلالها شيئا من المحامي الذي وعدت به، وأكاد أستسلم لقدري، ولم أكن أعلم بالطبع تفاصيل القضية، ولكنني افترضت، متفائلا، أن قرار المحكمة العليا سيكون ملزما بالكامل فيما يتعلق بحقوقنا القانونية، وسمعت مجددا خلال أيام من فوشي، مجددا، وغيره من عناصر الشرطة العسكرية أن القرار اتخذ بالفعل: «يحق لكم قانونيا أن تحظوا بالتمثيل في المحكمة»، بالرغم من أن المحققين لم يذكروا شيئا عن ذلك أبدا.

راجت الإشاعات والقصص المتضاربة عما كان ذلك يعنيه حقا، ولكن الجميع رأوا فيه أمرا إيجابيا بالنسبة لنا، «خطوة للأمام». أخبرني أحد الجنود أنهم كانوا مضطرين إلى إصدار قرار بشأن جميع المعتقلين خلال تسعين يوما، وإطلاق سراحنا فيما بعد، وكان ذلك رائعا، بحيث يصعب تصديقه، وقد غرقت في التفكير بالاحتمالات كافة، وكنت فرحا متحمسا بحق.

قررت يوم عيد ميلادي، في الخامس من تموز/ يوليو، كتابة رسالة رسمية إلى الإدارة العسكرية في غوانتانامو، مطالبا فيها بحقوقي، بالنظر إلى الموقف القانوني الأمريكي الجديد، وتملكني شعور طيب، ملؤه الثقة، ما كنت قد بلغته من قبل طيلة سنتي اعتقالي، وكتبت الرسالة على جانبي ورقة مسطرة، قبل تسليمها إلى الضابط المسؤول، طالبا إرسال نسختين منها إلى وزير الداخلية البريطاني، ومحاميتي في لندن، غاريث بيرس:

أطالب، أنا معظّم بيغ، المواطن البريطاني، الذي يحمل الرقم 558 في هذه المنشأة، رسميا بالحقوق الآتية وفق قانوني الاحتجاز الأمريكي والدولي:

أن يتم إطلاق سراحي بشكل مباشر، غير مشروط، وإعادتي إلى محل إقامتي في المملكة المتحدة، وأن أستعيد جميع ممتلكاتي الشخصية التي صودرت من قبل العناصر الأمريكيين والباكستانيين من محل إقامتي في إسلام أباد، باكستان، في الواحد والثلاثين من شهر كانون الثاني/ يناير 2002.

أطالب، على ضوء الرفض المتوقع لمطلبي السابقين، أو التأخير غير المبرر في تنفيذهما، وفق القانونين السابقين، مجدداً، بالآتي:

أن يتم إعلامي بجميع التهم الموجهة إلي كتابة، وأن يتم إعلامي بجميع حقوقي، بالنظر إلى عدم وجودي على أي أراض أمريكية في السابق، وجلبي بالقوة إلى هنا، وأن يسمح لي بالتحدث هاتفيا مع عائلتي في بريطانيا، و أن يتم تزويدي بلائحة كاملة، مفصلة بجميع الأغراض التي صودرت من محل إقامتي

في إسلام أباد، باكستان، في الواحد والثلاثين من شهر كانون الثاني/ يناير 2002، وأن يتم تزويدي كذلك بتفسير قانوني واضح لسبب احتجازي انفراديا منذ وصولي إلى كوبا، في الثامن من شهر شباط/ فبراير، 2003.

مضيت في تفصيل كيفية استجوابي تحت التعذيب، وتهديدي بالتعرض لأسوأ أنواعه، ناهيك عن القتل، في باغرام على وجه الخصوص، وما شهدته من ضرب أفضى إلى موت معتقلين، على يد عسكريين أمريكيين.

كتبت بعد مضي أسبوع، والتفكير مليا في الانعكاسات المحتملة لقرار المحكمة العليا، رسالة أخرى، تعادل ضعف السابقة في طولها، مكررا مطالبي ذاتها، بشكل أكثر تفصيلا، علاوة على المطالبة بإرسال نسخ منها إلى جهات أخرى، بما في ذلك المحكمة الأمريكية العليا، ومنظمة العفو الدولية «أمنستي»، وهيئة الصليب الأحمر، والمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، ووسائل الإعلام. وقد تطلب استذكار تلك النقاط كلها مجهوداً عقليا مضنيا، ناهيك عن التركيز عليها، وصياغتها بصورة متماسكة، وعنت تلك الرسالة الكثير بالنسبة لي، وقد خفت ضياعها في أروقة البيروقراطية العسكرية الأمريكية، فسألت قائد المعسكر، الرقيب لو، قراءتها، والإشراف على تمريرها، قائلا: «قد أصبحت مسؤوليتك الآن أيها الرقيب، وأحتاج تمرير تلك الرسالة إلى دائرتكم القانونية، إن لم تمانع في ذلك».

انتابني القلق كثيراً عند كتابة كل تلك الرسائل، وقد دونت أربع نسخ منها بخط اليد، محاولا التواصل مع العالم الخارجي فيما يتعلق بتلك الأخبار المهمة.

قدم أحد ضباط الجيش الأمريكي، في اليوم الآتي مباشرة، الموافق للثالث عشر من تموز/ يوليو، برفقة بضعة أشخاص آخرين، ليجلسوا جميعا في الغرفة الخارجية، وكان يتنقل من زنزانة إلى أخرى، قارئا رد البنتاغون على قرار المحكمة العليا، الوثيقة المعنونة «بإشعار من محكمة مراجعة حالة المحارب إلى المعتقلين»، التي لم تكن تتجاوز الصفحة في محتواها، ومرر الضابط الوثيقة إلي،

بعد الانتهاء من قراءتها، فكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها بالمحاكم العسكرية، دون أن أعلم ما يمكنني من فهم مضمون الوثيقة بأكمله في حينه.

تضمنت الوثيقة ما يأتي: «تحتجز كعدو محارب من قبل القوات المسلحة الأمريكية، ويمثل العدو المحارب أيا ممن ينتمون إلى، أو يدعمون، قوات الطالبان، أو القاعدة، التي انخرطت في أعمال معادية ضد الولايات المتحدة، أو أعضاء تحالفها، ويشمل التعريف أيا ممن شاركوا في أعمال حربية، أو دعموا مثل تلك الأعمال المعادية بصورة مباشرة».

كان الرقيب بارلر قد قدم إلى زنزانتي، في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 2003، ليقرأ أول بيان عسكري رسمي إلى المعتقلين، وقد كان يدور حول اعتقال صدام حسين من قبل القوات الأمريكية في العراق.

سألته، مدعيا الجهل، قائلا: «ومتى دخلت الولايات المتحدة العراق؟». كنت قد علمت الكثير بالطبع حول تلك المسألة من الحراس.

أجابني، قائلا: «آسف، تعلم أنه لا يمكنني مناقشة الأوضاع الراهنة معك».

سألته، قائلا: «لم اخترت إذا منحي هذه القصاصة عن الأوضاع الراهنة؟».

أجابني، قائلا: «الأوامر، فقد تمت قراءة هذا البيان على جميع المعتقلين».

سألته، قائلا: «وما شأني به؟».

علمت تماما أن الأمريكيين كانوا يتغنون بالقبض على ذلك الرجل، الذي عذب من المعارضة الإسلامية وقتل ما لم يكترثوا للاعتراف به، وكان الأكراد ـ أحد ضحايا صدام ـ من دعمت معسكرات تدريبهم في أفغانستان، وقد أسهم ذلك في إيصالي إلى الحال التي بلغتها، معاديا للأمريكيين وفق اعتبارهم، مصنفا «كعدو محارب» لهم.

غادر بارلر، دون الإجابة عن سؤالي.

ها هو ذا الجيش الأمريكي الآن، يكلف نفسه مجدداً، عناء تلاوة بيان عسكري رسمي على المعتقلين، وبدا ذلك غريبا للغاية بالنسبة لي، فلم يمر علي طيلة مدة دراستي القانون ما يماثله من الناحية القانونية، فقد تضمنت الوثيقة الآتي، علاوة على ما سبق ذكره منها: «ليست هذه محاكمة جنائية، ولن تعاقبك المحكمة، ولكنها ستقرر ما إذا كانت أسباب اعتقالك قانونية». فكرت، قائلا لنفسي: «ما الذي تعنيه عبارة «أسباب اعتقالك قانونية»؟، يمثل الاعتقال بحد ذاته عقوبة».

بدأت أفقد الحماسة التي اعترتني نتيجة قرار المحكمة العليا، بينما استمعت إلى الضابط، وقرأت الوثيقة فيما بعد، وتحدثت خمس فقرات منها عن آلية عمل المحكمة العسكرية، بما في ذلك الحصول على «شرح واقعي» مكتوب لسبب تصنيفي عدوا محاربا، وانتداب ممثل شخصي عني، وإن لم يكن محاميا، بل تابعا للمؤسسة العسكرية، وقد أخبرني حين التقيته لاحقا، أنه لم يكن ملزما بالتكتم على أي من المعلومات التي أمنحه إياها.

تمثلت إحدى النقاط المهمة التي تحدثت عنها الوثيقة في الآتي: «سيكون بمقدورك تقديم الأدلة إلى المحكمة، بما فيها إفادات الشهود، وإن لم يتوفروا فيمكن أن تُلتمس إفاداتهم المكتوبة، ويمكنك كذلك تقديم بيانات مكتوبة، ووثائق أخرى، ويمكنك الشهادة أمام المحكمة، دون أن تجبر على القيام بذلك، أو الإجابة عن أي أسئلة».

تضمنت الفقرة الأخيرة، المماثلة للحاشية تقريبا، الآتي: «تخول محاكم الولايات المتحدة، بمعزل عن العسكرية آنفة الذكر، النظر فيما يقدمه الأعداء المحاربون المحتجزون في هذه المنشأة من عرائض تتحدى قانونية احتجازهم». لم أكن أملك أي فكرة عن كيفية حدوث ذلك، بالنظر إلى أننا كنا معزولين فعليا، لا نملك أي اتصال بالعالم الخارجي.

كان من الواضح بالنسبة لي أن حكومة الولايات المتحدة تحاول الربط بين المحاكم العسكرية، وقرار المحكمة العليا: إن تمكنوا من إثبات صحة اعتبارنا أعداء محاربين، فلن يكون هناك أي سند قانوني لنظر محاكم الولايات المتحدة فيما نقدمه من عرائض، وفكرت، بالرغم من ذلك، في ضرورة الانخراط في تلك العملية، مع كل ما اتسمت به من ظلم؛ لأنها كانت تمثل - على أقل تقدير - فرصة حرمت منها طويلا للمجادلة حول قضيتي.

تحدث الضابط على عجل، استباقا لأي أسئلة، قائلا: «إن كانت لديك أي أسئلة، فيمكن أن تناقشها مع ممثلك الشخصي الذي سيحضر قريبا».

تلقيت بعد مضي بضعة أيام، في السادس عشر من تموز/ يوليو، زيارة من مبعوث وزارة الخارجية مارتن، وحضر برفقته اثنان من المسؤولين الأمريكيين، وإن لم يرتديا ملابس رسمية؛ لنناقش بعض الأمور الشكلية، قبل الدخول في الموضوع الأهم المتعلق بالمحاكم العسكرية، وحرص مارتن على التأكد من فهمي ماهية تلك المحاكم، وما كانت تعنيه، ليستطرد على عجل، قائلا: إنه لم يأت لتقديم النصح حول ما يجدر بي فعله من عدمه؛ لأنه لم يكن مستشارا قانونيا، علاوة على من كانوا برفقته، وجلست هناك أحاول نقل وجهة نظري حول المحاكم العسكرية، بعد تفحص الوثيقة بعناية.

سألتهم عن «الممثل الشخصي»، قائلا: «كيف يمكن لذلك الشخص تمثيلي؟، تحوي التسمية بحد ذاتها تضليلا متعمداً».

أمضى الثلاثة وقتا عسيراً، محاولين إقناعي بعدالة المحكمة العسكرية.

سألتهم، بينما كنت أشير إلى القفص الحديدي الصغير، قائلا: «كيف يمكن للوثيقة أن تقول: «لن تعاقبك المحكمة»، بينما سيبرر إثبات أنني عدو محارب بقائي هنا؟. يمثل احتجازي سنوات عدة في قفص كهذا، بلا تهمة، أو محام، أو محاكمة أسوأ أنواع العقوبات في نظري».

كنت أدرك مدى سهولة إلصاق التهمة بي، بالنظر إلى حرماني من أي تمثيل قانوني، ومضى الثلاثة فيما بعد يتحدثون عن أن تصنيف المدنيين، الأعداء المحاربين، أو غير المحاربين، وأسرى الحرب، يحدد وفق سير المعارك، عقب أسابيع من الاحتجاز.

عقبت، قائلا: «لا أرى أي معارك هنا، ولم يتم أسري في أي منها، ناهيك عن أنه مضى علي حتى الآن ثلاث سنوات في الأسر».

أخبرتهم، بعد مدة من الأخذ والرد، أن الأمر لم يكن يمثل أكثر من مهزلة في نظري، وأنه من الظلم بما لا يمنحني أي قدر من العدالة، علاوة على توظيفه لجمع المعلومات من المعتقلين، أملا في أن يتحدث من رفض منهم القيام بذلك أمام المحققين، عله يبرأ في نهاية المطاف.

هز مارتن رأسه، بما يدعو للاستغراب، موافقا على ما كنت أقوله بشأن المهزلة.

تحدثت، بينما تطرقنا إلى مسألة عرض قضايانا أمام المحاكم الأمريكية، قائلا: «حسنا، كيف يمكنني الوصول إلى أي تمثيل قانوني، أو طلب ذلك، بينما أحتجز في هذه الظروف؟».

أتى مارتن بما يثير الدهشة من حركات، واستدار قليلا، قبل أن يحك صدره بسبابته، فلم ير صحبه ذلك، بينما رأيته، فقد كان يشير بوضوح إلى نفسه، إجابة عن سؤالي الأخير.

عقبت بصورة تلقائية، قائلا: «هل يمكنك، بصفتك الممثل القنصلي البريطاني، توجيه محاميّ وعائلتي للبدء في عرض قضيتي أمام المحاكم الأمريكية؟».

أجابني، بينما استدار نحو الأمريكيين، قبل أن يهزا رأسيهما موافقة، قائلا: «لا يمكنني تقديم أي نصح قانوني، ولكنني واثق من قدرتي على نقل مطلبك إليهم، ونهضوا جميعا، ليغادروا بعد ذلك بمدة قصيرة، وتقدم الأمريكيان مارتن، الذي أشار إلى ذقنه، بعيدا عن أعينهما، قبل أن يستدير نحوي، قائلا: «تفاءل بالخير يا معظّم».

لم يأت ممثلي الشخصي لرؤيتي عدة أسابيع، ومررت خلال تلك المدة بعدد من التجارب الجديدة، بما فيها زيارة القائد العام لمعتقل غوانتانامو زنزانتي.

اندفع الحراس على عجل، يكنسون الأرض، يظهرون ما هو غير معتاد من نظافة وترتيب، فلم يعن ذلك إلا زيارة إحدى الشخصيات المهمة للمعسكر، إذ كان العميد جاي هوود قد حضر، للمرة الأولى والأخيرة، لزيارة المعتقل رقم 558، في زنزانته «7 برافو».

دخل العميد الغرفة التي تحوي زنزانتي، مع مرافقيه، ليتفقدها، قبل أن يمضي نحو السجل، متصفحا إياه على عجل، ثم يواجهني مباشرة.

خاطبني، قائلا: «أرى أنك ذهبت إلى طبيب الأسنان مؤخراً، فهل حلت مشكلتك؟».

أجبته، قائلا: «نعم، شكراً لك، ولكنني رفضت إخباره عما إذا (كان آمنا)»، رسم أحد مرافقيه ابتسامة مصطنعة على وجهه، بينما لم يدرك العميد إشارتي إلى أساليب التعذيب التي اتبعها لورانس أوليفيه في فيلم «رجل الماراثون».

عقب، قائلا: «معذرة، لا أفهم ما تعنيه، فما الذي تقصده بذلك؟».

أجبته، قائلا: «ليس الأمر بمهم، فهل يمكنك إخباري قبل مغادرتك، يا حضرة العميد، عن السبب وراء عدم حضور الممثل الشخصي حتى الآن؟».

أجابني، قائلا: «لا علاقة لي بالمحكمة العسكرية، ولكن ذلك يشمل المئات من السجناء، وأعلم أنهم يعملون بأقصى سرعتهم».

فكرت، قائلا لنفسي: «صحيح، أثق بذلك تماما، فإنكم تسابقون الزمن توقا لتحقيق العدالة...».

خاطبته، بينما أبرزت رسالة الصليب الأحمر من ابنتي أمامه، قائلا: «بقي أمر آخر يا حضرة العميد. هل يمكنك تفسير ذلك، فقدحجبت رقابة الجيش الأمريكي معظم الرسالة باللون الأسود، فما الذي يمكن أن يخيفكم من طفلة في السابعة من العمر؟ لم أتلق أي رسالة منذ أشهر، وها أنتم أولاء الآن تقومون بهذا الأمر المؤسف، حين فعلت أخيراً».

أجابني، وقد أحس بشيء من الحرج، قائلا: «لا أعلم ما أقول لك، باستثناء أنني سأنظر في الأمر» وأومأ برأسه إلى مساعده فيما بعد، ليدون هذا المساعد شيئا ما في مفكرته، وكانت تلك المرة الأخيرة التي أتحدث فيها إلى هوود.

تمثلت مفاجأتي الثانية في الرسالة التي تلقيتها من فريق للمحامين في نيويورك، ونيوجيرسي، يخبرونني فيها أنهم حددوا جلسة للنظر في قضيتي بتاريخ الثاني من تموز/ يوليو، أمام المحكمة الفيدرالية في واشنطن العاصمة، وأضاف المحامون أن زوجي، ووالدي، وغاريث بيرس، والمحامي البريطاني العامل في الولايات المتحدة، كليف ستافورد، كانوا قد كلفوهم بالعمل في هذه القضية أمام المحاكم الأمريكية، وأكد المحامون على أنهم كانوا مدنيين، لا علاقة لهم بالجيش الأمريكي، فغرقت في دوامة من المشاعر المتناقضة مجدداً.

كنت واثقا من جدية أولئك المحامين، بالنظر إلى انخراط غاريث في الأمر، وذلك ما عنى أنني كنت أحقق بعض التقدم فعليا، وكتبت إليهم في اليوم ذاته، السادس من آب/ أغسطس، معبرا عن امتناني الشديد لهم، مجددا ثقتي بغاريث، وأكدت أن الإفادات كانت قد انتزعت مني بالإكراه، تحت التعذيب، والتهديد بالموت، إذ كنت أعني «اعترافاتي» المكتوبة في شهر شباط/ فبراير من عام 2003، وقد أخبرت المحامين أنها يمكن أن تمثل المستمسك الوحيد بين أيدي سجانيّ، بغية تصنيفي «عدوا محاربا».

قلقت للغاية مجددا من عدم تمرير رسالتي، وقد سألت قائد المعسكر قراءتها، وتثبيتها في سجل المعسكر، وطباعة نسخ عنها.

تلقيت، بعد مضي أسبوعين تقريبا، رسالة ثانية من أحد أعضاء فريق المحامين، غيتانجالي غوتيريز، تخبرني فيها أنها تلقت رسالتي، وأنها لم تستغرق أكثر من أسبوعين للوصول إليها، مضيفة أنها ستزورني يوم الاثنين، الموافق للثلاثين من شهر آب/ أغسطس، وأنها ستراني كذلك أيام الثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وأخبرتني المحامية، علاوة على ذلك، أنها كانت تلتقي كلا من غاريث، ووالدي، تمهيدا لزيارتها المرتقبة، فقد كانت المحامي المدني الأول الذي يتوجه إلى غوانتانامو، وعلمت أن ذلك يمثل نقطة تحول كبيرة.

عجزت عن النوم تقريباً، من فرط حماستي، خلال ثلاثة أو أربعة الأيام الآتية، وبدأت، تهيئة لنفسي، تدوين صفحات بما مر بي من أحداث، فعنونت إحداها «بسجل الإساءات» ووضعت لائحة كذلك بما أرغب أن يجلبه لي والدي من كتب، ناهيك عما كتبته من رسائل كي توصلها إليه، وإلى زوجي، وغاريث.

شجعني بعض الحراس على طلب العديد من الأشياء من غيتا، بالنظر إلى حضور من سبقها من المحامين العسكريين، وإن كانت أولى المدنيين الذين يحضرون إلى غوانتانامو، وكان المحامون العسكريون قد وكلوا للدفاع عن الأسترالي دايفيد هيكس، وسليم حمدان، سائق ابن لادن كما يزعمون، فرأى الحراس أولئك المحامين، وهم يجلبون ما أوصاهم به موكلوهم من كتب، أو غيرها من الأشياء، بعد السماح لهم بالاحتفاظ بها في زنازينهم.

وضعت لائحة بما أريده من أشياء ـ بما في ذلك عدد كبير من الكتب، التي تتناول التاريخ في معظمها ـ كي أقدمها إلى غيتا عند مجيئها، ووضعت، كذلك، لائحة صغيرة بأشياء أخرى، كالقليل من الشوكولاتة، فلم أطلب منها شيئا في المرة الأولى لعدم ثقتي في قدرتها على إحضار أي شيء معها.

اعتراني فضول شديد فيما يتعلق باسمها، وقد سألت أحد الحراس ذوي الأصول اللاتينية عما إذا كان اسمها لاتينيا، بمعزل عن كونه جنوب آسيوي، كما كنت أعرف، فلم تكن لديه أي فكرة عن ذلك، وتطلع الحراس الأمريكيون، كالمعتاد، لمعرفة ما إذا كانت «مثيرة».

رأيتها نحيلة، حين دخلت الغرفة، ينسدل شعرها الأسود الطويل الداكن على كتفيها، أنيقة للغاية، صغيرة القد، فقد كنت مقيدا إلى الأرض، بالطبع، كما في أي استجواب، أو مقابلة أخرى، وتمثل الفرق الوحيد في أنها تركت وحدها في الغرفة معي، إذ كانت هناك طاولة بيننا، وتمثل ما فاجأني كثيراً في عدم وجود أي من الحراس ـ على النقيض مما أخبرت به ـ الذين كان بمقدورهم إيقاف اللقاء متى أحسوا أن أسرار الدولة تدخل ضمن النقاش، أو أن أمنها يوضع على

المحك، وكانت كاميرا المراقبة، المسلطة علي في الزنزانة أبدا، موجهة إلى كل منا هذه المرة.

خاطبتني، ترتسم ابتسامة عريضة على وجهها، قائلة: «حسنا يا معظّم، أشعر بسعادة حقيقية للقائك بعد كل هذه المدة، تعلم أن هذه لحظة تاريخية: أنا أول محام مدني يسمح له بالوصول إلى موكله المعتقل، والعكس صحيح بالتأكيد».

كانت محقة في ذلك، ولكنني كنت مهتما للغاية بمعرفة ما إذا كان يمثل شيئا ملموسا على أرض الواقع.

عقبت، قائلا: «سررت بلقائك كذلك، فلم يكد يغمض لي جفن طيلة الليل، منهمكا في التفكير فيما يمكن أن يعنيه ذلك، إذ لدي الكثير من الأسئلة، وبعض المطالب، ولكنني سأسألك البدء أولا. أخبريني بما يجري».

تمثل أول ما قامت به في إعادة التأكيد على هويتها، وأخبرتني أنها التقت والدي، وتناولت معه الغداء في نيويورك، قبل بضعة أيام لا أكثر، فبدا ذلك غريبا للغاية بالنسبة لي، متخيلا وجود والدي في نيويورك، يناقش تلك الأمور القانونية معها. أخبرتني، فيما بعد، عن بعض ما لا يعرفه إلا والدي، وشقيقي الأكبر من أمور، كالاسم الذي كان يطلق علي في صغري، «بوباي»، بالنظر إلى أنني كنت أحب السبانخ، فلم يكن غيرهما يعلم بذلك الاسم، أو يتم ذكره منذ طفولتي، وتحدثت كذلك عن لقائها بغاريث، وكم كانت متأثرة بالتحدث إليها، فكانت تلك التفاصيل مهمة للغاية، وقد اطمأننت حقيقة إلى هويتها.

تمثل الأمر الآخر الذي تحدثنا حوله في خلفيتها، ومن كانت حقيقة، قبل الخوض في التفاصيل القانونية، فقد كانت هندية، نشأت في الولايات المتحدة، فأسهم ذلك في إزالة الكثير من الحواجز بيننا، وسألتها عما يدور من أخبار، في بريطانيا والولايات المتحدة، حول قضيتي على نحو خاص، ومعتقل غوانتانامو عموما، ناهيك عن الأحداث ذات الصلة في أنحاء العالم كافة، فلم تكن تؤيد

الرئيس بوش، كما اتضح من طريقة حديثها، حول حظوظ المرشح الرئاسي جون كيري في الانتخابات المقبلة، على وجه الخصوص، وأخبرتني كذلك عن الكيفية التي دمرت بها حياة الكثيرين من الهنود، من غير المسلمين، مثلها ـ الذين يعيشون في الولايات المتحدة، ويمثل الهندوس والسيخ معظمهم ـ نتيجة الهجمات الانتقامية التي شنها بعض الجهلة من الأمريكيين، في أعقاب الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، لمجرد أنهم «لا يختلفون عن المسلمين في مظهرهم».

خاطبتني، يترقرق الدمع في عينيها، قائلة: «أصلي، أنا الهندوسية الملتزمة، على الدوام من أجلك. المعذرة، ولكن مشاعري قوية حيال هذا الأمر، فلقد أصبح جزءا من حياتي». شعرت بالذنب لما اتسمت به من صدق، فها هي ذي الأمريكية الهندوسية تصلي من أجلي، بالرغم من التناقض الحاد بين معتقدينا، مغفلة الكثير من الحقائق المتعلقة بقضيتي.

خاطبتها، قائلا: «غيتا، يتعين علي إخبارك أن أحد أسباب احتجاز الأمريكيين لي هنا يتمثل في...».

قاطعتني، قائلة: «لا تقل شيئا الآن، فربما كانوا يراقبون حديثنا، فهم لا يحترمون العلاقة بين المحامي وموكله، ولكنني أفعل».

كانت حذرة نوعا ما خلال بضعة الأيام الأولى، حسب اعتقادي، بما لا يخلو من السذاجة، ولم أكن لأخبرها بما لا يعرفه الأمريكيون أو البريطانيون من أسرار خطيرة، أو يعتقلونني بسببه، وتمثل كل ما أردت إخبارها به في زيارتي أحد معسكرات تدريب الكشميريين عام 1993، وإرسالي بضع مئات من الجنيهات إليهم على سبيل الدعم. أردت لغيتا، الهندية الأمريكية، أن تعلم ذلك قبل كل شيء.

لحظت كذلك أنها كانت صغيرة للغاية، سريعة التأثر، إذ كانت قد قالت بنفسها إنها كانت جديدة على اللعبة، فشعرتُ بشيء من الاستياء؛ لأنها جاءت خالية الوفاض، لما تعرضتُ له من تهويل حول صرامة القوانين في المعسكر، وهو ما لم يكن يحدث حتى عند زيارتها المحكومين بالموت، وذلك ما دفعها إلى تبني

مبدأ «الحيطة خير من الأسف» فقد كانت قلقة بشأن ما يجدر بها ارتداؤه، حائرة مما إذا كان يجدر بها وضع غطاء للرأس، وارتداء ملابس غربية، أو آسيوية، وشعرتْ بالقلق كذلك من الطريقة التي يمكن أن ينظر بها إليها من عزل عن العالم ثلاث سنوات تقريبا، على ضوء ما قيل عن البيئة الإسلامية المحافظة التي ينتمي إليها معظم المعتقلين، بالنظر إلى أنها لم تكن امرأة فحسب، بل تحمل الجنسية الأمريكية أيضا، وقد رأت غيتا، علاوة على ما سبق، أن بناء علاقة حسنة مع الجيش الأمريكي كان من الأهمية بمكان، كي لا تظهر بمظهر المجابه له.

تحدثت غيتا بطريقة عملية للغاية، لأفاجأ مع ذلك بما استهلت به حديثها، قائلة:

«حددنا جلسة للنظر في قضيتك، ونحاول السير في ذلك بأقصى ما نستطيع من سرعة...».

عقبت، قائلا: «هل يمكن، مع ذلك، أن أبقى سجينا هنا، أنتظر سنة، واثنتين، وثلاثا، دون حدوث أي تقدم فعلي؟».

أجابتني بوضوح، قائلة: «نعم يا معظّم، هو احتمال وارد للغاية، بالنظر إلى موقف الحكومة حتى الآن». طرحت السؤال ذاته مجدداً، لأشعر، ما إن أجابتني عنه، بأن لا شيء يمكن أن يكون ذا أهمية، فقد لا أحصل على حريتي مهما فعلت، أو كافحت، أو جادلت، أو سعيت للوصول إلى المحكمة، مثل ذلك حقيقة مرة، حطت من معنوياتي كثيراً، بالنظر إلى ما بنيته من آمال في المدة الأخيرة.

كنت قد أمضيت شهرين أستمع إلى الأخبار حول قرار المحكمة العليا، محاولا فهم تعقيدات النظام القضائي الأمريكي، إذ كانت الحكومة تجادل على عدم وجود أي حقوق قانونية للمعتقلين في محاكم الولايات المتحدة، بالرغم من قرار المحكمة العليا الذي نص بوضوح على أن معتقل غوانتانامو يقع تحت سلطة القضاء الأمريكي، ولم تكن الحكومة ملزمة بقرارات المحاكم الأمريكية، بالنظر

إلى أن الرئيس بوش، القائد الأعلى للقوات المسلحة الأمريكية، كان قد استخدم صلاحياته العسكرية والتنفيذية؛ منعا لتدخل السلطة القضائية في عمل السلطة التنفيذية؛ حتى لا تتهم الحكومة، في أي قضية أخرى، بازدراء المحكمة.

تضمنت الوثائق القانونية التي جلبتها غيتا مقولة مقتبسة ـ لفتت بالفعل انتباهي ـ عن القاضي جاكسون، وقد عكست تلك المقولة جدل المجلس القضائي حول عرائض المعتقلين، ولخصت الكيفية التي تلاشت بها آمالي العريضة: «... يمثل ذلك بحق ما يعزز الآمال من وعود كاذبة، ووهم مزعج، كما يوصي به المعدم من إرث سخي».

زارتني غيتا منذ الصباح حتى الظهيرة، على امتداد أربعة أيام، لتتحدث فيما بعد إلى فيروز، زميلي الذي لم أره في الزنزانة المجاورة، وكنت أسألها على الدوام عنه، وعن سير قضيته بالعلاقة مع قضيتي، فأوضحتْ أن قضيتينا أدمجتا في جلسة واحدة، وإن قدمت كلتاهما باسمي، وأحضرتْ في اليوم الآتي الكثير من المستندات القانونية: أوراق الجلسة المتعلقة بالقضية، والشهادات الخطية المقدمة باسمي زينب، وغاريث، إذ كنت بالفعل قد تلقيت رسالة، من ثلاث صفحات، من غاريث ـ كتبت بتاريخ الرابع عشر من آب/ أغسطس ـ لتصلني قبيل زيارة غيتا، وقد قدّمتْ غاريث غيتا في تلك الرسالة، موضحة ما حدث بالتفصيل منذ اختطافي في باكستان، وعلمت الكثير من الأمور التي كنت أجهلها تماما، فلم أكن أدري أن عائلتي كانت قد رفعت قضية في باكستان، وأن زوجي أبرزت عقد الإيجار كدليل لإثبات وجودي في البلاد (رداً على نفي الباكستانيين ذلك)، ناهيك عن أن عائلتي كافحت بشدة لدفع الحكومة البريطانية للتدخل.

تحدثت الرسالة كذلك عن قيام عائلتي بإطلاق حملة من أجلي، تحت زعامة والدي، وأنها كانت قوية، بحيث غطت معظم أرجاء بريطانيا تقريبا، فلم أكن أدرك حتى تلك اللحظة مدى أهمية قضيتي، أو أعلم وجود حملة منظمة بغية إطلاق سراحي.

أخبرتني غاريث في رسالتها كذلك ـ ما أثار دهشتي، وشجعني كثيراً ـ أنها لم تكن الوحيدة التي اعتبرت ما يجري في خليج غوانتانامو ظالما وغير قانوني، بل كان ذلك رأي كبير مستشاري الحكومة البريطانية والقانونيين، والنائب العام، أيضا، وتمثل أفضل ما قالته الرسالة في أن الرئيس بوش كان قد صرح أن المعتقلين البريطانيين يمكن أن يعودوا إلى ديارهم، متى طلبت الحكومة البريطانية ذلك، ورد بلير بدوره، كما كان واضحا، قائلا: إنه يريد استعادتنا، وتحدثت غاريث، قائلة: إنها ستطلب مراجعة قضائية إن استمر ذلك التناقض، عبر استمرار اعتقالنا، مؤكدة على عدم المشاركة في المحاكم العسكرية المقترحة، تحت أي من الظروف، وكنت حائرا بين المحكمة واللجنة، إذ علمت لأشهر أن اللجنة هي التي ستحاكمني، فهل كانوا يقصدون بها المحكمة العسكرية يا ترى؟. كنت أظن أنهما يمثلان الأمر ذاته حتى رأيت وثيقة البنتاغون في شهر تموز/ يوليو، فقد كان الأمر محيرا بالفعل، وقرأت رسالة غاريث مرارا، محاولا استيضاح تلك النقطة.

حمّلتُ غيتا رسالة خطية إلى غاريث، جاهلا ما إذا كانت ستصلها، أو توقيت حدوث ذلك، بالنظر إلى ضرورة عرضها على الرقابة أولا، وأخبرتها عن صعوبة التعبير عن ابتهاجي بتلقي رسالتها، بما تتضمنه من مسائل قانونية، معبرا لها عن اعتزازي بما فعلته من أجلي، شاكرا التزامها بالدفاع عن حقوق الإنسان.

شعرت بحيرة أكبر حين سألتُ غيتا عن المحكمة العسكرية، بعد إطلاعها على وثيقة البنتاغون، سائلا إياها حول ما إذا كان يجدر بي المثول أمامها، فتمثل جوابها في أن المحاكمات العسكرية ستقام بحضوري أو عدمه، وأنها تمثل فرصة للتحدث، والمجادلة، ما قد يؤثر في قراراتها، وكان ذلك يماثل رأي مارتن، مبعوث وزارة الخارجية، وقد جعلني أكثر ميلا للمشاركة فيها، ولم أكن مقتنعا بذلك؛ لأن تلك المحكمة كانت مجهولة لغيتا، المحامية، بما لا يقل عني أبداً.

أخبرتني غيتا كذلك عن مسرحية عن المعتقلين البريطانيين، تصور والدي على خشبة المسرح، وهو يروي قصتي، وأضافت أنها عرضت في لندن، وأنها تعرض الآن في نيويورك بينما كنا نتحدث، فتخيلت كيف كان ذلك يتم في عقر

دار أمريكا، قلقا حول سلامة والدي، وكنت قد قرأت في السابق أن نسبة الاعتداءات على المسلمين في أمريكا قد تجاوزت 400% بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، فبدأت أحس أن الحملة يمكن أن تكون قوية ومؤثرة، وتحدثت مع الحراس حول والدي والمسرحية في نيويورك، وقد فوجئوا أيضا لسماع ذلك. وحمّلتُ غيتا قصائدي، علها تضمن في المسرحية، ما يسمع صوتي للناس، فأخبرتني أنها سترسلها إلى كاتبة المسرحية.

كنت قد رأيت غيتا آخر مرة عند حلول وقت الغداء، يوم الخميس، وكان الغداء عبارة عن الشمندر، وقطعة ذائبة من الجبن، أو «الشمندر والجبن»، كما كان الحراس يدعونه، وكانت تلك الوجبة تقدم كل خميس، ولم أكن أتناولها لضآلة حصتي منها، ناهيك عن مذاقها.

قمت بإغاظة الحراس ذات مرة، قائلا: «هو الذوق الأمريكي الرفيع في الأطعمة، بلا ريب».

عقب أحدهم، قائلا: «بالتأكيد لا يا خمسة ـ خمسة ـ ثمانية، فلا يمكن أن أطعم كلبي هذه القذارة، لو كنت أمتلك واحدا، علمنا أن الوجبات تعد بما يتلاءم مع بيئتكم».

عقبت، قائلا: «لا أزعم أنني ألمّ بكل شيء، ولكنني سافرت إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، دون أن أرى مثيلا لهذا الطبق على الإطلاق، فإنه أمريكي حتى النخاع».

نظرت غيتا إلى الوجبة، ثم إلي، لتعبر عن اشمئزازها، فحرصتُ على أن تراها كي تتصرف حيال الأمر، ولكنني كنت آمل الكثير، كنت قد طالبتها بعدد من الأشياء، لتنال كفايتها في نهاية المطاف، كما تراءى لي، وكان من المستحيل، نتيجة القوانين العسكرية الصارمة، أن نعمل ضمن الأطر الطبعية للعلاقة بين المحامين وموكليهم، فعملتُ على تهدئة الموقف، قبل مغادرتها، عبر قراءة مقطع من قصيدة الهجاء التي كتبتها حول الحياة في معتقل عسكري أمريكي شديد الحراسة، تحت عنوان «مذاق الصدى»:

قواعد المعتقل الصارمة

تتطلب القيام بمغامرة

أو قانونا من الكونغرس

للحصول على بعض مناديل المرحاض الورقية

لا نكهة للطعام غالبا،

بعيدا عما يرضيني،

ولكن لا يوجد ما هو أسوأ

من الشمندر والجبن الذائب.

يشتمل هذا السياج الشائك

على مظهر إضافي آخر:

إمساك عن الحس السليم

وإسهال في الإجراءات

ينتظر أحدهم تأخر الوقت

حتى لا أغدو مستيقظا

ليحضر لي حبة منومة

قبل إيقاظي لتناولها

حضر المحققون لسؤالي، بعيد مغادرة غيتا، عما تناولته زيارتها.

تلقيت، بعد مضي مدة قصيرة، الزيارة التي انتظرتها طويلا من ممثلي الشخصي في المحكمة العسكرية، فاقتادني الحراس خارج الزنزانة، كالمعتاد، قبل أن يقيدوني إلى العقدة المعدنية البارزة من الأرض، وجلست إلى الطاولة، على كرسي بلاستيكي، قبالة الرجل، متسائلا عما إذا كان سيساعدني، ويمثلني حقيقة.

كان عقيدا في سلاح الجو، أصلع الرأس، طويلا للغاية، ربما 195 سم، في الخمسينيات من العمر، كما تراءى لي، يرتدي ثيابا عسكرية: سروالا أزرق، وقميصا أقل زرقة، فقد كان يفترض بالممثلين الشخصيين أن يكونوا عسكريين محايدين، بدءا من رتبة ملازم، وما فوق، دون أن ينخرطوا في السابق في أي أعمال حربية في أفغانستان أو العراق، ناهيك عن مطالبتهم بالتصريح عما إذا كانوا يعرفون أيا ممن أصيبوا، أو قتلوا في أي من الأعمال العدائية التي ارتكبت ضد الولايات المتحدة، وبدا الرجل جاهلا بالتأكيد لمفاصل أساسية في التاريخ الحديث، فهل وظف ذلك الجهل، الذي كنت قد خبرته في السابق، وهل وظف الآن بصورة متعمدة تحقيقا لفائدتي؟.

وجدت الرجل سهل المعشر، ودودا للغاية، يسهل التحدث إليه: «أنا هنا لمساعدتك في تقديم قضيتك... سنفعل ما بوسعنا لإظهار الحقيقة، فهي فرصتك لقول ما لديك، وللآخرين كي يستمعوا».

صدقت ما قاله، بالنظر إلى تفاؤلي، ونيتي الحسنة، فربما ظن الشيء ذاته أيضا، وعلمت بعد مدة قصيرة مدى المهزلة القانونية التي تمثلها المحكمة العسكرية.

أبرز الرجل ورقة تحوي ما يدعى شرحا واقعيا لأسباب اعتقالي، سمح لي بالنظر إليها، رافضا تركها بحوزتي، وقد دونت بعض الملاحظات، فيما بعد، تحت عنوان «شرح خيالي لأسباب الاعتقال». استندت الورقة بمجملها إلى «اعترافاتي» المكتوبة من قبل «الإف بي آي» في شهر شباط/ فبراير 2003، والتي كنت قد وقعتها بعيد وصولي إلى غوانتانامو.

استندت الورقة إلى نقطتين رئيستين تمثلتا في أنني كنت عضوا في القاعدة أو الطالبان، وأنني اشتركت في أعمال معادية للولايات المتحدة.

تضمنت النقطة الأولى ما يأتي: «... تجنيد أفراد للتدرب في معسكرات القاعدة التدريبية الإرهابية، وتزويد تلك المعسكرات بالدعم والمال، والتدرب فيها عام 1993، بما يشمل استخدام البنادق الآلية، وقاذفات «الآر بي جي»، وإعداد الكمائن، وما إلى هنالك، وتقديم الدعم إلى إرهابيي القاعدة، والملاذ الآمن لعوائلهم، بينما كانت القاعدة ترتكب أعمالا إرهابية».

تضمنت النقطة الثانية ما يأتي: «... كان مسلحا ومهيئا للقتال في الخطوط الأمامية ضد الولايات المتحدة وحلفائها، جنبا إلى جنب مع القاعدة والطالبان... انسحب مع مقاتليهما إلى تورا بورا». تحدثت الورقة كذلك عن «عدم ارتداء ملابس عسكرية... وتسلسل القيادة، ودعم القاعدة، بزعامة أسامة بن لادن، مع العلم التام بإعلانها الحرب على الولايات المتحدة، وارتكابها أعمالا إرهابية ضدها».

لم أكن واثقا على الإطلاق مما إذا كان يجدر بي المثول أمام المحاكم العسكرية، بعد الاطلاع على كل ما لفقه جهاز «الإف بي آي» من تهم في تلك الورقة، وأردت القيام بذلك لما شعرت به من حاجة ملحة لتبرئة ساحتي من كل تلك المزاعم.

تحدثنا ساعة تقريبا، قبل التطرق إلى مسألة الشهود، وافترضت أن أيا ممن أدعوهم للشهادة سوف يحضرون إلى المحكمة، بالرغم من عدم فهمي كيفية حدوث ذلك في غوانتانامو، فيمكن أن أستدعي والدي وأصدقائي ليؤكدوا أسباب ذهابي إلى أفغانستان، ناهيك عن أعضاء في القاعدة والطالبان، كي أسألهم عما إذا كانوا يعرفونني، أو رأوني من قبل، وأردت مخاطبة المحكمة، قائلا: «تقولون إنني قاتلت في الصفوف الأمامية، فهل تعتقلون أيا ممن قاتلوا هناك، أمريكيين كانوا أم أفغان، ليؤكدوا ذلك؟». أردت إطلاع المحكمة على شتى الأمور، وقد دونت أسماء شهود في باكستان، وأفغانستان، وبريطانيا، وأسماء جنود ومحققين من أمريكا.

أردت استدعاء أحدهم على وجه الخصوص، فكان ابن الشيخ الليبي، الذي يفترض أنه أبرز أعضاء القاعدة المعتقلين لدى الأمريكيين، ولم يكن إحضاره، يمثل مشكلة لهم، إذ كانوا يزعمون أنه أدار معسكرات للقاعدة في أفغانستان إبان التسعينيات، فأردتهم أن يسألوه عما إذا كان يعرفني، أو ما إذا كنت قد زرت معسكراته، أو دَربت ـ أو دُربت ـ هناك، أو ما إذا كنت قد مولتها، أو جندت مقاتلين لحسابها، كما كانوا يزعمون.

دوَّن ممثلي الشخصي اسمه، مؤكدا على إحضاره إن كان في غوانتانامو.

عقبت، قائلا: «أعتقد جازما أنه بحوزة الأمريكيين، فقد تناقلت وسائل الإعلام كلها أنباء اعتقاله في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 2001، وأذكر كذلك أنهم خاطبوني في باغرام، قائلين: (مارس ابن الشيخ الليبي الألاعيب ذاتها التي قمت بها، وقد أرسلناه إلى القاهرة، فتحدث هناك في غضون ساعتين، وستفعل الأمر ذاته)».

أبرز الممثل الشخصي، في زيارته الثانية، نسخة عن إفادة معتقل، وصورته، فكانت العبارة الآتية مدونة أسفلها: «لم أر، أنا محمد نور، هذا الشخص، معظّم بيغ، أو ألتقيه أبدا».

عقبت، قائلا: «هذا غريب حقا، فلم أره إلا مرة واحدة في إحدى الصور، ولكن هذا الشخص ليس بابن الشيخ الليبي، أفترض من اسمه أنه باكستاني، أو أفغاني».

أخبرني الممثل الشخصي أن محمد نور كان يرفض التحدث، أو إعطاء أي إفادة، فبدا الرجل فخورا بأنه استطاع انتزاع تلك الإفادة منه، وإطلاعي عليها، فخاطبته، قائلا: «ليس هو من قصدته».

عقب، قائلا: «هذا جيد بالنسبة لك، أليس كذلك؟».

أجبته قائلا: «لا أدري. ربما كان كذلك، ولكنني لم أطلب إفادة هذا الشخص، فهل يعرف بابن الشيخ؟».

أجابني، قائلا: «لا أعلم، ولكنه من نصحوني بمقابلته». فكرت، قائلا لنفسي: «ها هو ذا ضمير الجماعة المبهم ثانية». وتملكني ما هو غريب من المشاعر، وقد عجزت عن تبيان ما إذا كان ذلك ناجما عن خطأ ما، أو أنهم أرادوا إخفاء حقيقة معرفتهم بمكان الليبي.

طالبت كذلك باستدعاء لائحة من الأشخاص الموجودين في بريطانيا، وباكستان، للإدلاء بشهاداتهم: حول ما كنت أقوم به بالتحديد في أفغانستان، وما إذا كانوا يعلمون بارتباطي بالقاعدة، أو الطالبان، وما إذا كنت قد قاتلت في الخطوط الأمامية، أو انخرطت في أي من الأعمال العدائية، وكنت واثقا من أنهم سيدلون بما هو واضح من الشهادات لصالحي.

حضر ممثلي الشخصي مرتين أو ثلاثا أخر، وقد كان يحاول ـ كما فهمت ـ الحصول على ما أمكنه من إفادات، والاتصال بذوي العلاقة من الأشخاص، فخاطبني، قائلا: «تمكنا من الوصول إلى الأسماء التي قدمتها لنا».

شعرت براحة كبيرة بالطبع، حين أخبرني بذلك، لأتبين لاحقا أنه لم يكن سوى هراء، وتساءلت عما إذا كان الرجل يكذب علي، أو أنهم غرروا به، فلم يصلوا، في الواقع، إلى أي من الأسماء، إذ تمثل أكثر الأشياء سخفا في قوله: إنه كان عاجزا عن تحديد مكان والدي، الذي كنت أعلم علم اليقين أنه كان موجودا في منزله في بيرمنغهام، ناهيك عن اتصاله الدائم بالحكومة البريطانية، فقد كان والدي أسهل من يمكنهم الوصول إليه من بين جميع من ضمنتهم لائحتي، ليتمكنوا، مع ذلك، بطريقة أو بأخرى، من العثور على أشخاص يقطنون في مناطق غير معروفة في شمال غرب باكستان، في مخيم للاجئين، بلا عناوين واضحة، ولم يكن ذلك منطقيا على الإطلاق، فكيف يمكنهم أن يعجزوا عن الوصول إلى والدي؟.

شعرت بالكثير من القلق جراء ذلك، وأمعنت التفكير ـ وحيداً في زنزانتي، بعد مغادرته ـ بكل ما يتعلق بالمحكمة العسكرية، لأبدأ، فيما بعد، كتابة وثيقة طعن مفصلة في شرعية تلك المحكمة، واحتلت تلك الوثيقة أربع عشرة صفحة، وقد رأت النور بعد مضي شهرين، في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر.

حضر مارتن لزيارتي في منتصف شهر أيلول/ سبتمبر، بعد مضي أسبوعين على زيارة غيتا، وتمثل أحد المرفقات التي تلقيتها مع رسالة غاريث في نسخة عن رسالة وزارة الخارجية إلى عائلتي، التي كانت تفصل ما تناولته زيارة مارتن في شهر تموز/ يوليو، وقد تفاجأ الرجل كثيرا، حين رأى تلك النسخة، وما أشرت إليه من أخطاء فيها على نحو خاص، بالرغم من أنها كانت صحيحة عموما، وتطرقنا إلى موضوع المحكمة العسكرية مجددا، متسلحا هذه المرة بما هو مؤثر من معلومات، إذ سألت مارتن عن وجهة نظر الحكومة البريطانية حول تلك المسألة، ليجيبني، قائلا: «لا رأي لدينا في ذلك، فلم نكن جزءا منه بالأساس».

عقبت، بعد أن أبرزت رسالة غاريث أمامه، قائلا: «ولكن توجد لدي رسالة من محاميتي البريطانية، تقول فيها: إن اللورد غولد سميث، النائب العام، وكبير مستشاري الحكومة البريطانية القانونيين، كان قد صرح بأن تلك المحاكم العسكرية المقترحة غير مقبولة بالنسبة للحكومة البريطانية، وإنه لا يجدر بي المشاركة فيها، مهما كانت الظروف».

عقب، قائلا: «أتساءل عما إذا كان يساء استخدام كلمة «محكمة» هنا بصورة متعمدة، أو أن محاميتك ربما كانت تشير إلى اللجنة العسكرية؟. أعتقد أن اللورد غولد سميث كان يعني اللجنة العسكرية في قوله، فلم يبد أي ملاحظات حول المحكمة...».

عقبت، قائلا: «ولكن المحكمة هي وسيلة لتطبيق القانون، ما يعني اصطلاحا أنها تصدر الأحكام، كما أذكر من دراستي للقانون، ناهيك عن ضرورة إدارتها من قبل ثلاثة قضاة».

عقب أحد الأمريكيين، قائلا: «لسنا مستشارين قانونيين يا معظّم، كما أخبرناك من قبل، وستنال فرصتك لقول كل ما تود في المحكمة...».

عقبت، قائلا: «تعني المحكمة الصورية الظالمة، إذ تقول الوثيقة: إنه لا يحق لي الاطلاع على القسم السري من «الشرح الواقعي لأسباب الاعتقال» ولن أتمكن، من تفنيد تلك المزاعم، فيكفيكم رمي التهم جزافا، كما تشاؤون، في تلك الحالة،

كيف يمكن للجيش الأمريكي، بحق السماء، أن يسمح للشهود بحضور المحكمة، وهو الذي منعني من رؤية أي إنسان آخر، باستثناء ممثلي الشخصي، طيلة سنتين كاملتين؟، وكيف يمكن للشهود، القادمين من أنحاء مختلفة من العالم، أن يدخلوا هذا المكان، بينما تمنع فيه الزيارات العائلية؟».

عقب الأمريكي، قائلا: «لا نملك إجابات عن كل الأسئلة المتعلقة بحيثيات المحكمة، ولكنني أؤكد لك أنها ستكون عادلة».

عقبت، قائلا: «آه، بالتأكيد ستكون كذلك، وتبدو من الآن مجسدة للعدالة المطلقة».

قررت أن أكتب بيانا إلى القضاة، بالرغم من المشاعر السلبية التي تملكتني حيال المسألة برمتها، وما اعتراني من شك فيما يحمله القائمون عليها من دوافع خفية، فما انفكوا يخاطبونني، قائلين: «سيعرض كل ما تكتبه، أو تود قوله، أمام القضاة، اكتب ما تشاء، واطلب شهودك، وما تحتاج من وثائق».

خاطبني مارتن، قائلا: «ستمضي المحكمة قدما، وإن لم تشارك بها، أو تحضر جلساتها».

كان مارتن لطيفا في العادة، كما لحظت من زياراته المتعددة، وإن لمست فيه شيئا من الدهاء، وحب الفضول أحيانا، فلم يكن سيئا أو حاقدا، بل بالأحرى كان حذرا للغاية، يراقب كل ما يقوله بدقة، إذ كان من الواضح بالنسبة لي أن موقفه لم يكن من السهولة بمكان.

كان قد سألني، قبل أن نبدأ حديثنا، قائلا: «هل تشعر بالارتياح للتحدث إلي، في وجود الأمريكيين؟».

أجبته، مدركا ما سأسببه له من حرج، قائلا: «حسنا، هل تفعل أنت؟».

تطرقنا، بعد الخوض في مسألة المحكمة العسكرية، إلى الحديث عن الكريكيت، والرياضة، وغيرها من الأمور التي لم أكن مهتما بها، فلم يكن مارتن يأتي خالي الوفاض، على أقل تقدير، وأحضر في تلك الزيارة مجلة «ناشيونال جيوغرافيك»،

وعددا من أحجيات الكلمات المتقاطعة، ولوحا من شوكولاتة «تويكس». تمثل أفضل ما كان في جعبته بوفرة من الرسائل، على النقيض من زيارته الكئيبة في شهر أيلول/ سبتمبر من عام 2003، التي لم يسلمني خلالها أي رسالة، فما انفككت أسأل عن تلك الرسائل عدة أشهر لاحقة، دون أن أحظى بأي تفسير.

سلمني مارتن، الرسائل بنفسه هذه المرة، علاوة على البطاقات البريدية، والصور، ورسوم الأطفال، فسعدت للغاية بالحصول عليها، إذ أخبرتني زينب أنها اجتازت فحص القيادة بنجاح، وإن حطمت سيارتها نتيجة حادث مروري فيما بعد، فقد اصطدمت سيارتها بحافلة، أثناء وجود الأطفال برفقتها، وخشيت قراءة السطر الآتي، خوفا من أن يتضمن عبارة «إصابات بالغة»، أو ما هو أسوأ، ولكن كانت، لحمد الله، بسيطة، دون أن يتعرضوا لما يذكر من أذى، فما انفكت الهواجس تنتابني مع ذلك: «ماذا لو أصاب مكروه أيا من أفراد عائلتي؟، لو تعرض أطفالي، أو والدي، أو زوجي ـ لا قدر الله ـ لأي أذى، في أي وقت كان؟، هل سيخفي الأمريكيون ذلك عني؟، هل سيطلقون سراحي بالنتيجة يا ترى؟، لا على الأرجح»، فلم يكن التعاطف مدرجا ضمن أدبيات الحياة العسكرية، ناهيك عن التغاضي عن القوانين، وظننت لأشهر طوال عصيبة أن رسائل شهر أيلول/ سبتمبر كانت قد منعت عني لذلك السبب تحديدا.

كثيراً ما كتبت إلى والدي، سائلا عن شقيقه وشقيقته، اللذين تكفلا برعايتي بعد رحيل أمي، دون أن يذكر عنهما شيئا بالمقابل، فشعرت على الدوام أن شيئا ما لم يكن على ما يرام (علمت ـ بعد مضي عام كامل، يوم عدت إلى المنزل ـ برحيلهما عن والدي المفجوع في أثناء مدة غيابي).

استعدت ثقتي، وأملي في الحياة مجدداً، بعد تلقي كل هذا الكم من الرسائل التي أحضرها مارتن، بكل ما تحويه من كلمات منمقة، ورسوم طفولية جميلة، فشعرت بقدر كبير من القوة، وكنت على أهبة الاستعداد لخوض الجولة القادمة، ومغالبة التحدي الذي كان ينتظرني، إن من الناحية القانونية، أو العاطفية.

خاطبت مارتن، في نهاية المطاف، قائلا: «دعني أخبرك يا مارتن، قبل أن تغادر، أنني لا آمل تمضية شهر رمضان المقبل في الحبس الانفرادي، إذ يمثل ذلك الشهر مناسبة خاصة بالنسبة لنا، مناسبة نمضيها مجتمعين، وهو ما حرمت منه سنتين تقريبا».

أومأ الرجل برأسه، دون أن ينبس ببنت شفة.

تلقيت، بعد مضي بضعة أيام، زيارة من محامية الصليب الأحمر، خبيرة القانون الدولي، السويسرية بريدجيت، فتحدثنا حول المحكمة العسكرية، معبرا لها عن قناعتي بأن قرار المحكمة العليا ـ الذي كان يصب في مصلحتنا كما هو مفترض ـ لم يكن يعني شيئا، بالنظر إلى استخدام الرئيس الأمريكي صلاحياته التنفيذية ضدنا، ولم تكن الإمكانية الفعلية لمثولنا أمام المحكمة واردة على الإطلاق، بالرغم من امتلاكنا الحق في أن يتم الاستماع إلينا*.

تحدثت غيتا، في إحدى المرات، قائلة: إن الحكومة كانت تزدري المحكمة العليا بوضوح، دون وجود آلية لتنفيذ قرار المحكمة العليا، وأزعجتني بريدجيت كثيراً، بعد أن تناقشنا حول الأمر، حين قالت إنها «لا تزال تؤمن بذلك النظام» فلم أكد أصدق ما سمعت، بالنظر إلى أنها كانت محامية سويسرية، وهل كانت على ذلك القدر من السذاجة يا ترى؟، أو أنها كانت تحاول مقارنة غوانتانامو بما شهدته في مناطق أخرى من العالم، كغواتيمالا، أو سيريلانكا؟.

كنت مؤدبا للغاية، حين خاطبتها، قائلا: «ما رأيك بمقارنة غوانتانامو بالعالم الغربي، أو أمريكا ذاتها؟».

---

* قام أفراد عدة مجموعات، بمن فيها محاربو فيتنام وحرب الخليج القدامى، وقضاة، ومسؤولون عسكريون كبار، وشخصيات بارزة في هيئة الصليب الأحمر بالكتابة إلى حكومة الولايات المتحدة، كمستشارين محايدين ـ وإن صب ذلك في صالحنا ـ محذرين إياها من مغبة تجاهل قوانينها الخاصة. (المؤلف).

كنت أتطلع، بشيء من اللهفة، إلى زيارات فنسنت الفصلية، وغيره من أعضاء هيئة الصليب الأحمر، وأحببت متابعة ما كانوا يقومون به حول العالم، ولكنني لم أنظر إليهم إلا كسعاة بريد فخريين، بالنظر إلى أن كل ما يحضرونه كان يتمثل في الرسائل، فقد كنت أعلم أن منظمتهم تمول بقوة من قبل الولايات المتحدة، فلم يكونوا حياديين بالقدر الذي ظننته.

لم تتمكن بريدجيت أو غيتا، بالرغم من امتهانهما المحاماة، من استيعاب الأثر الناتج عن بعض الممارسات غير القانونية بحقي، فقد حضر الحراس إلى زنزانتي، على سبيل المثال، صبيحة أحد الأيام، في أواخر شهر أيلول/ سبتمبر، ليطلبوا مني الاستعداد لمرافقتهم إلى المحكمة، بالنظر إلى أن جلستي قد حانت، بينما كان ممثلي الشخصي قد أخبرني أنه سيعود لرؤيتي بعد يومين، أو نحو ذلك.

خاطبت الحراس، قائلا: «لا يمكن أن يعقل ذلك، لم ننجز أي شيء بعد، ولم أتمكن من إتمام ما أود تقديمه إلى المحكمة، فلا يزال يتعين عليه الحصول على ردود من طلبتهم من الشهود، ولا يعقل ذلك أبدا»، ففكرت مع ذلك، فيما بعد، قائلا لنفسي: «بل يعقل تماما. هذا ما يفترض أن تسير الأمور وفقه، وفي مثل هذا تكون المحاكمة صورية ظالمة».

خاطبتهم، قائلا: «حسنا، سآتي معكم».

كبلوني كالعادة، قبل أن يضعوني في العربة، ويتحركوا بها قليلا، ليكتشفوا أن الجلسة أجلت، ويعيدوني إلى الزنزانة مجددا، وقد شبهت ذلك بالأعمى الذي يقود غيره من العميان (كنت بالفعل أرتدي نظارات قاتمة في حينه). لم يعرف أي من الجنود ما كان يجري، إذ كانوا قد تلقوا مكالمة هاتفية، لا أكثر، من أحدهم: «يجب أن يحضر إلى المحكمة اليوم».

اعتبرت الأمر ناتجا عن خطأ ما، عوضا عن أن يكون متعمدا، كما أفعل عادة، وافترضت أنهم حددوا موعدا أبكر لجلستي، وأنهم أجلوها بعد أن اعترضت أمام الحراس على ذلك.

كنت متوتراً للغاية في تلك المدة، إذ لم يكن من الجيد أن تتلاشى آمال المرء العريضة نتيجة التعقيدات القانونية، فقد كنت لا أزال أتلقى زيارات دورية من الطبيبة النفسية، الدكتورة بي، سائلا إياها على الدوام ـ علاوة على الضابط غريب الأطوار الذي كان يتفقد زنزانتي ـ تمكيني من التواصل مع سجناء آخرين، أو رجل دين مسلم، فلم أر أيا من المسلمين طيلة سنتين، وقد أثر ذلك فيّ كثيراً، وازدادت حدة مواقفي تجاه الجيش الأمريكي بصورة عامة، بالرغم من توافقي مع معظم الجنود على الصعيد الشخصي، فلم يدون أي مما يشير إلى تلك العلاقات الجيدة في السجل.

أصبحت أمثل مشكلة بالنسبة للمؤسسة العسكرية الأمريكية، إذ كنت أكتب رسائل قوية للغاية حول معاملتي، مهددا بمقاضاتهم في المستقبل، وصرخت في بعض الحراس، كذلك، بسبب أشياء تافهة بسيطة، ليدونوا ذلك في سجلهم، فجاء أحد الحراس الجدد، الذين يجهلون هويتي، إلى الزنزانة في إحدى المرات، بعد أن رآني أتناول قطعة من الفاكهة، بالرغم من انتهاء الوقت المخصص لإفطاري، ليطالبني بتسليمه إياها. كان معسكر الصدى يحوي مجموعتين من السجناء في حينه: ستة ـ كنت أحدهم ـ ممن يفترض أن يحاكموا أمام اللجان العسكرية، بعد أن أمضوا وقتا طويلا هناك، وغيرهم ممن أحضروا إلى هنا لأسباب تأديبية، افترض الحارس أنني كنت أتبع المجموعة الثانية، وكانت القواعد المطبقة على أفرادها تختلف كثيراً، وتفوق مثيلاتها تفاهة، وصرامة.

وجد ذلك الحارس، الملقب «بالدبابة»، بالنظر إلى قدومه من وحدة عربات مدرعة شيئا من المتعة في مطالبتي بتسليمه قطعة الفاكهة، واستمتعت كذلك بمطالبته الدخول إلى الزنزانة، وأخذها بنفسه، لأنني لم أكن أنوي تسليمه إياها أبدا، ومضى الحارس في إلحاحه، لأفقد أعصابي فيما بعد، وبدأت أطلق السباب بحقه، ناعتا إياه بالجبان الأحمق.

صرخت فيه، قائلا: «لا بد أنك سحقت دماغك، أيها الجندي، لجلوسك بقوة على ذلك الكرسي».

جلس يدون كل ذلك بعناية في السجل: «نعتني المعتقل بالجبان الأحمق، قائلا: إنني سحقت دماغي نتيجة الجلوس بقوة على مؤخرتي». كان أحد الجنود الآخرين قد تلا ذلك علي من السجل فيما بعد.

استمرت حفلة الصراخ في الجندي، فخاطبته، قائلا: إنني كنت عاجزا عن سماعه، حين قال شيئا ما، لأنني كنت أصرخ بصوت عال، وطالبته بإنزال سرواله؛ كي أتمكن من سماعه جيداً، دون الحارس ذلك أيضا في السجل، وحضر أحد الجنود، في نهاية المطاف، ليخبره أنني لم أكن من المعتقلين في المعسكر لأسباب تأديبية، وأن الأمر اختلط عليه، فغادر الجندي الزنزانة حانقا.

أضحكني الموقف فيما بعد، وإن كنت راغبا في دخوله الزنزانة بشدة، حين كنت أصرخ فيه، فربما كنت لأرميه بقطعة الفاكهة، لا أكثر، ولكنه لم يكن ليخاطر بالاقتراب مني كثيراً، وقد مثلت تلك إحدى لحظات التعبير عما كان يصيبني من إحباط شديد، وكنت قد علقت آمالا عريضة على قرار المحكمة العليا، لتتلاشى جميعا جراء موقف الحكومة الأمريكية.

أخذت أطلع على بعض ما جلبته غيتا من وثائق قانونية، بما فيها تلك المتعلقة بالقضية الرئيسة، «رسول ضد بوش»، التي عرضت على المحكمة العليا.

أطلعت كذلك على القضية المثيرة للغاية، «جونسون ضد ايزنتريغر»، السابقة التي استعملت من قبل حكومة الولايات المتحدة لإنكار حقوقنا، وتدور أحداث تلك القضية ـ إبان الحرب العالمية الثانية ـ حول اعتقال ستة جنود ألمان في الصين، وتسليمهم إلى الولايات المتحدة، التي كانت تملك قاعدة عسكرية في شنغهاي، وقد حرم أولئك الجنود من أي حقوق قانونية، بالنظر إلى أن تلك القاعدة لم تكن موجودة على أرض خاضعة للسيادة الأمريكية، فعمل محامو الحكومة على ربط تلك الحالة بما يحدث في خليج غوانتانامو، مجادلين على أن الولايات المتحدة لم تكن تملك السيادة عليه، باعتباره أرضا مستأجرة من كوبا، وذلك ما يعني عدم تطبيق القوانين الأمريكية علينا، إذ كنا نعتبر أعداء أجانب، ومحاربين للولايات المتحدة.

كانت المجادلات التي تصب في صالحنا مؤثرة للغاية أيضا، كما بدا لي، حين اطلعت عليها، وتمثلت إحداها في افتراض ارتكاب أي من العمال الأجانب الموجودين على أرض الجزيرة، من الفليبين، أو جامايكا على سبيل المثال، جريمة ما، ومثولهم أمام المحكمة، وتمثل الفارق في أننا كنا قد أحضرنا إلى الجزيرة بالقوة، واعتبرنا أعداء للولايات المتحدة. جادل محامونا كذلك على أن الولايات المتحدة، وقد امتلكت السلطة الكاملة على الجزيرة، طيلة المئة سنة الماضية، بالرغم من أنها لم تكن واقعة ضمن سيادتها، ويعتبر خليج غوانتانامو، فعليا، بمثابة بلدة أمريكية كبيرة، بكل ما تتضمنه من مظاهر الحياة المختلفة، وجادل أحد المحامين على أن أفاعي الأغوانا كانت تصنف ضمن الأنواع المحمية بالقوانين، التي تحدد ما هو مباح ومحظور فيما يتعلق بالتعامل معها على أرض الجزيرة، لنحرم نحن البشر من تلك القوانين، وأعجبت بتلك الحجة كثيراً.

ازداد شعوري بالإحباط، مع اقتراب حلول شهر رمضان المبارك، ناهيك عما تملكني من حيرة وقلق بعد الاطلاع على كل تلك المجادلات القانونية، بين أخذ ورد، فطالبت كل من رأيت بوضعي مع معتقلين آخرين، إذ كان رمضان القادم سيصبح رمضان الثالث الذي يمر عليّ في الأسر، وقد عجزت عن التفكير في ذلك، فلم أكن أتخيل على الإطلاق، حين مر الأول علي، أن أمضي اثنين آخرين، بعيدا عن عائلتي.

عزا الكثير من الناس، بمن فيهم مارتن، مبعوث وزارة الخارجية، ومحامي دايفيد هيكس، ومحامي سليم حمدان، الفضل إلى أنفسهم فيما حدث لاحقا.

حضر الحراس إلى زنزانتي، عشية حلول شهر رمضان المبارك، في الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2004، طالبين مني حزم أغراضي، استعدادا للمغادرة.

-12-
إيقاع الأسلاك الشائكة

حضر الحراس إلى زنزانتي في العاشرة مساء، بينما كنت أحزم أغراضي منذ سألني أحد الحراس القيام بذلك في الهزيع الأول من الليل، ووضعت كل ما كان بحوزتي من أغراض ـ وثائق غيتا القانونية في معظمها ـ في صندوق، بعد أن سجلها الحراس جميعا، ولم أكن أشعر أن الأمر يقتصر على مجرد تبديل زنزانة، فما عساه يكون يا ترى؟. لم أرد تعليق مزيد من الآمال على ذلك، إذ ساد الهرج والمرج حول الزنزانة، وقد تمكنت من سماع أصوات من انتهت نوبات حراستهم، وهم لا يزالون في الجوار، على غير المعتاد.

دخل الحراس الزنزانة، قبل أن يقيدوني، ويلبسوني النظارات القاتمة، تمهيداً لاقتيادي إلى العربة التي لم تتحرك مسافة كبيرة، ولكنني أحسست، خلال بضع الدقائق تلك، أنني لم أكن الوحيد برفقة الحراس، فقد كان هنالك معتقل ثان في العربة، يجلس في الجانب الآخر.

اقتادني الحراس، يحيطون بي من الجانبين، خارج العربة، فما انفكت الأغلال تصطك بكاحليّ أثناء الحركة، ومشينا قليلا، قبل أن نتوقف، لأسمع صوت بوابة تفتح، وتكرر الأمر ذاته مجدداً، فقد كنت أعرف أنها بوابات للحراسة، فشعرت أنني أسير في الهواء الطلق، وقد كان ذلك مختلفا للغاية عن المرات التي نقلت فيها إلى المستشفى، أو غرف الاستجواب، إذ أحسست بالهواء يلفح وجهي، حيث كان صوت المراوح قويا للغاية، تملأ المكان صخبا بأزيزها في الاتجاهات كافة، وتمكنت من سماع أصوات بعيدة، دون تمييز اللغة التي كانت تتحدث بها، فعلمت أنه معسكر دلتا لا ريب، المعسكر الرئيس، دون أن تغمرني السعادة جراء ذلك، لمعرفتي بوجود أقسام متعددة فيه، يفوق بعضها الآخر سوءاً.

بلغنا سلما من خمس، أو ست درجات، لنهبطه، وكانت الأغلال تصطك بالأرضية المعدنية أثناء مسيرنا، فنزع الحراس نظارتي القاتمة، فيما بعد، وسدادتي أذنيّ، لأرى الأقفاص، لا شيء سواها، تحيط بي في كل مكان، وتمثل أول ما تبادر إلى ذهني في أوجرة الكلاب، تذكرت في تلك اللحظة حين ذهبت برفقة والدي، وأخي، لاقتناء كلب الحراسة الألماني، شيبا، من أحد المحلات في بيرمنغهام، حين كنت في العاشرة من العمر، فقد كان المشهدان متشابهين تماما، باستثناء أن تلك الأقفاص كانت خضراء اللون.

كاد قلبي يسقط بين أضلعي، وبدا المكان أكثر سوءا من الذي كنت موجودا فيه، فقد اقتادني الحراس عبر سلسلة من الأقفاص التي كانت في المنتصف تماما ليضعوني في أحدها. ونزعوا الأصفاد عني، قبل أن أجلس في الزنزانة حائرا من أمري، إذ لم أتمكن من رؤية أحد هناك، عاجزا عن تصديق ما يحدث لي، أو فهم السبب الكامن وراء إحضاري إلى هنا، وكان القفص يصغر مثيله في معسكر الصدى، بحيث لم أتمكن من السير فيه إلا بما يعادل الخطوتين والنصف، عوضا عن ثلاث هناك، واحتوى القفص على سرير معدني كالذي كان موجودا في معسكر الصدى، وقد وضعت حصيرتي عليه، وأحضر الحراس صندوقي، ليختموا، ويسجلوا كل ما كان فيه، قبل تسليمه إلي فيما بعد.

كان الجو حارا للغاية، وكانت غرفتي في معسكر الصدى تحوي مكيفا للهواء، فتعين علي الآن التأقلم مع حر غوانتانامو القائظ، وجلست في مكاني، لا أكثر، أشعر بدوار في رأسي، ناهيك عما أصابني من اكتئاب شديد، فشعرت برغبة حقيقية في البكاء في تلك اللحظة.

خاطبني أحد الحراس الذين قدموا برفقتي، فيما بعد، قائلا: «لا تقلقن، سنكون برفقتك هنا، فقد تم تكليفنا بالبقاء معكم جميعا» فشعرت بسعادة غامرة لسماع عبارة «معكم جميعا» وأدركت في تلك اللحظة أنني لن أكون الوحيد هنا.

سمعت، بعد مضي مدة قصيرة، صوت سلاسل أخرى تصطك بالأرضية المعدنية، فعلمت أن أحد المعتقلين كان ينقل من إحدى الزنازين المجاورة، أو إليها، وقد مر أحدهم بجانب زنزانتي، ولكنني لم أستدر لرؤيته، بسبب ما كان يصيبني من دوار، ففتح الحراس أحد الأقفاص، بحلول الوقت الذي أدركت فيه ما كان يجري، ليدخلوا المعتقل في الزنزانة رقم ثلاثة، البعيدة عني.

كنت قد حلمت بجاري في معسكر الصدى، في الليلة السابقة لمغادرتي إياه، متمثلا برجل أسود البشرة، وكان الحلم منطبعا في ذاكرتي، لدرجة شعرت معها، وكأنني رأيت فيروز بالفعل، فتعين علي النظر عبر بضعة أقفاص لرؤيته بوضوح، ولم أتمكن من ذلك بسبب الشباك المحيطة بتلك الأقفاص، فقد استطعت تمييز وجهه بصورة عامة.

حييته، بعد أن أزالوا أصفاده أخيراً، قائلا: «السلام عليكم».

رد فيروز علي السلام، ليسألني بنبرة هادئة للغاية، قائلا: «آه، أهو أنت يا معظّم؟».

أجبته، قائلا: «نعم».

عقب، قائلا: «آه، حسنا، لا تبدو كما تخيلتك. أنت أقصر كثيرا مما ظننت».

عقبت، قائلا: «شكرا لك».

كان ذلك غريبا للغاية، فقد قابلت أخيراً زميلي الذي لم أره مدة سنتين كاملتين، وشعرت كأنني أعرف الكثير عنه، مما كان يقوله الثرثارون من الحراس، لا أكثر، إذ كانوا قد وصفوه بشكل جيد عموما.

فتح باب الزنزانة الواقعة أمام زنزانتي، إلى اليمين منها، بعد مضي بضع دقائق، لأسمع صوت ارتطام السلاسل بالأرضية، فبادلت المعتقل الجديد التحية، دون أن نتحدث معا، وتبين لي فيما بعد أنه كان عثمان الحربي، الذي أعلن انتماءه إلى القاعدة صراحة.

كان هنالك سياج بلاستيكي أخضر بيني وبين المعتقل الذي عن يميني، فكانوا قد وضعوه داخل الزنزانة ذاتها، كيلا أتمكن من رؤية من كان يجاورني، والعكس بالعكس. وقد كان سليم حمدان، الذي التقيته، وحادثته همسا في المستشفى قبل عدة أشهر، من ينزل في تلك الزنزانة، خلف السياج مباشرة، فأصبح بمقدوري التحدث إليه بحرية أكبر الآن.

كان الأسترالي دايفيد هيكس، الذي لم أتمكن من رؤيته أيضا، فقد تمكنت من سماعه لا أكثر، إذ كان ينزل في زنزانة تتقدم تلك التي يقبع فيها سليم حمدان ببضع زنازين، وكان السوداني محمد صالح القوصي ينزل في الزنزانة المقابلة لهيكس، فمثَّل جميعنا ستة الأشخاص الذين تمت تسميتهم للمثول أمام اللجان العسكرية، منذ أكثر من عام خلا.

حل الصباح الباكر مع إدخال آخرنا الزنزانة المخصصة له، وإن لم نكن نعرف التوقيت على وجه الدقة، ولا أعتقد أن أيا منا نال قسطا وافراً من النوم. إذ، استلقيت في زنزانتي أتأمل النجوم، عبر الشباك المحيطة بها، شاعراً بالنسيم العليل يلفح وجهي، كما لم أفعل منذ مدة طويلة، باستثناء الأوقات البسيطة التي كانوا يخرجونني فيها إلى ساحة التمرين، وتمكنت من رؤية أبراج مراقبة منارة بمن فيها من حراس، علاوة على الأسلاك الشائكة الحادة على قمم الأسيجة، فتنازعتني الأفكار بشدة، عاجزاً عن تفسير سبب اقتيادنا إلى هنا، لأحزم أمري في نهاية المطاف، قائلا لنفسي: «نقلونا جميعا إلى هنا، قريبا من القيادة المركزية... تمثل اللجان العسكرية العامل المشترك بيننا، وربما كان ذلك يهدف إلى تسريع العملية».

كنا لا نزال جالسين، نتحدث إلى بعضنا، في الصباح الباكر، حين سمعت أذان الفجر الذي جاء أولا عبر مكبرات المعسكر، لأسمعه، فيما بعد، من بعض المعتقلين، وكان ذلك جميلا للغاية، بعد الانقطاع عنه مدة طويلة، وأحسست بسعادة غامرة، بعد تأدية صلاة الفجر جماعة مع المعتقلين في أول أيام شهر

رمضان المبارك، لمشاركتهم تلك اللحظة المميزة، في ذلك اليوم تحديداً، دون أيام السنة كافة، وشعرت، بما يدعو للاستغراب، أن انتقالي من الحبس الانفرادي إلى الحبس الجماعي ـ بالرغم من عدم سماعي الأذان، أو تأدية الصلاة جماعة طيلة سنتين تقريبا ـ يمثل تقدما طبعيا بالنسبة لي، إذ أسهم أداء الصلاة جماعة، خمس مرات يوميا، في تقوية ذلك الشعور بصورة تلقائية.

اتخذ المعتقلون قراراً جماعيا، كما تبين لي بعد الاستماع إلى الأحاديث المتبادلة عبر الزنازين، صياحا برفض الأذان الذي كان الأمريكيون يبثونه عبر مكبرات الصوت، فقد ساد مناخ هائل من عدم الثقة فيما كان الأمريكيون يقومون به، بما يتعلق بالشؤون الدينية على وجه الخصوص، وتولدت القناعة لدى المعتقلين بأن مواقيت الصلاة التي كان الأمريكيون يضعونها لم تكن صحيحة، متعمدين القيام بذلك، أو بدافع من جهلهم، وقد كانت عبارة «الصلاة خير من النوم»، التي يشملها أذان الفجر فحسب تردد في الأذان المسجل الذي يبثه الأمريكيون خمس مرات في اليوم، وكان بعض الجنود يقلدون الأذان بطريقة ساخرة للغاية وذلك ما أثار حفيظتنا جميعا، إذ كنت أسمع أصوات الصراخ من آن لآخر، وتمثل أول انطباعاتي عن المعسكر الرئيس في رؤية ما يقارب ست مئة معتقل في أقفاصهم، يواجهون الجنود الأمريكيين يوميا، فيما يشبه منطقة حرب حقيقية.

اعترى الشك المعتقلين كذلك فيما إذا كان الطعام الذي يقدم لهم حلالا، ناهيك عن صحة اتجاه القبلة.

تمثلت أكثر المظاهر الأخاذة داخل «قسم بابا»، ضمن المعسكر الرئيس دلتا، في القدرة على التواصل مع كل أولئك المعتقلين، وما انفككنا نتجاذب أطراف الحديث منذ الليلة الأولى، ليتناقل ما يرد فيه من شخص لآخر فيما بعد، وقد وجدت نفسي، بعد مضي مدة قصيرة، أقوم بالكثير من الترجمة، إلى العربية لعثمان، ومحمد صالح، وسليم، وإلى الإنجليزية لهيكس، وفيروز.

شعرت بصدمة حقيقية لعدم القدرة على الاختلاء بنفسي، وممارسة أي من الأنشطة الذاتية، عاجزاً عن كتابة الشعر كما كنت أفعل في معسكر الصدى، فلم أتمكن من نظم سوى قصيدتين، لا أكثر، طيلة مدة الشهرين والنصف التي أمضيتها في قسم بابا، ناهيك عن تدني معدل ما كنت أقرؤه من كتب، وأدونه من رسائل، وكانت الحوارات والنقاشات التي ننخرط فيها مذهلة بالفعل، لا من حيث محتواها فحسب، بل من حيث ما جسدته من قدرة حقيقة على التواصل بعد ما يقارب ثلاث السنوات من الانقطاع عنه.

دارت الكثير من حواراتنا، نحن الستة، طيلة الأسبوعين الأولين على أقل تقدير، حول سبب نقلنا الجماعي، وأدليت بدلوي في الأمر، قائلا: إنه جاء نتيجة ما بذلته من جهد لإقناع البريطانيين بمساعدتي للانتقال من الحبس الانفرادي، كيلا أمضي شهر رمضان وحيدا، وذلك ما دفعهم للتوسط لدى الأمريكيين، وخالفني فيروز الرأي، عازيا السبب إلى محاكمتنا من قبل اللجان العسكرية، وتمثل رأي عثمان في أنهم نقلونا عامدين، كي نتحدث إلى بعضنا بعضا، وذلك ما يمكنهم من جمع ما يعجز المحققون عنه من معلومات، وقد عزا سليم السبب لنجاح محاميه العسكريين في إقناع المعنيين بأن استمرار احتجازه في الحبس الانفرادي يمكن أن يؤثر في قدرته على المثول أمام المحكمة، ولم يكن هيكس واثقا من السبب الحقيقي وراء نقلنا، ولم يكن لدى محمد صالح الكثير ليقوله بذلك الصدد.

لم يكن عثمان الأكثر تأثيرا في قسمنا فحسب، بل في خليج غوانتانامو بأسره، وقد كانت زنزانته الأقرب كذلك إلى «قسم روميو»، وذلك ما عزز نظريته حول تسجيل الأمريكيين أحاديثنا، وكان المعتقلون يسجنون هناك عقابا على رفضهم التعاون مع المحققين، أو لأي من الأسباب التأديبية الأخرى.

أخبرني هيكس، في بادئ الأمر، أنه لم يكن يرغب في الانتقال إلى معسكر بابا على الإطلاق، بالنظر إلى شعوره بارتياح أكبر في معسكر الصدى، وكان ذلك يعود، في جزء منه، إلى عدم إلمامه باللغة العربية، الأمر الذي أفقده ما

كنت أحس به من متعة التواصل مع الآخرين، وتمثل السبب الأهم لذلك في إعلانه صراحة أنه لم يعد مسلما ملتزما، وذلك ما حرمه، على النقيض من بقيتنا، مما توفره صلاة الجماعة من راحة، وسكينة للنفس، وكان هيكس، علاوة على ذلك، يتلقى ما يفوق البقية من زيارات قانونية تتم في معسكر الصدى، إذ كان يقتاد إلى هناك عبر عملية شاقة معقدة، يرقبه الجميع، من معتقلين وحراس، وهو يسير مكبلا بين الأقفاص.

أصبح معسكر الصدى، بحلول ذلك الوقت، يستخدم للزيارات القانونية فحسب، وفهمت، حين علمت ذلك السبب الكامن وراء وضع هاتف في الغرفة التي تحوي زنزانتي، في آخر أيامي هناك، واكتشفت، علاوة على ذلك، بعد فترة قصيرة، كم كانت عملية الاقتياد إلى هناك شاقة، ومزعجة، كما ذكرت آنفا.

استلزمت معرفة بعضنا بعضا، على النحو الأمثل، مدة من الزمن، فلم يكن أي منا يتعجل شيئا، واختلف الأمر بالنسبة لي، ولفيروز، بالنظر إلى إسهام حراس معسكر الصدى في تعريفه إلي، وكان لدينا الكثير مما نتحدث حوله، وإن اقتصر في بادئ الأمر على الحراس، وتجاربنا معهم. كثيراً ما كنا نمر بتجارب مختلفة، بما يثير الدهشة، مع الحارس ذاته، وقد كان فيروز يكره أحد من كنت أحبهم من الحراس، وأدركت أن السبب في ذلك يعود في الغالب إلى اختلاف شخصيتينا كثيراً، ففيروز شكاك بطبعه، حذرٌ للغاية في الكشف عن مكنون نفسه، وإن كان منفتحا إلى أبعد الحدود في تعامله معي، إذ كنا ننخرط في حوارات جدية مطولة، ونتجادل في بعضها بحدة أحيانا، وكانت الأيام تمضي عليه، في بعض الأحيان، دون أن ينطق بأكثر من بضع كلمات، وهو ما كان ينطبق علي كذلك، فلم يكن المرء يجد، في كثير من الأوقات، ما يمكن التحدث حوله، واتسمت حواراتنا، على النقيض من ذلك، بالغنى في بعض الأحيان، وقد مثل الإسلام نقطة رئيسة في العديد من تلك الحوارات، بغض النظر عما تبدو عليه موضوعاتها من عدم ارتباط به.

تمحور أحد نقاشاتنا، بمشاركة عثمان، ذات مرة، حول انحدار قوة الإسلام، وعدم استرجاعه مكانته في العالم بعد عصور التنوير والنهضة الأوروبية.

تحدثت في حينه، قائلا: «لم نتمكن من اللحاق بالغرب، في مجال التقنية منذ فصل الكنيسة عن الدولة تحديداً، وكان الباحثون الإسلاميون التقليديون، ولا يزالون ـ إبان أكثر مراحلنا انحداراً ـ ينزعون إلى رفض المواقف الغربية تجاه العلم، بالرغم من احتواء القرآن الكريم، على سبيل المثال، على الآية الآتية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ووصف القرآن بذلك نظرية «الانفجار الكبير» للمرة الأولى، موردا في الوقت ذاته الحقيقة المتمثلة في أن الماء ضروري لوجود الكائنات كافة، وقد سمعت بعض علماء المسلمين يسخفون من هذه النظرية، لمجرد طرحها من قبل غير المسلمين.

عقب فيروز، قائلا: «نعم، سمعت بذلك أيضا، ولكنني أظن أن إحدى أكثر المجادلات المقنعة، التي تصب في مصلحة الإسلام في يومنا هذا، تتمثل بدقة في تقديره العلوم الحديثة، ولا يزال القرآن الكريم، بالرغم من تدوينه قبل 1400 سنة خلت، يرتبط بالواقع، ويجذب الناس في عالم تخلى عن فكرة الدين منذ مدة طويلة، انظر إلى نظرية «الكون المتسع» على سبيل المثال، التي تمثل امتدادا لنظرية «الانفجار الكبير» فلم يقل علماء فيزياء الفلك، كهابل: إن الكون يواصل التوسع نتيجة قوة الانفجار الأصلي، إلا في القرن الماضي، ليسبقهم القرآن الكريم بقرون: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ويوجد ما لا يمكن تفسيره من أمور: سيتوقف التمدد، على سبيل المثال، في مرحلة ما، لتنعكس العملية في نهاية المطاف، متجسدة في ذروتها ـ إن سُحبت قوة الجذب المغناطيسي للكواكب والنجوم باتجاه نقطة متحدة المركز ـ متجسدة في ذروتها بانفجار كبير داخلي، يؤدي إلى نهاية العالم ربما، فقد قال النبي محمد ﷺ: إن العالم لن ينتهي حتى «تطلع الشمس من مغربها»، ولو حدثت تلك العملية المعكوسة بالفعل ـ كمجرد فكرة لا أكثر ـ فيمكن أن تؤدي إلى دوران الأرض في الاتجاه المعاكس، بعد تباطؤ ملحوظ للغاية.

عقبت، ظنا مني أن الصواب جانبه، قائلا: «ولكن ألا يعني ذلك أن تتوقف الأرض عن الدوران بالفعل؟، وحتى عند حدوث ذلك، ألن نسبح جميعا بعيداً عن سطح الأرض، نتيجة فقد الجاذبية بسبب تشتت القوة النابذة؟».

عقب، قائلا: «لا تنتج الجاذبية عن الحركة، يا معظّم، بل تتناسب مع الكتلة. فكلما كبرت الكتلة، كلما ازدادت قوة جذبها».

عقبت، بعد أن شعرت بشيء من الغباء، قائلا: «لطالما ظننت أن قوة جذب الأرض لنا تنتج عن دورانها حول محورها، وأننا يمكن أن نسبح في الهواء نتيجة زوال تأثيرها».

عقب، قائلا: «يمكن أن نسبح في الهواء، إن زال تأثير تلك القوة بصورة مفاجئة، ولكن ذلك يعود إلى قوانين الحركة، لا الجاذبية، فقد كتب أينشتاين بوضوح عن تعريف الجاذبية، واستنادها إلى الكتلة».

عقبت، قائلا: «وردت الآية الآتية، علاوة على ما سبق، في سورة النازعات: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ وكان الأوربيون الغربيون يعتقدون أن الأرض مسطحة حتى القرن السابع عشر، بالرغم من أن الحديث عن كرويتها كان قد أثير منذ مدة طويلة، دون أن يقتصر على القرآن الكريم، إذ قام الجغرافي اليوناني ايراتوستينس بحساب محيط الأرض ضمن خمسين ميلا من حجمها الفعلي، في سنة 200 قبل الميلاد، وقال العالم الأندلسي ابن حزم، علاوة على ذلك، قبل ما يقارب ألف العام: إن كل من يعتقد بتسطح الأرض، فهو مرتد لرفضه الآية القرآنية الصريحة».

دارت أحاديثنا الأخرى حول فهم القرآن الكريم للذرة، والتسليم بوجود ما يمكن أن يصغرها حجما، والتأكيد على أن دوران الإلكترونات حول نوى الذرات يمثل مظهرا آخر من مظاهر خلق الله للكون، كما يحدث تماما عند دوران الأرض حول الشمس، أو طواف الحجاج حول الكعبة.

أخبرني فيروز أنه اعتنق الإسلام بعد البحث في التنوير البوذي، إذ كان قد قرر التوجه إلى اليابان سيرا على الأقدام، وقادته رحلته نحو سويسرا، حيث التقى رجلا حدثه عن الإسلام، الذي كان فيروز يعلم، في الواقع، أنه يمثل جزءا من تراث عائلته، وإن لم يعرف عنه الكثير، فدفعه ذلك إلى العودة إلى إنجلترا، دون أن يخفف من تعطشه إلى المعرفة، وغادر بريطانيا مجددا في العام 2000، ليزيد معرفته بالإسلام عبر العيش في بلد مسلم، فاصطدمت توقعاته، للأسف الشديد ـ كما هو الحال مع العديد من المثاليين الشباب الذين يتحولون، أو يرجعون، إلى الإسلام ـ مع واقع الحياة في العالم الثالث، وقد كان حديث النبي ﷺ: «**لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى**»، حديثا معروفا لمعظم المسلمين، ويجذب المنتمين إلى عوائل أفريقية على نحو الخصوص، كما هو الحال مع فيروز الذي اكتشف أن الجهل لا يعرف دينا، أو عرقا، أو بلداً.

ضاع الكثير من أولئك المثاليين، بمن فيهم فيروز، وأنا، في تفاصيل الحياة اليومية، وواقعها في العالم الثالث: لم كانت القبلية، والقومية، والعرقية تضرب أطنابها في المجتمع المسلم، بينما كانت مقيتة، متنافية مع نمط الحياة الذي كنا نعيشه؟، لم، مع كل التأكيد على الأخلاقيات، والاستقامة، والنزاهة، كان العالم الإسلامي يعج بالفساد؟، لم بدت الحياة هناك تافهة، لا معنى لها في كثير من الأوقات، بالمقارنة مع نظيرتها في الدول الغربية؟، لم يستمر العالم الإسلامي في الانحدار منذ ثلاثة القرون الماضية؟، لم يهاجم على الدوام، ويؤبلس، ويذل بالرغم من سعيه الحثيث لتقليد الغرب؟.

لم تنازعني تلك الأفكار، وفيروز فحسب، بل وعثمان، الذي أخذ يشارك بقوة في حواراتنا.

كان فيروز مكتفيا ذاتيا، قانعا للغاية بالعيش في عالمه الصغير، والتعامل مع الأمور بفلسفية مفرطة، فقد كان محتجزا، قبل الصدى، في معسكر «إكس ـ راي»، الذي كان يعد الأسوأ في غوانتانامو، حيث وقعت بعض من أشد الانتهاكات سوءاً، إذ كان من بين أوائل الذين تم جلبهم إلى غوانتانامو، وقد سمعت منه،

بعضا من تلك القصص المروعة للمرة الأولى، فكدت أمرض بالفعل نتيجة لذلك، وكنت أنظر إلى معاملة معظم المعتقلين، ومشاعرهم تجاه غوانتانامو، على ضوء تجربتي الهادئة نسبيا مع الحراس هناك، وكانت قصة جمعة البحريني مريعة على وجه الخصوص، إذ دخل أفراد «قوة التدخل السريع» زنزانته في إحدى المرات، ليرموه على الأرض، رغم تقيده بالوضعية التي طالبوه باتخاذها، قبل تحطيم وجهه، عبر ضربه بالأرض مرارا، وغطت دماؤه أرجاء المكان كافة، وذُكرت قصص أخرى كيف غمر وجه أحد المعتقلين بدم الحيض خلال أحد الاستجوابات، علاوة على إغواء آخر من قبل محققة، جلست على حجره، بينما حاول إبعادها جاهداً.

قابل فيروز بعضا من أفراد مجموعتنا من قبل، وقد كان عثمان، وهيكس، ومحمد صالح محتجزين برفقته في معسكر «إكس - راي»، فكانوا يعتبرون محاربين بالمقارنة معي، وبدأت، بعد مضي مدة قصيرة، أنخرط مع عثمان في معظم أحاديثي، إذ كان الكثير مما يدور منها مع هيكس يتم في المساء، حيث يكون الجميع تقريبا نياما، فما يمكنه من المشاركة فيها.

اختلف الأمر، خلال الشهر الأول، شهر رمضان، حيث كان معظم المعتقلين يسهرون حتى ساعة متأخرة من الليل، بالنظر إلى ما يميزه من أجواء خاصة، ويتحدثون إلى بعضهم بعضا، وقد صمنا هذا الشهر الفضيل جميعا، خلا هيكس، وكان رمضان هذا العام فريدا بالفعل، ولربما أحد أفضل شهور الصوم التي أمضيتها في حياتي، فلا يمكن نسيان أجوائه الروحية، أو البهجة التي كانت تعم نفوس الجميع خلاله، بالرغم مما كنا نمر به من ظروف استثنائية، ويصعب علي بالفعل نقل تلك الصورة لمن لم يعشها، وتمثلت أكثر أوجه المتعة في أداء الصلاة جماعة، لا سيما صلاة التراويح، المميزة لذلك الشهر الفضيل، إذ كان معظم المعتقلين يؤدونها، مع كل ما كانت تتسم به من طول، فكان الصخب المعتاد الناتج عن أصوات الأحاديث المرتفعة، والصرخات التي تتردد عبر أقسام المعتقل

يتوقف ليحل محله صوت عذب، يرتل الآيات القرآنية الكريمة، وكان الدمع يترقرق في عيني عند سماعه، فمن يدري ما كان يشعر به مئات المعتقلين الآخرين، أو يستذكرونه، أو يتأملونه في تلك اللحظة، كما كنت أفعل؟ وكنت واثقا من أمر واحد، لا ثاني له: كان لكل منهم ما يدفعه من أسباب للبكاء، وقد كان للحزن حلاوته بصورة أو بأخرى.

يمسك المسلمون عن الأكل، والشرب، والعلاقات الجنسية، طيلة شهر رمضان، منذ الفجر حتى الغسق، مع التأكيد على عدم الإساءة إلى الآخرين، أو ارتكاب المعاصي، ويجسد ذلك الشهر ما ينص عليه الإسلام من مساعدة للمحتاج، وإحسان للآخرين، وإكرام لهم، مع ما يتضمنه من طقوس عبادة إضافية، إذ تتغير مواقيت تناول الطعام في شهر رمضان: من ثلاث وجبات في اليوم، كما المعتاد، إلى اثنتين، السحور، قبل حلول الفجر، والإفطار، بعد مغيب الشمس، وقد فهم الأمريكيون ذلك بحلول تلك المدة، ليقدموا لنا بضع تمرات؛ كي نفطر عليها يوميا، وكان دوي الصيحات: «هنيئا مريئا»، و«بالعافية»، يتردد بقوة عبر أقسام المعتقل، وكان المعتقلون يصرخون عبرها، قسم روميو على وجه الخصوص، منادين كل معتقل باسمه في قسم بابا، ولم أجد أنا، أو فيروز من المناسب القيام بذلك، أو حتى رد التحية إليهم بالحماسة ذاتها، وربما عاد ذلك، كما أخبرته، إلى طبيعتنا الإنجليزية الباردة.

خاطبني أحد حراس قسم بابا ذات مرة، بينما كان يسلمني الوجبة المسائية عبر فتحة الباب، قائلا: «كيف يمكن لكم جميعا الامتناع عن الأكل والشرب طيلة هذه المدة؟، تبا!، لا يمكنني القيام بذلك حتى لو دفعتم المال لي، وأحب شطيرة الهمبرغر، وعلبة البيرة، والبطاطا المقلية بالجبن كثيراً».

عقبت، قائلا: «هل تعلم أنك تصوم كل يوم، دون أن تدرك ذلك؟ وتفطر كل يوم في الصباح، لأنك تصوم طيلة الليل».

عقب، قائلا: «لم أفكر بالأمر بهذه الطريقة أبدا».

عقبت، قائلا: «إن نظرت إلى الإنجيل، فسترى أن المسيح وحوارييه كانوا يصومون طيلة الوقت، ولا أعتقد، كما يفعل بعضهم الآن في مدة الصوم المسيحية، أن الإمساك، بكل بساطة، عن تناول الفطر مع البيتزا، طيلة أربعين يوما، يعد صياما».

يتوج شهر رمضان بعيد الفطر، الذي يطالب المسلمون فيه بمنح الفقراء المال أو الطعام قبل صلاة العيد، ولم يسمح لنا بالقيام بأي من ذلك، وإن تركونا نحتفل، عبر الغناء، وتسلية أنفسنا، ثلاثة أيام، وقد سعدنا لانتهاء مدة الصوم هذه المرة، بالرغم من أن الجميع يتوقون، في العادة، لبدء شهر رمضان في الحياة العادية، حيث تعد الوجبات الشهية الفاخرة على مائدة الإفطار يوميا، إذ تحسنت نوعية طعامنا قليلا، دون أن نملك الخيار حول ما يقدم لنا منه عبر فتحة الباب، وخاطبنا الحراس، حين اشتكينا بذلك الخصوص، قائلين: «ليس هذا بفندق (الهوليدي إن)، أو ناد ريفي للترفيه».

كان ذلك اليوم مميزا بكل الأحوال: وزع الأمريكيون علينا حلوى البقلاوة، وبدأ الناس الغناء، وترديد الشعر، بعفوية، وصمت الجميع؛ كي يتمكنوا من الاستماع إلى الأصوات التي كان صداها يتردد في أنحاء المعسكر كافة، ناطقة بالبشتونية أحيانا، أو الفارسية، أو العربية، أو لهجة «الكوكني» اللندنية، أو الجامايكية في أحيان أخرى، وعلمت أن أحد أصحابها كان مارتن موبانغا، الذي لم ألتقه أبدا، وإن سمعت به بصفتي أحد مواطني البريطانيين، وقد حاولت، بين الفينة والأخرى، ترديد بعض الأغنيات العربية، التي كنت أعرف بعضا من كلماتها، ناهيك عن قراءة بعض من أشعاري، التي لم يفهمها أحد باستثناء هيكس، وفيروز، والحراس، وتمثلت إحدى القصائد التي استمتعت بترديدها، بصوت مرتفع، في «اتهام الولايات المتحدة» وهاكم بعض الأبيات في نهايتها:

وعلى هذه الأرض الكوبية المستأجرة

يصلي جميع المختطفين

طلبا للعدالة، والحرية

من مخالب الولايات المتحدة

ليست السوقية من شيمي،

وإن وجب علي أن أقول:

تدفعني هذه المناسبة للشتم،

فتبا للولايات المتحدة!

لا أظن أن الأمريكيين أحبوا الاستماع إليها.

احتوى كل قسم على ثمانية وأربعين سجينا بالحد الأقصى: أربعة وعشرون في كل جانب، وحملت زنزانتي رقم 15 واحتوى قسم روميو على ما يفوق عددنا كثيرا من السجناء، الأمر الذي أدى بهم إلى إمامتنا في الصلاة، وقد تواصلنا كثيرا معهم، بمعزل عن أوقات الصلاة، وشهد المعتقل حركة تنقلات ملحوظة كذلك، مع إحضار بعضهم بضعة أسابيع، أو أيام أحيانا، فسببت تلك التنقلات الإشاعات، وإن لم تخلُ مما هو حقيقي من أخبار، إذ علمنا، بالنتيجة، في شهر كانون الأول/ ديسمبر، لم كان العلم الأمريكي منكسا: التسونامي.

كان أحد المعتقلين يصرخ كل صباح، كما يحدث في أوقات الطعام، ملقيا التحية على كل منا: «السلام عليكم»، مع ذكر أسمائنا فردا فردا، فتأثرت على الدوام بحرصهم على عدم إغفال أي منا؛ كي لا يشعر أنه منسي، أو وحيد، أو أن الناس لا يستذكرونه في صلواتهم، وكانوا يخاطبوننا قائلين: «نعلم أنكم كنتم في معسكر الصدى، ولم يكن يوم يمر دون أن نصلي من أجلكم، لعلمنا بصعوبة ما

مررتم به من أوضاع، بما يفوقنا، ناهيك عن عزلكم عن البقية» وسمعت صدى تلك العبارة يتردد بصوت معتقلين من جنسيات مختلفة، مع كل ما تتسم به لغاتهم من تنوع، ولم أكن قد فكرت حقيقة، حتى تلك اللحظة، في بمدى ما يحويه معتقل غوانتانامو من جنسيات متعددة، كما كان الحال عليه في باغرام.

كان الهدوء يخيم على المكان عند غروب كل يوم، قبل الأذان على نحو خاص، حتى بعد انقضاء شهر رمضان، فلم يكن بالإمكان سماع أي شيء باستثناء بعض السجناء، وهم يرتلون القرآن الكريم بأصوات خافتة، مكتومة، وقد اعتدت مراقبة غروب الشمس ـ الذي كان يصطبغ بلون ذهبي في بعض الأحيان، وأحمر في أحيان أخرى ـ خلف أحد أبراج الحراسة المتعددة، عبر الأسلاك الشائكة، وكان ذلك جميلا للغاية، بما لا يخلو من غرابة، إذ كان النسيم العليل يهب من جهة البحر في العادة، وكان الهدوء المخيم في تلك اللحظة مثيرا للاستغراب، وتمثل الشيء الوحيد الذي أمكنني سماعه في صوت الأسلاك الشائكة، فنظمت قصيدة حوله في أوائل كانون الثاني/ يناير من عام 2005، بعد ما يقارب ثلاثة الأشهر من الاستماع إليه، والتفكير فيه، وكان لصوت احتكاك تلك الأسلاك وقع موسيقي في أذني، وهاكم الشطر الأخير من القصيدة:

عالقون في هذا الشرك الحديدي،

لا نرى الكثير مما يمكننا إكباره،

نتراجع بالتالي نحو الظلام

في خضم إيقاع الأسلاك الشائكة

مثلت الأحاديث، وما يتم تناقله من رسائل، مصدر الضجيج الوحيد المميز للحياة اليومية هناك، بما يتخلله من صياح الحراس، وهم يصدرون الأوامر إلى المعتقلين، وما يوجهه إليهم المعتقلون من شتائم تعلموها حديثا، ودائما ما كانت

تسمع الأحاديث المتبادلة بين معتقل وآخر عبر الصياح بين الأقسام، وقد كانت الرسائل تنقل أحيانا إلى ما لا يمكن أن يبلغه المرء بصوته من أقسام بعيدة. فكنت أسمع أحدهم في بعض الأحيان يقول: «يلقي عليك فلان التحية يا معظّم، من القسم الفلاني» ولم أكن أتعرف إلى الأسماء في بعض الأوقات، هل كنت قد التقيت أصحابها في قندهار، أو باغرام، خلال تلك المدة الطويلة من التنقل بين الزنازين؟ ولم أكن أرد على الإطلاق بأنني لا أعرف اسم الشخص، بل أرسل التحية إليه بدوري، فلم يكن ذلك مهما على أية حال.

مثلت تلك طريقة لتبادل المعلومات، عجز الأمريكيون عن إيقافها، وقد كان التفكير في ذلك مثيرا للبهجة، إذ نصت القواعد، نظريا، على منع التحدث بين المعتقلين في الأقسام المختلفة، فلم يكن يسمح لنا بالصراخ عبر تلك الأقسام، وتمثلت نوافذنا في الزنازين بشباك مفتوحة، ولكنها كانت تحوي مصاريع حديدية أيضاً، اثنين في كل زنزانة، وكان بمقدور الأمريكيين إغلاقها إن أرادوا إسكاتنا.

لم يفعلوا ذلك مع عثمان في العادة، بقدر بقية المعتقلين، فشعرت، أن نظريته ربما كانت تنطوي على قدر من الصحة، إذ أرادوه أن يتحدث بالفعل، بالنظر إلى رفضه الدائم القيام بذلك أمام المحققين، فأعلن الرجل انتماءه إلى القاعدة صراحة أمام اللجنة العسكرية، رافضا خدمات المحامي الموكل له من قبل الجيش الأمريكي، طالبا السماح بتمثيل نفسه أمام المحكمة، أو توكيل محام يمني للدفاع عنه، فعرقل الرجل، عملهم بصورة كبيرة، ولم يخبرني الكثير عن قضيته فيما بعد.

تطلب الأمر بعض الوقت؛ كي أعتاد على تلك الأجواء الجديدة، بكل ما تتضمنه من أحاديث، بعد أن أمضيت مدة طويلة في التعامل مع حراس معسكر الصدى، الذين اشتركت مع بعضهم في الكثير من الأمور الثقافية (تحدث الإنجليزية، وقراءة الكتب ومشاهدة الأفلام والبرامج التلفزيونية)، على النقيض من معظم رفاقي الجدد، محمد صالح، وسليم، وعثمان، ولم أكن أملك الكثير في

تلك المدة كي أقوله لعناصر الشرطة العسكرية، وقد مثل إحضار عناصر إضافية من المارينز، على ضوء التغييرات التي حصلت، أمرا بغيضا بالفعل إذ كانوا مسؤولين عن الكثير من الانتهاكات بحق المعتقلين أثناء نقلهم، وقد كان كل من فيروز وعثمان يذكرانهم بوضوح، فلم يكونا سعيدين بوجودهم أبدا.

اعتدنا جميعا، في أوائل أيامنا معا، التحدث عمن عرفناهم من الحراس، ولم تكن تلك الحوارات بالمعقدة لأي منا، ناهيك عن أنها كانت تدور حول ما نشترك به من أمور، فلم نكن نسأل عن كيفية اعتقال كل منا وتوقيته تغاضينا عن ذلك جميعا، مخافة أن يفسر كمحاولة لجمع المعلومات لصالح الأمريكيين، وكان ذلك ما حدث تماما، كما سمعت لاحقا، لرفيقي القديم في باغرام، سعد إقبال، إذ كان موجودا هنا في معسكر دلتا، محتقراً من قبل كل من كانوا يذكرونه تقريبا، واتهموه بالعمل لصالح الأمريكيين، الذين قاموا، بدورهم، بتجريده من جميع ملابسه، ووضعه في الحبس الانفرادي، لأسباب تأديبية كما كان واضحا، ولم يكن أي منا واثقا، في تلك المدة، مما كانه الآخر حقيقة، وقد تعامل الجميع بحذر مع بعضهم بعضا.

تحدثت مع عثمان عن اليمن، وتفاصيل الحياة اليومية، والتاريخ، موضوعي المفضل، فكان متمكنا من التاريخ كذلك، علاوة على الدين، والسياسة، والأدب، والفيزياء، والأوضاع الراهنة، والإعلام، والإحصاء، وكانت تلك الحوارات تشبه مثيلاتها المطولة، التي كنا نتهامس بها في باغرام، حيث كنا نمضي، نحن السجناء الجدد، الوقت في التحدث عن أوطاننا المختلفة لأبعد الحدود، وحاولت هنا، كذلك، أن ألج عالم عثمان، متخيلا ما يمكن أن تكون اليمن عليه، فكان الاستماع إلى كلماته ممتعا للغاية، ويمثل مهربا حقيقيا بالنسبة لي.

فعلت الشيء ذاته مع محمد صالح، سائلا إياه عن كل التفاصيل حول السودان، مركزا على التدخل البريطاني مع الحركة المهدية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وغوردون وكيتشنر الخرطوم، كما يراه السودانيون.

سألت هيكس عن أستراليا، وقد أحب هيكس التحدث حول الأيام التي أمضاها في سلخ جلود الكنغر، والمشاركة في سباقات الروديو، وغير ذلك مما كان يقوم به من أمور مثيرة والحقيقة أنهم أتوا جميعا من خلفيات مختلفة، وقد كنت راغبا في التزود بما أمكنني من معلومات منهم.

كان عثمان متزوجا، وأبا لأربعة أطفال، وأخبرني أنه كان يعمل في حقل نفطي في العراق، إبان، أو قبيل، حرب الخليج، وكان قد درس في جامعة في بغداد، وأضاف أنه لم يكن مسلما ملتزما على الدوام، بالنظر إلى إقامته، ودراسته في بوخارست، وأنه رجع إلى جادة الدين نتيجة عدد من الأحداث السياسية.

كنت أماثله في ذلك، بالنظر إلى التغير الكبير الذي طرأ علي بعد رؤية ما حدث في البوسنة، وحرب الخليج، وأفغانستان، ولم يكن عثمان، على النقيض من فيروز، باحثا عن التنوير الروحي، أو راجعا إلى جادة الدين بصورة مفاجئة، وقد أكبرت في عثمان معرفته إلى أبعد الحدود، إذ كنت قد التقيت عددا من اليمنيين في باغرام، دون أن أجد من يماثله على الإطلاق، فكان قارئا نهما للغاية، مطلعا حتى على أشعار تينيسون، وديلن توماس، وغيرهما من الشعراء البريطانيين العظام، ولم يكن يجهل الإنجليزية تماما، ولكن الكثير من تلك الأشعار كانت منقولة إلى العربية، فقرأت بعضا من شعري عليه، ليدرك مضمونه، بالرغم من عجزه عن فهم الكثير مما ورد فيه، وكنت أفسر له شعري بالعربية، وقد أحببت ذلك كثيراً، بالنظر إلى إسهامه في تحسين لغتي العربية، ولغته الإنجليزية.

كنت قد سمعته يسأل المعنيين، ما إن تم نقلنا، عما إذا كان بمقدورهم وضعه في زنزانة بمفرده، عند النهاية المقابلة، بالقرب من الحراس، فأجابني، حين سألته عن سبب ذلك، قائلا: «تتمثل إحدى مشكلاتي في أنني أتحدث كثيراً، وأستمتع بذلك، ويفترض بالإنسان أن يمضي رمضان، أو العشر الأواخر منه، في التأمل والتفكر، ولن يكون بمقدوري القيام بذلك إن وجد أحد بجواري» وكان رمضان قد انقضى بالفعل، حين توصلوا إلى قرار بشأن طلبه، ناهيك عما شعر

به من ألفة تجاه المكان بحلول تلك المدة، وسعادة بالبقاء فيه، وسط بقية الزنازين تقريبا، وكان بمقدور الجميع التحدث إليه، فرفض أن ينقله الحراس، حين هموا بالقيام بذلك، قائلا: إنه لم يعد يرغب في الانتقال، وإنه يود البقاء حيث كان.

لم يكن بالإمكان تجنب ذكر أسامة بن لادن، والقاعدة، ومبررات هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، في أحاديثنا، إذ اكتشفت، بعد مضي وقت قصير، أحد الأسباب المحتملة الكامنة وراء معرفته الواسعة، فقد كان الأمريكيون يزعمون أنه مسؤول إعلامي لدى القاعدة، ومتورط في نشر مواد مرئية تعود لها، وكان من الواضح أنه أمضى وقتا طويلا في تتبع الأخبار على شبكة الإنترنت، والتلفاز، والمذياع، محللا تقاريرها، وتراءى لي كذلك أنه يملك كفاءة عالية في استخدام أجهزة الكمبيوتر، التي لا يعرف الكثير من المعتقلين عنها سوى القليل، بما يثير الدهشة.

استرعى العديد من الموضوعات اهتمامنا جميعا، بما في ذلك السياسة الأمريكية، والسجون الإسرائيلية، علاوة على الشخصي منها: ما الذي سنفعله، مثلا، حال إطلاق سراحنا، وتناقشنا، وتجادلنا حول بعض الموضوعات المتعلقة بالإسلام، ويستاء فيروز كثيراً في بعض الأحيان، إذ كنا نتحدث في إحدى المرات، قبل أن نسأل عثمان رأيه، بالنظر إلى أنه كان يفوقنا، نحن الاثنين، معرفة بالقضايا الإسلامية، فقمت بترجمة جوابه إلى فيروز، ليفكر مدة طويلة، قبل أن يقبل به في نهاية المطاف، وكان كل منا على أهبة الاستعداد لإنهاء النقاش بعبارة: «آه، أعتقد أنك كنت محقا في ذلك»، وقد عبر فيروز عن استيائه الشديد، حين تطرقنا إلى الحديث عن أسامة بن لادن، وما شنه من هجمات سببت كثيرا من المعاناة لنا، وكان فيروز مقتنعا بخطأ ما كان الأمريكيون يقومون به، وقد كان يكرههم بقدر ما كنت أفعل، إن لم يكن يفوقني في ذلك، ورأى أن ما تفعله القاعدة يضر بصورة الإسلام كثيراً.

كان موقف عثمان من ابن لادن مختلفا: قال: إنه كان يعرفه شخصيا، وإن الشكوك لا تعتريه على الإطلاق حول صدقه، ونزاهته، ومحبته للمسلمين، وإخلاصه لقضاياهم، وحرصه على رفاههم، وأضاف علاوة على ذلك، أن هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كانت قد حظيت بدعم سري من قبل عدد من الشخصيات البارزة في أنحاء مختلفة من العالم، ناهيك عن الفتاوى التي أصدرها بعض رجال الدين البارزين، في شبه الجزيرة العربية، تأييدا لها، وقد قدم عثمان تبريرات شرعية لتلك الهجمات، فعارضته أنا، وفيروز، بشدة، مؤكدين على تحريم الإسلام استهداف المدنيين، لا سيما النساء والأطفال.

بدأ عثمان محاجته، قائلا: «عمل الأمريكيون على قتل شعبنا منذ مدة طويلة، تذكر عبارة "شواطئ طرابلس» حتى الآن في نشيد البحرية الأمريكية (في إشارة إلى الغارة التي شنتها على ليبيا في القرن التاسع عشر) فأينما فتشت في التاريخ الحديث، فستجد أنهم يتدخلون في شؤوننا، ويحتلون أراضينا، ويعرف العالم بأسره أن قيام الدولة اليهودية في الأراضي المحتلة لم يكن ليتم دون الدعم الأمريكي، ولقد ارتكبوا المجازر بحق المسلمين في ليبيا، والعراق، والصومال، ناهيك عن احتلال شبه الجزيرة العربية، ليشنوا، انطلاقا من هناك، سلسلة من الهجمات المتواصلة، التي كانت تقتل ـ بجانب العقوبات والحظر الاقتصادي ـ أكثر من خمسة آلاف طفل عراقي شهريا، فلم ينظر الشيخ إليهم إلا كأطفالنا، وقد حزن أيما حزن عليهم، كما ينبغي أن نفعل جميعا، فالمسلمون كالجسد الواحد، كما قال النبي محمد ﷺ، «**إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» فلم يذهب الشيخ إلى أمريكا حتى أتت إليه، ولم يكن يرغب في مهاجمتها في عقر دارها، بل رغب في ترتيب أوضاعنا الداخلية، واستبدال الحكام الفاسدين الكفرة، الذين فرضوا أنفسهم على شعوبنا، أو الإطاحة بهم بالقوة، وانظر إلى الجزائر على سبيل المثال، فلا نؤمن بالديموقراطية المزعومة، وإن كانت تمثل أهون الشرين، بالمقارنة مع

الاشتراكية القومية العربية، وقد اختارت الجبهة الإسلامية للإنقاذ المشاركة في العملية الديموقراطية هناك، فما الذي حصل؟. كانوا يتجهون بقوة للفوز بالانتخابات، لتلغي الحكومة نتائجها، بدعم كامل من أمريكا، وتحظر الجبهة، وحدث الأمر ذاته في تركيا مع حزب الرفاه الإسلامي المعتدل للغاية، وهو تم حظره، على مرأى من الغرب، دون أن يحرك ساكنا».

«لا يودون رؤية كتلة إسلامية موحدة، سيكون ذلك أسوأ من الاتحاد السوفييتي السابق بالنسبة لهم، ويسرقون خيرات الشعوب عن بعد، ويمدون الحكام من دماهم بأسباب الدعم، كيلا يضطروا إلى احتلال كل بلد مسلم بغية القيام بذلك، ويتمثل هدفهم الأكبر في إخضاع المسلمين اقتصاديا وعسكريا، بحيث لا يتوانون عن قتل الملايين منا في سبيل ذلك».

عقبت، قائلا: «اسمع يا عثمان، لا تكمن القضية هنا، وأتفق مع معظم ما قلته، ولكن النبي محمداً ﷺ حرم على جيوش المسلمين استهداف النساء، والأطفال، والشيوخ، ورجال الدين، والمدنيين عموما، ناهيك عن التعذيب، أو التمثيل بجثث الأعداء، فلقد منعهم حتى من حرق الشجر، وكان أسرى الحرب يعتقون، أو يفتدون، إن علّموا المسلمين القراءة والكتابة، ولا يساورني الشك على الإطلاق بأننا كنا أول من أرسى قوانين الحرب في التاريخ البشري، فلا جدال بيننا حول الدفاع عن أراضي المسلمين ضد العدوان والاحتلال، قال الله - عز وجل - في ذكره الحكيم: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** فتوجه الآية المسلمين إلى عدم تجاوز قوانين الحرب تلك».

عقب، قائلا: «وماذا عن الآية التي تقول: **﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾**».

عقبت، قائلا: «ولكن لتلك الآية تتمة: **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** فلا يمكن أن يتقيد المرء بذلك عبر قتل النساء والأطفال يا عثمان، ولا أسوة لنا بالمجرمين، من مسلمين، أو غيرهم، فهل تقول: إنه يجب علينا اغتصاب نسائهم،

ردا على ما فعلوه بنسائنا في البوسنة، تقيدا بتلك الآية؟. نستهل كل ما نقوم به بقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد كان الرسول الكريم يدعى «نبي الرحمة للعالمين» مع كل ما خاضه من معارك شرسة نصرة للإسلام، وقال الله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي» فلا أدعي أنني أُلمُّ بكل تفاسير القرآن، ولكن نظرتك في هذا الصدد تتنافى مع روح الإسلام».

عقب، قائلا: «إنها الحرب، ولم تستهدف الهجمات حضانة، أو مدرسة للأطفال الأمريكيين، بل وزارة دفاعهم، البنتاغون، حيث تتخذ القرارات بضرب بلداننا، ومركز التجارة العالمي، المعلم الاقتصادي البارز لديهم، رداً على ما يفعلونه باقتصادنا، ويمثل البيت الأبيض رأس الأفعى، وإن فشل الهجوم ضده، وأضف إلى ذلك أن الأمريكيين يصوتون لقادتهم في الانتخابات، ويعرفون سياساتهم الخارجية، التي تستهدف بلداننا، على الوجه الأمثل، وليسوا بأبرياء جميعا».

عقبت، قائلا: «تعلم، مع ذلك، أن معظم الناس ينتخبون قادتهم استناداً إلى سياساتهم الداخلية، وأن الكثير لا يتفقون مع كل ما تقوم به حكوماتهم، وماذا عن أولئك الذين صوتوا ضد بوش؟ فلا تميز هجمات الشيخ بين من تستهدفهم».

عقب، قائلا: «كما قنابلهم تماما».

أعلم أنني أثرت عاطفة عثمان، فأردف، قائلا: «لا تفرق بين البريء والمذنب، الرجل والمرأة، الطفل والبالغ، حتى الإنسان والحيوان، فقد وجه الشيخ هجماته، على أقل تقدير، وعلم أهدافه، ليضربها تباعا، فهل تعتقد أن أمريكا تهتم كثيرا بالدقة، حين تضرب مدننا، على علو آلاف الأمتار، بما يزن 1500 رطل من الصواريخ؟. حين يفقد الأطفال أعينهم، أو تقطع أوصالهم، أو تحرق أجسادهم، أو تشوه وجوههم، باكين يستنجدون بأمهاتهم، اللائي يملأن الدنيا عويلا على فلذات أكبادهن، قائلات: «ما الجريمة التي ارتكبها طفلي ليعاقبوه بهذا الشكل؟»، وهم المحظوظون بأنهم لم يقتلوا بالأساس، حين يحدث كل ذلك، لا يكلف

الأمريكيون أنفسهم عناء تسميته بأكثر من «ضرر إضافي»، ومعدل خسائر يتوقون في الأصل إلى إيقاعه، ولقد عانوا كذلك من «الضرر الإضافي» الذي لحق بهم في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، إذ كان العملاق منهمكا للغاية، يضرب، يؤدب كل طفل صغير آخر في العالم، ليتعثر بقوة، حين رد له أحد الأطفال الصاع صاعين، وسيسقط في المرة القادمة بإذن الله، وقد كان المسلمون على الدوام في موقع المنفعل والمتأثر بما كانوا يحيكونه لهم من مؤامرات، ويرسمونه من خطط، سواء أتمَّ ذلك بصورة غير مباشرة، كالجهاد في أفغانستان ضد الاتحاد السوفييتي، أم تَمَّ بشكل مباشر عند اجتياحهم العراق أو الصومال، فنحن من يضع قواعد اللعبة الآن، ويجبرهم على اتباعها».

عقبت، قائلا: «وهل تمثلت إحدى تلك القواعد بتدمير أفغانستان أيضا؟. أتفهم، حين تضربون أهدافا عسكرية، وإن لم يكن من المنطقي بالنسبة لي أن توجهوا هجماتكم ضد الولايات المتحدة، بالنظر إلى أن العديد من بقع العالم الإسلامي كانت ترزح بالفعل، عند شن تلك الهجمات، تحت وطأة الاحتلال المباشر في البوسنة، والشيشان، وفلسطين، وكشمير، فقد قوضتم، بضربة واحدة، كل نضالات شعوبها من أجل الحرية، عبر صرف انتباه العالم عنها، وتغيير نظرته ـ وهو الأهم ـ إليها، عملا بما رأى ابن لادن أنه يصب في صالح العالم الإسلامي، وها نحن أولاء الآن ندفع ثمن تلك الهجمات جميعا».

عقب، قائلا: «لستَ عضوا في القاعدة، أو بقية المعتقلين هنا، ولا يجدر بك، أن تخطئ حيال هذا الأمر: يتمثل السبب الوحيد لاحتجازك هنا في أنك تكن بعض المشاعر للمسلمين، وقد أعلنت أمريكا الحرب على الإسلام». أردف الرجل، وهو يشير إلى أقسام المعتقل، قائلا: «يعد الأمريكيون المسؤول الأول عن ذلك».

«قدم الشيخ أبو عبد الله (أسامة بن لادن) تضحيات شخصية هائلة لأجل هذه القضية، ولا يمكن لأحد أن يشكك في صدقه وإخلاصه إبان الجهاد في أفغانستان، حين قاتل الروس بنفسه، تاركا حياة الرفاه التي كانت ملك أيمانه،

مستبدلا إياها بالنوم في الخنادق، وأكل الخبز الجاف، وشرب الشاي، وسكنى الكهوف والجبال، واهبا ماله عن طيب خاطر إلى الفقراء والمجاهدين، فأخبرني عن أي ممن يتسمون بتلك الصفات من القادة الغربيين، أو الشرقيين، فإنه يخشى معظمهم النزول إلى الشارع، مخافة أن يتعرضوا للاغتيال على أيدي شعوبهم».

عقبت، قائلا: «أو أيدي جماعتك».

عقب، قائلا: «ننتمي إلى عامة الشعب».

مثلت أمريكا، وهجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، إحدى نقاط خلافنا الرئيسة مع عثمان، وكان فيروز يعلم، بما يفوقني كثيرا، عن أقرباء ابن لادن، وغيرهم من السعوديين الذين غادروا الولايات المتحدة بعد الأحداث مباشرة، وقد مضى بعيدا ليقول: إنه يؤمن بنظرية المؤامرة فيما يتعلق ببوش وإدارته، وإنهم كانوا على علم بوقوع تلك الهجمات، إن لم يكونوا مشاركين فيها بشكل مباشر، دون أن يحركوا ساكنا بشأنها، إذ كان مقتنعا بأن اسمي بوش وابن لادن كانا مرتبطين بشكل أو بآخر، ولم يوافقه عثمان الرأي بالطبع، قائلا: «لا أفهم كيف يمكنك توجيه اتهام للشيخ بلا دليل، فإني أعرفه شخصيا، ولا يعتريني الشك مطلقا في نزاهته، أو غاياته».

كان بعض الأفغان المحليين، الذين سلموا فيروز في نهاية المطاف إلى الأمريكيين، في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 2001، قد اعتقلوه في أفغانستان، وكنت قد سمعت من الحراس أنه أقر في اعترافاته بأنه كان عضوا في القاعدة، يحارب قوات التحالف، ويتمتع بقدر عال من التدريب، وينتمي إلى قوات النخبة لدى التنظيم، كما زعموا في قندهار، وقد أخبرني فيروز، بالرغم من ذلك، بالقصة المروعة حول كيفية كتابته ذلك الاعتراف تحت تأثير العقاقير التي أعطوه إياها، وأنه لم يشارك على الإطلاق في أي أعمال عدائية ضد الولايات المتحدة، أو قوات التحالف، ولم ألح عليه لمعرفة تفاصيل اعتقاله بحذافيرها، كما لم أفعل مع غيره تماما، ولكنني كنت على قناعة تامة بعدم انتمائه للقاعدة، ولم يكن ذلك الأمر منطقيا على الإطلاق.

لم يكن فيروز يتحدث العربية، بما يمكنه من التحاور مع عثمان، دون إسهامي في الترجمة، التي كانت تضعني في مواقف محرجة أحيانا، ورفضت القيام بذلك أكثر من مرة، حين كان النقاش يحتدم كثيراً، ولم يكن توخي الموضوعية بالسهل علي، عند حدوث ذلك، لا سيما، وأنني أحمل آراء معارضة لأحد الطرفين.

تردت العلاقة بين عثمان وهيكس، بعد مضي مدة قصيرة، فقد كان ذلك يعود في جزء منه إلى سوء التواصل بينهما، إذ كان عثمان عقائديا للغاية في نظرته، بالرغم مما كان يتحلى به من ذكاء، ومعرفة، وحكمة، وقد كان على أهبة الاستعداد لرمي أي ممن تركوا الدين بالردة، بغض النظر عن دوافعهم أو أسبابهم، كما فعل هيكس، وأدى ذلك إلى تردي الأوضاع بينهما كثيراً.

راجت إشاعات بالفعل، في حينه، عن قبول هيكس التعامل مع الأمريكيين. وحرص عثمان على توخي الموضوعية فيما يتعلق بذلك، قائلا: «لا نصدر أيا من أحكامنا، على أي من الأشخاص، بناء على ما يشيعه الحراس حوله، ودعكم من كل ما سمعناه، ويتمثل كل ما يمكنني قوله في أننا أمضينا سبعة، أو ثمانية أسابيع، في هذا المكان، مع داود (دايفيد)، ولم يصلِ معنا، خلال شهر رمضان، أو يصم، أو يحتفل فيما بعد بعيد الفطر، ولم يؤد أيا من الفرائض الإسلامية خلال تلك الفترة».

تمثل جزء من المشكلة في عدم معرفة عثمان بهيكس على الوجه الأمثل، ناهيك عن عدم قدرتهما على التواصل بشكل جيد، لعجز عثمان عن فهم لكنة هيكس الأسترالية، على النقيض من لغتي الإنجليزية.

اعتدت التحدث إلى هيكس أكثر مما كان البقية يفعلون، فقد كان يشعر بعزلة أكبر من تلك التي كان يعيشها في معسكر الصدى، ولم يكن ذلك مفاجئا بالنظر إلى ما كان يحصل عليه من متعة هناك، عبر التحدث مع الحراس حول ما كان يثير اهتمامهم جميعا من مثل الدراجات النارية، والشرب، والفتيات، ولم يعد بمقدوره الآن سوى التحدث مع خمسة أشخاص، إذ كان فيروز هادئا للغاية، ولم

يكن سليم يتحدث كثيراً، وإن أحب المزاح أحيانا، ولم يكن يسهل فهم محمد صالح، السوداني الجنسية، المتحدث بلين على الدوام، وإن كان يفضل الصمت في معظم الأوقات، على النقيض من عثمان، الذكي، الفاعل، صاحب الشخصية القيادية، فهو يتحدث طيلة الوقت إلى المعتقلين في الأقسام الأخرى، وإن لم يكن يشملني في حديثه، وكان الناس يوجهون إليه الأسئلة على الدوام، حول الشريعة الإسلامية، والتاريخ، والسياسة، والهندسة، وصناعة النفط، والحركة الفلكية للكتل الضخمة، وغير ذلك من الأمور المبهمة.

اعتدت أنا، وعثمان، التحدث حول الاختلافات الدينية في الكثير من الأوقات، فقد كنا نناقش العديد من الموضوعات، كالطريقة التي ينظر بها الإسلام إلى أهل الكتاب، بالمقارنة مع المشركين، أو الملحدين: كيف نتعامل معهم، وما هو وضعهم في الإسلام؟، هل يذهبون جميعا، من وجهة النظر الإسلامية، إلى الجنة أو إلى النار؟، وما هو الدليل على ذلك؟. كنا نتجادل، لا نتناقش فحسب، حول ذلك في بعض الأحيان، فتميز بذهنية منفتحة، أكثر مما توقعت، في العديد من تلك النقاشات.

جذبه أحد جنود المارينز الجدد بعنف، في إحدى المرات، حين كانت مجموعة منهم تقوم بتكبيله، ناهيك عن شد الأصفاد بقوة إلى جسده، فسأله عثمان إرخاءها قليلا، ليرفض الجندي القيام بذلك، وخاطبه عثمان بإنجليزية ركيكة، وهو ينظر إليه، قائلا: «أين كانت كل إجراءاتكم الأمنية هذه عند وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر؟» فكان يرمقه بنظرة تحد، وقد حاول الحارس مبادلته النظرة ذاتها، ولكنه عجز عن الرد بما هو مناسب من الكلمات، وأردف عثمان، قائلا: «لم تستطع وزارة دفاعكم حماية نفسها من هجوم صغير» ولم أصدق الطريقة التي كان يتحداهم بها، ولم يسبب عثمان، مع ذلك، أيا من المشكلات، فقد كان مطيعا للحراس على وجه العموم وكان واثقا للغاية من نفسه، وأعتقد أن بعض الحراس كانوا يكنون له الاحترام، وإن لم يحبوه أبدا، بالنظر إلى أنه لم يكن يخجل على الإطلاق من قول ما يجول بخاطره.

تمثلت إحدى مواهب عثمان الأخرى في تفسير الأحلام، فكان أفضل من يقومون بذلك في المعتقل بأسره، فلم يكد يمر يوم دون أن يقوم أحد المعتقلين بسؤاله عما راوده من أحلام مبهمة، وقد أثار ذلك اهتمامي في بادئ الأمر، ولكني مللته بشدة فيما بعد، كما حصل مع فيروز تماما، إذ أخبرني في إحدى المرات قائلا: «يحلم بعض الأخوة العرب على الدوام» ولم يراودني سوى اثنين مما يستحق ذكره من أحلام في حياتي (وقد تحدثت عنهما في الكتاب)، بينما كان هنالك من يرون أحلاما مثيرة على الدوام، ولحظت بوضوح كم كان عثمان حذرا في تفسيرها، إذ كان بعضهم يبنون أحكامهم على الآخرين استنادا إلى تلك الأحلام، كالعمالة للأمريكيين مثلا، فقد سمعت عثمان، وهو يخبر الناس بوجوب وضع حد لذلك، بالنظر إلى تفاهته، وكان يفسر أحلاما أخرى على أنها نذر خير أو شؤم، لا أكثر.

خاطبته ذات مرة، حين بدأ ذلك يزعجني بالفعل، قائلا: «هل تعلم ما هي المشكلة يا عثمان؟».

أجابني، قائلا: «ما هي؟».

أجبته، قائلا: «هل تعلم لم يحلم الناس كثيراً؟».

أجابني، قائلا: «لم؟».

أجبته، قائلا: «لأنهم ينامون كثيراً».

عقب، بمنتهى الجدية، قائلا: «لا، لا، لا. ليس الأمر كذلك، ويعود السبب إلى ما يعيشه الناس من أوضاع، ورغبتهم في استحالة أمانيهم حقيقة واقعة، والتعبير عما يجول من أفكار في لا وعيهم».

راودت بعض الأحلام المؤثرة هيكس، وقد رغب في أن يفسرها عثمان له، وأقوم بالترجمة مجدداً، وتمثل أحد هذه الأحلام في رؤية فتاة حسناء للغاية، ترتدي برقعا، أثارت إعجابه كثيراً، ورأى هيكس كذلك، في جزء آخر من الحلم، ما يشبه الصنم، يدور حول نفسه، ويحفر الأرض صعودا، ليبرز منها، قبل أن يتوجه هيكس نحوه، ويتلو الصلوات بالعربية، ليتحطم الصنم بالنتيجة، فرأى عثمان في ذلك بادرة خير، مفسرا إياه بعودة هيكس إلى جادة الدين القويم في نهاية المطاف.

كان الكثيرون يتحدثون إلى عثمان في تلك المدة، بحيث كان هيكس، أو أي من الآخرين، يضطرون إلى الانتظار طيلة اليوم لتبادل بضع كلمات معه، لا أكثر.

كثيراً ما كان سليم يقرأ وثائق حول قضيته، لأقوم بترجمتها إلى الآخرين، وشكلت إحداها أهم ما يمكن الاتكال عليه في تقرير عدم أهلية المحاكم العسكرية، بالنظر إلى رفض المحكمة الفيدرالية الأمريكية لها، وتأكيدها على ضرورة اعتبارنا أسرى حرب، وكان جميعنا يعرف ما تعنيه تلك التسمية: عدم توجيه أي أسئلة إلينا، والتمتع بالحقوق كافة التي تكفلها وضعية أسرى الحرب، بما في ذلك الحق في كتابة الرسائل وتلقيها، ووضعنا في مجمعات مجهزة بما يكفل توفير حياة معقولة، والحفاظ على كرامة المعتقلين، وقد قاموا بنقل حمدان من معسكر بابا، بعد اتخاذ ذلك القرار فيما يتعلق بقضيته، ولم أر الرجل ثانية، وعلمنا، فيما بعد، أنهم سمحوا له بارتداء الملابس التي أرسلت من قبل عائلته. لم يمنح الرجل وضعية أسير حرب إلا على الورق فحسب، ولم يكن، من الناحية العملية، سوى معتقل آخر من غوانتانامو، سمح له بارتداء ملابسه الخاصة لا أكثر.

تدهورت علاقة هيكس وعثمان كثيراً جراء ما حدث ذات يوم، إذ أخرج عثمان ما في جعبته أخيراً، طالباً مني نقله إلى هيكس، وإن لم يكن مريحاً على الإطلاق، فخاطبني، قائلاً: «أخبر هيكس أننا كنا نصلي، ونصوم، ونذكر الله طيلة شهر رمضان المبارك، دون أن يقوم بما يدلل على إيمانه خلال تلك المدة». وأظن أن هيكس لم يفاجأ بذلك.

ازدادت الأمور ترديا بعد أن اعتبره عثمان خارجا عن الدين علانية، ولم أتفق معه حول ذلك على الإطلاق، فقد تمثل رأي عثمان في أن ترك الصلاة، وكل ما يظهر إيمان الفرد، يجعله خارجا عن الملة، ودعم رأيه بالكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وفتاوى كبار أئمة المسلمين المنتمين إلى المذاهب الرئيسة المختلفة، وأطلع عثمان هيكس على ذلك، قبل أن يخبر الجميع، في بقية الأقسام، قائلاً: «أود أن يعلم الجميع أنني حاولت التحدث إلى من لم يعد أخا لنا، داود،

بلا جدوى...». مضى عثمان في تفصيل اتهاماته، قائلا: «لا يصلي، أو يصوم، وقد أكد لي أنه مع الأمريكيين أكثر منا، ويشهد الله على ما أقول، ولن أرد عليه، أو أبادره بالسلام، أو أتحدث إليه».

كان من شأن ذلك أن يؤثر في هيكس، ويؤلمه كثيراً، بلا أدنى شك، بالنظر إلى أن أحدا لن يبادره بالسلام بعد اليوم، أو غير ذلك من عبارات المودة التي يتبادلها المعتقلون.

خاطبت عثمان، قائلا: «انظر، تعلم ما فعلت، فربما كنت تستميله عبر التحاور معه، ولا يهم كم من الوقت يستلزم ذلك، وحتى لو سلمنا جدلا بأنه لن يغير قراره في نهاية المطاف، فإن ذلك يبقى خياره الشخصي، فلقد نفرته تماما الآن».

أدركت أن الأمر لم يكن مقتصراً على المعتقد وحده في نظر عثمان الذي اعتراه الشك بأن هيكس كان ألعوبة في يد الأمريكيين، أو أنه يسرب المعلومات منهم، وإليهم، عامدا القيام بذلك، الأمر الذي أثار قلق عثمان كثيراً.

أخبرت عثمان، في معرض الدفاع عن هيكس، قائلا: إن الأمريكيين عرضوا عليه صفقة بالسجن عشرين سنة مقابل شهادته، ليجعلوها ثماني بدافع من رغبتهم الشديدة في عقدها، ومن ثم اثنتين، يمكن أن يمضيهما في أستراليا، ليرفض هيكس ذلك بالمطلق، مصرا على عدم الشهادة على ما لم يشهده من جرائم بالأصل، وحاولت فيما بعد إصلاح ذات البين أكثر من مرة، عبر مخاطبة هيكس، قائلا: «انظر، اخترت الإسلام بملء إرادتك عند اعتناقه، ولا تتركه الآن لمجرد ما يلم بك من صعاب، فسيعني قيامك بذلك أنك لم تكن قويا بما يكفي لاعتناقه منذ البداية فقد شعر جميعنا بالضعف في مرحلة ما».

حاول فيروز محادثته حول أمور أخرى، لعدم رغبتنا في أن يتجاهله وهو ما بدأ يحدث بالفعل: «سأتحدث إليك يا هيكس على الدوام، بغض النظر عما تختاره، لا فرق لدي فيما يتعلق بذلك، فنحتاج جميعا العون هنا».

اختلفت كل هذه الحوارات المكثفة، والعلاقات المتداخلة، في قسم بابا، اختلفت إلى حد كبير عن الكثير مما كان يحدث في بقية أقسام معسكر دلتا، فقد سمعنا عن العديد من الأمور في قسم روميو، إذ كان بعض المعتقلين هناك قد رفضوا التعامل مع المحققين بشكل قاطع، ناهيك عمن رفضوا إعطاء أسمائهم إلى الأمريكيين الذين استخدموا كل ما في جعبتهم من أساليب لتحطيم معنوياتهم، واشتملت العقوبات على احتجازهم هناك، في زنازين فارغة تماما، إلا من زوج من السراويل القصيرة، وسجادة للصلاة، بلا معجون للأسنان، أو فراش لها، أو مناديل مرحاض ورقية، أو صابون، أو أوراق، أو كتب، ولست واثقا مما إذا كانوا قد سمحوا لجميعهم بحيازة المصحف الشريف، وقد حزنت كثيراً لمعرفة كل تلك الأمور، فأخبرني عثمان ذات مرة عما فعلوه بأحد المعتقلين في ذلك القسم، إذ قاموا بلف العلم الإسرائيلي حول جسده، قبل أن يجبروه على الانحناء أمام إحدى المجندات، ودعينا في إحدى المرات للصلاة من أجل محمد القحطاني*، السعودي الجنسية، الذي كنا قد سمعنا بأنه يتعرض لأسوأ أنواع الانتهاكات، فلم أربط بينه، وبين تلك القصة في حينه.

تحدثت ذات مرة، عبر الأسلاك الشائكة، إلى أحد الودودين من الفلسطينيين كبار السن** (ربما كان في الستينيات من عمره) وقد كان متزوجا، وأبا لعدد من الأطفال، فتحدثنا، بل تبادلنا الصراخ بالأحرى، عبر الأقفاص، وأخبرته أن زوجي كانت فلسطينية أيضا، فكان رده «فلسطينيا» للغاية: «آه، أنت واحد منا، أنت فرد من عائلتنا!، يجب أن تأتي لزيارتنا، نعيش في الأردن الآن، ولكن سيكون بمقدورك زيارتنا في فلسطين، حين نستعيد أراضينا هناك»، أدركت أنه كان الرجل ذاته الذي رأيته في باغرام، قبل عامين من حينه.

---

* قيل: إنه كان المنفذ العشرين لهجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. (المؤلف).

** خالد الأسمر، أطلق سراحه في شهر آب/ أغسطس من عام 2005. (المؤلف).

كان عالمي يعج بمن تواصلت معهم بالطريقة ذاتها: حوارات دافئة محببة مع من لا أرى وجوههم، كالإيراني الذي التقيته في باغرام، فقد انضممت إلى أخوتي في الإيمان أخيراً، فكنت قد اختبرت في ثباتي أثناء وجودي في الحبس الانفرادي، ولكن ذلك لم يكن يقارن بما يتحلون به من صبر، وثبات، وتحمل، نتيجة ما مروا به من تجارب في حياتهم، وكنت أتوق بالفعل لأن أصبح مثلهم.

كان رفاقنا في معسكر روميو المجاور يعاقبون على الدوام، وقد بقي بعضهم هناك مدة طويلة للغاية، وكان راشد الجوفي، القادم من شمال السعودية، أحدهم، فكنت قد رأيته مرة برفقة الفلسطيني المسن في باغرام، حيث كانا يحتجزان في زنزانة ريتشارد بيلمر ذاتها، بجانب الزنزانة التي كنت معتقلا فيها بادئ الأمر، ولم أكن أذكر مظهر راشد بوضوح، وقد حاولت استحضاره بينما كنا نتحدث، فبدأ الرجل التحدث حول تلك المدة، قبل أن يؤكد لي ما كنت قد أملت بأنه لم يكن سوى حيلة مارسها معذبي، وسألني، قائلا: «هل تذكر حين اقتادوك إلى الاستجواب في الأعلى، في شهر أيار/ مايو؟».

أجبته، قائلا: «نعم».

أردف، قائلا: «سمعنا أصوات صراخ امرأة في حينه».

عقبت، قائلا: «نعم، أعلم ذلك».

أردف، قائلا: «كنا نصلي جميعا من أجلك، لاعتقادنا أنها كانت زوجك».

تأثرت كثيراً لمعرفة أنهم كانوا يحاولون مؤازرتي في تلك المدة العصيبة، إذ كانوا قد علموا جميعا، عبر ما تبادلناه من حوارات هامسة في باغرام، أنني كنت أتحرق للحصول على أي أخبار حول عائلتي، وافترضوا الأسوأ، عند سماع تلك الصرخات، كما فعلت تماما، ولم يدر بخلدي مطلقا أنهم اعتقدوا الأمر ذاته*.

* تمكن أربعة رجال من الفرار من باغرام في شهر تموز/ يوليو من عام 2005، وتحدث أحدهم، في مقابلة مع قناة العربية، عن امرأة معتقلة هناك، تحمل الرقم 650، وذكر أنها احتجزت في باغرام لأكثر من سنتين، وفقدت حواسها بعد استجوابها، والإساءة إليها بشكل متواصل، ناهيك عن عزلها، وأضرب العديد من السجناء عن الطعام احتجاجا على ذلك، وقد تم ترحيلها قبل حادثة الهروب ببضعة أسابيع، كما قال الرجل. (المؤلف).

تمكنت من سماع حادثة وقعت مع راشد، وقد أزعجني ذلك كثيراً، فلم يكن السجناء في قسم روميو يمنحون ملاءات، كالتي كنا نستخدمها للحفاظ على خصوصيتنا عند استعمال المرحاض، إذ كانوا مرغمين على القيام بكل شيء على مرأى من الجميع، بما في ذلك الحراس، وذلك ما عُدَّ مذلا للغاية في نظري.

طلب راشد، ذات مرة، لوحا من الصابون بعد استعماله المرحاض، وكان من المفترض به أن يعيده إلى الحراس مباشرة، ولكنه لم يفعل لرغبته في الاغتسال قليلا، وذلك ما حدا بهم إلى استدعاء «قوة التدخل السريع».

وكنت قد سمعت الكثير عن «قوة التدخل السريع» في السابق، من الحراس الذين كانوا يهددونني بها على الدوام، مازحين، أو عدا ذلك، واعتاد أفرادها، في المراحل الأولى، رش المعتقلين برذاذ الفلفل قبل دخولهم الزنازين، وكانت تلك القوة تتألف من خمسة، أو ستة من الحراس تقريبا، وتحرص على تصوير عملياتها، كما كان واضحا، ولم يكن مدى ما يستخدمونه من قوة بخاف علي، بالنظر إلى أنني ـ كلما كان يتم اقتيادي خارج المعسكر الرئيس، (قسم بابا تحديدا)، مرورا بالأقسام الأخرى ـ كنت أرى بزات مكافحة الشغب مكدسة عند مداخلها، مهيأة للاستعمال، بما فيها من خوذ، وواقيات للصدر، والأرجل، والكواحل، ودروع ضخمة، وكان منظر تلك البزات، بحد ذاته، مخيفا بالفعل، فما بالك برؤية أفراد القوة ينفذون مهامهم، وهم يرتدونها؟ وقد كانوا يهزون الأرضية المعدنية بوقع أقدامهم المتسق، مصدرين ما يعجز المرء عن وصفه من الأصوات قوة.

دخل أفرادها القسم، يزحفون كالجحافل باتجاه زنزانة راشد، فلا ينذر الصوت الرهيب الناتج عن وقع أقدامهم إلا بأوخم العواقب، كما كان يقصد منه تماما، وسمعت فيما بعد صراخ بقية المعتقلين، الذين رأوا ما سيحصل لاحقا، إذ كانت الأيام التي يتم ترويع السجناء فيها قد ولت بحلول تلك المدة، ليتآلفوا مع الحراس نوعا ما، وكنا نعلم ما كانوا عليه، وقد حرص السجناء كافة على عدم جعل مهمة الجدد منهم نزهة مفروشة بالورد.

فتح الحراس باب الزنزانة، يندفعون باتجاه راشد، صارخين فيه، آمريه بالنزول أرضا، وسمعت المحتجزين يصرخون كذلك، يشتم الكثير منهم الحراس بالعربية والبشتونية، ناعتين إياهم بالكلاب والخنازير، وغير ذلك من أقذع الألفاظ، وساد الهرج والمرج، لتضيع صرخاتي في خضم ذلك، إذ كان المعتقلون يصفون لنا، في الوقت ذاته، ما يحدث أولا بأول، ولم ينزل راشد على ركبتيه، ويضع يديه خلف رأسه، كي يرموه على الأرض، كما يفعل أفراد قوة التدخل السريع على الدوام، بل اكتفى بالجلوس في مكانه، فارتطم أنفه بالسرير المعدني حين ألقوه على الأرض، لينزف بشدة فيما بعد، وصرخ زميله في الزنزانة المجاورة، قائلا: إن دماءه غطت أرجاء المكان كافة، فحمله الحراس إلى الخارج، لينقلوه إلى زنزانة انفرادية أخرى.

تمكنت من سماع حوادث أخرى متعلقة بقوة التدخل السريع أيضا، فقد قرر مارتن موبانغا ذات يوم أنه لن يترك ساحة التمرين، حتى ينهي حديثه إلى فيروز في ساحة التمرين الأخرى، وكنت قد سمعت أنه كان لائقا جسديا، قوي البنية، طويل القامة، فكان الحراس يهابونه، وفق ما سمعت من إشاعات حوله، وبدا أنهم جلبوا عشرة حراس هذه المرة، عوضا عن خمسة، وكان مارتن في حينه ينزل في قسم كيبيك، قرب روميو، في الجانب المقابل لنا، فتمكنت من سماع كل ما دار بينه وبين الحراس على أكمل وجه، وقاموا بحمله إلى الخارج، دون أن يدخل في شجار معهم، قائلا: إنه لا يستطيع أن يكلف نفسه عناء العودة إلى زنزانته سيراً على الأقدام، وإنه بحاجة لمن يحمله إلى هناك، وكان ذلك ما فعله الحراس تماما، أضحكني مارتن كثيراً في ذلك اليوم، بالرغم من أنها لم تكن سوى المرة الأولى فحسب، وكنت أشعر، مع كل تواصل عبر الصياح معه، أنه سيضحكني في المستقبل.

كان كل نزلاء زنزانتنا، بحلول تلك المدة، يؤخذون إلى ساحة التمرين يوميا لما يقارب خمسا وأربعين دقيقة، حتى الساعة، فمثل ذلك تحسنا كبيراً لأوضاعنا بالمقارنة مع معسكر الصدى، فقد كانت ساحة التمرين الحالية أكبر بثلاثة

أضعاف تقريبا، وذات أرضية أسمنتية، لا طينية صخرية، فأصبح بمقدوري، علاوة على ذلك، رؤية القمر بوضوح تام، وتنسم الهواء العليل بأفضل مما كنت عليه في السابق، ناهيك عن رؤية جانب أكبر من الحياة البرية التي يشتهر بها خليج غوانتانامو، بما فيها من سحال، وأفاعي الأغوانا، ونسور، وكنت قد طوردت مرة بالفعل من قبل أفعى في ساحة التمرين، وكانت تلك المرة الأولى في حياتي التي تصادفني فيها أي من الأفاعي وجها لوجه.

تمثلت المشكلة، في عدم السماح لنا بالتمرن بصورة جماعية. فوضعت برنامجا تدريبيا مختلفا، وقد نجحت بفضله في اكتساب لياقة عالية، إذ كنت أجري حول الساحة خمس مرات، بسرعة كبيرة، لأؤدي تمرين الضغط ثلاثين مرة، قبل أن أجري خمس مرات أخرى حول الساحة، مؤديا تمرين المعدة بالمقدار ذاته فيما بعد، علاوة على غيره من التمارين، وكنت أعاود الجري في النهاية مدة من الزمن، وعلاوة على ذلك كنت أتمرن يوميا في زنزانتي قبيل مغيب الشمس، ناهيك عما أبديته من حرص على تأدية أحد تمارين التعلق المفيدة، باستخدام الملاءة المشدودة كحبل في الزنزانة، بعد رؤية هيكس يقوم بذلك.

كنا نسمع الأذان كل مساء، في التوقيت ذاته تماما، علاوة على النشيد الوطني الأمريكي، وكثيراً ما كانت المشكلات تثار، عند غروب الشمس، حينما كانا يتزامنان مع بعضهما بعضا، فلم يكن الأمريكيون يودون سماع الأذان يحجب نشيدهم الوطني، كما كنا نكره، بالمقابل، أن يطغى نشيدهم الوطني على صوت الأذان، فقد كان الجميع، حراسا ومعتقلين، يتوقفون عما يقومون به في تلك اللحظة، ولخص هيكس شعورنا إزاء الموقف، بشكل واقعي، قائلا: «أو ليس ذلك مذهلا؟. تتوقف مجموعة من الناس؛ لتعبد ربها، بينما تفعل الأخرى ذلك عبادة للعلم».

⁂

-13-
مهزلة العدالة

تلقيت في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 2004، بعيد انقضاء شهر رمضان المبارك رسالة قانونية أخرى من محام جديد، عرف نفسه على أنه من يتولى المسؤوليات الرئيسة المتعلقة بقضيتي في حينه، ملمحا إلى إمكانية زيارتي خلال بضعة الأيام الآتية، وكان هذا المحامي هو كليف ستافورد سميث، البريطاني الجنسية، وكانت غيتا قد أوضحت في رسالة سابقة أن كليف يملك خبرة واسعة في العمل على قضايا المحكومين بالموت، داخل الولايات المتحدة، لأكثر من عشرين سنة، وقد تمثل الأمر الأكثر أهمية في تأكيده على عدم مثولي أمام المحاكم العسكرية، مضيفا أن غاريث تشاطره الرأي بقوة في ذلك، ولا ترى في تلك المحاكم سوى «مهزلة قانونية» تماما كما كنت أشعر حيالها، مستخدما التعبير ذاته في وصفها أمام مارتن، مبعوث وزارة الخارجية.

تلقيت رسالة من غيتا في اليوم ذاته أيضا، أخبرتني أنها ذهبت إلى بريطانيا، وتحدثت إلى اللورد غولد سميث، علاوة على لقاء غاريث، وزوجي، ووالدي، طفلي الأصغر، فقد كنت متلهفا إلى لقياها ثانية، كي تحدثني عن كل ذلك، وأضافت أن جميعهم اتفقوا، بعد تحدثها إلى غاريث، على ضرورة عدم مثولي أمام المحاكم العسكرية.

كانت المحكمة العسكرية ستعقد، في اليوم الآتي مباشرة، السبت، الموافق للعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، بينما كانت الرسالة التي بحوزتي ـ المتأخرة أسبوعين في الوصول ـ تحثني على عدم المشاركة في تلك المحكمة، وتحذرني من أن الأمريكيين يمكن أن يستخدموا المعلومات التي تجمع من خلالها ضدي، كما فعلوا مع بعض من يحتجزون في بريطانيا، وأوقعني ذلك في حيرة

شديدة من أمري، عاجزا عن فهمه، وقرأت الجملة التي تشير إليه في الرسالة عدة مرات، قبل أن أطلع فيروز وعثمان عليها، وسألتهما، قائلا: «ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك برأيكما؟، إن البريطانيين يستخدمون المعلومات التي يتم الحصول عليها في غوانتانامو، لأجل ماذا؟».

لم أكن أعلم في تلك المدة شيئا عن سجن بلمارش، شديد الحراسة في لندن، ومن يعتقلون فيه من مسلمين، ليطلعني كليف على ذلك بعد مدة قصيرة، فانتابني الكثير من القلق جراء ذلك، ناهيك عما شعرت به من استياء بعد أن اكتشفت أن كل التحضيرات التي قمت بها، فيما يتعلق بالمحكمة العسكرية، ذهبت أدراج الرياح، وأنها لم تكن بالأمر الصائب، فكنت قد قدمت بالفعل وثيقة من أربع عشرة صفحة، كتبتها بعناية فائقة، إلى ممثلي الشخصي.

أوردتُ الفقرة الآتية في تلك الوثيقة، من بين عديد من المحاجات التي تضمنتها، مستعينا بما كان بحوزتي من وثائق قانونية: «يصف قانوني بريطاني بارز آخر، اللورد ستين، المحكمة العسكرية المقترحة «بمهزلة العدالة» التي «تستمد من وثبات الكنغر» (كناية عن صوريتها). كثيرا ما كنت أذكر هذا الوصف للأمريكيين، وقد حرصت على تضمينه وثيقتي، سعيدا بذلك في الحقيقة.

قام ممثلي الشخصي بطباعة نسخة عن تلك الوثيقة، قبل إعادتها إلي، فكنت قد طلبت حضور عدد من الشهود، مهيئاً نفسي من الناحية الذهنية للإجابة عن كل ما يطرح علي من أسئلة، والمجادلة فيما يقدم من أسباب لاعتقالي، وكان فيروز قد مثل أمام المحكمة بالفعل، لأستفسر منه حول إجراءاتها، ومحاضر جلساتها، وكيفية استجابة القائمين عليها إلى محاجته، وأخبرني، بما لا يدعو للدهشة، أنهم لم يتأثروا كثيرا ببعض مما أورده في جلسات المحكمة، كما حدث، حين استشهد بالمقولة الآتية لمالكوم إكس: «لست معاديا لأمريكا، ولم آت هنا لإدانتها، وأود أن أوضح ذلك تماما، فلم آت هنا إلا لقول الحقيقة، وإن كانت الحقيقة تدين أمريكا، فستصبح في موقع المدان لا محالة...».

كان فيروز قد تلقى نسخة عن مرافعة غيتا حول قضيته، ليقرأها بالكامل على مسامعي: «لم يكن هناك، على النقيض من أكبر الهجمات الإرهابية التي عرفها التاريخ، قصف مدينتي هيروشيما وناجازاكي بالقنابل الذرية، أي أدلة مادية، حسية، دامغة على تورط القاعدة بهجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، من عام 2001... ويمكن استنادا إلى المبدأ القانوني المتمثل في «أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، بلا أي شبهة»، أن تعتبر القاعدة بريئة...، كما أردف، قائلا، إن «الطالبان لا يمكن أن تتهم بإيواء الإرهابيين»، وإن «قرار الكونغرس الذي يجيز استخدام القوة الضرورية والمناسبة ضد الطالبان والقاعدة، لا يستند إلى أي أساس...». كانت هذه المجادلة مثيرة للغاية في نظري، ناهيك عن صحتها، ولم تتضح الصورة بإطارها الأشمل، إلا عند الاطلاع على مقاطعات رئيس المحكمة:

«هذا آخر إنذار أوجهه إليك... لا تتعلق هذه المسألة بالقاعدة، بل بما فعلته في أفغانستان».

فيروز: «أعتقد أنها تتعلق بتصنيفي (عدوا محاربا)».

رئيس المحكمة: «ليست كذلك، فأنا موجود هنا لأخبرك أنها ليست كذلك».

فيروز: «ينبغي أن أصنف (عدوا محاربا) وفق القانون الدولي، واتفاقية جنيف...».

رئيس المحكمة: «مرة أخرى، لا يطبق القانون الدولي، واتفاقية جنيف هنا، فقد تم تصنيفك (عدوا محاربا)، وانتهى الأمر...». استمر الأمر على هذه الشاكلة، حتى تم إخراج فيروز من قاعة المحكمة، وأكد ذلك صحة قراري بعدم المثول أمامها.

حضر الحراس لاقتيادي إلى جلسة المحكمة العسكرية، عندما حان موعد مثولي أمامها، لأرفض الذهاب برفقتهم، قائلا: «يمكنكم العودة إليهم، وإخبارهم أنني نصحت من قبل ممثليّ القانونيين بعدم المثول أمام المحكمة، وهو ما سأفعله بالضبط».

كانوا قد حصلوا على وثيقتي بحلول تلك المدة، ولكنني لم أعرف على الإطلاق ما إذا كانت المحكمة قد عقدت، أو أصدرت حكمها بتأكيد تصنيفي «عدوا محاربا» وسمعت، بعد مضي مدة قصيرة، ما كنا نتوقع حدوثه جميعا: لم يبرأ سوى شخص واحد من تلك التهمة، من بين مئات من مثلوا أمام المحاكم العسكرية.

تقدم هيكس، الذي كان يلتقي عدداً من المحامين بشأن قضيته أمام اللجنة العسكرية بشكوى جدية في تلك الأثناء حول الطريقة التي عومل بها عند اقتياده إلى معسكر الصدى للقاء أولئك المحامين، وكان معسكر الصدى في حينه يخضع لقيادة مختلفة بالكامل، فلم يكن أي من عناصر الشرطة العسكرية هناك يعرفوننا، إلا فيما ندر، فقد أخبرني هيكس بفظاعة ما تملكه من مشاعر عند عودته إلى هناك، وبدت أجواء المعسكر كئيبة، موحشة في نظره، وكأنه مسكون بالشر، واستحالت كاميرا المراقبة في الغرفة عينا ترصد حركاته طيلة الوقت، كما خيل إليه، وأحس بأن المكان يضيق به شيئا فشيئا، يكاد يطبق عليه، فلم يكن معسكر الصدى، بكل غرفه المغلقة، وأجوائه الخانقة، يطاق حقيقة بالمقارنة مع معسكر بابا.

لحظ جميعنا أنه غادر لرؤية المحامين في الثامنة صباحا، على وجه التقريب، ليعود في العاشرة، أو الحادية عشرة مساء، مع أن لقاءه بهم لم يستغرق أكثر من ساعة واحدة.

اكتشفت ذلك بنفسي بعد مضي مدة قصيرة، إذ اقتادوني في وقت مبكر للغاية، حوالي السادسة صباحا، للقاء كليف للمرة الأولى، ووضعوني في زنزانتي القديمة الفارغة تماما، فكنت أضطر إلى التلويح لكاميرا المراقبة إن أردت لفت انتباه الحراس، وقد كانت محاولاتي تضيع سدى إن أشاحوا بوجوههم عنها، وبدأت، فيما بعد، قرع باب الزنزانة، والصراخ بصوت عال، ليأتي أحد الحراس الجدد في نهاية المطاف، قائلا: «من تظن نفسك كي تصرخ في الزنزانة؟».

لم يكن ذهولي بخاف، فخاطبته، قائلا: «لا أصدق ذلك، فقد بقيت في هذه الزنزانة مدة طويلة، أنتظر قدوم أحدهم بلا جدوى، فإني أحتاج شرب الماء لا أكثر، حيث أمضيت ساعتين كاملتين أحاول لفت انتباه أي منكم...».

عقب، قائلا: «حسنا، لا يمكنك الصراخ على مسمع من رؤسائنا المارين في الخارج».

صرخت مجدداً في وجهه، قائلا: «لا أكترث لذلك، فكيف يفترض بي طلب الماء من أحدهم؟، ماذا لو حل بي مكروه ما، ولم يكن أي منكم ينظر إلى كاميرا المراقبة، كما يفترض به؟».

أخذنا نحدق ببعضنا مدة من الزمن، قبل أن يخرق ما ران على المكان من صمت، مشوب بالغضب، قائلا: «أنصت إلي، فأنا الجندي هنا، وأنت المعتقل، ويتعين عليك تنفيذ ما أقوله، وأدب نفسك أولا قبل الحصول على ما تريد...».

بلغ الغضب مني منتهاه، لأصرخ فيه، قائلا: «أنت مليء بالقذارة أيها الجندي، ولا أعترف بما تقوله مطلقا، فأنا الرهينة هنا، وأنت الخاطف، فليكن ذلك واضحا بالنسبة لك، ولا تجعل الأمر يبدو وكأنك تسدي إلي معروفا، ولا أتوسل إليك طبق بط بالبرتقال، بل أطلب شرب الماء لا أكثر. أنت حديث العهد هنا، ولكنني أمضيت ما يقارب السنتين في هذا الكابوس، ولا أسبب المشكلات لكم مع ذلك، وإن وددت الاطلاع على سجلي، فلست مضطرا، أن أتعامل مع الفاسدين من أمثالك».

لم يكن معسكر الصدى يطاق بالفعل، كما أسلف هيكس، لتزيد مواقفهم الجديدة تلك الأوضاع ترديا، وكان الأسوأ بلا شك من بين كل الأماكن التي اقتادونا إليها، وقد تساءلت حقيقة عما إذا كانوا يتعمدون القيام بذلك، أو أنه كان ناتجا عن تبلد مشاعرهم؟ ولم يكن أحد ليهتم، بالطبع، في كلتا الحالتين، وهذا هو ما كانت الحال عليه حقيقة، فربما أرادوا ثنينا عن رؤية المحامين، علاوة على ذلك، عبر تركنا ننتظر ساعات طوالا في الزنازين.

لم يكن شيء ليثنيني عن رؤية كليف، ما إن التقيته، إذ دخل الزنزانة، لأرى رجلا طويل القامة، «إنجليزيا» للغاية، يرتدي ما هو عادي من الملابس، كان أشعث الشعر، وكأنه غادر الفراش للتو، مختلفا عن غيتا في كل شيء، وقد مثل انتماؤه إلى بريطانيا فرقا كبيرا بالنسبة لي، وكان عناصر الاستخبارات الداخلية، أو مبعوث وزارة الخارجية، مارتن، من تحدثت إليهم من البريطانيين في السابق، فشعرت بشيء من الألفة تجاههم، وحين التقيت كليف شعرت بأنه كان يهدف لمساعدتي حقيقة.

خاطبني بشكل مباشر، قائلا: «انظر، يتعين عليك، استنادا إلى خبرتي، أن تحرج أولئك السفلة؛ كي يفعلوا شيئا ما، لأنهم لن يهتموا فيما عدا ذلك»، واختلفت طريقته للغاية عن غيتا، فكان لديه المزيد من الوثائق القانونية لأطلع عليها، وقد أخبرني أن الحكومة لا تزال تجادل ضد حقنا في المثول أمام المحاكم المدنية، وهو ما ظننت أن المحكمة العليا قررت بشأنه بالفعل.

خاطبني، بينما كان يشير إلى الأوراق، قائلا: «لا أؤمن كثيراً بهذه التفاهات، ويتمثل ما يتعين علينا القيام به في إحراج أولئك الناس، وهو ما يعني البدء في التحدث عما لا ترغب الخوض فيه ربما، كالانتهاكات التي تعرضت لها، ويتعين علينا البدء في تسجيلها، وعدم تفويت أي منها».

مضينا في مراجعة كل التفاصيل السيئة ـ المؤلمة في بعض الأحيان ـ التي مررت بها خلال ثلاث السنوات الماضية، وهو ما كان ضروريا في نظري (أعد كليف تقريرا حولي، بعد مضي بضعة أيام أخر، في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، مستعينا بما وضعته من ملاحظات، وما رويته له من أحداث، واحتل التقرير ثلاثين صفحة، وقد أضفى كليف لمسته الجريئة المميزة على العنوان الذي اختاره له: «ألف يوم وليلة من التعذيب: التعذيب والإساءة المنهجيان بحق معظّم بيغ، المواطن البريطاني، من قبل الولايات المتحدة الأمريكية»).

بلغ الأمر بالرجل حد مخاطبتي، بما لا يخلو من عفوية، قائلا: «انظر، أعتقد أن الأمر قد حسم، وأصبح مضمونا بالنسبة لك، ستعود إلى الديار، فيتعين علينا التفكير في البقية الآن».

طلب مني التدخل بقوة لمساعدة الآخرين، وهو ما كنت أكثر من مستعد للقيام به: «يتعين علينا الحصول على أسماء الآخرين ممن لا يتوفر لديهم محامون، والبحث فيما إذا كنا نستطيع مساعدتهم فهؤلاء تم التخلي عن معظمهم من قبل حكوماتهم، وستكون حمايتهم من التعذيب، بشكل أو بآخر، أكثر صعوبة».

أخبرني كليف كذلك أنه كان يلتقي ريتشارد بيلمر، أحد البريطانيين الأربعة الباقين رهن الاعتقال، وأنه يخطط لرؤية صديقي القديم شاكر، علاوة على عمر ديغايس، وجمال كيمبا ـ المقيمين في بريطانيا جميعا، ولم يكن كليف يمثل بشر وجميل، بالرغم من اطلاعه التام على قضيتيهما، فشعرت بكثير من الألفة تجاهه، بحيث سألته إحضار بعض الأطعمة السريعة عند عودته في اليوم الآتي.

أذكر أنني فكرت، بمجرد أن علمت تولي كليف قضايا المحكومين بالموت، قائلا لنفسي: «يا إلهي، لا تبدو الأمور جيدة إلى أبعد الحدود» فقد أسرتني شخصية الرجل، ومواقفه كثيراً بعد أن التقيته.

أخبرني عن رؤية بعض من موكليه المحكومين بالموت، في أقصى الجنوب الأمريكي، وهم يعدمون، وعما شعر به من صدمة جراء ذلك، فأردت أن أعرف السبب الكامن وراء اهتمامه بهم، وبمعتقلي غوانتانامو، على حد سواء.

أجابني، قائلا: «ربما يلقى المعتقلون داخل الأراضي الأمريكية ما يفوق المعاملة التي تلقونها سوءا، بالرغم من تدهور أوضاعكم بما لا يقارن بهم، وانتقل أولئك الآن إلى مرحلة التعذيب، ولا أعني النفسي منه فحسب، وقد تحدثت إلى من تعرضوا لاعتداءات جنسية من المعتقلين، ناهيك عمن اغتصبوا، وعذبوا، فلا يعلم سوى الله ما يحدث لمن يعتقلون تحت مسمى «الأشباح» في أماكن كمصر، ودييغو غارسيا، وغيرها».

«لطالما كرهوا السود في الولايات المتحدة، دون أن يخشوهم، فقد كانوا يهابون السوفييت، إبان الحرب الباردة، دون أن يكرهوهم، ويخشونكم أيها المسلمون، ويكرهونكم علاوة على ذلك».

«يجادلون على أن إيقاف «قنبلة موقوتة» في مدينة نيويورك يبرر استخدام التعذيب في أماكن أخرى لانتزاع معلومات حيوية من المعتقلين، فلا توجد سابقة لذلك، ناهيك عن عدم نجاحه في أي من مراحل التاريخ، وتشكل مؤامرة غاي فوكس لتفجير البرلمان في القرن السابع عشر مثالا جيداً للتدليل على ما أقول، فقد كان غاي فوكس على أهبة الاستعداد لقتل نفسه، «مفجر انتحاري محتمل»، وألقى المسؤولية، حين عذبوه للكشف عن تفاصيل مؤامرات أخرى على عاتق اليسوعيين الذين كان الإنجليز يبحثون عن أي مبرر لقتلهم، ولم يؤد ذلك إلا إلى ازدياد الكراهية، دون أن يسهم في حل المشكلة».

أردف كليف، قائلا: «يمثل التسامح، لا الانتقام أو العقاب، مفهوما مهما للغاية في المجتمع، ويتعين عليك التفكير بذلك أيضا، إن أردت أن تتجاوز ما مر بك».

لم أعلم كم كنت متفقا معه في ذلك، على ضوء التفكير بعائلتي، على نحو خاص، وكيفية استجابتي لأي مما يمكن أن يرتكب بحقها من جرائم، لا قدر الله. نعم، نجح كليف في دفعي إلى التفكير في ذلك، ولكنني عجزت عن التمعن في أي شيء عدا كلماته المفعمة بالثقة حول عودتي إلى الديار، التي ما انفك صداها يتردد في ذهني، وكانت مدهشة بحق، وقد أخذت أرددها مرارا، قابعا في معسكر الصدى.

لم يخرج كلام كليف في مضمونه عما سمعه فيروز مؤخرا في ساحة التمرين، من مارتن موبانغا، حول أن محاميه كان قد أخبره بإطلاق سراحه في شهر شباط/ فبراير، فانتشرت تلك الأخبار في المعسكر كالنار في الهشيم، وحاولت إقناع نفسي، بأن ما أخبرني به كليف لم يكن يفتقر إلى المنطق، وأنه ينسجم مع ما قيل لمارتن، فظننت بإمكانية بقائي أنا وفيروز، بالنظر إلى مثولنا أمام اللجان

العسكرية، وقد دارت العديد من الأسئلة في ذهني، عاجزا عن إيجاد ما يشفي غليلي من أجوبة عنها ولم يكن السؤال الآتي: «هل سأواجه تهما في بريطانيا إن عدت إليها؟»، بأقلها إلحاحا.

كنت قد سألت كليف في وقت سابق، قائلا: «ما أسوأ ما قيل عني في وسائل الإعلام؟».

أجابني، قائلا: «حسنا، بمعزل عن تصريح الرئيس بوش، المتعلق بك وبفيروز: «لا أعلم ما فعله هذان الرجلان، ولكنني أعرف تماما أنهما يمثلان قمة السوء»، بمعزل عن ذلك، فقد زعمت بعض التقارير التي سربت إلى النيوزويك أنك نسقت وخططت لمهاجمة مبنى البرلمان بطائرات موجهة عن بعد، محملة بالإنثراكس».

عقبت، قائلا: «هذا جنون، لا أصدق ذلك... هل أنت جاد يا كليف؟».

أجابني، قائلا: «بالتأكيد، فقد كنت آمل، في الواقع، أن تعترف بشيء من هذا القبيل، مع كل ما يتصف به من سخافة، علنا نستمع منهم إلى الكيفية التي كنت تخطط بها للحصول على تلك الطائرات العسكرية ـ التي تكلف الواحدة منها ملايين الجنيهات ـ ناهيك عن تصميمها وتصنيعها، ولو اتهموك بذلك أيضا فما الذي يدفعك بحق السماء، لو سلمنا جدلا بأنك كنت تخطط لذلك بالفعل، إلى مهاجمة أي من الأبنية بطائرة محملة بتلك المادة، عوضا عن نشرها عبر نظام تهويته، على سبيل المثال؟».

بدا الاستياء واضحا عليه، حين أخبرته أنني لم أستجوب حول شيء من هذا القبيل على الإطلاق، وكان الرقيب لوبيز قد أخبرني، حين كنت في معسكر الصدى، أن إحدى الصحف ذكرت أنني كنت متهما بالتخطيط لتنفيذ هجمات بطائرات مروحية موجهة عن بعد، وكنت أظن أنه يمازحني لا أكثر، ليتضح لي الآن أن الأمر لم يكن يمثل إشاعة، أو دعابة، وقد تملكتني الحيرة من أمري، عاجزاً عن معرفة مصدر ذلك الخبر.

خاطبني كليف، قائلا: «من الواضح أنه أحد زملاء دراستك القدامى، من المدرسة اليهودية...».

عقبت، قائلا: «مدرسة الملك داود؟».

أجابني، قائلا: «نعم، أظن ذلك، ويعمل الرجل، مع النيوزويك في الولايات المتحدة، وقد حضر لرؤية والدك حين سمع بقصتك، قائلا: إنه كان أحد زملاء دراستك القدامى، وإنه يرغب في مساعدتك بشدة، والتقى زينب والأطفال، علاوة على زيارة والدك في منزله، ثم عاد فيما بعد إلى الولايات المتحدة، لينشر هذه القصة، قائلا: إنه حصل عليها من مصادر مكتب التحقيقات الفيدرالي».

عقبت، قائلا: «لا أصدق ذلك، فلم أر أحداً من مدرسة الملك داود منذ ما يزيد على العشرين عاما».

سألني، قائلا: «هل أنت واثق من عدم وجود ما يمكن أن يعولوا عليه للخروج بمثل هذه القصة؟».

أجبته، قائلا: «حسنا... أخبرت «الإف بي آي» حول دروس الطيران التي كنت أتلقاها منذ ثمانية عشر عاما، حين كنت في الثامنة عشرة من العمر، وربما كان ذلك ما استندوا إليه».

عقب، قائلا: «لا ريب أنهم فعلوا، ويمكن لأي كان تلفيق بقية القصة».

لم يكن مراسل النيوزويك، ريتشارد وولف (الذي لم أذكره) زميل الدراسة اليهودي الوحيد، من مدرسة الملك داود، الذي يكتب عني.

كدت أجهش بالبكاء، حين تلقيت رسالة قديمة من شقيقي، يخبرني فيها أن ميشا موزيل ـ الذي يعمل صحفيا في هونغ كونغ الآن ـ لم يتذكرني فحسب، بل أظهر تعاطفه معي كذلك بعد مضي تلك السنين، ولم أكن قد رأيته، أو اتصلت به منذ العام 1979، وكتب ميشا إلى الغارديان، قائلا:

«يستحيل، في نظري، ألا يتحلى منسق المدرسة الخيرية الأفغانية هذا بأي من الأفكار الليبرالية المستمدة من مدرسة الملك داود اليهودية الابتدائية في بيرمنغهام... أناشد كل المسؤولين التحلي بالليبرالية ذاتها للضغط بأقصى ما يمكنهم على السلطات المعنية، كي يحظى زميلي القديم «موزمبيق» بمحاكمة عادلة فإني أتعاطف مع معظّم وعائلته على الدوام».

فوجئنا بإجراءين غير مسبوقين بعد وصولنا قسم بابا: الأول، تستبدل ببزاتنا البرتقالية أخرى ذات لون بني فاتح، وقد أثر ذلك كثيراً في نظرتنا إلى أنفسنا، إذ كنت أمقت البزات البرتقالية التي كنا نرغم على ارتدائها مدة طويلة، وقد مثلت البزات الجديدة مفاجأة لطيفة بالفعل، ودارت التكهنات فيما بيننا حول سبب هذا التغير المفاجئ: المثول أمام اللجان العسكرية ربما؟ واكتشفنا لاحقا أنه شمل كل معتقلي الدرجة الأولى، وتمثل الإجراء الثاني في اقتيادي أنا وفيروز، خارج زنزانتينا ذات يوم ـ بلا أي أصفاد ـ ليأخذ أحد الجنود، ممن لم نرهم من قبل، مقاسات كلينا بمساعدة الحراس، وسألنا بعضنا، قائلين: «لم يحتاجونها؟».

أجاب هيكس وعثمان عن هذا السؤال فيما بعد، قائلين: «من أجل اللجان العسكرية، فسيخيطون ملابس خاصة من أجل المحاكمات».

أجابني كليف، حين سألته، قائلا: «ربما كانت تلك الثياب من أجل عودتك، ولن تمثل أمام أي محاكم عسكرية، أكاد أضمن ذلك».

لم يكن عثمان يقابل أي محامين على الإطلاق، فرفض خدمات المحامي الموكل له من قبل الجيش الأمريكي، في أولى جلسات محاكمته، قائلا: «لا يمثلني هذا الشخص، وأرفض أن ينوب عني، فهو ينتمي للجيش الأمريكي، ولا يراني إلا عدوا له، كما أعتبره عدوا لي، فكيف يمكن له الدفاع عني؟. أود تمثيل نفسي، أو الاستعانة بمحام يمني، إن لم يكن ذلك ممكنا». أردف فيما بعد، قائلا: «أنا عضو في القاعدة...». حذفت كلماته من محضر الجلسة، ليتم رفعها مباشرة، ولم يكن عثمان يثق بالمحامين المعينين من قبل الجيش الأمريكي، واصفا إياهم «بالمحققين المنتحلين صفة المحامين».

سألني كليف، عقب لقائنا الأول، تدوين أسماء من يودون الحصول على تمثيل قانوني ـ ولا يستطيعون ذلك ـ من المعتقلين (كانوا يمثلون الغالبية في حينه) وقد أراد الحصول على أسمائهم، وأسماء أقربائهم، وعناوينهم، وأرقام هواتفهم، وأرقام اعتقالهم، وتفاصيل حول لغاتهم المحكية.

كنت أعلم، بحلول تلك المدة، مدى ما يحيط بالمحامين من شكوك، بالنظر إلى موقف عثمان منهم على وجه الخصوص، فقد تلقى عدد من المعتقلين زيارات من فرق قانونية أمريكية ـ بعد قيامي أنا وفيروز، بتوكيل محامين للدفاع عنا ـ بينما رفض آخرون ذلك بالمطلق، لعدم قناعتهم بأن أولئك المحامين يمكن أن يمثلوهم على أكمل وجه، أو لعدم امتلاكهم ما يكفي من الثقة بهم، أو لرفضهم المثول أمام المحاكم الأمريكية المتناقضة مع معتقداتهم، بالنظر إلى تحريم الإسلام اللجوء إليها.

كان هنالك معتقل صيني دارس للإسلام، ممن يحظون بالاحترام كثيرا، ويتحدثون اللغة العربية الفصحى بطلاقة، فقد كنت أستمع أحيانا إلى بعض المقاطع من عظاته عن بعد، فاستفتي في تلك المسألة، لأستمع إليه في إحدى المرات، وهو يلقي خطبة كاملة حول حكم الإسلام في اللجوء إلى ما هو غير إسلامي من محاكم، وأورد آيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية، ناهيك عن فتاوى الأئمة ورجال الدين، من قدامى ومعاصرين، باحثا فيها جميعا، قبل أن يصدر فتواه بعدم جواز اللجوء إلى تلك المحاكم، فتحدث، قائلا: «لا يجوز للمسلم اللجوء إلى محكمة غير إسلامية، إلا في أكثر الظروف إلحاحا». ففكرت، في حينه، قائلا لنفسي: «وهل ثمة ظروف أكثر إلحاحا مما نمر به؟».

تمسك عثمان بموقفه من المحامين، فسألته إخبار بقية المعتقلين بما طلب مني، لقربه من أقسامهم، واطلاعي فيما بعد على أسماء الراغبين في الحصول على محامين منهم، فرفض عثمان القيام بذلك، مستندا إلى موقفه من القضية برمتها، ولم يكن انزعاجي منه بخاف، دون أن أبلغ حد القطيعة معه، وقد استاء فيروز بشدة من ذلك الموقف:

«لا أدري ما خطب بعض منكم أيها الناس، فهل تتوقعون نزول الملائكة من السماء لنجدتكم، بينما ترفعون أيديكم تضرعا؟. لا أرى فرقا بينكم وبين الصوفيين».

لم يكن منصفا فيما قاله، وإن أشار إلى إحدى القضايا الحساسة، فإنه ينظر العديد من السلفيين ـ الذين لا أستثني منهم سوى عثمان، ونفسي ـ إلى بعض ما ورد في المذهب الصوفي كبدع، لا تنتمي إلى الإسلام في شيء، وانخرطت في الجدال بقوة، محاولا إيراد ما يدعم موقفي من أدلة، ليصر عثمان على موقفه الرافض.

خاطبته، قائلا: «اسمع يا أخي، فقد مثلت الإمبراطورية العثمانية آخر الدول الإسلامية الفاعلة، بغض النظر عن تركها الكثير من أصول الدين، فأخبرني عن الكيفية التي حصّل بها المسلمون حقوقهم ـ خلال الثمانين سنة الماضية، أو نحو ذلك ـ في ظل غياب المحاكم الإسلامية؟ فلا يزال القانون القبلي سائدا في بلدك اليمن، بينما تطبق توليفة من القانونين البريطاني والإسلامي في الدول المستعمرة سابقا، كباكستان، إن ارتكب أحدهم جريمة بحقي، فهل تقول: إنني سأحرم من العدالة لمجرد عجزي عن المثول أمام أي من المحاكم الإسلامية؟ ولو علم الآثمون من مسلمين، أو غيرهم، بمعتقدك هذا، لسرقوك ليل نهار».

كان عثمان محقا بالرغم مما سبق، فلم يعن قرار المحكمة العليا شيئا إذ وصف الموقف بدقة، قائلا: «إنه مجرد ديكور، وتحاول أمريكا تلميع صورتها على حسابنا» فقد كنت متفقا مع توصيف كليف للمسألة، ولم نكن نعول على قرارات أي من تلك المحاكم، بل كنا نحتاج إلى نشر بعض الحقائق حول الحرب على الإرهاب، ومعتقل غوانتانامو، فربما ساعدنا المحامون في ذلك.

صرخت، عبر الأقسام بنفسي، لأتلقى أول الردود من سعيد*، الروسي، زميلي القديم في باغرام، فبادلني، ما إن سمع صوتي، التحية باللغة الروسية، ثم العربية الركيكة، ثم الإنجليزية، فالبشتونية، وتمكنت من فهمه، حين كان يحييني بالعربية، بالرغم من ركاكتها، وتملكني شعور جيد لسماع صوته.

---

* رافيل مينغازوف (اسم سعيد الروسي): آخر المعتقلين الروس في غوانتانامو. (المؤلف).

سألته عما إذا كان يود الحصول على تمثيل قانوني، ليقدم لي، صارخا، معلومات حول سيرته الذاتية، قبل أن أقوم بنقلها إلى الإنجليزية، وقد فعلت الأمر ذاته مع معتقل تونسي، وراشد السعودي، وجزائري مسن، ولم يكن لهذا المسن من يعول عليهم من أقرباء ولم أتمكن من الوصول إلا إلى أولئك الأربعة فحسب، من بين ما يقارب الخمسة والعشرين سجينا في ذلك القسم.

رغب معتقلون آخرون في توكيل من يمثلهم من المحامين، ليتراجعوا عن ذلك بعد أن جاهر اثنان من أبرز رفاقهم برفضه صراحة، فلم يكن من السهل عليهم القبول، ناهيك عن عدم قدرتهم على القيام بذلك سراً.

شعر فيروز بسعادة بالغة للجوء أولئك الأربعة إلى المحامين، فقد كنا نعلم أن استجابة سعيد شجعت الآخرين على أن يحذوا حذوه، دون أن يدرك، بحسب ظني، أن تلك المسألة كانت تمثل موضوع الساعة في حينه.

التقى فيروز غيتا، بينما كنت ألتقي كليف في اليوم الأول، لنراجع ما قالاه معا، فيما بعد، ونقارن بين ما قدماه من ملاحظات، وكنا نقرأ الوثائق القانونية بتمعن شديد، أتلوها على مسامعه إن تلقيتها أولا، ناهيك عن مناقشة تفاصيل قضيتينا كما يفعل المحامون، وتمثلت إحدى أكثر المحاجات إثارة في المثال الافتراضي حول سيدة سويسرية مسنة، وهبت المال إلى القاعدة دون علم منها، فسأل أحد القضاة محامي الحكومة، قائلا: «هل تعتبر هذه المرأة عدوا محاربا؟»، ليجيبه، قائلا: «نعم، أعتقد أنها يمكن أن تكون كذلك».

كنا قد ارتبطنا، بحلول تلك المدة في قسم بابا ـ تميزنا بزاتنا البنية الفاتحة عن بقية المعتقلين ـ ارتبطنا بعلاقة صداقة قوية للغاية، غير اعتيادية، فقد كان ذلك يشبه، إلى حد ما، ما كنت أتخيله حول المحكومين بالموت، عبر ما شاهدته من أفلام حولهم، وكنا نقبع جميعا في زنازيننا، نشترك بتلك التجربة المميزة، الفريدة من نوعها، فلم نكن نتمكن من رؤية بعضنا بعضا بصورة مباشرة إلا عند مرور أحدنا بجانب الزنازين، في طريقه إلى ساحة التمرين، أو

الاستجواب، وقد كان الحراس يسمحون لنا، في بعض الأحيان، بالتوقف لمصافحة بعضنا بضعا عبر شباك الزنازين، ولم يكن السلام ينقطع فيما بيننا، إذ ترتسم أكثر الابتسامات إشراقا على وجوهنا عند تبادله، فلم يمر أحد بزنزانتي دون أن يتعرف علي، سائلا إياي عن حالي بتعابير مختلفة، كما يفعل من يتحدثون العربية.

تعلمت في حينه تقدير الدور الذي تلعبه ثقافة الناس في صياغة تلك العادات، إذ كنا نحن البريطانيين أكثر برودة، وتحفظا من الآخرين، ولم أكن أحيي فيروز، حين أمر بزنزانته، بتلك الحرارة الزائدة، ولم يكن يفعل ذلك بدوره، على النقيض مما كنا نقابل به بقية المعتقلين، مراعاة للفروق الثقافية فيما بيننا، ولم يكن الأمر يختلف مع هيكس.

وقعت حادثة تبين حالتي الذهنية على أكمل وجه في تلك المدة، فقد أراد جميعنا إغاظة الحراس قليلا، فخرجت بفكرة كتابة صفحة مليئة بكلمات وجمل من مختلف اللغات (العربية، والأوردية، والفرنسية، والإسبانية، والعبرية، واليونانية، والماندرين، والهندية، والروسية، واللاتينية) لتبدو كرسائل مشفرة أنوي توزيعها، ونفذت ذلك بالفعل، مضمنا الصفحة ما رسمته من أعلام دول مختلفة، وقمت بطيها، فيما بعد، ووضعها في جيبي العلوي، قبل التوجه إلى ساحة التمرين، وإخفائها هناك، فعلمت أنهم سيجدونها فيما بعد، وكدت أنفجر من الضحك، حين فعلوا، متسائلا عما يحتاجونه من مترجمين لنقل ما ورد فيها إلى الإنجليزية.

حضر العميد هوود، في غضون ساعة، ليجول في المكان، متحدثا إلى الرقيب المسؤول عن القسم، وكنت واثقا من أن خدعتي البسيطة سببت لهم الكثير من القلق، إذ أدى ذلك إلى تفتيش كل من يدخل الزنازين، ويخرج منها فيما بعد، فاعتذرت إلى الآخرين عن ذلك، منتشيا بما فعلته بالأمريكيين.

تغير مزاجي فعليا بحلول تلك المدة، إذ كنا قد خضعنا، منذ وصولي قسم بابا في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، إلى نوعية جديدة من الاستجوابات، لا تخلو مما يمكن

اعتباره اختبارا للقوة الذهنية بيننا، وبين المحققين، وقد أظهرت السلطات اهتمامها مجددا باستجوابي، بعد مضي أشهر على رفضي التحدث إليهم، وتم اقتيادي للاستجواب خمسا وعشرين مرة على الأقل، فيما لا يتعدى ثلاثة الأشهر، وهو ما لم يحدث في معسكر الصدى فقد بدؤوا ممارسة الألعاب الذهنية في تلك المدة.

رأى عثمان في ذلك، ببصيرته النافذة على الدوام، إشارة إلى قرب إطلاق سراحي، مشبها إياه بما حدث مع فتيان تيبتون قبل عام مضى، ولم نكن واثقين مما إذا كان ذلك صحيحا، ولم نرغب في تعليق أي من الآمال عليه، وقد بدأت، مع ذلك، أحلم بزوجي من آن لآخر، ناهيك عن التفكير في الوطن، ولم أكتب إلى الأهل كثيراً في حينه، مكتفيا بالتلميح ـ حين كنت أفعل ـ إلى ما مررنا به من تغيير، مركزا على بعض التفاصيل الاعتيادية، كزيادة حجم ساحة التمرين، وكتبت إلى زينب، محاولا تذكيرها بإمكانية ألا أبدو مألوفا للوهلة الأولى، ما إن أعود إلى المنزل، بعد تمضية سنتين ونصف في الحبس الانفرادي.

خضع فيروز كذلك للاستجواب بصورة منتظمة، وإن لم يكن بما يماثلني، وكنت أعزو ذلك إلى طبيعته المتحفظة، فلم يكن يخاطب المحققين، كما كنت أتخيل، إلا بقول الآتي: «سلوا محاميّ، تحدثوا إليه...» وكنت أنخرط في جدال حاد مع المحققين.

خضعت للاستجواب من قبل الاستخبارات العسكرية، وغيرها من الوكالات «كالإف بي آي»، و«السي آي أيه»، و«الإن إس أيه»، التي لم يكن عناصرها يصرحون عن هوياتهم في جميع الأوقات، وكنت استجوب بشكل مكثف، مرتين في اليوم أحيانا، وقد اعتاد فيروز الصياح، عبر ساحتين للتمرين، لإيصال الرسائل إلى مارتن موبانغا، وأردنا معرفة ما إذا كان مارتن موبانغا يخضع للاستجواب بالنظر إلى ما يعنيه ذلك من أن للأكمة ما وراءها، فكان خضوعي أنا، وفيروز، للاستجواب بمفردنا يعني أمرا مختلفا للغاية، إذ لم يكن مارتن في حينه يخضع لأي استجواب جديد.

أدركت، بعد وقت قصير، أن بعض الاستجوابات بدت متعلقة بما أتلقاه من زيارات قانونية، إذ كنت قد تلقيت زيارة فورية من المحققين، بعد لقائي الأول بغيتا، في نهاية شهر آب/ أغسطس أمضيت ساعات، فيما بعد، متسائلا عما إذا كان توقيت تلك الزيارة متعمدا، وهل كانوا يحاولون نقل رسالة ضمنية، مفادها «أنها كانت تعمل معهم»؟.

خضعت للاستجواب كذلك قبل يوم من قدوم كليف، في «مبنى غولد»، خارج بوابات الحراسة، على بعد مسافة من قسم بابا، وكان أيان، أحد المحققين، قصيرا للغاية، كث الشاربين، كثيف اللحية، أحمر الشعر، وجلس قبالتي، قبل أن يقدم لي زجاجة من الماء.

سألته بسخط، قائلا: «هل تظن أنني أشرب البول في زنزانتي؟. فأتمنى ألا يمثل هذا ما تظهره من حسن ضيافة». وأخذ الرجل على حين غرة نتيجة موقفي: كنت أحاول إرباكه، ومفاجأته، بالنظر إلى ما مارسوه من ألاعيب في السابق.

استهل حديثه، قائلا: «دعني أريك معادلة هنا، هل تلم بالجبر؟». شعرت أنه يتبع «السي آي أيه» بالنظر إلى طريقته: إخافتي، والتقرب مني في الوقت ذاته.

أجبته، قائلا: «حسنا، لا في الحقيقة، فلا ألم بالرياضيات على الإطلاق، والجبر على نحو خاص، ويمكنني أن أقول لك: إن «الجهاد» ليست بالكلمة العربية الوحيدة التي ترهب الغرب، إذ تعني كلمة «الجبر» الإصلاح بالعربية، وقد اشتقت، فيما يتعلق بالرياضيات، مما عنون به أبو جعفر الخوارزمي عمله، ناهيك عن كلمة «الغوريثم» (الحساب) المشتقة من اسمه...».

قاطعني، قائلا: «هذا مثير للغاية. أنصت إلي الآن. $(X + Y = Z)$. حسنا، هذه هي المعادلة، إذ يمثل (X) ما نعرفه من معلومات عنك، و(Y) ما يمكن، أو لا يمكن، أن تقدمه من معلومات لنا، و(Z) إرهابي، فأنت هو (Z)، و(X) هو ما نملك، و(Y) ما يمكنه تغيير المعادلة».

عقبت، قائلا: «شكرا لك يا أينشتاين، ففسر لي الآن ما تحاول قوله، وهل تعرض علي صفقة مقابل تعاوني، مجددا؟ فإن كان كذلك، فسيكون جوابي بالرفض، ولن يحدث ذلك».

عقب، قائلا: «هذا ما أنت عليه»، مشيرا إلى كلمة «إرهابي» التي كتبها على قصاصة من الورق.

عقبت، قائلا: «هل تعتقدون أن ترديد كلمة ما كثيراً، يجعل منها حقيقة؟ فما الذي قاله هتلر في السابق؟: «يخدع الجماهير بما هو كبير من الأكاذيب بسهولة أكثر من الصغيرة منها، لا سيما إن رددت مرارا». يجدر بي الجلوس هنا، داعيا إياك «حمارا»، حتى يأتوا، ويقتادوني للخارج».

خاطبني، قائلا: «نعلم بشأن ما قدمته من شكاوى لمحاميك، وزياراتهم لك، ومواعيد قدومهم» فقد كان يشير بوضوح إلى الرسالة التي كتبتها في شهر تموز/ يوليو، وكشفت عنها وسائل الإعلام، وأردف، قائلا: «لا يهتم الرأي العام الأمريكي لذلك، وهو الأهم هنا، لا البريطاني، وتعجز حكومتك عن فعل أي شيء، كما يعجز محاميك»».

بدا، مع ذلك، أنه يحاول إيجاد طريقة جديدة للتقرب مني، فأخبرني أنهم يملكون معلومات عني، حصلوا عليها من معتقلين آخرين، وخاطبني، قائلا: «لم تتعاون معنا، أو تجب عن أسئلتنا منذ مدة طويلة، فإني أحاول تغيير موقفك، فما الذي سيكون شعورك عليه إن بقيت هنا سنوات طويلة؟».

أجبته، قائلا: «حسنا، مضى علي ثلاث هنا، وقد لا تمثل مدة طويلة، ولكنها كافية في نظري، فلم يحدث أي مما وعدتموني، أو هددتموني به، كإرسالي إلى المحكمة على سبيل المثال، ومن ثم لم أعد أكترث حقيقة، وهل تعلم، بالأحرى، أن هذا المكان بدأ يروق لي؟».

كان كذلك بالفعل، مقارنة بمعسكر الصدى، وإن بدت كلمة «يروق» غريبة هنا، فقد أحببت مقدرتي على سماع الأذان، والصلاة جماعة، والتحادث مع بقية المعتقلين، والتمرن في الساحة الأكبر حجما.

أردفت، قائلا: «أنا متفائل بطبعي يا أيان، وأعتقد أن هذا الوضع سيتغير بطريقة أو بأخرى، ولا أحتاج مساعدتك فيما يتعلق بذلك، وأعلم بالفعل ما الذي سيحدث، استنادا إلى تجربتي مع «الإف بي آي»، حين وقعت وثيقة الاعترافات التي قدموها لي: لا شيء، وأخبروني في حينه أنني سأمثل أمام المحكمة، ولكنني لم أفعل، فلن يدفعني شيء في الكون إلى الوثوق بأمثالكم بعد اليوم، مهما هددتموني».

تذكرت، بينما كنت أتحدث، كيف انهمرت دموعي، حين استجوبتني وكالة الاستخبارات المركزية للمرة الأولى، ناهيك عما مارسته من تهديد وتهويل بحقي، في إسلام أباد، وقندهار، وباغرام، ولم يكن ذلك ليحدث هذه المرة.

استمر الاستجواب ساعتين تقريبا، فما انفك الرجل يمارس أساليبه الماكرة، والمضحكة في الوقت ذاته، وكنت أرى الغضب باديا على وجهه، مع كل ما كان يفتعله من هدوء، فلم يكن يدرك أنني ما عدت أخشى «السي آي أيه»، بحلول تلك المدة، أو أي من المحققين الآخرين.

لم يخلُ الموقف من الطرافة، حين عدت إلى الزنزانة، وأخبرت البقية عما حدث، فعمل الجميع، جاهدين، لا تعوزهم الحماسة، على تحليله، كما هو ديدنهم فيما يتعلق بأفعال الأمريكيين: لم كان يمارس هذه الألاعيب؟، لم كان المحقق الوحيد في الغرفة؟.

اقتادوني إلى الاستجواب ثانية، بعد اليومين اللذين أمضيتهما مع كليف، وكان محققا جديداً، يمارس أسلوبا مختلفا هذه المرة.

بدأ الرجل حديثه، يصطنع الودية، قائلا: «سمعت أنك تحب التحدث حول التاريخ والسياسة...».

عقبت، قائلا: «والميثولوجيا الإغريقية كذلك...».

عقب، قائلا: «آه، بربك يا سيد بيغ، فهل تمانع إن دعوتك معظّما؟، أهو معظّم، أم مو ـ عظّم؟».

أجبته، قائلا: «انطقه كما تشاء، فلا فرق فيما يتعلق بذلك، وأثق تماما بعجزك عن نطق العربية، أو الأوردية بصورة سليمة... إن أردت التحدث حول تلك الموضوعات، فلا بأس لدي، ولكنني لن أجيب عن أي من أسئلتك حولي، أو أي شخص آخر».

لم يكن يسمح لهم بالتحدث حول الأوضاع الراهنة، وإن استثنيت العناوين العريضة من ذلك، كالحرب على الإرهاب، والوضع في العراق، دون الخوض في التفاصيل، فلم يكن ملما بالثقافة الإسلامية، على النقيض مما ادعاه، أو اتخذه حجة للتقرب مني، فما انفك يلمح إلى تاريخ الشرق الأوسط وسياساته، قائلا: إنه يرغب الفهم بصورة أكبر، وأدركت، بعد حوارنا المطول، أن أفقه لم يكن أكثر اتساعا من معظم المحققين.

سألني عن جماعة التبليغ، أكبر منظمة دعوية إسلامية في العالم، هندية الأصل، وطرح علي، فيما بعد، السؤال الآتي، قائلا: «لم تظن أن القاعدة، وجماعة التبليغ يمكن أن يرتبطا بعلاقة عمل مشتركة؟».

لم يكن انزعاجي بخاف، فعقبت، قائلا: «يا إلهي، كم أنتم مهووسون بوضع الجماعات الإسلامية كافة تحت مظلة القاعدة، تكافحون لإثبات ذلك بطريقة أو بأخرى».

صرح الرجل، فيما بعد، عن فرضيته الفذة، قائلا: «نعتقد بمحاولة القاعدة اختراق حكومات الدول الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، عبر المنظمات الدعوية كجماعة التبليغ».

عقبت، قائلا: «حسنا، ولكن كيف سيكون بإمكانها القيام بذلك، بالنظر إلى أن معظم تلك الدول لا تحوي أعدادا كبيرة من المسلمين؟» وأدركت، فيما بعد، ما كان يرمي إليه: تتصدى جماعة التبليغ، بوصفها منظمة دعوية، للمهمة المستحيلة المتمثلة في هداية جميع سكان تلك الدول إلى الإسلام، لتستولي القاعدة، فيما بعد، على السلطة فيها عبر انقلاب سلمي، أو دموي.

عمل الرجل كذلك على إقحام منظمات الإغاثة في فرضياته، فسألني، قائلا: «سبق لك العمل مع منظمات إغاثة إسلامية: ترتبط على الدوام، بشكل أو بآخر، بالجماعات الإسلامية المسلحة...».

قاطعته، قائلا: «تقصد القاعدة، كلية الوجود في الزمان والمكان، على ما أفترض، وارتباط جميعنا بها، ويتمثل ما تعنيه حقيقة، وتخاف قوله، في أن ما يربط منظمات الإغاثة، والجماعات الدعوية، والمجموعات المسلحة بالقاعدة هو الإسلام، وتحقق، ذلك في وجود مليار، وست مئة مليون عدو محارب، أتمنى لك التوفيق في ذلك».

سألني رجل آخر، قائلا: «لم لا تجيب عن أسئلتنا؟، لديك عائلة، وأناس يمكن أن يتعرضوا للأذى».

هل كان يحاول تهديد عائلتي يا ترى؟.

عقبت، قائلا: «إياك أن تذكر عائلتي مجددا، تتهمونني بالانتماء إلى القاعدة، أليس كذلك؟». أردفت فيما بعد، محاولا تضمين نبرتي ما أمكنني من وعيد، قائلا: «ماذا عن عائلتك؟».

لم ينبس ببنت شفة.

كتبت إلى كل من كليف وغيتا مباشرة بعد جلسة الاستجواب هذه، واصفا ما حدث خلالها، شاكيا مما بدا تعمداً واضحا لاستجوابي، بعد كل زيارة قانونية أحظى بها، بغية تحطيم معنوياتي، وقد كان المحقق ذاته من استجوبني بعيد

زيارتيهما، وقد تضمنت رسالة كليف لائحة بأسماء المعتقلين الأربعة، وبياناتهم، محاولا التركيز على متطلبات غيرهم أيضا، فكتبت إلى كليف ثانية، بعد مضي يومين، بغية إخباره المزيد عن أيان، وإطلاعه على الكيفية التي حافظت بها على «الطابع الودي، دون التعاون معه» بعد أن نعتني بالإرهابي، وسألت كليف العمل على تمرير الكتب والمجلات ـ العالقة لدى الرقابة ـ التي أحضرها من أجلي، ولم نكن قد حصلنا في حينه على أي من محتويات المكتبة لأكثر من ثلاثة أشهر، وقد كنت بحاجة ماسة إلى ما يلهيني فكريا.

استدعيت للاستجواب مجددا بعد مضي بضعة أيام، فكانا محققين من وزارة الدفاع هذه المرة، بغية النظر في مزاعم حول التعذيب، وقد كانا مهتمين بالجسدي منه ـ لا النفسي ـ فحسب.

حضر كلاهما مجدداً لاستجوابي، بعد مطالبة فيروز بالاستعداد للقائهما كذلك، في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر.

كانت الغرفة تحوي ثلاثة مقاعد، وطاولة واحدة، ناهيك عن وجود ستة من الحراس، وثلاثة من المحققين فيها، وقد اعتلى المحققون الثلاثة الطاولة، لأتمكن من تمييز أحدهم: أيان، حليق الذقن والشاربين هذه المرة، وكان ريتشارد بيلمر، وفيروز موجودين هناك بالفعل، فاتخذت مقعدي بجانبهما، ووقف اثنان من الحراس إلى جانب كل منا، ناهيك عن وجود بعضهم في المقدمة.

لم أكن قد رأيت ريتشارد، في حينه، منذ مدة طويلة، وكنت قد تحدثت إليه مرة واحدة، لا أكثر، حين كنا في باغرام، فبدا في حال جيدة، إذ كانت بشرته شديدة السمرة، بما لا يتفق مع بزته البرتقالية الفاتحة التي يرتديها، وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها فيروز وجها لوجه، بما يدعو للاستغراب، لا عبر الشباك.

ران الصمت على الحاضرين، فنظرت إلى فيروز، ليقابلني بابتسامة عريضة، وكان ريتشارد هادئا للغاية، لا ينبس ببنت شفة، ونظرت إلى أيان، لأتأكد من هويته بعيد لحظات، فخاطبته، قائلا: «يا إلهي، تبدو بلا ذقن يا أيان». ربما كان ملتحيا لذلك السبب حين رأيته أول مرة.

خاطبنا أحد المحققين، قائلا: «انظروا، قررنا منحكم ما هو ثمين من الفرص بالرغم من عدم تعاونكم. نلتقيكم الآن نيابة عن البريطانيين، إذ يمكن لحكومة بلدكم العمل لصالحكم، إن تعاونتم معنا، بعد أن نطلعها على ذلك، ونود طرح بعض الأسئلة عليكم الآن، فنمنحكم فرصة ذهبية تبرر لحكومتكم المطالبة بعودتكم».

اقتادونا جميعا إلى غرف منفصلة، قبل البدء في استجوابنا، فجلست بمفردي في الغرفة أنتظرهم، وقد كنت مقيداً إلى الأرض، جالسا على مقعد دوار، وكانت ثمة كاميرات تراقب حركاتي، وما أنطق به، فحركت نفسي إلى جانب الجدار، بقدر ما تسمح لي السلسلة، محاولا الاستماع إلى ما يدور في الغرفة المجاورة، وتمكنت من سماع العبارة الآتية: «أرجوك، أرجوك أن تتعاون معنا، من المهم للغاية أن تفعل ذلك، هو أساسي للغاية فيما يتعلق بمستقبلك». فأتاهم الرد، بصوت خفيض، قائلا: «تحدثوا إلى محاميّ، تحدثوا إلى محاميّ...».

حضروا إلى غرفتي، بعد ما يقارب الساعة أو نحو ذلك، ليبدؤوا استجوابي، فقد طرحوا علي أسئلة حول بعض الأمور المتعلقة ببريطانيا، ورجل باكستاني يكنى بأبي أحدهم!.

خاطبتهم، قائلا: «لا أدري ما تتحدثون عنه فأنتم تعلمون كم مضى علي هنا، فلا أعلم حتى سعر رطل الموز في بريطانيا، وهل أصبحوا يزنونه بالكيلوغرامات الآن؟».

سألوني كذلك عن بيت ضيافة بريطاني في كابول، قائلين: إنه كان مرتبطا بحدث في غاية الأهمية كان سيقع في بريطانيا، ففكرت، قائلا لنفسي: «أهو جزء من عرض ينوون تقديمه للبريطانيين يا ترى، أم لعبة كالتي مارسوها مع فتيان تيبتون؟. أهو نتيجة قرب انتهاء السنة، ووجود تهديد حقيقي بوقوع هجوم ما في بريطانيا؟، ولكن ماذا لو كانوا صادقين فيما يقولونه؟». طرحت كل تلك الأسئلة على نفسي، مشوش الذهن تماما، ولم أكن أعلم الأجوبة عما كانوا يسألونه ولكنني لم أكن لأخبرهم بذلك.

اكتفيت بمخاطبتهم، قائلا: «انظروا، لا أرغب أن يتأذى أي من الأبرياء، في أي مكان، ولكنني لا أصدقكم، أو أثق بكم، فلم أنج أنا وعائلتي، من كذبكم، أو مما أوقعتموه بنا من عذاب طيلة ثلاث سنوات، فهل تتوقعون مني أن أصدقكم الآن؟».

عقب أحدهم، قائلا: «يمكنك، مع ذلك، إنقاذ آلاف الأرواح البريئة».

عقبت، قائلا: «كيف؟، كيف يمكن لي إنقاذ آلاف الأرواح البريئة؟. تحاولون على الدوام إلقاء هذا العبء على كاهلي، وكأن بعض ما ألفظه من كلمات يمكن أن ينقذ شخصا ما بطريقة أو بأخرى... ماذا عن آلاف الأرواح البريئة التي أزهقتموها؟. كان بإمكانكم إنقاذها عبر الحفاظ عليها في المقام الأول، وماذا عن حياة زوجي وأطفالي التي دمرتموها؟».

كنت أخبرهم في السابق أنني لا أحملهم المسؤولية شخصيا عما يجري، بل النظام الذي يعملون تحت إمرته، لأخاطبهم هذه المرة، بمنتهى الغضب، قائلا: «تتحملون المسؤولية شخصيا كأفراد، أنتم، ولا بد أن تنظروا إلى أنفسكم، وما كنتم تقومون به طيلة المدة السابقة» ولا أظن أنني كنت عدائيا في حياتي، تجاه أي من الأشخاص، كما كنت في حينه، فقد سببتهم، وشتمتهم، ولعنتهم، وكانت الأمور قد بلغت مداها بالنسبة لي.

خاطبوني فيما بعد، قائلين: «انظر، يمكن أن يقع شيء ما حقيقة في بلدك. وزوجك موجودة هناك، وعائلتك موجودة هناك، ولا تريد بالتأكيد أن يصيبهم خطب ما».

عقبت، قائلا: «أنصتوا، أخبرتكم ألا تذكروا عائلتي مطلقا. لا تذكروها مطلقا».

اعتذر أحدهم، بما يثير الدهشة، قائلا: «لم أقصد إزعاجك بكل ذلك».

أخبرتهم، فيما بعد، أن عليهم الاتصال بجهاز «الإم آي فايف»، إن كانوا يظنون بالفعل أن شيئا ما سيقع في بريطانيا، كي يتحدث أفراده إلي بصورة مباشرة، فأجابوني، بما يدعو للاستغراب، قائلين: «لا، لا يوجد ما يكفي من الوقت للقيام

بذلك». فكرت، فيما بعد، قائلا لنفسي: «هذا محض هراء، لا أصدق ذلك، يمكن لعناصر الاستخبارات البريطانية أن يصلوا هنا خلال يوم واحد لو اقتضت الضرورة». وأوردت إليهم بالفعل، من الكتاب الذي منحتني إياه الاستخبارات البريطانية، «الإنجليز: صورة شعب»، ما يشير إلى أن حركة العبور بين الولايات المتحدة، وبريطانيا، تفوق، بما يزيد على الضعف، مثيلتها بين الولايات المتحدة، وبقية أنحاء أوروبا.

استنتجت، مع نهاية جلسة الاستجواب، أنهم كانوا يمارسون إحدى ألاعيبهم المعتادة، مستبعدا توخيهم الصدق فيما قالوه، وسألت فيروز عن رأيه، فيما بعد، حين أعادونا جميعا إلى زنازيننا، فأخبرني أنهم طرحوا عليه الأسئلة ذاتها: عن الشخص الباكستاني، والمضافة البريطانية في كابول، دون أن يدخل في أي نقاش معهم.

جادلتهم، على النقيض منه، حول العراق، وأفغانستان، والشيشان؛ ليتبين لي مدى ما بلغه أحدهم من جهالة:

«ساعدنا قومك، والمسلمين في أفغانستان، وانظر إلى ما فعلناه هناك، ناهيك عن الشيشان أيضا».

عقبت، قائلا: «ماذا؟».

أجابني، قائلا: «نعم، نعم، كنا هناك أيضا».

عقبت، قائلا: «أحقا؟».

تدخل أيان، قائلا: «لا، أظن أنك تقصد أفغانستان».

أصر زميله على رأيه، قائلا: «لا، لا، كنا في الشيشان».

اكتفى أيان بوضع يديه على رأسه.

مثلت الكتابة إلى كليف حول هذا الاستجواب ـ السادس منذ زيارته لي ـ وسيلة لتهدئة مخاوفي، ووجهت له رسالتي الرابعة، في خمس صفحات، أخبره فيها عن كل ما دار في تلك الأمسية، واليأس الذي بدا عليه المحققون في نظري، فاتسم اللقاء بالغرابة من نواح عدة، بما في ذلك قول أحدهم: إن المتورطين في الإرهاب ضد الولايات المتحدة لم يكونوا في غوانتانامو، وإننا كنا هناك عوضا عنهم، فدهشت كذلك لاعتقادهم بأهمية ما يمكن أن أقدمه لهم من معلومات عن بريطانيا، وأنا المعتقل هنا منذ مدة طويلة، ناهيك عن حاجتهم إلى معلومات إضافية بعد قيامهم باستجوابي ثلاث مئة مرة، وتعين علي إخبار كليف كذلك بما أشعر به من قلق نتيجة انقطاع التواصل بيننا، وهو ما لم يكن يحدث بين فيروز ومحاميه.

تواصلت الاستجوابات ليلتين إضافيتين، فكتبت إلى كليف مجدداً، في الأول من شهر كانون الثاني/ يناير، لأخبره "بما أصابني من ملل نتيجة أدائي المسرحي المتكلف" وكنت قد خضعت في حينه لثماني جلسات استجواب منذ التقيته، وقد اعتذرت عن إزعاجه بهذا الكم من الرسائل، سائلا إياه عما إذا كان من الضروري تدوين كل ما أتعرض له من انتهاكات، بالنظر إلى ما يسببه ذلك من «ألم وضيق». وعلمت أن فيروز كان منكبا على تدوينها، دون أن أجد عزاء في ذلك، وأخبرته مجددا عن مدى ما أشعر به من قلق جراء انقطاع التواصل بيننا، وإدراكي لكثرة مشاغله، وإن تملكتني الحيرة من توجيه الرسائل إلى العنوان الخطأ، وختمت رسالتي بمعايدته، بمناسبة حلول العام الجديد، وكأنني أوجه له ما هو اعتيادي من الرسائل.

كتبت إلى زينب أيضا، في اليوم الآتي، مرسلا تهانيّ باقتراب حلول عيد الأضحى، وخاطبتها، قائلا: «أدرك أن الأطفال قد نموا، وتغيروا كثيراً منذ رأيتهم آخر مرة، ولا أدري، على وجه التحديد، كيف سأتصرف يوم عودتي، ولكنني واثق من أنه سيكون الأسعد في حياتي، أدعو الله أن يعجل قدومه» ولم أكن أستبعد حدوث ذلك في وقت قريب.

استدعيت للخارج مجددا، وفكرت، في حينه، قائلا لنفسي: «ربما كانوا يستدعونني، أكثر من أي شخص آخر، لزرع بذور الريبة بيني، وبين بقية المعتقلين» ففكرت برفض الخروج معهم، ولكنني كنت أجهل وجهتي (ربما للقاء أحد المحامين، أو وفد بريطاني) وكان الحراس يعلمونها بالطبع: معسكر الصدى للقاء المحامين، ومبنى غولد للاستجواب.

سمعت أحد الحارسين، في طريق عودتي إلى الزنزانة من آخر جلسة استجواب، يتحدث، قائلا: «لا تقلقن، سينتهي الأمر قريبا» وقد ظننت أنني استمعت مصادفة إلى حديثه، لأكتشف أنه كان يعنيني بكلامه.

حضر الحراس إلى زنزانتي، في أحد الأيام، ليقوموا بجرد كامل لمحتوياتها كافة، كما فعلوا، حين غادرت معسكر الصدى، فهل كانوا ينوون إعادة توزيع السجناء في قسم بابا يا ترى؟. كانوا يفتشون الزنازين، بشكل اعتيادي، حين نكون في ساحة التمرين، ولكن اختلف الأمر هذه المرة، بالنظر إلى قيامهم بذلك أثناء وجودي في الزنزانة، طالبين مني إبراز كل ما كان بحوزتي فيها، قبل تسجيله في اللائحة، وكان ذلك يعني حدوث أمر طارئ، منعهم من الانتظار حتى خروجنا إلى ساحة التمرين في اليوم الآتي، ولحظت كذلك أنهم كانوا يقومون بالأمر ذاته مع فيروز، والباقين.

تم اقتيادي للخارج صبيحة اليوم الآتي، في وقت مبكر للغاية، بحيث كان الجميع نياما، دون الحصول على فرصة التحدث إلى أي كان، بمعزل عن فيروز، فظننت أنهم كانوا يقتادونني إلى معسكر الصدى، بغية رؤية كليف، وفكرت، في حينه، قائلا لنفسي: «يتمثل السبب الوحيد لاقتياد أي كان إلى معسكر الصدى في رؤية محاميه» ولم يظهر أحد طيلة الصباح، حتى حلول مدة ما بعد الظهيرة، وكنت وحيداً في الزنزانة الخالية تماما.

كان ذلك أسوأ، بطريقة أو بأخرى، من النظام القديم الذي كانوا يتبعونه، بالرغم مما يمكن أن أشعر به من تحسن، لو كنت أحمل نسخة من القرآن الكريم، وكنت قد تعلمت، بحلول تلك المدة، كيفية التأقلم مع الحبس الانفرادي.

لم يكن يصعب علي البقاء بمفردي، فقد جلست في الزنزانة وحيدا، أستذكر من كانوا هنا من الحراس، الذين توافقت معهم، مثل فوشي، وكيلفن، وميسادور، وجينيفر، وكل من عرفتهم طيلة تلك السنين، وتملكني ما هو غريب من المشاعر في تلك اللحظة، وإن استحضرت خلالها ما دار بيننا من تواصل إنساني، في ظل أكثر الظروف غير الإنسانية، فها هم الآن قد رحلوا، لأعود إلى الحبس الانفرادي مجدداً.

لم تدم تلك المشاعر طويلا، فقد حضرت الرقيب لو، المسؤولة عن قسم بابا، وكل نزلائه، بمن فيهم أولئك الذين نقلوا إلى معسكر الصدى، حضرت برفقة رائد، لتقف في الزنزانة بما ينم عن قدومها في مهمة عسكرية رسمية، ولم تنبس ببنت شفة، بينما خاطبني الرائد، قائلا: «سيد بيغ، حضرت هنا لإعلامك أن الجيش الأمريكي...» ـ فكرت في تلك اللحظة، قائلا لنفسي: «يا إلهي، لا بد أنهم سيتهمونني الآن بصورة رسمية، ويجبرونني على المثول أمام المحاكم العسكرية» ـ «بأن الجيش الأمريكي قد قرر تسليمك إلى السلطات البريطانية، وإسقاط كل ما كنا ننوي توجيهه إليك من تهم».

التزمت الرقيب لو بوضعيتها العسكرية ذاتها، بينما كان الرائد يلقي كلماته غير الاعتيادية على مسامعي.

عقبت، قائلا: «لا أصدقك، حضرة الرائد».

عقب، قائلا: «لم أعتد قول الأكاذيب، ولم ترني قبلا، وأثق بأنك لن تفعل بعد اليوم».

لم تظهر الرقيب لو أيا من التعابير، بالرغم من انخراطي معها في أحاديث سابقة، ورؤيتي ما ارتسم على وجهها من ابتسامات خلالها، وهو ما لم يحدث هذه المرة، فلربما أظهر كارنهان، سلفها، الكثير من التعاطف لو كان في محلها، فاستدارت، لا أكثر، لتغادر المكان فيما بعد، وقد كانت تلك المرة الأخيرة التي أراها فيها.

أحضر أحد من لا أعرفهم من الحراس الجدد صندوقا يحوي أغراضي، بعد مضي وقت قصير، ورغبت سؤاله عن فيروز بشدة.

حضر أحد عناصر الشرطة العسكرية، فيما بعد، قائلا: «يلقي سيف السلام عليك» فتأكدت على الفور من أن مارتن موبانغا كان في معسكر الصدى أيضا، وفكرت، في تلك اللحظة، قائلا لنفسي: «مهلا، ربما كان ما أخبرني به الرائد صحيحا».

كانت هنالك مجندة تعمل في معسكر الصدى، وقد اعتادت قراءة أحد الكتب على مسامعي، بصورة سرية، للترويح عني، فسألتها عما إذا كان هناك بريطانيون آخرون في المعسكر، لتجيبني، قائلة: إن فيروز، ومارتن، وريتشارد كانوا هناك أيضا.

أدركت، في حينه، أن أمرا في غاية الأهمية كان على وشك الحدوث، وكانا أسبوعين طويلين للغاية، وقد حضر كليف بعد مضي ثلاثة أيام، ليحسم مجيئه الأمر بالنسبة لي، وبدأت أفكر فيما بعد غوانتانامو، قائلا لنفسي: «ما الذي سيحدث في بريطانيا؟، هل سيعتقلونني؟، هل سيحاكمونني؟، ما الذي ستكون الحال عليه هناك؟».

أكد لي كليف عدم وجود ما ينبغي القلق بشأنه، فقد كان يفكر في الآخرين كالمعتاد، وأحضر لي بعض الأغراض من طرف زينب: مكسرات، ووجبات خفيفة، وقطع شوكولاتة، لأطلب منه إعطاءها إلى شاكر، بعد أن أخبرني أنه سيلتقيه، وكان شاكر في هذه الأثناء في «المعسكر الخامس»، الذي كنت أرى أعمال تشييده في أثناء وجودي في ساحة التمرين، وأخبرني الجنود في السابق أنه كان معدا لاستقبال السجناء بصورة طويلة الأمد، وقد مثلت تلك أخبارا سيئة بالفعل فيما يتعلق بشاكر، وكنت قد سألت الحراس عن سبب إبقاء المعتقلين هناك، ليجيبوني، قائلين: إنه كان مخصصا لمن يرفضون التعاون مع المحققين، أو مثيري المتاعب، والقياديين، وكنت أعلم مدى ما يمكن أن يحدثه شاكر من أثر أينما حل، إذ كان شخصا رائعا بالفعل، كما وصفه الحراس.

حل زائر آخر، ما كنت أتوقعه أبدا، قبل يومين من مغادرتي، وكنت قد كتبت إلى غيتا بشيء من القسوة، وإن التزمت الأدب، قائلا: «رأيتِ كل أولئك الناس، ولم تأتي لإخباري عن ذلك، أو تكتبي إلي باستثناء مرة واحدة منذ رأيتك، فإن قلت: إنك ستفعلين شيئا ما، فحري بك أن تقومي به، أو تكتبي إلي قائلة: إنه مستحيل، وإنك لا تستطيعين القيام به، معتذرة، عوضا عن تركي معلقا، كما أنا الآن بالفعل».

حضرت غيتا لتعتذر، في الحقيقة، وتعلن تضامنها معنا، وتعبر عن فرحتها لتحررنا، فقد كانت تعلم يوم إطلاق سراحنا أكثر مما يعمل الحراس.

كنت أعد نفسي ما استطعت، أفكر في المستقبل، بما لا يبدو مألوفا، عوضا عما أعيشه يوما بيوم، ومضيت أراجع أوراقي، أمزق بعضها، كيلا يعلم الأمريكيون ما دونته عليها، وكان بعضه شخصيا للغاية، بينما تمثلت بقيته فيما وضعته من ملاحظات حول كتابي المنتظر، وكنت قد مررتها إلى كليف، مع معرفتي بحتمية عرضها على الرقابة، جاهلا ما إذا كنت سأحصل عليها ثانية، ولم تكن لدي أي فكرة عما يمكن أن يجيزوه منها.

حضر إلى الزنزانة، قبيل مغادرتي، من كان يزعجني، ويذكر عائلتي من آن لآخر، بصحبة أشخاص آخرين، وتمثل كل ما قاموا به هذه المرة في أخذ بصمات أصابعي، واقتادوني خارج الزنزانة، فيما بعد، دون تكبيلي، فبدا ذلك غريبا للغاية في نظري.

سألني الرجل ذاته، قبل مغادرته، قائلا: «هل أنت واثق من عدم رغبتك في الإجابة عن أي من أسئلتي؟».

أجبته، قائلا: «أكثر من أي وقت في حياتي».

حضر الحراس، بعد مضي وقت قصير، لأخذ مقاساتي مجددا، فظننت لبرهة أنهم ينوون خياطة بعض الملابس من أجلي، ليأتوا بما هو مريع منها، ولم أكن لأقبل ارتداءها تحت أي من الظروف الاعتيادية، إذ كانت تتضمن حذاء كذلك، وقمت بارتدائه، لأكتشف أن مقاسه كبير للغاية، كما بقية الثياب،

ومنحوني حقيبة سوداء تحوي «رزمة وداعية» صغيرة، واحتوت تلك الرزمة على فرشاة أسنان، ومعجونها، ومزيل للروائح، ومشط، ومناديل للأطفال، وبطانية، وغيرها من الأشياء البسيطة التي يمكن أن نستخدمها، حين نعود إلى حياتنا الاعتيادية.

نشرت إحدى مجلات «ناشيونال جيوغرافيك»، التي منحني إياها كليف، إعلانا عن إقامة «معرض الهروب الكبير»، بعد أسبوع من حينه، في المتحف الحربي الإمبراطوري، وكنت عازما على حضوره.

استذكرت، بينما كنت أجمع أوراقي، وقصائدي، أولى ما كتبته منها، هنا في معسكر الصدى، وكانت بعنوان «في الطريق إلى الوطن» وهاكم الشطر الأخير منها:

لا أزال أسطر هذه الورقة

جاهلا ـ بينما تبدأ الأحلام

وتنتهي الكوابيس ـ

متى سأعود إلى الوطن والأحبة؟

تمثل آخر ما قمت به، في غوانتانامو، في حفظ سورة الإسراء، السابعة عشرة في القرآن الكريم، التي تدور حول رحلة النبي محمد ﷺ إلى بيت المقدس، فقد وضعت القيام بذلك، خلال هذين الأسبوعين، نصب عيني، وكانت سورة طويلة، ولكني أتممت حفظها في اليوم الأخير، بل الساعة الأخيرة منه بالأحرى، قبل مغادرة زنزانتي، ومعسكر الصدى، للمرة الأخيرة.

كنت أرتدي الثياب الجديدة، منتظرا، حين حضروا لاقتيادي خارج الزنزانة، قرابة الواحدة صباحا، وكان الحراس قد أخبروني أنهم لا ينقلون الناس، في الأحوال الاعتيادية، إلا في وقت متأخر، أو مبكر للغاية، وكنت جالسا بانتظارهم

لا أكثر، إذ كنت عائدا إلى الوطن، فلم أكن نائما، بل أمضيت الوقت في قراءة رواية شارلوك هولمز وصليت إلى الله شاكرا فضله: «الحمد والشكر لك يا الله لما منحتني إياه من قوة لاجتياز هذه المحنة» وسألته تهوين الأمر على عائلتي، فيما يتعلق بقبول عودتي، وتيسير أمورهم.

حضر الحراس لتكبيلي، بما يفوق المعتاد، مع وضع قفل إضافي على أصفادي، وكانوا يشعرون بغباء ما يقومون به، وقد تمتم أحدهم، قائلا: «لا أعلم لم نضع الأقفال على أصفادهم، ما الذي سيقومون به، الهرب في طريقهم إلى الطائرة مثلا؟».

وضعوني في شاحنة، بعد تغطية عينيّ بالنظارات القاتمة، وسمعت، بما أثار دهشتي، صوت مجندة مألوف بالنسبة لي، وقد نزعتُ النظارات القاتمة عن عينيّ، قبل أن تخاطبني، قائلة: «أخبرتك أنني سأراك ثانية» وكانت سميث، الشابة صغيرة السن، من كاليفورنيا، إذ كنت قد رأيتها آخر مرة، في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، في معسكر الصدى، وكان الحراس الآخرون قد أخرجوها من هناك، بعد إصابتها في ساقها، أثناء لعب الكرة، ما أفقدها ـ على حد تعبيرهم ـ قدرتها على أداء واجباتها بفاعلية، فتم إرسالها إلى المعسكر الرئيس دلتا، الذي يتطلب العمل فيه، بما يدعو للاستغراب، بذل مجهود جسدي أكبر، وتمثلت الحقيقة، كما صارحتني فيما بعد، في أنها لم تكن تروقهم، وكانت أكثر ودية من معظم الحراس الجدد، وهو ما سبب امتعاض العديد منهم.

أردفت، قائلة: «ها أنت ذا الآن تعود إلى ديارك أخيرا، أليس كذلك؟، علمت أنك ستفعل».

عقبت، قائلا: «بلى، يصعب تصديق ذلك، ولكنه حقيقي بكل الأحوال، بالرغم مما نصحني به العديد من الحراس حول عدم تصديق...».

قاطعتني، بغية إتمام الجملة، قبل أن تعلو ضحكاتنا، قائلة: «شيء مما تسمعه، ونصف ما تراه»، لتردف، فيما بعد، قائلة: «أشعر بسعادة حقيقية لأجلك، بالرغم من بقائي هنا ستة أشهر أخرى».

فكرت قائلا لنفسي: «ها هي ذي الآن، بما يدعو للاستغراب، تربط حياتها بما عشته في غوانتانامو، ناهيك عن المساواة بينهما بطريقة أو بأخرى، فيعلم جميعنا الواقع، مع ذلك: أنا السجين، الشخص السيئ، وهي الجندية الأمريكية، الصالحة».

أردفت، بينما همت الشاحنة بالتحرك، قائلة: «ربما نلتقي يوما ما، وقد رغبت الذهاب إلى إنجلترا منذ وقت طويل».

عقبت، قائلا: «وأنا كذلك يا عزيزتي، وأنا كذلك».

تحركت الشاحنة فيما بعد، لتتملكني مشاعر رهيبة، تماما كما الأوقات الأخرى، بالرغم من اعتيادي الأمر، بعد نقلي مرات عدة، وقد كدت أشعر برهبة الاحتجاز في مؤخر تلك الشاحنة الحديدية، إذ كانت مليئة بالعقد البارزة من أرضيتها، وقد أوثقوا قيدي إليها، وتمثل عزائي الوحيد في عدم وجودي هناك بمفردي، وكان أحد الحراس يرافقني، ناهيك عن وجود حيز يتسع لشخص في الجهة المقابلة، فراودني شعور بأن فيروز، أو غيره، كان هناك.

اقتادوني إلى مبنى غولد، قبل وضعي في غرفة هناك، بمفردي، مقيدا إلى الأرض مجددا، وتساءلت عما دفعهم إلى ذلك، لأفكر، قائلا لنفسي: «سيأتي البريطانيون الآن، وينزعون هذه الأصفاد» ولم يحصل ذلك، إذ كنا ننتقل من عهدة مجموعة من عناصر الشرطة العسكرية إلى أخرى، وقد أخرجني الحراس من الغرفة، ليقتادوني إلى حافلة ضخمة، مغطاة النوافذ، قبل أن أصعد إلى متنها، وكان فيروز، وريتشارد بيلمر موجودين هناك بالفعل، إذ كانت الحافلة محملة بالجنود، فرأيت البريطانيين الثلاثة هناك مقيدين، يجلس كل منهم إلى جانب عدد من الجنود، قبل أن يجلسني هؤلاء الجنود، فرأيت مارتن موبانغا بشعره المضفر، ناهيك عن فيروز الهادئ كالعادة، كما ريتشارد.

كـان مـارتن مـوبانغـا أول من بادأني الحـديث، إذ كنت أعـرف صـوته مما كـان يؤديه من أغنيـات في المعـسكر، وأخـذ يحـدثني بالعـربيـة. لم يـكن يـفعل بطـلاقـة، ولكنـني تمكنت من فـهـمـه. لم يرق ذلك للحـراس كـثـيـراً، ونهض أحدهـم فـجـأة، ليسير نحو المقدمة، ويهمس في أذن زميله، قبل أن ينهض الأخيـر بدوره، ويتجه إلى مؤخـر الحافلة، ليجلس هناك، وكـان من الواضح أنه عـربي، وقـد غيـر مـارتن لهجتـه على الفور، ليتحـدث اللندنيـة العامية، بلكنة جامايكية، بسـرعة كبيـرة، إذ كان من المستحيل، أن أفهم مـا يقـوله، وإن شـعـرت بتسلية كـبيـرة للنظر في وجـه المترجم، في تلك اللحظة.

توقفت الحـافلة فيـمـا بعـد، مجـددا، لتواصل التحـرك ببطء، فلا بـد أننا كنا على متن عبارة إلى القسم الآخر من الجزيرة، لنصله بعد ما يقارب الساعة، أو نحو ذلك.

كنت أتجـاذب أطـراف الحـديث مع مـارتن، بينـمـا بقي فيـروز على هـدوئه، كـمـا ريتـشـارد تمامـا، ولم نغـرق في بحـر من النشـوة حـقـيقـة، بالنـظر إلى جـهلنا مـا سيحدث لاحقـا، ناهيك عمـا يكبلنـا من أصفـاد، وقـد توقفت الحـافلة في نهـاية المطاف، ليـصـعـد مـارتن، مـبـعـوث وزارة الخـارجيـة، إلى مـتنهـا، قـبل أن يصـافح الجميع، ويسألهم عما إذا كانوا بخير، وصعدت امرأة الحـافلة، فيما بعـد، ليعرف عنها مارتن، قـائلا: إنها تنتمي إلى «الإسكوتلانديارد»، وقـد كانت متجهمة الوجه، طويلة للغـاية، ذات شعـر بني، وبدت مـذهولة، بعض الشـيء، مما كـان يحيط بهـا، ناهيك عن وجودها بين عدد كبير من الجنود، فـبدا مـارتن غريبا عـن المكان، وقـد كانت تفوقه في ذلك.

طالبوني فيمـا بعد، فيـمـا يمثل آخـر ذكرياتي في خليج غـوانتـانامـو بالوقـوف، قـائلين: «سـتـذهـب أولا». أرادوا إزالة القـفـل عن وسطي في بادئ الأمـر، قـبـل الأصفـاد، ليعجـزوا عن ذلك بالنظر إلى أن المفاتيح لم تكن بحوزتهم، وأخـذ جميع عناصر الشرطة العسكرية ينظرون إلى بعضهم بعضا، يسأل أحدهم الآخر عنها، ليرد قائلا: إنها ليست بحوزته.

سألتهم السماح لي بالجلوس مجدداً، حتى يعثروا عليها.

سمعت النقيب المسؤول، وهو يوبخهم في الخارج، قائلا: «كيف أمكن لكم القيام بذلك؟، إنه محرج للغاية»، وقد حضروا، في نهاية المطاف، بقاطعة ضخمة للأسلاك، قبل أن يسألوني، قائلين: «هل يمكنك الوقوف مجددا؟» وكنت قلقا للغاية بالنظر إلى ضخامة حجمها، واضطرارهم إلى استخدامها بالقرب من معدتي، ويديّ، فحاول الجندي تحطيم القفل بواسطتها، ليعجز عن ذلك، بعد انثناء مقدمتها، وأخذوا يلعنون بعضهم بعضا، حتى أحضرت قاطعة أكبر حجما، ليزداد خوفي بالنتيجة، فأشحت بوجهي جانبا، مغمض العينين، قبل أن أسمع صوت تحطم القفل الذي كان قويا للغاية، فنجحوا أخيرا في إزالة أصفادي، ليقتادوني خارجا.

خاطبتهم، للمرة الأخيرة، قائلا: «هل سبق لكم تناول شطيرة حساء؟».

أجابوني، قائلين: «لا».

عقبت، قائلا: «حاولوا وضع الحساء في شطيرة، ورؤية ما سيحدث».

لم يجدوا ذلك مسليا على الإطلاق، بينما انفجر البريطانيون بالضحك.

رأيت ما يشبه الاستعراض العسكري، بينما اقتادني الحراس إلى الخارج، وقد كان مؤخر طائرة النقل العسكرية البريطانية مفتوحا، بينما اصطف العديد من ضباط الشرطة خارجها، دون ارتداء قبعاتهم، ولم يخلُ المكان من بعض المدنيين، فمشيت برفقة جنديين أمريكيين، ليأتي اثنان، أو ثلاثة، من رجال الشرطة لاستلامي، وكان الجنديان الأمريكيان قد كبلا يديّ بشريط بلاستيكي بعد إزالتهما أصفادي، وسألا رجال الشرطة، بينما أزالا الشريط بواسطة مقص، قائلين: «هل تريدون تكبيله الآن؟».

أجابهما أحد رجال الشرطة، قائلا: «لا، شكرا لكما، سنتولى الأمر من هنا»، قبل أن يخاطبني، قائلا: «تحرك بهذا الاتجاه يا سيدي».

لم يلمسني البريطانيون أبدا، فقد قاموا بمرافقتي إلى الطائرة، لأصعد على متنها، وكان من الغريب، بالنسبة لي، أن أجلس في طائرة بعد مضي كل هذه المدة، فعملت على ملاحظة كل من كان يصعد إلى متنها، واستدرت يساراً، لأجد فيروز قادما، قبل أن يجلس هو الآخر، إذ حضر رجال الشرطة للتعريف عن أنفسهم، وإرشادي إلى الضابط المسؤول، والضابطين اللذين سيجلسان إلى جانبيّ أثناء الرحلة، وسألاني إخبارهما، لا أكثر، إن أردت الذهاب إلى الحمام، كي يقوما بمرافقتي، أو تزويدي بسجادة إن أردت الصلاة، وقد كانت الطائرة مليئة بالمصاحف، والكتب، والجرائد، والأطعمة الحلال، والوجبات الخفيفة، والمشروبات.

خاطباني، قائلين: «يوجد ضابط ارتباط مسلم على متن الطائرة، فإن احتجت التحدث إليه حول أي من الأمور، فهو موجود هناك، هل تريد شيئا؟».

أجبتهما، قائلا: «الجرائد فحسب، من فضلكما، فلم أقرأها منذ ثلاث سنوات».

سألني أحدهما، قائلا: «ما الذي تود قراءته منها؟».

سألته إحضار كل ما تيسر منها، ولم أنم أيا من ساعات تلك الرحلة، أو يغمض لي جفن، إذ كان أزيز المحركات مرتفعا بكل الأحوال.

كنت أشعر بالإثارة مع ذلك.

أخذت أقرأ الجرائد بنهم، بما في ذلك الصن، والديلي ميل، وقرأت مقالات تحمل صور الآخرين، وصوري، وقد فكرت، في حينه، قائلا لنفسي: «غير معقول!. أحتل الصفحات الأولى لصحف بريطانيا كافة، فهل يدعمنا الناس هناك، أو يكرهوننا يا ترى؟» وقرأت، فيما بعد، عن معتقلي سجن بلمارش، وتوجه مجلس اللوردات، بعد مضي ثلاث سنوات، للبت في قانونية احتجازهم، وبدا ذلك كأمر فعلته مؤخراً: تحدي قانونية احتجازي، وقرأت كذلك تقارير عن انتهاكات قام بها جنود بريطانيون في العراق، الأمر الذي صدمني بالفعل.

أخبرني رجال الشرطة، فيما بعد، بوجود ثياب جديدة من أجلي، في حال رغبت خلع ما قدمه إلي الأمريكيون، ولم أكلف نفسي عناء القيام بذلك، إذ كانت الملابس آخر ما أفكر فيه في حينه.

جلس أحد ضباط الشرطة بجانبي، قبل أن يخاطبني، بلكنة سكان ليفربول، قائلا: «رأيت وجهك على شاشة التلفاز بضع مرات، وهذه رحلتي الثانية فيما يتعلق بهذا الصدد، إذ كانت الأولى لإحضار أولئك الفتية من تيبتون».

سألته، قائلا: «وكيف كان حالهم؟».

أجابني، قائلا: «ذاهلين للغاية، بما يماثلكم قليلا»، وقد سألني فيما بعد، قائلا: «هل عاملكم الأمريكيون بصورة حسنة، يا صديقي، أو عذبوكم؟».

لم يكن من السهل الإجابة عن مثل ذلك السؤال، وإن أدركت، بعد مضي وقت قصير، أنه كان شائعا إلى حد كبير: «قليل من هذا وذاك، حسب اعتقادي».

سألني، قائلا: «أنت بخير الآن، أليس كذلك؟ وهل أنت سعيد بالعودة؟».

أجبته، قائلا: «آه، نعم، فقد كنت أحلم بهذا اليوم منذ ثلاث سنوات».

نظرت حولي، علّي أرى أيا ممن أعرفهم، فقد كان مارتن، مبعوث وزارة الخارجية، الوحيد بينهم، فمضى يحيي الجميع، قبل أن يجلس إلى جانبي، ويصافح يدي، قائلا: «لقد فعلناها، وأخبرتك أننا سنفعلها!».

فكرت، قائلا لنفسي: «هذا هراء يا مارتن، فقل ما تريد، فلا أهمية لذلك». وبدأ يتحدث عما لم يخبرني به قبلا، بالنظر إلى بقائه مع الأمريكيين طيلة الوقت، وتحدث عن حملة والدي، ومدى ما خلفته من أثر، مضيفا أنه ذهب لرؤية المسرحية التي تدور حولنا، دون أن تروقه كثيراً.

مضى، فيما بعد، ليثير ما يشغل باله حقيقة، كما تراءى لي، فخاطبني، قائلا: «يبدو أن محاميّك ذكروا، في بعض التقارير، أنني نصحتك فعليا بالمثول أمام المحاكم العسكرية، و...».

قاطعته، قائلا: «انظر يا مارتن، فإنني أذكر ـ لأكون منصفا معك ـ حين أتيت لإخباري عن عرض قضايانا أمام المحاكم الأمريكية، وحككت صدرك، بحيث لا يراك صحبك من الأمريكيين، كي أسألك أمامهم توجيه محاميّ للبدء في عرض قضيتي أمام تلك المحاكم، وقدرت ذلك كثيراً في حينه، ولكنني لا أزال أذكر يا مارتن، حين سألتهم عن المحاكم العسكرية، ما قلته من أنها ستقام بحضوري أو عدمه، وأنني لن أخسر شيئا، من المثول أمامها».

لم يضف شيئا حول تلك المسألة، ليبدأ التحدث حول بقية المعتقلين، قائلا: «لا بد أن أخبرك أنني استمتعت بالتحدث إليك، من بين جميع من قمت بزيارتهم. كنت جيدا بالفعل، مقارنة بالباقين، الذين كان بعض منهم يتحدثون إلي بالكاد واكتفى أحدهم، على سبيل المثال، بالجلوس أسفل الطاولة، حين قمت بزيارته، وإصدار أصوات مضحكة، رافضا التحدث إلي، ناهيك عمن رفضوا الخروج من الزنزانة للقائي».

سألته، قائلا: «أخبرني، ما الذي سيحدث، حين أعود إلى الديار؟».

أجابني، قائلا: «لا أدري، فإنه تنتهي مهمتي بمجرد وصولنا بريطانيا، ولا أدري ما سيحدث».

همت طائرة القوات الجوية الملكية بالهبوط في مكان ما من إنجلترا، وها قد أتت اللحظة التي انتظرتها طويلا، لحظة الاستجابة إلى صلواتي، طيلة تلك السنين.



-14-
هل تعرفين من أنا؟

مغيب الشمس، قاعدة نورثولت، 25 كانون الثاني/ يناير، 2005

استقرت الطائرة على أرض المطار أخيراً، قبل أن تفتح أبوابها، وكان الطقس باردا للغاية، إذ كنت قد نسيت كل ما يتعلق بشتاء إنجلترا، بعد كل تلك المدة التي أمضيتها في المنطقة الكاريبية، وحضرت امرأة في منتصف العمر، فيما بعد، تلبس معطفا من الفرو، وتضع الكثير من مساحيق التجميل على وجهها، فعرفت عن نفسها بأنها تنتمي إلى دائرة الهجرة، قبل أن تسألني عما إذا كنت مواطنا بريطانيا، ففكرت، قائلا لنفسي: «يا له من سؤال سخيف» فقد حضرت المرأة التابعة للإسكوتلانديارد، بعد مضي وقت قصير، لتجلس إلى جانبي.

خاطبتني، قائلة: «لدي ما أقرؤه على مسامعك، فأنت رهن الاعتقال بموجب قانون مكافحة الإرهاب، هل تفهم ما أقوله؟».

فعلت الأمر ذاته مع البقية، قبل أن تكبلنا الشرطة جميعا، وفكرت، في حينه، قائلا لنفسي: «عجيب، لم الأصفاد الآن، بعد ست عشرة ساعة طيران من دونها؟، ألن ينتهي هذا الأمر أبدا؟».

سمعت صوت عربة تتجه نحو مؤخر الطائرة، فاقتاد عناصر الشرطة مارتن، وريتشارد إليها، لتنطلق فيما بعد، قبل أن تأتي أخرى لتقل فيروز، ومن بعده أنا، وشعرت باكتئاب شديد، بينما كنت أتجه نحو عربة الشرطة، ولم يكن هناك مقعد أجلس عليه؛ لذا وضعوني في الجهة اليمنى من مؤخرها، ليغلقوا الباب ما إن أصبحت في الداخل، فلم أوضع فيما يماثل تلك العربة طيلة ثلاث السنوات الماضية، وكان كليف قد أخبرني بإمكانية استجوابي، كما حدث مع البريطانيين

الخمسة الأوائل الذين أطلق سراحهم، وتساءلت عن سبب كل تلك الإجراءات الأمنية المشددة، المثيرة للسخرية، بعد كل تلك المدة التي أمضيتها رهن الاعتقال، أو لم يكتفوا بعد؟.

ضممت ركبتيّ إلى صدري، مستسلما لما يخبئه القدر، آملا، مصليا، ألا يكون ذلك مقدمة لما هو أسوأ، وتمثل عزائي الوحيد في وجود فيروز ـ زميلي الصامت ـ برفقتي.

لم يكن حجم المكان يزيد عن قدمين في الطول، ومثلهما في العرض، ولم نتمكن من رؤية أي شيء، بينما كانت العربة تتحرك مسرعة، باستثناء وميض الأضواء الباهتة، عبر النافذة المعتمة.

خاطبنا الضابط، ذو لكنة سكان ليفربول ذاته، الذي كان يرافقنا في العربة، قائلا: «تلك أضواء كاميرات وسائل الإعلام، فقد أصبحتم تمثلون أهمية كبيرة لها».

انتهت رحلتنا الطويلة المتعبة في شوارع لندن ـ للتخلص من وسائل الإعلام، على ما أفترض ـ في قسم شرطة بادينغتون غرين، فشعرت براحة لا توصف عقب الخروج من مؤخر العربة تلك.

تملكني شعور غريب، لوجودي فوق التراب البريطاني، بعد مضي كل تلك المدة، فلم أكن أتخيل أن الأمور ستسير على هذا النحو، فقد كنت، في الحقيقة، أتوقع ما يثير مخاوفي بصورة أكبر، وتمثل الأمر الجيد فيما فعلته الشرطة بالتهرب من وسائل الإعلام، التي غص بها المطار، في بادئ الأمر، قبل أن تصل إلى قسم الشرطة.

فوجئت للغاية، بالنظر إلى امتلاكي بعض الخبرة فيما يتعلق بأقسام الشرطة، بسلوك ضباط الشرطة في ذلك القسم، إذ كانوا لطفاء للغاية (ربما لمقارنتي إياهم بالعسكريين الأمريكيين) فقد قاموا بمرافقتي إلى غرفة، حيث أزيلت

أصفادي، قبل أن يقدموا لي كوبا من الشاي، وقام الرقيب المناوب، فيما بعد، بتدوين بياناتي، وشرح ما سيحدث لاحقا، وسألني، في نهاية المطاف، قائلا: «هل يوجد من تود الاتصال بهم من أفراد عائلتك؟».

فكرت، قائلا لنفسي: «عائلتي... بكل هذه البساطة، بعد مضي ثلاث سنوات دون سماع أصواتهم، أو رؤية وجوههم...». لم أستطع تمالك نفسي، أو التحكم بعواطفي، لتترقرق الدموع في عينيّ.

أجبته، بصوت مرتعش، قائلا: «لا، شكرا لك، فما الذي يفترض بي قوله، عبر الهاتف، بعد مضي كل تلك السنين؟ لقد انتظرت ثلاث سنوات بأكملها، ويمكنني الانتظار قليلا بعد للقائهم وجها لوجه، عقب إخلاء سبيلي، أضف إلى ذلك، أنني لا أذكر أرقام هواتفهم».

قاموا بمرافقتي إلى زنزانة، بلا أي أصفاد أو قيود، حيث وجدت ملابس جديدة بانتظاري، علاوة على نسخة من القرآن الكريم، وسجادة صلاة موضوعة بشكل مرتب على السرير، وكانت الزنزانة تقارب في حجمها أربعة أضعاف مثيلاتها في غوانتانامو، وكنت أهيئ نفسي الآن لما هو أسوأ، إذ بدا السجن احتمالا قائما، بالرغم من كل ما تلقيته من تطمينات، فما الذي يدفعهم، على أي حال، لاتخاذ كل تلك الإجراءات بحقنا، لو لم يكونوا ينوون اعتقالنا مدة طويلة؟.

كان العشاء مريعا: طبق من الكاري الهندي، المليء بالتوابل الحارة، مع الخبز الهندي، وكانا مغمورين بالزيت، وقد مثلت تلك الوجبة، أشهى ما تناولت منذ مدة طويلة، وتوضأت فيما بعد، لأؤدي الصلاة، إذ كان المساء قد حل في حينه، وقد كنت متعبا للغاية بعد رحلتي الطويلة تلك، وتمكنت من سماع صرخات، أو أصوات غناء مكتومة، وإن كانت مميزة، في الخارج، ناهيك عن وقع أقدام، وأصوات أبواب تفتح وتغلق، وصوت يرتل القرآن في الزنزانة المجاورة، فقد كان هذا الصوت مألوفا بالنسبة لي، فيما يتعلق بهدوئه على وجه الخصوص، وبدا وكأنه صوت فيروز.

سئلت، بعد مضي وقت قصير، عما إذا كنت أود التحدث إلى ضابط الارتباط المسلم، لأرفض ذلك، وفتح باب الزنزانة لاحقا، لأتلقى زيارة من شخص آخر سألني عن المعاملة التي أتلقاها، وظروف احتجازي بصورة عامة، وأخبروني، في نهاية المطاف، أن محاميتي حضرت لرؤيتي.

ها هي ذي الآن تظهر في قسم الشرطة بشكل مفاجئ، مرحبة بعودتي إلى إنجلترا، وكانت أول من يقوم بذلك من معارفي.

خاطبتني، بابتسامتها الدافئة، المتعاطفة، قائلة: «يتملكني شعور جيد لرؤيتك يا معظّم، وأشعر بسعادة بالغة لعودتك، أخيراً».

عقبت، قائلا: «يتملكني شعور جيد لرؤيتك كذلك يا غاريث، فكيف حالك؟».

أجابتني، قائلة: «بخير... أنت من يقلق جميعنا بشأنه، فقد فقدت كثيرا من وزنك، ولكنك تبدو بحال جيدة عموما، أليس كذلك؟».

أجبتها، قائلا: «آه، أنا بخير، أشعر بالسعادة لعودتي، لا أكثر، فقد لا تذكرين، ولكن كان يجدر بي العمل بنصيحتك حول عدم السفر، فما الذي سيحدث فيما بعد؟» وقد كنت لا أزال أشعر بشيء من التوتر في حينه.

أجابتني، قائلة: «لا يوجد ما ينبغي القلق بشأنه، فذاك عمل استعراضي تقوم الحكومة به أمام الأمريكيين، لا أكثر، كما فعلت مع خمسة المعتقلين من قبلكم، وسيطرحون عليكم بعض الأسئلة غدا، في مقابلة، ولن تكونوا ملزمين بالإجابة عنها، وأثق أنكم نلتم كفايتكم من الاستجوابات...».

عقبت، قائلا: «أكثر من ثلاث مئة استجواب يا غاريث».

عقبت، قائلة: «لا يمكنني تخيل ذلك، فأنا آسفة للغاية... وقد أطلقوا سراحكم، بحيث يتزامن موعد عودتكم تماما مع القرار الذي ينظر مجلس اللوردات بشأنه، حول معتقلي سجن بلمارش، ألم تسمع بذلك؟».

أجبتها، قائلا: «بلى، أبو قتادة، وآخرون، وقرأت حول ذلك في الطائرة، وقد أخبرني كليف شيئا ما عنه في غوانتانامو».

عقبت، قائلة: «آه، حسنا، وستجرى الانتخابات في شهر أيار/ مايو، ما يعني احتدام المنافسة حول أصوات الناخبين. سيبت مجلس اللوردات بشأن احتجازهم في سجن بلمارش غدا، ومن شبه المؤكد أن يتخذ قرارا بعدم قانونيته، وقد لا أكون موجودة، أثناء مقابلتك غداً، ولكن حسين، من مكتبنا، سيكون برفقتك، إن لم أستطع الحضور، فلن يبقوك مدة أطول، بعد تلك المقابلة، على أية حال وسيبدون بغاية السخف، إن فعلوا، بالنظر إلى كل ما مررت به».

شعرت بارتياح كبير لسماع ذلك، وتراءى لي أن الأمر سينتهي، وإن لم أكن لأصدق شيئا حتى أراه بأم العين.

عقبت، قائلا: «هذا جيد، وكيف حال أبي، وزينب، والأطفال؟».

أجابتني، قائلة: «بخير، وهم يفتقدونك كثيراً، وينتظرون رؤيتك على أحر من الجمر، وكان والدك مذهلا بالفعل، لقد عمل بلا كلل من أجل عودتك، وإطلاق سراحك، وكان لذلك أثره في صحته بلا شك، ولكنه نمى بفضله حسا قويا بالالتزام، والمثابرة، وهو في الخارج الآن، ولكنهم أخبروني أنك لا تود رؤيته هنا».

عقبت، قائلا: «هذا صحيح. ليس هنا، ليس في هذا المكان».

عقبت، قائلة: «لا تقلقن، يمكنكم البقاء جميعا في منزلي غدا، إن أردتم، ما إن يتم إخلاء سبيلك» وشعرت بارتياح كبير مجددا، لسماع كلمة «غدا»، وأردفت، قائلة: «أثق أن وسائل الإعلام ستطاردكم، وستحتاجون وقتا للتكيف مع وضعكم الجديد، بعيدا عن الناس...».

جلسنا نتحدث مدة من الزمن، ليقاطعنا أحد الضباط، بعد مدة قصيرة، قائلا: إنهم يريدون أخذ بصمات أصابعي، وأخبرتني غاريث أنها ستذهب لرؤية ريتشارد، بينما يقومون بذلك، وستكلمني في وقت لاحق.

انخـرطت في حوار ودي مع المحـقـقين، ليـبـرزوا مـا بـدا قـديمـا، غيـر نافع، من الأجهزة.

خاطبت أحدهم، قائلا: «قاموا بأخذ بصمات أصابعي في بيرمنغهام في العام 2000، ناهيك عن قيام زملائكم الأمريكيين بذلك مرات عدة، طيلة بضع السنوات الماضية، وأعتقد أنكم تضيعون وقتكم هنا، أليس كذلك يا صديقي؟».

عقب، قـائلا: «إنهـا إجراءات، وتعلم ما هي عليه، فقـد أصبحت خبيـرا فيمـا يتعلق بذلك على الأرجح» وكنت كـذلك بالفـعل، إذ ارتكبـوا بعض الأخطاء، بينمـا كـانوا يأخذون بصمـات أصابعي على صـفحـات كاملة، وذلك مـا اضـطرهم في بعض الأحيان إلى إعادة العملية برمتها، من أجل بصمة واحدة.

خـاطبتهم، قـائلا: «لا أقـصـد انتقـادكم، ولكن زمـلاءكم الأمـريكيـين، في مكتب التحقيقات الفيدرالي، كانوا أكثر كفاءة...» وبدا الاستياء واضحا على أحدهم، بالرغم من أنني كنت أمازحهم لا أكثر، وانتهت العملية أخيـراً، بعد مـا يقـارب الساعتين، ليقتادوني للقاء غاريث مجددا. كان الوقت قد تأخر بحلول تلك المدة، وقد كنت مجهدا للغاية، ولم أرغب في استبقائها مدة أطول.

خاطبتني، قائلة: «تتسم إجراءاتهم بالفوضى، كما يتراءى لي، وقد تحدثت إلى ريتشارد، كما فعلت مع مارتن، بعد أن اقتاده أحدهم لرؤيتي، بالرغم من أنني لا أمثله، وبدا كلاهما واقعين في حيرة من أمرهما، وأعتقد يا سيد بيغ، أن الوقت قد حان لتنال قسطا من الراحة، إذ تبدو منهكا للغاية» وكنت كذلك بالفعل.

أحضر أحد الضباط، بعد عودتي إلى الزنزانة، عددا من الرسائل الواردة من «حملة غوانتانامو لحقوق الإنسان»، و«لجنة حقوق الإنسان الإسلامية»، و«منظمة العفو الدولية»، و«المجلس الإسلامي البريطاني»، ومنظمات، وشخصيات أخرى.

قيل لي: إن الممثلة فانيسا ريدغرايف كانت من بينها، وطالبت تلك الرسائل الشرطة بإخلاء سبيلنا، علاوة على ترحيبها بعودتنا.

استلقيت في الزنزانة، أفكر فيما سيحدث لي فيما بعد، قبل أن أغط في نوم عميق. وقد كنت أرتدي ملابسي في حينه، بالنظر إلى برودة الزنزانة، واستيقظت على صوت أذان الفجر، يرفعه أحد زملائي في الزنازين المجاورة، لأؤدي الصلاة فيما بعد، وقرأت آيات من الذكر الحكيم، قبل أن أستلقي على السرير مجددا، ثم ذهبت للاغتسال، بعد تناول طعام الإفطار، وسمح لي، فيما بعد، بممارسة بعض التمارين في موقف السيارات الخارجي، ولم يكن البرد يطاق، ولكنني قررت البقاء في الخارج لمشاهدة ما لا يعقل من الأمور، فكان خمسة عشر من الضباط، على الأقل، ببزاتهم الواقية، وما استعانوا به من كلاب مدربة ينتظرونني في الخارج، ليفوقوا الأمريكيين في غلوهم. فكرت ـ بينما كنت أسير في المكان، بجانب كل منهم، ناهيك عن الكلاب، متظاهرا بعدم الاكتراث ـ قائلا لنفسي: «كلفوا أنفسهم كل هذا العناء من أجلي فحسب». ولم أستطع احتمال البرد أكثر من ذلك، إذ سألتهم، في نهاية المطاف، إعادتي إلى الزنزانة.

خاطبني الضابط المرافق، قائلا: «لا ألومك يا صديقي، ولكن وقتك انتهى».

عادت غاريث إلى الزنزانة، في أعقاب ذلك، لنتحدث مدة أطول، قبل أن يبدأ الاستجواب الأول، ولم تختلف الأسئلة بالمطلق عما طرح علي طيلة ثلاث السنوات الماضية: هل كنت عضوا في القاعدة؟، هل قاتلت قوات التحالف في الخطوط الأمامية؟، هل كنت مسؤولا عن تمويل المعسكرات الإرهابية، والتدريب فيها؟.

توقفنا في مدة الغداء، وتعين على غاريث المغادرة فيما بعد، بينما بقي حسين برفقتي لاستكمال الاستجواب الثاني، والأخير، ولم أكن واثقا بشأنه، في بداية المطاف، ليتبين لي أداؤه خلال الاستجواب، فلم أجب عن أي من الأسئلة في

حضور غاريث، وإن كنت أتحرق للإدلاء ببعض التعليقات أمام الضباط، وأومأت برأسي غير مصدق، حين كان أحدهم يحدثني، بلهجته الإسكتلندية الثقيلة، ناهيك عن الضحك بصوت عال.

خاطبني، قائلا: «نعتقد بوجود صلة بينك وبين القاعدة ـ أو الجماعات المرتبطة بها ـ في السابق، فهل يمكنك إخبارنا عن أماكن وجود أفرادها؟». نظرت إلى حسين، محاولا كبت ضحكاتي، لأفقد السيطرة على نفسي، ما إن نظرت إلى المحقق ثانية.

خاطبني، قائلا: «أرى أنك تجد ذلك مضحكا يا معظّم، أليس كذلك؟».

تدخل حسين، قائلا: «حسنا، أظن أنه مضحك، بل وأكثر من ذلك أيضا، فكر فيما سألت موكلي للتو، فقد احتجز في سجن عسكري طيلة ثلاث سنوات، ممضيا معظمها في الحبس الانفرادي، فكيف بحق السماء سيعرف مكان وجود أفراد القاعدة، أو تلك الجماعات، إن سلمنا بفرضية ارتباطه بها في الأصل؟ فلا يعرف الرجل مكان وجود عائلته!».

شعرت برغبة حقيقية في التحدث إلى المحققين في الغرفة، لا بوصفهما ضابطي شرطة، بل كشخصين عاديين، وكان من الواضح لي، مع ذلك، أنهما يتبعان الأوامر، ناهيك عن عدم اهتمامهما بسماع الكثير من التحليلات، وقد أخلى المحققان سبيلي، علاوة على إسقاط التهم كافة عني، عند نهاية ذلك الاستجواب المسلي، الذي أثبت قدرة حسين بوضوح على مواجهة خيرة ضباط شرطة لندن.

خاطبت الضابط الإسكتلندي، بينما كان الجميع يهمون بمغادرة الغرفة، قائلا: «آمل بحق ألا تشعر بالإهانة لضحكي، ولكن سؤالك كان غاية في السخف، وأرجو ألا تعتبر ذلك، موجها إليك بشكل شخصي».

عقب، قائلا: «لم أفعل، وتعلم أننا مضطرون إلى توجيه تلك الأسئلة، التي يضعها رؤساؤنا في كثير من الأحيان، فقد تبدو بلا معنى بالنسبة لنا، كما تراها مضحكة، فينبغي تسليمك الكثير من المتعلقات الشخصية فذلك ما يجب علينا البدء فيه فورا، وأثق أنك لا ترغب في البقاء هنا مدة أطول من اللازم، ولو بمقدار ثانية واحدة».

عقبت، قائلا: «هذا صحيح، فهل يمكنني توجيه السؤال الآتي؟. صودرت بعض المتعلقات الشخصية من منزلي في باكستان، في العام 2002، بما في ذلك كمبيوتر محمول، وحقيبة زوجي اليدوية، وبضعة آلاف الجنيهات من مدخراتنا، فهل سلمكم الأمريكيون أيا منها؟».

أجابني، قائلا: «أعلم وجود كمبيوتر مستجوب هنا، وأثق بوجود المال أيضا، ويتعين علي التحقق من ذلك، وإبلاغك أنت أو محاميك، فيما بعد».

فكرت، قائلا لنفسي: «كلام غريب، فكيف يمكنك استجواب كمبيوتر ما؟، هل تليت عليه حقوقه، بحضور محاميه؟».

امتلكت الحرية في مغادرة قسم الشرطة من مدخله الرئيس.

حضر ضابط شرطة، بثياب مدنية، ليقدم نفسه على أنه ضابط الارتباط المعين من أجلي، وكان قد حضر من بيرمنغهام لترتيب ما أود القيام به من الذهاب إلى هناك، أو إحضار عائلتي إلى لندن، وكان يتحدث بلكنة سكان بيرمنغهام، وقد كانت ثقيلة بما دفعني إلى الابتسام، بالنظر إلى أنني لم أسمعها منذ مدة طويلة، ولكنها ذكرتني بالديار على أية حال.

خاطبني، قائلا: «يمكننا إيجاد فندق تنزل فيه مع عائلتك بضعة أيام، أو ترتيب ما تود القيام به أيا كان، ويعود الأمر بمجمله إليك» فبدا ذلك مذهلا بالنسبة لي، وقد شعرت أنني أمر بوضع مختلف تماما، ورفضت عرضه بلباقة،

شاكرا لفتته الكريمة تلك، ولم أرد أن أمكث في أي من الفنادق، إذ كانت غاريث قد رتبت بالفعل لقائي مع العائلة في منزلها، وانتظرت، في إحدى الغرف، بلا رقابة للمرة الأولى، بينما كان حسين يتمم الإجراءات الروتينية ذاتها مع ريتشارد.

أخبرنا رجال الشرطة، ما إن انتهى حسين من ذلك، أنهم سيأخذوننا إلى أي مكان نريد، وكنت قد فكرت في المغادرة من المدخل الرئيس، ولكن القلق تملكني من ملاحقة وسائل الإعلام، وتغطيتها التئام شملنا العاطفي على مرأى من الجميع، وسألنا الشرطة، أخذنا إلى منزل غاريث، فشقت عربة الشرطة الزحام على عجل، وجلس ريتشارد بيلمر في الخلف بجانبي، وبدا الأمر للوهلة الأولى فظيعا بالفعل. كان يشبه الجلوس في إحدى العربات التي كانت تقلنا في غوانتانامو، وكأنها أفران، مقيدين بالسلاسل، وقد كنا ندرك أننا لم نعد معتقلين من قبل أي كان، ننعم بالحرية أخيرا، ولم يستلزم الأمر وقتا طويلا حتى بلوغ وجهتنا، وتحدث ريتشارد، قائلا: إنها يمكن أن تكون على بعد مئات الأميال، ولكن ذلك لم يكن مهما، فتأثرت حقيقة لمدى ما يتمتع به من قوة، بعد كل تلك المدة الطويلة: «لم يعد أي شيء يشكل فرقا، وانتهى الأمر، انتهى تماما» فقد توقفت العربة عند منزل غاريث، ليترجل منها رجال الشرطة، ويساعدونا في نقل حقائبنا، وسمعت فيما بعد أحد الأشخاص، يصرخ من إحدى الشقق المقابلة، قائلا: «القاعدة، القاعدة». فكرت في حينه، قائلا لنفسي: «يا إلهي، لا أصدق ذلك، ألن ينتهي هذا الأمر أبدا؟». نغص ذلك فرحة الوصول إلى منزل غاريث، صديقتنا الودودة، أخيرا، وكان حسين لا يزال معنا.

دخلنا منزل غاريث، قبل أن أتوجه إلى زاوية في الردهة، وأسجد شكرا لله، وقد قرع جرس الباب، بعد وقت قصير، ليدخل والدي برفقة أخويّ، ومكرم، أحد أبناء عمومتي.

جلس والد ريتشارد، وشقيقته جينيت، في الأسفل ينتظرون نزوله، ليتحدث، قبل القيام بذلك، قائلا: «أود القيام بشيء أولا». أخرج منشفة من حقيبته، قبل أن يلفها حول رأسه، على الطريقة العربية، وكان الكثير من الناس يفعلون ذلك في غوانتانامو، وقد افترضت أنه كان ينوي الاحتفاظ بتلك العادة، ولم تبق عائلته طويلا، إذ كانوا قد رتبوا بالفعل للمغادرة إلى مكان ما، وبادلوا عائلتي التحية، بينما كانوا يهمون بالذهاب، قبل أن يودع ريتشارد بيلمر، ومعظّم بيغ ـ المعتقلان السابقان لدى الولايات المتحدة في خليج غوانتانامو، كوبا ـ قبل أن يودعا بعضهما.

كنت قد فكرت كثيرا في لقاء أفراد عائلتي مجددا، دون امتلاك أي فكرة عما سأشعر به في تلك اللحظة، ولم يكن اللقاء، في الواقع، عاطفيا بالمطلق، فلم تتملكني المشاعر، أو أغرق في دموعي، كما لم نكبح أنفسنا في الوقت ذاته، فقد كان حضاريا، راقيا إلى أبعد الحدود. لطالما كنا نستخف بما هو عاطفي من الأمور، وترقرقت الدموع، مع ذلك، في عيني شقيقي الأكبر عظّام، فأشحت بوجهي بعيدا، إذ لم يكن من السهل علي رؤيته في تلك الحال، فلم أره في حياتي يبكي، اللهم إلا عند رحيل والدتنا (أو حين كان والدي يضربه بقسوة، وإن لم يكن ذلك يحتسب)، وقد كنا أطفالا في حينه.

عانقت والدي بادئ الأمر، وكأننا كنا نتجادل البارحة، لا أكثر، حول الدين والسياسة، فقد ناضل بقوة طيلة ثلاث السنوات الماضية، ضد ظلم حكومة الولايات المتحدة، ولا مبالاة نظيرتها البريطانية، كي يرى ابنه عائدا في نهاية المطاف، فلا تبقى الحياة على حالها.

عانقني مكرم، بصورة مفاجئة، قائلا: «أحبك يا أخي معظّم، أحبك كثيراً».

اندفع أخي الأصغر، ضخم الجثة، أسد، نحوي، قبل أن يعانقني، قائلا: «كفانا مجاملات يا أخي، كفانا مجاملات، فإني أشعر بسعادة بالغة لعودتك، وقد افتقدناك جميعا بشدة، ولم تكن الأمور على حالها منذ غيابك».

ران الصمت على الجميع لحظات، فبدت عائلتي، على الأرجح، أكثر ارتياحا مني، ولم أدر ما أقول لأي منهم، وبدا ذلك غريبا للغاية، إذ دعانا أحدهم، فيما بعد، لتناول طعام العشاء، بطريقة آل بيغ الميزة، ليخرج الجميع عن صمتهم، وكان أسد قد كلف بالنزول إلى شوارع لندن، بحثا عما يمكننا تناوله من طعام، وكنا نتهمه على الدوام، بقصد إغاظته، قائلين: إنه كان يستمتع بأداء تلك المهمة، وقد عاد أسد سريعا، مع ما تفوق قيمته ثلاث مئة جنيه من الوجبات السريعة الحلال.

تألفت وجبة العشاء من البيتزا، والكباب، والبطاطا المقلية، والكاري، والدجاج المقلي، والحمص، والسلطات، والمشروبات الباردة، وعصائر الفواكه، والشوكولاتة، والكعك، والمثلجات، وقد مثل ذلك الكثير بالنسبة لي، بعد كل تلك السنين التي أمضيتها في تناول الخضار المسلوق، والشاي البارد في غوانتانامو، وقد كان الجميع يملكون هواتف نقالة، كما كان الحال عليه قبل غيابي، ولحظت، مع ذلك، أن والدي ابتاع أحدها أخيراً، فقد كان يملك اثنين في الواقع، ولم تتوقف هواتفهم عن الرنين، خمسة، أو ستة في الوقت ذاته، فانهمك والدي بالرد على المكالمات، معتذرا عن عدم قدرته على التحدث، نتيجة ما يشعر به من إرهاق.

اتصلت زينب بهاتف شقيقي، وسمعت صوتها الجميل أخيراً، بعد مضي ما يقارب ثلاث السنوات على تلك الليلة الرهيبة في إسلام أباد، فكان حوارنا هادئا، متحضرا، وإن لم نستطع التحدث بحرية كاملة لوجود آخرين بقربي، وقد مثل ذلك مشكلة لم يدركها أفراد عائلتي، بكل ما اتسموا به من حسن نية، وكانت زينب آخر من رأيت قبل مروري بكل تلك الأحداث، فقد كانت هي وأطفالي، الوحيدين الذين لم أتمكن من وداعهم في تلك الليلة، ولم يكونوا، مع ذلك، حاضرين مع البقية هنا، وكنت أتأمل لقاءها، والأطفال، أولا، وشعرت أنها كانت تود ذلك أيضا، إذ أخبرتني أنها ترغب في الحضور، لأرد عليها، قائلا: إن ذلك لا يمثل فكرة صائبة، وهو ما زاد الطين بلة، فكان الوقت يقارب منتصف الليل في

حينه، وقد كان يتعين على أخي، إن أرادت الحضور بالفعل، أن يقود السيارة إلى بيرمنغهام، ليقلها من هناك، قبل أن يكرر الأمر ذاته، في وقت لاحق، بغية إيصالنا إلى بيرمنغهام ثانية، وبدا الاستياء عليها واضحا، ولكنها تقبلت الأمر فحسب، إذ كان شعورها بالحزن أمرا لا يطاق بالنسبة لي، ولكنني لم أرد حضورها حقيقة لما شعرت به من قلق، جراء ما سمعته في الخارج، «القاعدة، القاعدة»، ناهيك عن مطاردة وسائل الإعلام، أو وجود من يتحينون الفرص لإيذائي أنا وعائلتي، وفكرت في الأمر بعض الوقت، إذ لم يكن تركها تنتظر، مع كل ما يسببه ذلك من معاناة، بالأمر الصائب، فقررت إرسال أخي ليقلها هي والأطفال، من بيرمنغهام.

كان بيل، زوج غاريث، لطيفا للغاية، حريصا على اتخاذنا القرار المناسب، وقد حضرت غاريث، بعد مضي وقت قصير، قبل أن نجلس جميعا، ونتحدث، وناقشنا الاحتمالات كافة فيما يتعلق بالتحدث إلى وسائل الإعلام، التي كانت تقض مضجع والدي بالمكالمات الهاتفية، وتحدثت غاريث، بصوتها الهادئ المعتاد، قائلة: إنه لا يجدر بي وضع الخطط في تلك المدة، بل يجدر بي التحلي بأكبر قدر من الهدوء، والعودة إلى حياتي الاعتيادية، ورفضت ذلك بالنظر إلى ما كنت أشعر به من التزام بالتحدث إلى الصحافة، وفضح ما يجري في غوانتانامو، كرمى من بقوا هناك ولم يكن لدى أي منا فكرة واضحة حول كيفية التعامل مع وسائل الإعلام العديدة، التي كانت تنتظر التحدث إلي، وقد عقب والدي ـ الذي أدهشني بما بدا عليه من استعداد للتحدث إلى الصحفيين كافة ـ قائلا: إنه يجدر بي الحصول على أكبر قدر ممكن من المال، لا أكثر، كي أبدأ حياتي مع زينب والأطفال ثانية، وأخبرني أنه تلقى عروضا بأكثر من مئة ألف جنيه من بعض الصحف، ولكن الفكرة لم ترق لأي منا، ووضحت غاريث الفرق بين الطرق التي تتبعها الصحف المختلفة فيما يتعلق بالعروض المادية، والتحدث إلي، فقررت، في نهاية المطاف، إجراء مقابلة مع إحدى الصحف في اليوم الآتي، والتوجه مباشرة، في أعقاب ذلك، إلى البيت.

وصلت زينب أخيراً، مع الأطفال، عند حوالي الثانية صباحا، فعانقتها، ما إن رأيتها، وإن صعب ذلك علي كثيرا أمام الآخرين، فقد كنت آمل أن نمنح بعض الوقت بمفردنا، إذ كان هنالك الكثير مما يتعين علينا التحدث حوله، ولكنني كنت موقنا أن لدينا العمر بأكمله، لنعوض ما فاتنا، بإذن الله، واندفعت باتجاه الأطفال، الذين كانوا شبه نيام، وأخبرتني زينب أنهم بقوا مستيقظين إلى ما بعد منتصف الليل، ينتظرون بفارغ الصبر رؤية والدهم، ليستسلموا للنوم في السيارة، واستيقظوا متعبين، ملؤهم الحماسة مع ذلك، حين خاطبتهم زينب، قائلة: «هيا يا أولاد، استيقظوا، بابا موجود هنا».

حملت كلا منهم على حدة، قبل أن أحملهم معا، كما اعتدت أن أفعل، قائلا: «السلام عليكم».

أجابوني، بأصواتهم البريئة، قائلين: «وعليكم السلام».

لم أكن قد رأيت أي طفل، طيلة ثلاث سنوات، بمعزل عن فلذات أكبادي، وتمثل كل ما أردته في أن يتعرفوا إلي، ويتقربوا مني، ويشعروا بوجودي، كوالد لهم، مجددا، وتبسمت ابنتي الصغرى، نسيبة، دون أن تنظر في وجهي مباشرة.

سألتها، قائلا: «هل تعرفين من أنا؟».

أجابتني، قائلة: «نعم، أنت بابا».

استدرت، فيما بعد، نحو ابني الأكبر، وسألته، قائلا: «هل تذكرني يا عبد الرحمن؟».

أجابني، وهو يغالب النعاس، قائلا: «نعم، أنت بابا».

سألته، قائلا: «وما الذي تذكره عني؟».

أجابني، بعد أن أصبح أكثر يقظة، قائلا: «أذكر حين كنت تقرأ لنا قصص ما قبل النوم، وتأخذنا للسباحة، وحين اختبأنا في سيارتك في أفغانستان، وجهلت وجودنا هناك مدة طويلة، واعتدت كذلك أن تدعوني «القرد الصغير»، لأنني كنت كثير الحركة».

عقبت نسيبة، وهي لا تزال ترفض النظر إلي، قائلة: «لا يزال كذلك».

كانت ابنتي الكبرى، أمامة، التي كنت قريبا منها على الدوام عاطفية للغاية، فقد أجهشت بالبكاء ما إن رأتني، فجلست بقربها، قبل أن أطوقها بذراعي، كما اعتدت أن أفعل في السابق، لنتحدث بعض الوقت فلم تعد الطفلة التي كنت أعرفها قبل ثلاث سنوات، وتساءلت عن الكيفية التي كانت تنظر بها إلي، أنا، والدها، فهل اختلف شعورها تجاهي؟.

رأيت، فيما بعد، ولدي الأصغر للمرة الأولى في حياتي، وكان ذلك غريباً، بالنظر إلى أنه لم يكن يعرف أباه بالمطلق، ولم أكن ذلك الشخص العاطفي في الظاهر، ولكنني كنت أتحرق في داخلي، فقد دارت العديد من الأفكار في ذهني حول هذا الطفل، إذ فكرت، بينما كنت أحمله، قائلا لنفسي: «لن يعرف حتى من أنا، وسينفجر بكاء» ولم أطق مع هذه الفكرة احتمالا، فقبلته، بينما كان لا يزال نائما، قبل أن أعيده إلى زينب التي كانت قد أسمته أيوب، تيمنا بالنبي الصابر، الذي ورد ذكره في القرآن، والعهد القديم، وقد أراد والدي تسميته إبراهيم، ليصبح اسمه إبراهيم أيوب.

حزمت غاريث وزوجها بعض الأمتعة، قبيل مغادرتهما، فشعرت باستياء كبير لإخراجهما من منزلهما، وعلمت، فيما بعد، أنهما توجها إلى أحد الفنادق، وكنت أعلم بالفعل كم كانت غاريث متفردة في إيثار موكليها، والالتزام بقضاياهم، ولكنني شعرت بامتنان كبير، في حينه، لوقوفها إلى جانبنا، كصديقة حقيقية.

أوى شقيقي، ومكرم للنوم في الطابق السفلي في حين بقيت صامتا مدة طويلة، فقد كان والدي يجلس إلى جانبي، وقد بدا التعب عليه واضحا، وكانت لديه مقابلة أخرى في السابعة صباحا، فنهضت عن الكرسي، قبل أن أتنقل في أرجاء المنزل، ونزلت إلى الطابق السفلي، أسير جيئة وذهابا، فقد كنت أعلم أنه يتعين علي التعامل مع الكثير من الناس قريبا، وأخذت أفكر فيما كنت عليه قبل ساعات، ست وثلاثين ربما، جالسا في زنزانة انفرادية، معزولا عن البقية، بينما

أملك الآن كل هذا المتسع للتنقل في أرجائه، وتمثل الأمر الغريب في استرجاع كل ما اعتدت القيام به بشكل روتيني من قبل، في حياتي الاعتيادية ـ بما لا يشمل باغرام، وغوانتانامو بالطبع ـ كل ذلك بلمحة خاطفة. لمحت الكتب كافة، في مكتبة غاريث، بينما كنت أتنقل في الأرجاء. أخذت أتصفحها سريعا. فكرت، فيما بعد، قائلا لنفسي: «لم أعد اجتماعيا كما كنت، لا أعلم ما أشعر به، ولكن هذا ليس بالأمر الصائب».

لهوت مع الأطفال بعض الوقت، قبل أن تأوي بهم زينب إلى الفراش، وكانت أمامة تنتظرني في الأعلى، مندسة في فراشها، كي أتحدث إليها، وأقبلها، متمنيا لها نوما هانئا، كما اعتدت أن أفعل في السابق، ولم أدرك أنها كانت لا تزال مستيقظة، فانخرطت في البكاء، حين صعدت إليها، قائلة: «لم يعد بابا يحبني»، وكانت زينب مستاءة بعض الشيء من مطالبتي لها بالبقاء في بيرمنغهام، وعدم اهتمامي بها بعد قدومها، ففكرت، في حينه، قائلا لنفسي: «هذا كثير للغاية، لا يمكنني تولي الأمر، ما الذي ينتظرونه مني جميعا؟».

غط الجميع في النوم، باستثنائي، وزينب، فتسنى لنا أخيرا البقاء بمفردنا، والتحدث حول كل ما مررنا به، وما فعله كل منا لتدبر أمره، وتحدثنا ساعتين من الزمن، لنقرر الذهاب إلى المنزل، إذ لم أكن أود البقاء في لندن لحظة أخرى، ولم يكن ذلك بالأمر الصائب بالنسبة لي، فقد شعرت بامتنان كبير لكل ما فعلته غاريث من أجلنا، ولكنني كنت بحاجة للذهاب إلى منزلي، والبقاء برفقة أقل عدد ممكن من الناس، واتصلت بشقيقي عظّام، الذي عاد إلى منزله في شمال لندن، وقد أيقظت الجميع، قائلا لهم: إننا سنتوجه إلى منزلنا في بيرمنغهام.

بقي عظّام وأسد برفقتي طيلة الليل، حين عدنا إلى المنزل، فتكفل أسد بحمايتنا، بضعة أيام، والتعامل مع وسائل الإعلام، أو أي جهة أخرى، إذ كنت واثقا من نجاحه في ذلك، فبدا الأمر وكأنني لم أغب إلا بضعة أيام، وكأن ثلاث السنوات الماضية لم تكن إلا وهما، ووصلنا المنزل في الخامسة صباحا، ولم يكن

مسخن الغاز في غرفة المعيشة يعمل، فكانت الغرفة غاية في البرودة، وقد استغرق المسخن المركزي وقتا ليدفئها، وقد عملت على إصلاح المسخن، بعد أن سألت زينب عما يلزم ذلك من عدة، إذ بقي معطلا بالرغم من تفكيك جميع مكوناته، قبل أن تأتي ابنتي أمامة، ذات الأعوام التسعة، وتعيد تثبيت أحد الأسلاك في مكانه الصحيح.

ظن الجميع أنني كنت مختبئا في مكان ما داخل البلاد، فعرضت بعض الصحف تقديم المال لمن يرشد إلى مكاننا من القراء، ومن ثم قام أحد أصدقاء ابن عمي بإرسال تقارير زائفة عن مشاهدتي في أماكن متباعدة.

حضر ابن عمي الآخر، سامي، المحامي الذي لم أره منذ سنوات عدة سبقت اعتقالي، وإن ساعد والدي كثيراً فيما يتعلق بالحملة، فكان يأتي يوميا، ويأخذ الأولاد، مشكورا، إلى السينما، ويحضر الطعام إلى المنزل، ويقوم بغير ذلك من الأمور، وقد وجدت نفسي عاجزا عن التعامل معه، إذ كان من الصعب علي مطالبة الناس بالرحيل، فبدا أنهم لا يدركون رغبتي في عدم بقاء أي منهم بجواري، فقد كنت أرفض فتح الباب أحيانا، حين يحضرون، مع علمي أن ذلك يمكن أن يؤذي مشاعرهم، وكان الجميع يتوقعون أن يحظوا بي، فلم أكن أريد رؤية الناس، بل أريد البقاء مع زوجي وأطفالي فحسب، لذلك لم أكن أود، في بعض الأحيان، الجلوس معهم، وقد كنت أغلق باب غرفتي منعا لدخولهم إليها، وتمنيت، في حينه، لو كنت ناسكا، فأذهب إلى مكان بعيد خلاب بمفردي، أو برفقة زينب، وكنت قد كتبت إليها، حين كنت في غوانتانامو، حول القيام بذلك معا، ولكن تلقيت، بعد مضي بضعة أيام، رسالة من وزارة الداخلية حول سحب التسهيلات الواردة في جواز سفري، وذلك ما يمنعني من السفر بعيدا، ولم أكلف نفسي عناء التفكير في ذلك تاركا إياه لغاريث.

لم يسهل التعامل مع بعض الأمور، كذلك، بالرغم مما اتسمت به من بساطة، فحسبت أنني سأحظى بنوم هنيء - بعد كل تلك السنين التي أمضيتها على الحصيرة الرقيقة، فوق المعدن - ما إن أخلد إلى فراشي الوثير، لأجد نفسي

عاجزاً عن ذلك، وكان الفراش لينا للغاية، فاضطررت إلى جعل المسكينة زينب تنام على الأرض برفقتي، وقد شعرت بقلق كبير فيما يتعلق بإيجاد دوري ضمن هذه العائلة، التي نجحت، على ما يبدو، في تدبر أمورها من دوني طيلة تلك السنوات.

تعين علي التعامل مع ما لم أكن أتوقعه من حزن أيضا، فلم يرد والدي إخباري، حين كنت حبيس زنزانتي الانفرادية، أنه فقد كلا من شقيقه، وشقيقته السنة الماضية، إذ كان يخبرني على الدوام أنهما يصليان من أجلي، ويسألان عن أحوالي، ويتمنيان كل ما فيه صلاحي، وقد مثل ذلك الخبر صدمة حقيقية بالنسبة لي، ناهيك عما شعرت به من حزن، وبكيت حقيقة عند سماعه.

حدثني والدي ساعات عن العائلة، لأكتشف أنها تغيرت كثيراً أثناء غيابي، فقد انتهى ما كان بينه، وبين أقربائه من عداوة قديمة، ليتحابوا ثانية، وحضر العديد من المتخاصمين في السابق إلى منزل والدي، ليعبروا عن تضامنهم الكامل معه، فوجدت عائلتي متماسكة، حين عدت إلى الديار، إذ كان أفرادها يلتقون باستمرار، وهو ما لم يحدث منذ مدة طويلة سبقت اختطافي.

استلزمت بعض الوقت لأقدر التغير الحاصل على والدي، لا مع عائلته فحسب، بل وطريقة تعامله مع العالم الخارجي أيضا، فكان قد احتفظ بقصاصات من جرائد، بل وصحف بأكملها، علاوة على العديد من الوثائق، وأشرطة مصورة عن المؤتمرات، والأحاديث، والبرامج الإخبارية التي شارك بها، وأمضيت يوما كاملا للاطلاع عليها، وقد تبين لي أن الحملة التي أدارها كانت أكبر بكثير مما كنت أتخيل، فشعرت بتأثر بالغ بعد الاطلاع على ما قام به من أجلي، ورؤيته يتحدث عني علانية بكل تلك العاطفة، فمثل ذلك جانبا من شخصيته لم أره طيلة الأعوام السابقة.

بدأت التقاء الناس، شيئا فشيئا، بعد مضي بضعة أيام، إذ حضر صديقي القديم شاكيل لرؤيتي، فتوجهت إلى لندن برفقته، لحضور «معرض الهروب الكبير»، في المتحف الحربي الإمبراطوري، ويعلم الله كم من المرات تخيلت «هروبي الكبير» على حد سواء.

ذهبنا لزيارة غاريث في مكتبها أيضا، ودهشت بحق للكيفية التي استقبلني بها الموظفون هناك، إذ كان بعضهم قد عملوا بجد على العديد من مناحي قضيتي، طيلة ثلاث السنوات الماضية، ولم يكن التزامهم بالدفاع عن حقوق الإنسان، والمضطهدين قانونيا بخاف علي (كثيراً ما شعرت منذ تلك اللحظة أنه كان يجدر بي التخرج في كلية الحقوق، والانضمام إليهم).

شعرت بالحرية والاستقلالية عند قيادة السيارة، بعد كل تلك المدة، ومثلت رؤية زينب تقودها، لأخذ الأطفال إلى المدرسة، أو الذهاب للتسوق، أو زيارة الأهل والأصدقاء مفاجأة سارة بالنسبة لي، فما انفككت أفكر في مدى معاناتها من دوني، وإن أكدت تلقيها العون من الكثيرين: والديها، ووالديّ، وأعز أصدقائها في إيطاليا، وشقيقها، وأصدقاء آخرين، ومن لم تكن تعرفهم من الناس أيضا، فقد حرص بعضهم على أخذ الأطفال للسباحة، أو دروس الكاراتيه، ناهيك عن شراء الألعاب لهم، بينما قام آخرون بإحضار أغراض للمنزل، حين عادت عائلتي خالية الوفاض إلى إنجلترا، بعد إقامتهم شهرا عند شقيق زينب في عُمان. وقام أحدهم، علاوة على ما سبق، بكساء أرضية المنزل مجددا، رافضا تلقي أي مقابل، في حين قام آخر باستبدال المسخن، ناهيك عما قدمه آخرون من مساعدات مالية، ولم يقصر أصدقاؤنا، وفاعلو الخير كذلك ـ في باكستان ـ في مساعدتهم، حتى صعودهم متن الطائرة المتجهة إلى عُمان، فما انفكت زينب، كما أخبرتني، تشكر الله على كل ما تلقته من عون (لكم أن تصدقوا أن وسائل الإعلام عاملتها بلطف أيضا)، وإن عبرت، مع ذلك، عن حزنها على عائلات الآخرين، التي لم تتلق الدعم العائلي والمجتمعي الذي حظيت به.

التقيت، بعد مضي أسبوعين، الطبيب النفسي مكيث، الذي عمل عن قرب مع غاريث (وعدد ممن اعتقلوا خطأ من سجناء سابقين)، وأبدى استعداده للذهاب إلى غوانتانامو برفقة والدي، لرؤيتي، لو قبل الأمريكيون ذلك، فقد كنت مهتما للغاية بسماع قصص بعض ممن عالجهم قبلا، كالسجناء الإيرلنديين الذين عانوا

سنوات طويلة في السجن، بسبب جرم لم يرتكبوه أبدا، فقد كان الرجل متفهما للغاية، مدركا ما كنت أمر به، فشعرت، بادئ الأمر، أنني لم أتعرض لصدمة طويلة الأمد نتيجة المحنة التي أصابتني، لأكتشف فيما بعد أن إعادة التكيف مع المجتمع ـ والحياة العائلية في بعض الأحيان ـ كانت بالأمر العسير حقا، فلم أكن أحب الاختلاط بالناس كثيرا، مفضلا البقاء في عزلة تامة، داخل المنزل، بضعة أيام أحيانا، ووجدت كذلك أنني أعيش حياتين مختلفتين تماما، حياة في المنزل، وحياة المحارب القديم.

لم أرغب ـ بكل الأحوال ـ حقيقة، إلا في رؤية شخص واحد، بأقرب وقت ممكن، وكنت قد قرأت بعض الأمور عن فيروز في الصحف، بما في ذلك تعرضه إلى مشكلات نفسية فيما يتعلق بإعادة التكيف، فضايقني ذلك كثيراً، بالرغم من أنني لم أكن واثقا من صحته، وحصلت على رقم هاتفه من محاميه، قبل أن أتوجه إلى لندن للقياه، ورغبت، علاوة على ذلك، في الالتقاء بمديري الموقع الإلكتروني (كايج بريزنرز دوت كوم) فكانت زينب قد أخبرتني عنه، لأتصفحه يوميا منذ عودتي إلى المنزل، بالنظر إلى ما يحويه من تفاصيل كثيرة عمن عرفتهم عبر الصراخ المتبادل، ليس إلا، في غوانتانامو، أو لمحتهم سريعا في باغرام، وقندهار.

تملكتني الحماسة، حين رأيت فيروز، قائلا: «هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها خارج الزنزانة» وكان يرتدي ملابس عادية، بقدر ما توقعت، وقد توجهنا إلى أحد المطاعم لتناول طعام الغداء، برفقة طارق، أحد مديري الموقع الإلكتروني المذكور أعلاه، فبدا فيروز مرتابا بعض الشيء من أن أناسا ـ عناصر «السي أي ايه» ربما ـ كانوا يلاحقونه، وتحدثت الصحف كثيراً، في حينه، عن عمليات اختطاف مسلمين من قبل «السي آي أيه»، من دول كالسويد، أو إيطاليا، ونقلهم إلى سوريا، ومصر، والأردن كي يعذبوا، ويسجنوا من دون محاكمة. كان فيروز حريصا للغاية فيما يتعلق بمكان جلوسه، رافضا أن يدير ظهره باتجاه باب المطعم، فخاطبني، قائلا: «لا أدري ما خطبك، ألا تدرك أنهم يمكن أن يأتوا لاعتقالنا في أي لحظة؟».

حادثته بعض الوقت، وقد بدا لي كما كان في غوانتانامو تماما، باستثناء ملبسه فأحسست أنه كان مضطربا بعض الشيء، وبحاجة لمن يرشده إلى ما يفعله مستقبلا، سواء أتعلق ذلك بالعمل، أم الدراسة، أم غير ذلك، فلم يكن لديه زوج، أو أطفال، على النقيض مني، ليتولى مسؤوليتهم.

أخبرني أنه يعاني بعض المشكلات فيما يتعلق بأوراقه الثبوتية، بالنظر إلى قيام الأمريكيين بمصادرة بعضها، وعقبت قائلا: إنني أعتزم لقاء غاريث في مكتبها، عند حوالي الخامسة، مقترحا ذهابه برفقتي، وتحدثت، عقب وصولنا، إلى إحدى العاملات هناك، وهي التي كانت تتحدث العربية، ناهيك عن قيامها بالترجمة لبعض معتقلي سجن بلمارش، الذين أخلي سبيلهم للتو، وقد كان أبو قتادة، الشيخ الفلسطيني، أحدهم، فصادفته حين كنت أهم بالخروج، لنتبادل التحية، ونتحدث بعض الوقت حول ما يواجهه المعتقل بلا محاكمة من صعوبات، وطرحت عليه سؤالا أخيرا، قبل مغادرتي، قائلا: «ما رأيك يا شيخ في هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر؟».

أجابني، قائلا: «أنصت يا أخي، فلو كنت علمت أي شيء عنها قبل وقوعها، لبذلت قصارى جهدي لمنعها»*.

احتجت القيام بزيارة أخرى للندن، وذلك لرؤية عائلة صديقي شاكر عامر، السعودي، التي أقامت معنا في المنزل ذاته، أثناء وجودنا في كابول، في العام 2001، وكان شاكر لا يزال معتقلا في المعسكر الخامس، في غوانتانامو، فقد أردت زيارتهم بشدة، وإن كنت أجهل ما أقول لهم، وكنت قد تحدثت بالفعل إلى زوجه عبر الهاتف، لأجدها متعبة بعد تعرضها لوعكة صحية، ما اضطرني للتحدث بالقدر الأكبر طيلة المكالمة، وعرض أحد الأصدقاء إيصالي إلى منزلهم في جنوب لندن، وفكرت، بينما كنت في طريقي إليهم، قائلا لنفسي: «لا يمكنني الدخول إلى منزلهم خالي الوفاض،

---

* يواجه أبو قتادة احتمال تسليمه إلى الأردن، حيث يمكن أن يتعرض للتعذيب، ويلقى عقوبة الإعدام. (المؤلف).

لا بدّ أن أبتاع شيئا ما» ولم يكن صديقي يعرف المنطقة جيداً، ولم نتمكن من إيجاد أي من متاجر الألعاب، فتمثل خياري الوحيد، بناء على ذلك في ابتياع عدد من علب الشوكولاتة.

كنت قد التقيت والد زوج شاكر، وشقيقها، عادل، حين كان شاكر في إنجلترا، فخاطبني عادل، قائلا: «كنت أصلي من أجلكما يوميا».

كان شاكر صديقا مقربا لي، وقد كنا نعرف بعضنا جيداً، فقد فطر قلبي لرؤية عائلته هنا، في لندن، بعد كل ما مرت به من معاناة، ولم أدر بالفعل ما أقول لهم، إذ أجهشت ابنته الكبرى، جهينة، بالبكاء، حين رأتني.

سألت عادل، قائلا: «لم تبكِ، ما خطبها؟».

أجابني، قائلا: «تذكر المرة الأخيرة التي رأتك فيها، حين كنت تنزح عن كابول، بينما كان والدها لا يزال برفقتها».

لم أدرِ ما أقول في حينه، وران الصمت لحظات، قبل أن أبدأ التحدث إليها، وإلى شقيقها، إذ كان جميعهم، بحلول وقت مغادرتي، يتقافزون من حولي، يتصارعون، ويشدون شعري، ناهيك عن إحضار كتبهم المدرسية، وقراءة الشعر، وتلاوة القرآن، وإطلاعي على ما تعلموه في المدرسة، وقد حزنت حقيقة لاضطراري لمغادرتهم، فكانوا يتبادلون الزيارات مع زينب، يتواصلون معها باستمرار.

عجزت عن إيجاد ما أخاطبهم به من كلمات قبيل مغادرتي، ولم أرد منحهم ما هو كاذب من الآمال، أو حرمانهم منها بالمطلق، فقد كان والد زوج شاكر إماما لمسجد مجاور، جديرا بالاحترام للغاية، وقد كنت أود إخباره عن كل ما أعرفه من معلومات عن زوج ابنته، واضطررت لمصارحتهم بأنني لم ألتق شاكراً مطلقا أثناء وجودي هناك، وإن كنت أود إطلاعهم على أمرين حوله، تمثل الأول في مدى تأثر أحد الجنود الأمريكيين به في قندهار، بحيث كاد يعتنق الإسلام، والثاني فيما أخبرني به جندي آخر عن بكائه، حين سمع شاكراً يتحدث عن أغلى ما لديه في الحياة.

كانت عائلته تعلم ما هو عليه بالطبع: صاحب شخصية فذة، متحدث بارع، كبير في مواقفه، عظيم الخلق، مؤثر فيمن حوله، وكنت أحب إغاظته، وقد كانت علاقتنا، على الدوام، تسير على هذا المنوال، وتمثل أكثر ما يثير الحزن ـ وأخفيته عنهم من أخبار ـ فيما علمته عن تردي أحواله في غوانتانامو، بعد أن رأى فيه الأمريكيون تهديدا لهم، بالنظر إلى ما كان يملكه من تأثير في الآخرين، إذ كان يتحدث الإنجليزية، إلى جانب العربية، ولا يخشى في الحق لومة لائم، وقد قيل لي: إن الحراس لقبوه هناك «بالبروفيسور»، ولم يكن شاكر كذلك، ولكنهم كشفوا بوضوح عن عقليتهم، وطريقتهم في التفكير، حين منحوه ذلك اللقب، فكان مثل ذلك السبب وراء احتجازه في المعسكر الخامس، السجن شديد الحراسة.

لم أستطع التوقف عن التفكير في شاكر، وعائلته، إذ كنت أعلم أنني لن أفعل حتى يعود إلى الديار.

لم يغب عن بالي، كذلك، العديد ممن بقوا هناك، مثل جميل البنا، وبشر الراوي من لندن، وهيكس، ومحمد، وسعيد الروسي، وعثمان، ناهيك عن عوائلهم، وما تمر به، فما انفكت تلك الأفكار تراودني مدة طويلة، وتسبب لي الكثير من الألم منذ عودتي.

تملكتني الحيرة مما رأيته فيما بعد، وقد تعرف الناس إلي حين كنت أسير في بيرمنغهام مع الأولاد، أو أذهب إلى المتاجر، وأظهر بطاقة الاعتماد، أو أستقل قطار الأنفاق في لندن، فكان جميعهم يرغبون في مصافحتي، على أقل تقدير، وكان المصلون يعانقونني على الدوام في المسجد، قائلين: إنني كنت ملهما لهم.

ذهبت لحضور اجتماع مهم لمنظمة العفو الدولية، ليقف الحضور في القاعة ترحيبا بي، وقد احتشد الناس، فيما بعد، للتحدث إلي، ومصافحتي، والتعبير عن مشاعرهم تجاهي، دون أن أعرف أيا منهم، فلم يكونوا من المسلمين، أو المطلعين كثيراً على الأمور، وخاطبني أحد الأمريكيين، الذين التقيتهم هناك، قائلا: «أود

الاعتذار منك عما فعله بلدي بحقك، وأشعر بخزي شديد مما يقوم به»، ثم أردف، بعد أن مد يده، قائلا: «وأود مصافحتك كذلك، وأتساءل عما إذا كنت تود مشاركتي كأسا من البيرة؟». فاجأني الرجل بمطلبه، إذ لم أكن قد سمعت شيئا من هذا القبيل منذ مدة طويلة.

أجبته، قائلا: «لا، شكرا لك، فلا أشرب البيرة، أو الكحول، ولكنني أقدر دعوتك».

اعتذر بشدة، بعد أن أدرك خطأه، قائلا: «يا إلهي، لا بد أنك تظنني أمريكيا جاهلا آخر».

عقبت، قائلا: «لا، مطلقا»، وإن كدت أوافقه الرأي، لما أملكه من خبرة فيما يتعلق بذلك، فلطالما احترمت رغبة نشطاء المنظمة في محاربة الظلم، بينما كان بمقدورهم الانصراف إلى حياتهم الخاصة، متجاهلين ما يحدث في فلسطين، أو العراق، أو غوانتانامو، وتمثل ما يدعو للاستغراب في أنهم كانوا مطلعين على قضية ذلك الشخص، معظّم بيغ، متضامنين معه، بالرغم من عدم معرفتهم به شخصيا.

لم تتوقف وسائل الإعلام عن الاتصال بي، طالبة إجراء العديد من المقابلات، لأقرر إجراء واحدة، لا أكثر، داخل بريطانيا، مع جون سنو، من «قناة الأخبار الرابعة» وقد انهالت الطلبات علي من الصحافة، بعد مضي وقت قصير، لإجراء مزيد من المقابلات، فما انفكوا يتصلون بوالدي، ومكتب غاريث، وأصدقائي، وأقاربي، فألقيت، علاوة على ذلك، مع قرب إجراء الانتخابات العامة، عددا من المحاضرات والخطب عبر أنحاء البلاد، وتحدثت أمام حشد من المسلمين في لندن، محاولا تسليط الضوء على معاناة من بقوا في غوانتانامو، فأثار ذلك اهتمام وسائل الإعلام بصورة أكبر، وشعرت بكثير من التأثر والانزعاج، على حد سواء، بعد الاطلاع على قضية بابار أحمد، المسلم البريطاني، الذي كان الأمريكيون يطالبون بتسليمه إليهم، فقد أطلق والده، وزوجه، حملة شجاعة لإطلاق سراحه، وأخبراني أن والدي كان ملهما لهما، بكل ما اتسم به من إصرار، ناهيك عن الحملة المؤثرة التي أطلقها من أجلي.

لم يكن الاهتمام الدولي بقضيتي أقل من نظيره المحلي، أو الوطني، فقد تحدثت إلى برازيليين، وإيرانيين، وباكستانيين، وكنديين، وجنوب أفريقيين، وإيطاليين، وألمان، ناهيك عن محطة «آي بي سي نيوز»، وقناة الجزيرة، وبدأت وسائل الإعلام الاتصال بي مجددا، حين تمخضت الأحداث عن مزيد من قصص الإساءة إلى القرآن، واعترفت الولايات المتحدة أخيراً بمسؤوليتها عن موت معتقلين أفغان في باغرام، ورفضت، في نهاية المطاف، إجراء مزيد من المقابلات، إذ كنت قد عاهدت نفسي، في غوانتانامو، على منح عائلتي الأولوية في كل ما أقوم به.

أحسست، بعد مضي بضعة أشهر، أنني بدأت أستعيد زمام السيطرة على حياتي مجدداً، شاعراً بالسعادة عند القيام بما كان يفرحني في السابق، كاصطحاب العائلة إلى الحديقة، وزيارة والديّ في أيام الجمع، ولعب تنس الريشة، أو كرة القدم مع شقيقي، والتحقت، مع الأطفال، في صفوف لتعليم الجوجيتسو، ناهيك عن البدء في تعليمهم تلاوة القرآن، ومساعدتهم في أداء الفروض المنزلية، وقراءة قصص ما قبل النوم لهم، وقد اصطحبت العائلة، علاوة على ما سبق، في نزهات إلى قلعة ورويك، غابة شيروود، وويست ميدلاندز سفاري بارك، بالإضافة إلى رحلات التخييم في سنودونيا، كما خططت، وعاهدت نفسي على القيام بذلك، حين كنت في الحبس الانفرادي.

حل السابع من شهر تموز/ يوليو، فيما بعد، ووقعت تفجيرات لندن، بعد مضي يومين على بلوغي السابعة والثلاثين، فاتصل شقيقي عظّام، سائلا عما إذا كنت قد شاهدت الأخبار، فقد أدرت جهاز التلفاز لأجد جميع المحطات تنقل الأخبار عن التفجيرات في محطات القطارات، متحدثة عن استهداف حافلة بهجوم إرهابي في الوقت ذاته، وكاد قلبي يسقط بين أضلعي في تلك اللحظة، شاعراً بالذهول، والصدمة لهول تلك الأخبار، فعدت بذاكرتي إلى شهر كانون الأول/ ديسمبر، من عام 2004، حين كنت أستجوب من قبل الأمريكيين، إذ كانوا قد سألوني في حينه باستمرار عما إذا كنت أستطيع مساعدتهم في منع وقوع

أي هجمات في بريطانيا، مقتنعين للغاية بوقوع ما هو وشيك منها هناك، أو يتظاهرون بذلك، فلم أصدقهم في حينه، بالنظر إلى أن ما قاموا به لم يكن يمثل استجوابا حقيقيا، في نظري، بل اختبارا ما، فما الذي كان بمقدوري معرفته بعد ثلاث سنوات من الاعتقال؟. لم أعرف في حياتي أبدا من نفذ أيا من التفجيرات.

تقطعت بي الأنفاس، بينما كنت أتابع تقارير المراسلين المتواصلة، وما يبثونه من صور تظهر مدى فداحة التفجيرات، وتزايد أعداد القتلى، والمصابين، في حين تحاول خدمات الطوارئ، يائسة، تقديم العون، وإحلال النظام في المكان مجددا، إذ كان من الممكن أن يكون أي من أفراد عائلتي، أو أصدقائي في لندن، موجودين على متن تلك القطارات، فأجريت عددا من الاتصالات للتأكد من أن أيا منهم لم يصب بأذى، وهو ما لم يحدث بحمد الله، ودعك من الأهل أو الأصدقاء، فقد كان من الممكن أن أكون بنفسي على متن أحد تلك القطارات، لا سيما وأنني كنت أتردد على لندن كثيراً، في حينه، بغية العمل على إنجاز كتابي.

انخرطت في البكاء، حين رأيت مقابلة مع أحد المصابين، الذين نقلوا إلى مسجد «وايتشابل» فكان من الممكن، بكل بساطة، لهذا الرجل العادي أن يطلق العديد من التصريحات التي تدين الإسلام، أو يرفض، لا أكثر، العون المقدم من قبل المسلمين، مؤثرا على الأرجح في صياغة الرأي العام حول تلك التفجيرات، كغيره من الناجين الآخرين، ولم يبد على الرجل، عوضا عن ذلك، سوى مظاهر الذهول، المشوب بالارتياح، ووددت بالفعل لو أذهب هناك، عارضا مساعدتي الشخصية، ولكنني جهلت ما أفعل في حينه، ناهيك عن عدم قدرتي على مواجهة أحدهم، وهو يصرخ في وجهي، قائلا: «غادر المكان فورا!، لا نطلب العون من الإرهابيين!».

عدت بذاكرتي، بينما كنت أتابع الأخبار، إلى المدة التي أثرت بها هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر في حياتي بشدة، ففكرت في تلك اللحظة، متخوفا مما يمكن أن يحدث من عواقب، قائلا لنفسي: «ستسبب تلك الهجمات من ردود الفعل في بريطانيا ما يغير وجه البلاد بأكملها».

فكرت، علاوة على ما سبق، فيمن بقي في غوانتانامو من مقيمين على الأراضي البريطانية، فمن هو ذا الذي كان مستعداً بعد للاستماع إلى أي من أخبارهم، أو قضية بابار أحمد؟ وتنازعتني كل تلك الأفكار في حينه، قائلا لنفسي: «سيحاول أحدهم الربط بيني، وبين ما جرى، قائلا: (لا تختلف عمن قاموا بتلك الهجمات، ولم يكن الأمريكيون مخطئين في اعتقالك على الإطلاق، فلربما كنت تباركها أيضا)» وكيف سيكون بمقدوري توضيح موقفي ضمن مناخ يسود فيه الإرهاب، مع كل ما ينتج عن ذلك من ردود فعل عاطفية؟ ولم أخطُ خارج البيت ما يقارب اليومين، متسمرا أمام شاشة التلفاز، أتابع الأخبار.

شعرت بغضب واستياء بالغين لوقوع تلك الهجمات، لا بسبب ما أوقعته من قتل فحسب، بل وما ألحقته من ضرر بصورة الإسلام أيضا، في أنحاء العالم كافة، ناهيك عن بريطانيا، فكان من الواضح لي، منذ وقوع الحرب في البوسنة والشيشان، أن بريطانيا تشكل ملاذا آمنا للمسلمين عبر العالم، حيث يمكنهم التعبير عن آرائهم بحرية، وكان بمقدورهم حشد التأييد لقضاياهم ضمن إطار القانون، بل وانتقاد الحكومة البريطانية، لتوجه هذه الهجمات المأساوية، كما مثيلاتها في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، لتوجه ضربة قوية لكل من الحركات الإسلامية البناءة.

تولدت لدي القناعة، حين ذهبت إلى أفغانستان، بأن الطالبان حققوا بعض التقدم فيما يتعلق بتطبيق العدالة الاجتماعية، والشريعة الإسلامية الحق، على النقيض من البلدان الإسلامية الأخرى، وقد أسهمت هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر بقوة في القضاء على تلك الجهود، ولم تأت مثيلاتها في لندن إلا لترسيخ ذلك الواقع.

ما انفكت الصحافة تطلب رأيي فيما حدث، فربما كانت ترغب في عدم إدانتي تلك الهجمات، بحيث تتمكن من إظهاري كأي إرهابي آخر، وهو ما لم يحدث في الحقيقة، فقد أدنتها، على النقيض من ذلك، بأقوى العبارات، محاولا

في الوقت ذاته القيام بتحليلات حول الجهة التي نفذتها، والدوافع الكامنة وراءها، ولم أرد إصدار أي من الأحكام قبل معرفة الوقائع كاملة، راغبا في قيامنا جميعا بتحليل الأسباب التي دفعت إلى تنفيذ تلك الهجمات، إن تبين أن منفذيها كانوا من المسلمين، وقد وافقت جورج غالاوي رأيه الشجاع، حين ربط بينها وبين ما يحدث في العراق، فتعرض الرجل لحملة شرسة بالنتيجة، ولكنه عبر بدقة عما كنت أشعر به، وقد أخبرت الصحافة بذلك، فكانت إجابتي عما دفع المنفذين إلى القيام بتلك الهجمات بسيطة للغاية: الغضب.

وجدت في الكثير من الأحيان، عند متابعة تغطية وسائل الإعلام، أن من أحضرتهم من الناس كانوا يجافون الحقيقة بما يثير الإحباط، وشعرت أنني أعلم الكثير عن بعض مما كانوا يتحدثون عنه، راغبا في تنوير الرأي العام، ولم يكن ذلك بالوقت المناسب لالتزام الصمت، وقد تحدثت إلى وسائل الإعلام بصورة منتظمة، آملا في تسليط مزيد من الضوء على ما كان الناس يجهلونه وكنت، في نهاية المطاف، أحد أكثر من أحسوا بوطأة بعض الاقتراحات المقدمة لمكافحة الإرهاب.

اشتد الجدل حول حرمان الشباب المسلم المغرر به من قبل من لا يقدرون الحياة من متطرفين، حول حرمانهم من حقوقهم المدنية، ولكنني لم أكن أتفق مع ذلك، وقد التقيت عددا من أعضاء "اللينكس" السابقين، خلال جنازة صديقنا سام، بعد بضعة أشهر من عودتي، إذ كان بعضهم بالرغم من استقرار معظمهم، لا يزال يعاشر النساء، ويرتاد الأندية الليلية، ويتعاطى المخدرات، وينخرط فيما هو عبثي من شجارات (اتصل أحدهم، في الواقع، معزيا من سجنه) وكانوا على تماس مباشر مع ثقافة الشارع المحلي المسلم، الذي كان لا يزال ينظر إلى «اللينكس» بكثير من الاحترام، إذ كانت آراؤهم السياسية، مع ذلك، قد تشكلت في أعقاب الحرب على الإرهاب، وما نتج عن ذلك من مناخ يسوده ما يسمى «بالإسلاموفوبيا». كان اثنان منهم، بحلول ذلك الوقت، قد تمسكا بأهداب

الإسلام، بعيداً عن الراديكالية، على النقيض من غالبيتهم، ولم يكن لديهما ما يمتدحان به رجال الدين الثوريين، وإن كره جميعهم بلير، بما لم يكن مستغربا، ناهيك عن بوش.

علمت، مع ذلك، أنه لا يزال يتعين علي التحدث إلى جاليتي، فقد كان لدينا اجتماع محلي حول أحداث السابع من تموز/ يوليو ـ بعد بضعة أيام من وقوعها، لا أكثر ـ لمناقشة ما يمكننا فعله حيالها حفاظا على مكانتنا كمسلمين، وإدانة للعنف، ومنعا لوقوع ما هو أسوأ، وبقيت صامتا معظم الوقت، وإن كنت أعلم ـ ولا فخر ـ أن الحاضرين كانوا ينتظرون اعتلائي المنبر، مجمعين على ضرورة اتخاذي ما هو واضح من مواقف، فلم يريدوا أن أكون محللا لما يجري وحسب، بل صوتا عاليا يعبر عنهم، ويتحدث حقيقة باسمهم.

شعرت بالفعل أن الجالية المسلمة كانت بحاجة إلى أبطال، رجال شجعان يدافعون عن أفرادها جميعا، وكان كل من التقيته تقريبا يقول: إن الوقت قد حان للتحدث إلى الناس، فتعين علي مخاطبة الجالية المسلمة عما يجب علينا فعله فيما بعد، ولكنني أحجمت عن ذلك، بالنظر إلى جهلي به حقيقة، ولم أدر ما يجب علينا القيام به مستقبلا، ولكنني كنت واثقا، على المدى القصير، بأنه لم يكن متمثلا في وضع القنابل في القطارات.

فكرت، قائلا لنفسي: «هل سيفرضون مزيدا من الإجراءات القاسية، كلما حدث شيء ما؟، وإن حدث ذلك بالفعل، فما المدى الذي سيبلغه؟، ما الذي سيكون مستقبلنا عليه في هذه البلاد؟، وماذا لو غير من يؤيدوننا، من غير المسلمين، مواقفهم بسبب كل ما يحصل؟» فما انفكت تلك الأفكار تنازعني.

تأزمت نفسيتي مجددا، ولم أرد الذهاب إلى لندن، أو ركوب أي من القطارات، ففكرت، في حينه، قائلا لنفسي: «لو حدث شيء ما حين أكون هناك، فلربما يظنون أنني وراءه» وتملكني الشك من حيث لا أدري، كما فيروز تماماً.

تلقيت مكالمة من لوسي، عميلة الاستخبارات البريطانية، بعد ثلاثة أيام تقريبا من وقوع التفجيرات، وعلمتُ تماما في حينه بعدم قدرتي على التظاهر، لا أكثر، وكأن تلك الأحداث لا تعنيني في شيء.

خاطبتني، قائلة: «مرحبا، أنا لوسي، لا أعلم إن كنت تذكرني» فكنت أذكرها بالطبع، بالنظر إلى أنني لم أكن أعرف غيرها ممن يحملن الاسم ذاته، فأردفت، قائلة: «ربما كنت تتوقع هذه المكالمة».

عقبت، قائلا: «نعم، منذ وقت طويل، شهر شباط/ فبراير».

أردفت، قائلة: «سمعتك تتحدث في المذياع مرتين عما حدث، وفكرت في إمكانية تحدثك إلينا».

عقبت، قائلا: «نعم، بالتأكيد، فلم تكن المشكلة على الدوام متعلقة بالتحدث إليكم، بل في نظرتكم إلي».

سألتها الحضور إلى منزلي، لترفض، قائلة: إن من الأفضل أن يتم اللقاء في أجواء أكثر تكتما، واتصلت بي لاحقا، لتعلمني بمكان اجتماعنا في مطار بيرمنغهام، فلم أرفض دعوتها، ولكنني كنت قلقا للغاية، وشعرت بما هو أكثر من القلق حقيقة: الارتياب، فهل يجدر بي حقا الذهاب إلى المطار، أو محطة قطارات عند المطار؟ ولم يتمثل قلقي بإعادة احتجازي، أو شيء من هذا القبيل، بقدر ما كان متعلقا بمغادرة منطقتي، ذات الغالبية الآسيوية، عالمي الصغير، حيث كنت أشعر بالأمان.

كنت قد سمعت قصصا عن تعرض السيخ، وغيرهم، لاعتداءات، ولم أكن أرغب حقيقة في الذهاب إلى المطار، والسير هناك، فقد كنت أخشى أن يقول أحدهم، أو يفعل شيئا ما، وشعرت بارتياب شديد في حينه، وذهبت هناك، في نهاية المطاف، دون أن أبرح سيارتي، منتظرا في موقف السيارات، وفكرت، في تلك اللحظة، قائلا لنفسي: «ماذا لو رآني أحدهم جالسا في السيارة، وأبلغ

عني؟» وشعرت بقلق شديد، جاهلا ما يجدر بي فعله، وحاولت قراءة كتاب أحمله في السيارة. عملت قدر جهدي على أن أبدو طبعيا، آملا ألا يعتقد أحدهم أنني كنت أقوم بما يثير الارتياب.

اتصلت لوسي، فيما بعد، قائلة: «صادفنا عائق ما، لن نتمكن من الالتقاء في المطار، فحجزنا غرفة في فندق، ولكن شيئا ما وقع هناك، فهل يمكنك الانتظار بضع دقائق؛ حتى نستوضح الأمر؟».

جلست في السيارة، متسائلا عما إذا كان يجدر بي مغادرتها، والسير في الأرجاء، قبل أن أحزم أمري بالرفض، عاجزا عن إيجاد أي مبرر للقيام بذلك، وقد اتصلت لوسي مجددا، طالبة مني التوجه إلى صالة المغادرين في المطار، واستقلال أحد القطارات.

رأيت بعض الآسيويين، بينما كنت أسير في المطار، ما أشعرني بقليل من الارتياح، ولم يحدث أي شيء في الحقيقة، بل كانت الأمور على ما يرام، فصعدت إلى الطابق العلوي، فيما بعد، قبل أن تستوقفني فتاة صغيرة السن، وتطلب مني تعبئة استمارة ما، وفوجئت للوهلة الأولى، قبل أن أدرك ما كانت تطلبه، لتعود الأمور إلى طبيعتها، وبدأت التحدث إليها، لتدون بياناتي بدورها، فقاطعتها، فيما بعد، قائلا: «إنني مضطر للذهاب حقا، آسف للغاية، تأخرت في الوصول وفق الموعد المحدد، هل يمكنك إرشادي إلى محطة القطارات من فضلك؟» فقد رجتني، قائلة: إنها مضطرة لإنجاز عملها في ذلك اليوم، سائلة عما إذا كان بمقدورنا إكمال الاستمارة على عجل، وبدت مكتئبة للغاية، وقد حزنت لذلك حقيقة، ولكنني كنت مضطرا للذهاب بسرعة.

كنت لا أزال قلقا، حين استقللت القطار، مما يمكن أن يظنه الآخرون، سعيدا لعدم وجود حقيبة معي، واتصلت بلوسي، حين بلغت المحطة الأخيرة، قائلا: «أين أذهب الآن؟».

وجهتني لوسي عبر أحد الممرات الضخمة الخالية، حيث يفترض وجود المئات من الناس في الحالة الاعتيادية، وفكرت، بينما كان قلبي يخفق بشدة، قائلا لنفسي: «لم اختاروا هذا الطريق الخالي، بحيث يمكنني سماع وقع قدميّ أثناء عبوره؟، توجه الكاميرات إلي، يوجه كل شيء إلي، في حال وقوع أمر ما ...». بلغت نهايته أخيراً، لأجد سيارة في انتظاري، وكانت لوسي بداخلها، برفقة أحد السائقين، وأقلتنا إلى أحد الفنادق فيما بعد.

صادفت، ما إن دخلت الفندق، أحد أصدقائي من المسلمين السود، فلم أكن قد رأيته منذ سنوات طويلة، ولكنني كنت أذكره، حين اعتنق الإسلام في المسجد المركزي، واتجه صوبي، قبل أن يحييني بشدة، قائلا: «السلام عليكم يا معظّم، كيف حالك يا أخي؟».

أجبته، قائلا: «الحمد لله، بخير» فأخبرني أنه يعمل هناك.

وقفت لوسي جانبا، تراقبنا، ففكرت، قائلا لنفسي: «ما الذي سيظن أنني أفعله معها؟».

خاطبني فيما بعد قائلا: «حسنا، أرى أنك مشغول».

مضيت برفقتها، شاعرا بشيء من الحرج، قبل أن أخاطبها، قائلا: «أنت من خرج بفكرة عقد اللقاء في أجواء أكثر تكتما».

صعدنا إلى إحدى الغرف، حيث كان زميلها في انتظارنا، وتحدثنا بعض الوقت عما كان عليه آندرو، ومات، وغيرهما من عناصر «الإم آي فايف» وسألاني عما كانت عليه الحال، وما كنت أفعله، منذ عودتي، فمازحت لوسي، قائلا: إنني أنهيت للتو فصلا يتضمن ذكرها، وبدت مفاجأة للغاية، لا يخفى أثر الإطراء عليها، فحذرتها، مع ذلك، من أنه يمكن ألا يروق لها كثيرا.

بدأا، فيما بعد، سؤالي حول التفجيرات، ومن كنت أظن أنه يقف وراءها، ووجهة نظري عموما فيما يتعلق بها.

كظمت غيظي، قائلا: «أمضي معظم وقتي مع عائلتي، وأطفالي، في المنزل، فليس لدى أصدقاء مقربون، فرغم أني أعرف الكثير من الناس، ولكنني لا أختلط بهم، وأمضي بقية الوقت، فيما عدا ذلك، في القدوم إلى لندن، والعمل على كتابي».

ألحا علي حقيقة لمساعدتهما في تحليل الأسباب الكامنة وراء التفجيرات، فأخبرتهما بما كنت أشعر به، من بدا أكثر المستفيدين، في نظري، من تلك الأحداث، وحاولت تحليلها ما أمكنني، وقد تمحورت وجهة نظري في حينه حول فكرة «المستفيد الأكبر» ولم أستبعد أن يهلل اليمين المتطرف، قائلا: «انظروا، ما انفككنا نخبركم أن أولئك الناس يعارضون طريقتنا في العيش، وهاكم الدليل»، ولم تكن الحقائق، مع ذلك، قد تكشفت في حينه، فذكرتهما بتفجير أوكلاهوما في العام 1995، وكيف ألصق بالمسلمين في بادئ الأمر، وتحدثنا ما يقارب الساعة، أو نحو ذلك، فعبرت عن مكنون نفسي، بمنتهى الدقة، قائلا: «أعتقد أن ما قاموا به هو غاية في الخطأ، لا لأنه حدث في بريطانيا، حيث أعيش، فحسب، بل ولأنني لا أؤمن باستهداف المدنيين حيث كانوا، سواء أكان ذلك عبر التفجيرات الانتحارية، أم طائرات «البي 52» لا يميز كلاهما بين من يستهدفان». وأخبرتهما أنني سأحاول معرفة ما أمكنني عن الدوافع الكامنة وراء التفجيرات: «ولكن ذلك لن يكَون من أجلكم، بل بسبب ما قد تلحقه تلك الهجمات بجاليتنا من أضرار فادحة، وهو ما سأحاول منع حدوثه بالتأكيد».

سألتهما، فيما بعد، عن بشر الراوي، الذي كنت قد التقيته في باغرام، قائلا: «ذكرت الصحافة أن بشر كان يساعدكم قبل اعتقاله، وها هو ذا الآن يقبع في غوانتانامو بالرغم من ذلك، فقد شاركتم فيما أوصله إلى هناك، أولستم خجلين من أنفسكم؟» وأردفت، فيما بعد، قائلا: «كنت يا لوسي، وزملاؤك، هناك جميعا، منخرطين بقوة فيما يحدث في غوانتانامو، وباغرام، ويعني ذلك بوضوح أنكم شاركتم في اختطافنا، ومحاولة انتزاع المعلومات منا عبر التعذيب، وكنت قد أخبرت أصدقائي، قبل أن يتم احتجازي، أن يخبروا زميلك أيان أنني كنت مستعداً

للتحدث إليه، وأن بمقدوره القدوم إلى منزلي، في أي وقت كان، واحتساء الشاي الباكستاني، ولكنه لم يملك الجرأة ليفعلها، بل انتظر حتى قام الباكستانيون باختطافي تحت تهديد السلاح، ليحضر بينما كنت مكبل اليدين، مقيداً».

«يمثل هذا حقيقتكم، وتعلمون جميعا ما ارتكبتموه بحقي، وقد قطعت، مع ذلك، كل تلك المسافة للقدوم، والتحدث إليكم، فلا بد أن تخجلوا قليلا من أنفسكم».

اتخذت لوسي موقف المدافع عن نفسه، قائلة: إن ذلك يندرج في إطار السياسة، وإنها عاجزة عن تخيل ما مررت به، وإن لم تكن تتحدث باسم بقية أفراد الجهاز، ولم تعبر عن أسفها لما حدث لي، فشعرتُ أنها كانت تحاول إنقاذ ماء وجهها، دون تقديم أي اعتذار.

أردت أن أعرف ما حدث مع أيان، طالبا منهما تدبير موعد معه، إذ أردت التحدث إليه وجها لوجه، بالنظر إلى أننا أصبحنا سواء في الحرية، وأردت معرفة شعوره إزاء كل ما جرى، ناهيك عن عدم توكيل محام لي، أو مساعدتي في الوصول إلى القنصلية البريطانية، أو طمأنتي على أفراد عائلتي، بريطانيي الجنسية، وأشعر أن الأمور كانت ستختلف كثيراً، على الأرجح، لو كنت أحد البريطانيين البيض المقيمين في باكستان.

طرحت آخر أسئلتي على زميل لوسي، قائلا: «هل تسجل هذا الحديث؟».

ترددت في الإجابة لحظة، قبل أن تنظر جانبا، ثم في عينيّ مباشرة، وترد بالنفي، فلم أصدقها.

لم يختلف عنصرا الاستخبارات البريطانية الداخلية، اللذان التقيتهما في بيرمنغهام عام 2005، عما كان عليه زملاؤهما في جميع المرات السابقة، فقد كانوا يريدون شيئا مني، ولكنهم لم يعرفوا ماهيته، فلم يكن لدي ما أقدمه لهم، أبدا، إذ لم أكن أعرف أعضاء القاعدة، ولم أكن أعرف كيف يخططون لعملياتهم، أو يحصلون على معلوماتهم الاستخبارية، ولم أكن أعرف شيئا عن بنيتهم التنظيمية، وكنت سأكون شخصا مختلفا لو فعلت.

الخاتمة

علمت، في غضون ثلاثة أسابيع، بينما كنت في لندن، أعمل على هذا الكتاب، بحدوث محاولة فاشلة للقيام بتفجيرات أخرى، حين كنت أتابع الأخبار في التلفاز، فقد أعقب ذلك بمدة قصيرة وقوع جريمة القتل المأساوية بحق البرازيلي جان تشارلز دي مينيزيس، وتم اعتقال أحد المفجرين المزعومين خلال أيام، على بعد ما يقارب الميل، لا أكثر، من حيث كنت أسكن في بيرمنغهام، وكان جميع من اعتقلوا، واتهموا من المسلمين.

عرضت مقاطع مصورة، بعد مضي شهرين، تتضمن رسالة المدعو محمد صديق خان الأخيرة، قبل ارتكاب عمله المشؤوم، وتحدث، قائلا: إنه قام بذلك نتيجة ما يحدث في العراق، وأفغانستان، فقد كان مسلما أيضا.

أردت، كما العديد منا، تصديق نظرية المؤامرة: وقوف جهة أخرى وراء تلك الأعمال، ولكنني لم أرد خداع نفسي، وسقط قلبي بين أضلعي مجددا، متخوفا مما يخبئه المستقبل لنا في هذه البلاد.

تجنبت السفر إلى لندن ـ للعمل على إنجاز الكتاب في منزل فيكتوريا ـ ما أمكنني، وقد أحست فيكتوريا بما يتملكني من قلق، فهيأت منزل أحد أصدقائها في الريف، قريبا من بيرمنغهام، كي نعمل فيه معا، وكان ذلك يناسبني تماما، فعاودت رحلاتي المنتظمة عبر القطار، في نهاية المطاف، بمزيد من القلق، فكان من الممكن أن يظنني الناس إرهابيا بسبب مظهري (إن لم أكن أرتدي سترة مناسبة، على سبيل المثال)، أو مشيت بسرعة، أو ببطء، وكنت أخشى أن يتم إطلاق النار علي، أو تفجيري.

عقد، في التاسع عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، ولمدة ثلاثة أيام، مؤتمر لمنظمتي العفو الدولية «أمنستي»، و«ريبريف» ـ منظمة كليف ـ بعنوان: «الكفاح العالمي ضد التعذيب: خليج غوانتانامو، وباغرام، وما وراءهما». واستند المؤتمر إلى فكرة ذكرها كليف في معسكر الصدى، وقد كانت العديد من الشكوك قد اعترتني حول مدى نجاحها، وتساءل كليف في حينه، قائلا: «كيف يمكن لنا أن نتوقع سماح المملكة المتحدة بدخول كل أولئك المعتقلين السابقين في غوانتانامو، وباغرام، في حين لا يزال العديد من المقيمين على الأراضي البريطانية معتقلين؟» وكان ذلك ما حدث على أية الحال.

عقد مؤتمر صحفي في أول أيام المؤتمر، فكانت دعوتي بسيطة في حينه، مستمدة مما قاله والدي: «لا نتوسل طلبا للشفقة، ولا نناشد طلبا للرحمة، بل نطلب العدالة بكل بساطة، وإن ارتكب أحدهم جرما ما، فحاسبوه عبر عملية قضائية شفافة، أما وأن ذلك لن يحدث، بالنظر إلى ما أملكه من خبرة فيما يتعلق بذلك الشأن، فأعيدوهم إلى أحبائهم، وعوضوا عنهم، وأغلقوا معتقل غوانتانامو، وغيره من المعتقلات سيئة الصيت».

قام كل من مانفريد نواك، مقرر الأمم المتحدة الخاص لقضايا التعذيب، وبول هنت، مقررها الخاص حول الحقوق الصحية للإنسان، قام كل منهما، لاحقا في ذلك اليوم، بمقابلة جميع المعتقلين السابقين من حضور المؤتمر، على انفراد، بعد أن منعتهما الولايات المتحدة من مقابلة المحتجزين في معتقل غوانتانامو، الذي كان يوصف بالفعل من قبل منظمة العفو الدولية «بغولاغ* عصرنا الحاضر».

التقيت في تلك الأمسية محامين، ناشطين في مجال حقوق الإنسان، وصحفيين من اليابان حتى الأرجنتين، ومن أوغندا حتى الولايات المتحدة، وكان معتقل غوانتانامو قد استنزف الكثير من أوجه حياتهم، بما يفوقني (عقب إطلاق سراحي) وقابلت طالبة «تعلم كل شيء عني»، بالنظر إلى أنني كنت محور أطروحتها في القانون.

---

* معسكرات الاعتقال السوفييتية السابقة. (المترجم).

حضر المعتقلون البريطانيون السابقون كافة، في اليوم الآتي، وتحدثوا على المسرح، أو عبر الميكرفونات، أو المقابلات التلفزيونية المسجلة، فذكرتنا غاريث جميعا، بادئ ذي بدء، بقرار المحكمة الأمريكية العليا حول قضية «رسول ضد بوش»، الذي أكد ربح رسول لها على الدوام، بالرغم من تأثيره المادي الضئيل فيما يتعلق ببقية المعتقلين، وتحدث شفيق رسول، وآصف إقبال، من تيبتون، فيما بعد، عن محنتهما للمرة الأولى علانية، ناهيك عن مزاعم الاستخبارات الأمريكية حول ظهورهما في تسجيل مصور مع ابن لادن، بينما كانا يعملان، في الواقع، في «شركة كوريز» وهذه الحقيقة التي وفرتها الاستخبارات البريطانية.

أجبت أحد الأشخاص، حين سألني عما أملكه من قدرة على التعبير بمهارة عن مكنون نفسي، قائلا: «حسنا، لم أكن بذلك الخطيب المفوه قبل اعتقالي، فأود، شكر «السي آي أيه»، و«الإم آي فايف»، و«الإف بي آي»، والجيش الأمريكي على ما منحوه إياي من ثقة، وخبرة، بعد خضوعي لما يزيد على ثلاث مئة استجواب، وذلك ما مكنني من تحسين أدائي» فانفجر الحضور ضاحكين.

ردد مارتن موبانغا إحدى أغانيه التي كان يصدح بها في غوانتانامو، لتلتهب أكف الحاضرين بالتصفيق، وترتفع أصواتهم مطالبة بتكرارها، وقد سمعت تلك الأغنية للمرة الأخيرة، حين كنت في قسم بابا، وكنت لا أزال أجهل معاني كلماتها.

كنت قد رأيت إيرات فاكيتوف، الروسي الذي رافقني في الأسر بضعة أسابيع، للمرة الأخيرة كذلك، حين كنت في قندهار، وتعانقنا كما الأصدقاء القدامى، قبل أن نتحدث عن آخر لقاءاتنا في المعتقل، فشعرت بالفرح لرؤيته طليقا، وإن لم أكن أعرفه حق المعرفة، والتقيت رسول، الروسي، كذلك، الذي لم أره من قبل، ليعانقني كما الأخوة، علاوة على محمد صغير، الباكستاني، الذي كان من بين أول من أطلق سراحهم من غوانتانامو، فكان منزله قد دمر نتيجة الزلزال، ليبدأ إيرات حملة جمع تبرعات من أجله.

التقيت عبد الله المالكي، السوري الكندي الذي تعرض للتعذيب في سوريا، بالتواطؤ مع الكنديين، كما زعم بعضهم ، فأخبرته أنني أصبحت على قناعة الآن بأنه (أو صديقه ماهر عرار*) من كان نايثن، محقق الاستخبارات العسكرية الأمريكية، يقصده، حين هددت في باغرام بإرسالي إلى مصر.

خاطبته، قائلا: «كانت معرفة أمثالك، يا عبد الله، من ضمن الأشياء التي ساعدتني في تجاوز محنتي، وعلمت، بالنتيجة، وجود من تعرضوا لما هو أسوأ مما مررت به».

تمثل الأمر الأصعب في الاستماع إلى ما يوجع القلب من خطب، ألقاها أقارب من بقوا في الأسر، فقد التقيت شقيق سامي الحاج، مصور الجزيرة المعتقل في غوانتانامو، فأجمع معظم الحاضرين على أن اعتقاله لم يكن إلا نتيجة لما يكنه الأمريكيون من ضغينة للمحطة، والتقيت، علاوة على ذلك، ربيعة كورناز، والدة مراد كورناز، المعتقل التركي الذي ولد وترعرع في ألمانيا، دون أن يحظى بتمثيل قانوني من قبل أي من حكومتي البلدين، وقد قرعت ربيعة أبواب البيت الأبيض كذلك، برفقة والدي، طلبا للعدالة من أجل ابنها، حين كنت لا أزال في الأسر، فعانقتني وكأنني ولدها، وقابلت ناديا ديزديروفيتش، زوج الحاج بوديلا، أحد الجزائريين البوسنيين الخمسة، الذين خطفوا من قبل «السي آي أيه» خارج المحكمة التي برأتهم من تهم المشاركة في مخطط إرهابي، ليرسلوا فيما بعد إلى غوانتانامو، وكانت قد التقطت صورا لعملية الاختطاف، للتدليل عليها، والتقيت كذلك شقيق أحمد الرشيدي، المغربي المقيم في بريطانيا، ليتحدث بما يمس شغاف القلوب، بعربية بليغة، عن كيفية تحول شقيقه الطاهي إلى «جنرال»، كما كان الأمريكيون يدعونه، والتقيت، على حد سواء، عائلة عمر ديغايس، المعتقل الآتي من برايتون، الذي قتل والده على يد نظام

*مواطن كندي اعتقل من قبل السلطات الأمريكية، قبل أن يرسل إلى سوريا، في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2001، ليرمى في زنزانة «كالقبر»، ويعذب بوحشية، وقد أطلق سراحه في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2003. وأجرت الحكومة الكندية تحقيقا حول دور مسؤوليها في اعتقاله. (المؤلف).

القذافي، وكاد قلبي ينفطر لإخبارهم أنني لم أره إلا عبر صور أبرزها عملاء «الإم آي فايف»، و«السي آي أيه»، حيث كان البؤس باديا على وجهه، ناهيك عن آثار الكدمات.

انخرط الحاضرون في البكاء، حين قرأت فيكتوريا رسالتي السيدة البنا، والدة بشر الراوي، المؤثرتين لأبعد الحدود، علاوة على قيام أطفال جميل البنا باعتلاء خشبة المسرح، وقراءة ما كتبوا إلى والدهم من رسائل.

تمثلت مفاجأتي الكبرى، في نهاية المطاف، بما قامت به زوج شاكر، فكنت أعلم أن والدها سيتحدث أمام الحضور، جاهلا ما إذا كانت ستحذو حذوه، وكانت قد عانت من نوبات اكتئاب شديدة، لتمضي مدة في المستشفى، وقد تحدثت بوضوح تام، وعاطفة صادقة، تمنيت معها لو أمكنني الحلول مكان زوجها في غوانتانامو، كي يتمكن من العودة إلى الوطن.

كنت قد قرأت أن توني بلير كان راضيا للغاية عما يحدث في غوانتانامو، في شهر تموز/ يوليو من عام 2003، ليتحدث، قائلا: إن حكومته حصلت على معلومات قيمة للغاية من المعتقلين هناك، في معرض رده عن سؤال حول ما يجب فعله حيال من تبقى من معتقلين بريطانيين في غوانتانامو، وقد أقر الرجل في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2005، أمام لجنة في مجلس العموم البريطاني، بالتزامن مع آخر أيام المؤتمر، قائلا: «يمثل معتقل غوانتانامو أمرا شاذا، يجب أن يتم إنهاؤه» ولم أكن أكثر سعادة لسماع ذلك من بعض من تحدثت إليهم، للمرة الأولى، من أعضاء مجلس العموم، بعد مضي يومين، إذ كان سجل بلير يتحدث عن نفسه فيما يتعلق بتلك القضية.

لا بد أن أنسب الفضل لحكومته لنجاحها في التفاوض حول عودتي إلى إنجلترا، وإن قامت دول كباكستان، وأفغانستان بفعل الأمر ذاته مع بعض مواطنيها، وتمثل أحد أصعب ما كان يجب علي تقبله من حقائق منذ عودتي، في تواطؤ حكومتي فيما جرى.

ما انفكت الأسئلة ذاتها تدور في ذهني: من زود الأمريكيين بالمعلومات الخاطئة، ومكنهم من اعتقالي في المقام الأول؟، من استغل وضعي إلى أقصى الحدود، خلال كل من فصول محنتي في إسلام أباد، وقندهار، وباغرام، وغوانتانامو؟، من كان حليف الولايات المتحدة الأوثق في حينه، كما الآن؟ وكنت قد قرأت رسائل وزارة الخارجية إلى والدي، بكل ما فيها من تأكيدات على عدم سماح الأمريكيين للمسؤولين البريطانيين بلقاء مواطنيهم المحتجزين في معتقلات أفغانستان، ليتم استجوابي من قبل الاستخبارات البريطانية في تلك المعتقلات، حيث كان يعذب بعضهم، ممن يمرون بأوضاعي ذاتها، حتى الموت.

تمثل ما يدعو للأسف في سلوكهم غير الأخلاقي، وغير القانوني، ناهيك عما اتسموا به من نفاق، فلم يوافقوا على كل ما تعرضنا له من تعذيب، وظروف سيئة فحسب، بل اتخذوا ذلك الموقف بملء إرادتهم، وها هي ذي الدروس المستقاة من محاكمات نورمبرج تظهر للعيان، فلا يمكن أن تكون حاضراً في تلك الأحداث، وتنكر دورك فيها بكل بساطة، إذ يعرف التعذيب ضمن ميثاق الأمم المتحدة بممارسة الدول ضغوطا نفسية أو جسدية شديدة على الأفراد، بغية الحصول على معلومات، ويشكل ذلك الفعل، علاوة على المشاركة فيه، خرقا للقانون الدولي، ويندرج ضمن الأعمال الجنائية اصطلاحا، وتتمثل المفارقة في تأكيد الحكومة على تنافي التعذيب مع نمط العيش البريطاني، بينما لا تجد غضاضة في استخدام ما ينتزع عبره من معلومات، والتعويل على مصداقيتها.

تحدث توني بلير، عقب أحداث السابع من شهر تموز/ يوليو، قائلا: «يتعين علينا عدم السماح للإرهابيين بتغيير طريقة حياتنا»، ولكن ذلك هو ما يحدث بالفعل، ويشكل استخدام القوة للتعامل مع الإرهاب، بطريقة أو بأخرى، ظاهرة جديدة في بريطانيا، بالنظر إلى أن الحرب أيديولوجية في المقام الأول، وقد تمت مضاعفة مدة الاحتجاز بلا تهمة، بالفعل، لتصبح ثمانية وعشرين يوما، بعد أن حاول بلير جعلها تسعين، وتجري خطط إغلاق ما يشتبه به من أماكن عبادة

(المساجد بالأحرى)، على قدم وساق، فقد تم توقيع اتفاقيات جديدة لتبادل المطلوبين مع دول تشرع التعذيب ضمنيا، إن لم يكن صراحة في دساتيرها المكتوبة، وأخيراً وليس آخرا، وهو ما يعد الأخطر على الأرجح: السماح بإرداء المشتبه بهم، وأصلي كي لا تقع تفجيرات أخرى، فتتغير طريقة حياتنا بصورة إضافية.

تمثل أكثر ما تعلمته أهمية من دروس ـ مع كل ما اكتسبته، وطورته منذ اعتقالي، وبعد عودتي في معرفة أن العديد من الناس يدافعون عن العدالة في هذا البلد، وأنهم ليسوا جميعا من المسلمين، فشعرت بالفخر، حين أخبرني الحراس الأمريكيون في غوانتانامو أن مظاهرات بالملايين تخرج في لندن احتجاجا على الحرب، وشعرت بالفخر لحدوث ذلك في شوارع ما أدعوه بلدي، فربما كان ذلك ما عناه باكسمان حقيقة «بعدم الاستخفاف بقدرة الإنجليزي على مناصرة المضطهدين» وإن كان ذلك ما تتمحور القضية حوله، فإنني أود قول الآتي: «أشعر بالفخر لكوني بريطانيا، تماما كما أشعر به لكوني مسلما» ويظل الزمن، على أية حال خير حكم على ذلك.



في الطريق إلى الوطن

كتبها معظّم بيغ، بينما كان في الحبس الانفرادي

بدأت هذه الرحلة بلا حدود،

انتهت بي محتجزا بلا أهداف،

مستلقيا الآن في الزنزانة يقظا،

مع الفرح وابتسامات زائفة:

استنفدت الحرية، مضى الوقت

ملأت الدموع كأس أساي،

بيتي قفص، والقفص حديد،

يظهر بالتالي زيف الواقع

تلاشت الأحلام، ضاعت الآمال،

ليسعد المرء، مع ذلك، بوضعه الجديد!

تتمثل سخريته ـ الاعتقال، وكل شيء:

في البقاء صغيرا للغاية، والوقوف بقامة عملاقة

سنوات من الدموع، وأيام من الكد

لا شيء الآن سوى المخاوف وفساد الطغاة،

ستنفذ أوامرهم بلا شك،

لا سبيل للمرء إلا احتمال هذه المهزلة

تعلمت أن «الصبر فضيلة»،

وكذا الاحتمال،

يساعدني الشعر في ذلك

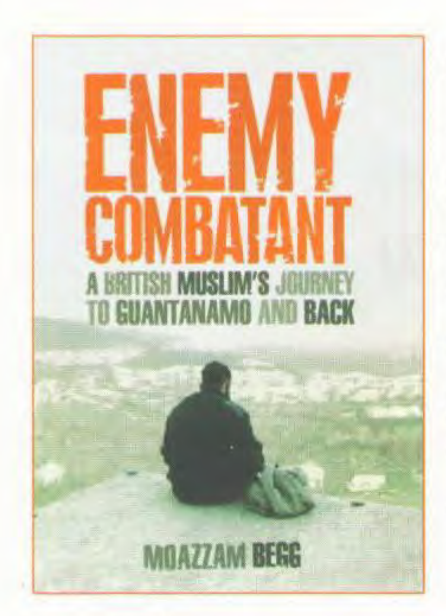
(ربما ينال الاستحسان)

لا أزال أسطر هذه الورقة

جاهلا ـ بينما تبدأ الأحلام

وتنتهي الكوابيس ـ

متى سأعود إلى الوطن والأحبة



اختطف معظّم من منزله في باكستان، حيث التقى عائلته مجدداً، إبان الأسـابيع العصيبـة التـي أعقبت هجمات الحادي عشـر مـن أيلول/ سبتمبر، وما تلا ذلك من قصف أمريكي لأفغانستان، حيث كان يعمل في مجال التعليم، ومشـاريع مائية. اقتيد . بادئ ذي بدء . إلى مركز اعتقال أمريكـي في قندهار، مغطى الرأس، مقيداً، مكبل اليدين، ليتم نقله فيما بعد إلى باغرام، ثم خليج غوانتانامو أخيراً. أمضى ثلاث سنوات في تلك المعتقـلات، حبيـس الزنزانة الانفراديـة مدة طويلة منهـا، ناهيك عن خضوعـه لما يزيد عن ثلاث مئة اسـتجواب، وتعرضـه للتعذيب، وتلقيه تهديدات بالموت، شـاهداً على مقتل اثنين من المعتقلين. أطلق سـراحه أوائل العام 2005، دون الحصول على أي تفسير أو اعتذار.

يروي **(عدو محارب)** قصته المثيرة، ناقلاً إيانا خلف الأسـلاك الشـائكة للمرة الأولى، كاشفاً خبايا العالم المظلم، الغامض، المحكوم بالخوف، المليء بالإحباط، الذي ألقى معظّم في غياهب سجونه، بينما كان يناضل، وصحبه، لوضع حد لاعتقالهم الذي أراده الأمريكيون أبدياً، متهمين إياهم بمعاداة الولايات المتحدة.

يسـلط الكتاب الضوء كذلك بما يثير الدهشـة على عقلية سجانيه، ومن اسـتجوبه من محققي "الإم آي فايف"، و"السي آي إيه"، و"الإف بي آي"، بكل ما اتسمت به أسئلتهم من عبثية، علاوة على الآراء المتنوعة حول (الحرب على الإرهاب)، التي خرج بها معظّم من جدالاته مع الجنود الأمريكيين.

لا يمثـل الكتاب مع ذلك مجرد رواية مؤثرة حول إخفاق العدالة فحسـب، بل يخوض في تفاصيل اعتقال معظّم أيضاً، ملقياً الضوء على خلفيته كمسـلم مثقف، منخرط في السياسـة، يعيش في الغرب، متآخياً مع بقية المسلمين الذين يكافحون الظلم عبر العالم، ناهيك عن بروز دوره ضمن الجالية المسلمة مؤخراً، متصدياً للإرهاب، ومحاولات أبلسـة الإسـلام على حد سـواء. إنه رواية واقعية متفردة حول الإسلام في الغرب في تسعينيات القرن المنصرم. ويصنف بجدارة ضمن أدب الاعتقال الكلاسيكي المعاصر.

معظّم بيغ: ولد وترعرع في بيرمنغهام، حيث يعيش الآن مع عائلته. سافر كثيراً، وعمل في مشاريع إغاثة في البوسنة وأفغانستان خلال السنوات التي سبقت اعتقاله.

فيكتوريا بريتين: شريكته في الكتاب. نائبة محرر الشؤون الأجنبية السابقة في الغارديان. من مؤلفاتها السابقة: (حيوات خفية، ميتات خفية)، و (موت الكرامة).

صورة الغلاف الأمامي: معظّم بيغ خارج مركز توزيع مسـاعدات قافلة الرحمة، أوسـترازاك، البوسنة، 1994 (مجموعة المؤلف).

ISBN:978-9960-54-423-6
9789960544236
ORD:000329-1

موضوع الكتاب: ١- السجون - الولايات المتحدة
٢- السجون والإرهاب

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com